

تاريخ أوروبا الشرقية



Bibliotheca Alexandrina

0091982

تأليف: فلاديمير تيسمانيانو
ترجمة: أمال رواش

نارج اؤزبا الشرقیة

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

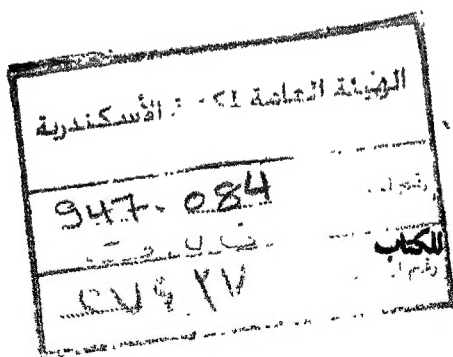
عزت عبد العزيز

الإخراج الفنى

علياء أبو شادى

نارنج أوربا الشرقية

تأليف
فلاديمير تيسمانيانو
ترجمة
أمير رواش



الهيئة العامة
للكتاب
1997

الفهرس

مقدمة ٧

الفصل الأول

الضحايا والخارجون على التاريخ ١٩

الفصل الثاني

من الديمقراطيات الشعبية الى الاشتراكية المتطورة ٦٦

الفصل الثالث

الاشتراكية الحقيقية تحكم أوروبا الشرقية ١٢٣

الفصل الرابع

صعود المجتمع المدني ١٥١

الفصل الخامس

روح المجتمع المدني ١٩٧

الفصل السادس

أصول وديناميات الاحتياج الشرق أوروبا ٢٢٤

الفصل السابع

مخاض الديمقراطية ٣٠٤

مقدمة

« ان الشر جزء من تجربتنا • وقد شهد منه جيلنا ما يكفي لنفهم الرسالة وناخذها على محمل الجد التام »

لتسيك كولاكوفسكى

Lezek Kolakowski

ان هذا الكتاب محاولة لشرح أصول وآليات أحد أهم أحداث هذا القرن وهو سقوط الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية (١) ، وتناول هذا الحدث سيتجاوز مجرد التوصيف التاريخي ، ذلك لأن هذا الكتاب تم والأحداث لا تزال في بدايتها ولم تتكشف للعيان بعد ، ومن ثم أصبح المؤلف كما أسماه ريمون آرون Raymon Aron شاهد عيان عليها .

ان المرء عندما يتناول ظاهرة التوتاليتارية (٢) Totalitarianism لا يستطيع - كما تعلمنا عن البير كامى Albert Camus وهانا آرندت Hannah Arendet ، أو فاتيسلاف هافيل Vaclave Havel - أن يتعامل معها متجردا من مشاعره ، فاذا اعتبرنا المواقب الضخمة التي يقيمها شارشيسكو تعدد دليلا عن استقرار نظامه ، فإذ ذلك يعد بعدا عن الموضوعية ، إذ أن هذه المواقب لم تكن سوى مناورات لتجنب الانزلاق فى الصراعات ، بل لقد كانت نوعا من التدريبات على القيادة العسكرية ومن ثم ، فإن البعد عن الموضوعية لن يفيد ما نطرحه من بحث وتحليل ، بل على العكس قد يفقد البحث مصداقيته .

والشيوعية لا تعد مجرد مجموعة من الأنظمة السياسية أو شكل من الأشكال المتعددة للأنظمة الديكتاتورية التي عاشتها البشرية منذ الأزمان الغابرة وإلى الآن ، بل إنها فريدة فى محاولتها لقولبة العقول البشرى ، بل وفريدة فى مسعاها لاختضاع الشعب لنظام صارم وأجباره على التصرف وفقا لوصفات السعادة البافلويفية (٣) Pavlovian • وبالمقارنة بكتابى السابق « فى رثاء الماركسية فى أوروبا الشرقية » (٤) فقد قصدت هنا أن أكون أقل ذاتية . وقد علمتنى

سنوات الدراسة الأكاديمية في أمريكا أن أنقل الرسالة على نحو أقرب ما يكون إلى الحقائق والظروف الواقعة بالفعل ، وقد وضعت ذلك حداً للعبء النفسى الذى وقع على كما جعلنى أتحرك من مشاعرى الذاتية الى حد كبير ، ومن ثم فأننى أأمل أن يضىء ذلك على كتابى منطقاً وقوة .

وقد استعنت كى أتم هذا الكتاب بالعديد من المصادر الأساسية عن الحركات الديمقراطية الأوروبية الشرقية . وهنا أعتننى الخاص للمركز الصحفى لشرق أوروبا فى لندن **East European Reporter** وكذلك لمركز التحرر الفكرى فى نيويورك **uncaptive Minds** لما بذل من جهد حتى يتمكن القراء الغربيون من متابعة التغيرات التى اجتاحت الاتحاد السوفيتى السابق . وقد ترددت على المنطقة فى تلك الآونة سنة ١٩٨٩ واستطعت مقابلة العديد من الذين لعبوا أدواراً رئيسية فى تلك الأحداث الدراماتيكية التى أخذت فى التفافم . وكذلك ناقشت مع زملائى معظم الفروض التى طرحتها كتفسير للأحداث ، وخلال السنوات الأخيرة أصبحت هذه الفروض موضوعات لحاضراتى فى جامعتى بنسلفانيا وميرلاند (كلية بارك) - وقد شاركنى الطلاب فى محاولة تفسير هذه الأحداث مستخدمين منهجاً علمياً مما جعل تحليلاتهم أقرب ما يكون الى الاعجاز .

ولابد أن اعترف هنا أن معالجتى لهذا الحدث تختلف فى بعض الوجوه عن الاتجاه السائد فى الأعمال التى تناولت الشيوعية بالدراسة والتحليل ، إذ أننى ظلت سنوات طويلة على اقتناع - وأمل أن أكون محقاً - بأن دراسة التكتلات الشيوعية هى فى واقع الأمر مجرد ندفة فى مجال الدراسات الشيوعية المقارنة ، بل إن ما تتم دراسته من تلك التكتلات ربما لا يكون بالضرورة أكثرها مغزى ودلالة . وقد بدا لى أن التركيز على المبادرة الثقافية والاجتماعية التلقائية التى قامت بها الجباهير والتى تعد - بلغة السلطة - النواة الأقل ظهوراً وتأثيراً ، هى الأهم إذا ما رغبتنا فى دراسة وفهم هذه المجتمعات . وأذكر جيداً أننى عندما تناولت المشكلات التى تواجه الشيوعية فى المجتمع المدنى الناشئ فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، فإن أكثر من زميل تشكك فى أهمية ما أقوم به ، إذ كيف يتأتى للنويات المدنية الصغيرة المستقلة أن تؤثر فى واقع سياسى خاضع لسيطرة حكومة مطلقة السلطة مثلما هو الحال فى ظل نظام أريك هونكر ؟

وبالنسبة للمجر ، فان كثيرين اعتقدوا بأن الكادارية Kadarism التي بشرت برؤية مستنيرة لبسالة السلطة المطلقة للدولة (الفاشية) والتي عرفت « باشتراكية النجاس gulash socialism » يمكن أن تصمد لوقت طويل . وفي هذا الصدد كان أنصار مدرسة بودابست Budapest school استثناء . بل ان بعض المنشقين أنفسهم مثل ميكولوس هراتس Miklos Haraszti في كتابه «السجن المخملي The Velvet Prison» وصف الحركات المنشقة على السلطة الشيوعية بأنها نماذج رومانتيكية للسذاجة السياسية .

وما زلت اذكر بوضوح النقد الودى الذى وجهه لى أحد الأساتذة البريطانيين المميزين فى مجال الدراسات الكلاسيكية حول الشيوعية الرومانية اذ سألتى مرة اذا كنت اعتقد حقيقة بأن أفكار المنشقين أمثال ميهائى بوتس Mihai Botez وبول جوما Paul Goma ودان بىترتشيسكو Dan petrescu ودورين تيودوران Dorin Tudoran تستحق هذا الاهتمام الكبير . وهل كنا نتصور فى ظل حكومة شوشيسكو أن يستطيع هؤلاء شيئا أكثر من أن يجسدوا فشل ذلك النظام الذى يعتبر من أكثر الأنظمة السياسية التى عرفت أوربا الشرقية دكتاتورية وجمودا منذ نظام ستالين ؟ ولا ادعى أن تحليلى هو التحليل الوحيد المناسب أو الصحيح . وعلى أية حال فان تكتلات الشيوعيين قد أخلت الساحة الآن لتترك المسرح السياسى فى هذه البلدان لتلك الرموز التى ظلت تناوىء النظام لفترة طويلة . فمن كان يتوقع بأن مكان كادار سوف يأخذه مؤرخ نكرة متخصص فى تاريخ الطب يدعى جوزيف انتال Jozef Antal ؟ من كان يظن أن الحزب الحاكم فى جمهورية المانيا الديمقراطية سوف يتخلى بارادته عن السلطة لمعارضيه من الرسامين والفيزيائيين والقساوسة البروتستانت الذين رفضوا هذه النظم الدموية وتحولوا لحركات تدعو للسلام ومعاداة التسليح ؟ .

ومن كان يتصور أن جاروزلسكى Joruzelski الجنرال الصارم المعروف والذى حكم البلاد بالقوانين العسكرية (٥) فى ديسمبر سنة ١٩٨١ واعتقل النخبة الحداثية من المعارضين البولنديين سيصافح خصمه اللدود ليخ فاوئسا Iechwansa مؤكدا على الانتقال التدريجى للديمقراطية .

أما دور ميخائيل جورباتشوف فى تشجيعه لما يحدث من تغيير ثورى فى البلدان التى سميت — بحق — الامبراطورية الخارجية للاتحاد السوفيتى فيظل هو التحدى الحقيقى لكل الشروح والتفسيرات المتضاربة حول هذا الموضوع .

وقد خلق هذا التبدل الاستراتيجي الذي طرأ على علاقات الحكومة السوفيتية بجيرانها واقعا سياسيا جديدا . وباستثناء البانيا Albania ورومانيا Romania ، وصربيا Serbia ، فإن دول أوروبا الشرقية لم تعد تركض لاهثة وراء بريق البيروقراطيات الحكومية الشيوعية بشكلها التقليدي وبدلا من ذلك بزغت أشكال سياسية جديدة وجدت في المعالجات الفلسفية التي تخص أوروبا الشرقية مصادر الهام لاجساد حلول لقضايا مثل المجتمع أو الحياة العامة والحقوق المدنية . وكان حل حلف وارسو (٦) أثناء قمة براغ يوليو ١٩٩١ يعد بمثابة إعلان لنهاية الحلفاء المحافظين وبداية عهد جديد للعلاقات السوفيتية الشرق أوروبية ، وكذلك للعلاقات التي بين دول أوروبا الشرقية بعضها البعض . واختفى ظل الأخ الأكبر Big Brother وبات لزاما على الدول الصغيرة والمتوسطة في المنطقة أن تتأقلم مع واقعها الجديد .

وبدا أن التهديد السوفيتي بالتدخل لمسحق كل الحركات الديمقراطية المحلية في أوروبا الشرقية قد أصبح مع مرور الوقت عديم القيمة بل لا وجود له . وفي الوقت الحاضر فإن هذه البلدان تواجه ما لا يعد ولا يحصى من النزاعات الداخلية والمآزق التي يتعذر حلها ، وفي بعض هذه البلدان قامت الأقليات العرقية بشجب الاضطهاد الذي تتعرض له على أيدي الغالبية السكانية (٧) .

ففي كوسوفو Kosovo المقاطعة المستقلة في الجمهورية الصربية ييوجسلافيا ، تعاني الغالبية الألبانية من سياسة التمييز العنصري التي تأخذ بها الحكومة الصربية . وفي رومانيا لم تسع الحكومة إلى تأمين الحماية للأقلية المجرية بل شجعت وبقتوة الحركة القومية التي تدعى فاترا رومنياسكا (٨) Vatra Romaneasca .

وما زالت جراح الماضي بكل تلك البلدان تدمى ولم تمدها الديمقراطيات الجديدة التي أخذت في التشكل حديثا إلا بمجرد وصايا ونصائح أخلاقية لا أكثر .

وهذا ليس تقييما مفرطا في التشاؤم ولكنه مجرد وصف موضوعي للموقف .

ولأن النظم الاقتصادية لهذه الدول استمرت في التدهور واستمر تجمع سحب التذمر في الأفق فإن صيحات الندم على الطريقة الأبوية الموروثة للأنظمة الشيوعية بدأت تسمع هنا وهناك . نعم كانت هذه

الدول تعاني من الفقر تحت وطأة الحلم الشيوعي إلا أن البعض كان يقول أنه يكفي أن كل واحد منا لديه وظيفة ، وليست هناك فوضوية في الطبقات الوسطى للمجتمع . وقد حاول بعض الديماجوجيين بما فيهم الشيوعيين السابقين أن يثيروا البلبلة بين الجماهير ، وقد يحاولون ذلك ثانية .

ويبدو أن تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا قد بدءوا بعد عام ١٩٨٦ يخطون بقوة وثبات على طريق المجتمع المفتوح . وفي هذه الدول تعمل البرلمانات بشكل أو بآخر كهيئات شرعية مسئولة . وقد ظهرت خلافات سياسية كبيرة ، كما ظهرت أحزاب متعددة تعبر عن اهتمامات جماعات شتى . وبفضل الخصخصة التي أخذت في الانتشار بسرعة فإن الطبقة الوسطى من التكنوقراط والمقاولين أخذت في التشكل . والآن يقع على النخبة السياسية الملتزمة بالتعددية والسوق الحرة عبء التطوير المنظم لهذا التحول . وبصرف النظر عن احتمال الانتكاس فإن هذه البلدان على الأرجح سوف تلحق — إن أجلا أو عاجلا — بالاندماج الأوربي الغربي بما في ذلك الوحدة الاقتصادية الأوربية ويصعب قول نفس الشيء عن ألبانيا ورومانيا ويوجوسلافيا ، إذ أن كل ما يمكن أن يراه المرء هو التجزؤ والتفتت المستمرين للجسد السياسي وكذلك الصراع اللانهائي ، والأمل مازال ضعيفا في أحزاب اتفاق قومي . وتقف بلغاريا — إلى حد ما — في منتصف الطريق إذ أن قواها الديمقراطية مازالت مبعثرة إلا أن شمس حزبها الشيوعي السابق أخذت في الأفول حيث فقد رغبته في استرداد نفوذه وجماهيريته ، كما يشير التوازن الجديد في المنطقة إلى الفجوة التي ما فتئت تتسع بين دول قلب أوروبا الشرقية وجمهورية ألمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا وبولندا وبلغاريا ، والبقية الأخرى من دول أوروبا الشرقية والتي يمكن أن تؤدي على المدى البعيد إلى عزلة بقية دول « البلقان » عن أوروبا واقتصادها وعلاج هذا هو التعجيل بالتحول الديمقراطي في أوروبا الشرقية وتطوير الحركات الشعبية القوية ، التي يمكن في المقابل أن تساعد في بزوغ أحزاب ديمقراطية قوية ، ومن ناحية أخرى فإن المستنقبل ربما يبرش بأوربتين : واحدة مزدهرة وديمقراطية وغير متعصبة ضد الأقليات السياسية والعرقية أما الأخرى فستكون فقيرة ، خائفة ، يصيبها وباء الشوفينية (٩) والصراعات الأهلية العنصرية ومهددة بأنواع جديدة من الديكتاتوريات .

وعلى الغرب الا يتجاهل هذا الخطر القادم . ولا يمكن لسدول
البلقان - ولا يجب - أن تعزل كمنطقة مريضة أو كمنطقة لا يمكن
القيام فيها بشيء من أجل تسهيل الانتقال الى الديمقراطية . وفي كل
هذه الدول قامت حركات جريئة تؤيد وبقوة الحركات الديمقراطية ،
ويجب أن يشعروا بأن الغرب موطن العزم على مساندتهم وتقديم
كل عون لهم .

ويستخدم هذا الكتاب منهج المقارنة لتحديد أسباب تفكك الأنظمة
الشيوعية في أوروبا الشرقية (البانيا ، بلغاريا ، تشيكوسلوفاكيا ،
المانيا الشرقية ، المجر ، بولندا ، رومانيا ، يوجوسلافيا) ، وما آل
اليه الوضع الراهن من صحوه سياسية سادت هذه المنطقة ، وتوقعات
التطور الديمقراطي في المستقبل المنظور . واعتقد أن القوى الديمقراطية
تستطيع أن تكسب الساحة السياسية عما قريب ، رغم العقبات
الكثيرة التي تقف في طريق التعددية الحقيقية .

وآمل أن يمد كتابي هذا الدارسين لأوروبا الشرقية بقدر مفصل
من التغيرات المذهلة في السنوات القادمة وامدادهم باطار تحليلي
للتحولات السياسية المنظورة . وتعد هذه محاولة رائدة لكتابة واحد
من أكثر فصول التاريخ الحديث فتنة وإثارة وهو سقوط الأنظمة
الشيوعية في الامبراطورية الخارجية للاتحاد السوفيتي وحل
مؤسساتها السياسية والاقتصادية التي كانت تضمن بقاء البنى
الشيوعية ، وكذلك إعادة اكتشاف أنظمة سياسية جديدة في الدول
التي دامت تحت أقدامها الفكرة الخاصة بمنح مواطنيها جميعا مطلق
الحرية ، هذا إذا ما أخذنا في الاعتبار الندرة الملفقة للنظر لمثل هذه
المعالجات الجامعة تاريخيا وسوسيولوجيا وسياسيا . وكان لهذه
التطورات أكثر من مغزى واضح ، إذ اقتضت استدعاء مفاهيم مغايرة
جديدة والبحث عن أفكار ونظريات ستقر الشكل النهائي لمثل هذه
التغيرات ، وسوف تكتسب مصطلحات مثل السلطة ، الشرعية ،
الهيمنة ، القيادة ، القوة ، المجتمع دلالات تختلف عن تلك التي كانت
لها في العقود الماضية .

هل ستتطابق الديمقراطية الشيوعية القادمة مع النماذج الغربية
الخاصة بالتعددية ؟ وما هو الارث الذي خلفته أكثر من أربعة عقود

من اللينينية على العقل الأوربي الشرقى ؟ وكيف يمكن للسياسات الوليدة في أوروبا الشرقية أن تؤثر على بقية أوروبا والعالم ؟ هل سيكون للآزمات المحتملة في المنطقة مضامين ودلالات دولية ؟ ما هو حجم الاستقرار الذى سيتوفر لهذه البلدان اذا ما تلقت هذه السياسات الدعم والمساندة من الغرب ؟ هذه كلها أسئلة سنجهد فى ايجاد اجابات لها .

والفرض الرئيسى الذى يطرحه هذا الكتاب هو ان أسباب الاجتياح الثورى لأوروبا الشرقية ترجع فى المقام الأول لأسباب داخلية. والسبب الأساسى هو تفاقم ونضج المجتمعات المدنية فى بلاد طالت سيطرة الأحزاب اللينينية المستبدة عليها ، فالمجتمع المدنى يشكل الجماعات غير الحكومية المستقلة ، والاتحادات ، والمؤسسات التى قامت فى أوروبا الشرقية فى السنوات الأخيرة خاصة فى عام ١٩٨٠ وهذا يرجع فى المقام الأول لوجود مثل هذه البنى التى أسماها الفيلسوف التشيكى فايتسلاف بندا Vaclave Benda ذات مرة ، الدولة المدنية المتوازنة « تلك البنى التى يمكن أن يثمر اختراقها عن تغير بطيء بعيداً عن العنف ، ولبعض هذه الأحزاب أنشطة سياسية وبعضها الآخر بعيد عن السياسة ، على أنهم جميعاً يمثلون تحدياً ضامناً للطموح الاستبدادى لليد التى تقبض على المجتمع كله وسيبقى مثال واحد بالفرض : نفى النظم السياسية المفرطة فى المركزية تتركز السلطة فى يد الحزب الشيوعى (اذ ان احتكار السلطة مكفول له دستوريا) ، ولا يصبح المجال مفتوحاً أمام المبادرات المستقلة ، لذلك كان قيام المجتمع المدنى الخطوة الأولى للتخلص من هذه السترة الحديدية أى مناهضة نظام الحزب الشيوعى ، وبفضل تلك المعالجة لهذا التغيير السياسى أقرت استراتيجيات لبناء مؤسسات مثل النقابات والاتحادات والجامعات المفتوحة والأندية فى مواجهة مؤسسات الدولة ، أو حتى لبناء ثقافات مضادة لبلدان مثل تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا .

وتساعد مثل هذه الحركات الجديدة لا يمكن أن ينفصل عن المؤثرات الدولية الأخرى ومنها ثورة الاتصالات ، والتدفق المستمر والحر للمعلومات اثر عملية (١٠) هلسنكى Helsinki وتنامى الضغوط من الغرب من أجل ديمقراطية حرة ، وتزايد الترابط بين الجماعات المستقلة فى أوروبا الشرقية بنظيراتها فى أوروبا الغربية [جماعات السلم والبيئة] .

واضافة للحركات التى يصعد نجمها ، فان الانتقال الى ما بعد الشيوعية يتسارع تدريجيا وبوضوح مع الانهيار الواضح للانظمة الاقتصادية المهيمنة . واتاحت ثورة المعلومات الفرصة للشعوب بشرق أوروبا كى يكونوا على دراية بالهوه الشاسعة بين مستويات معيشتهم ومثيلاتها فى النصف الآخر من القارة الأوروبية . ولم تستطع الحكومات بدورها أن تقدم لشعوبها سوى معالجات تجميلية لا أكثر مع مشاركة محدودة لعامة الشعب فى الحكم . وكثيراً ما سافر البيروقراطيون أنفسهم للغرب وهناك يدركون أن القضية ليست مجرد الالتزام باقتصاد مخطط بل القضية هى التخلص من آليات هذا الاقتصاد المقيّد . ولم تكن الرغبة فى التحرر من وهم اللينينية يتفشى بين المحكومين فقط ، بل والحكام أيضاً . وما استتبع ذلك هو تبخر تام للاحماسة الايديولوجية وظهور طبقة ادارية كان شاغلها الوحيد هو البقاء فى السلطة . وساهمت نهاية اسطورة الشيوعية فى سقوط المبدأ الخاص بمسألة الشرعية . ووفقاً للايديولوجيا اللينينية فان الشيوعيين يمثلون مصالح العمال ؛ ولم يعد هذا الزيف قادراً على الحشد والتعبئة خاصة بعد ظهور منظمة نضال Solidarity فى بولندا ، وفى بعض هذه البلدان كان لهؤلاء المصلحين الأغلبية داخل الأحزاب الشيوعية فغفروا برامجها ، وطالبوا بدمج ما هو موجود فى المجتمعات الغربية من مبادئ ديمقراطية . وفى رومانيا أدى انفجار السخط الاجتماعى الى التخلص من حكم شوشيسكو ، الا أن ذلك لم يؤد بالضرورة الى سقوط الشيوعية . ويركز هذا الكتاب على الصراعات الثقافية داخل التكتلات الشيوعية ، وكيفية احكام الائتلافات قبضتها على المجتمع كله . ولأن هذه الأحزاب الشيوعية استمدت شرعيتها — الى حد كبير — من علاقتها الخاصة بموسكو ، فانه من المهم التركيز على أثر دور جورباتشوف ولفت الانتباه الى التفاعل الحادث بين التغير فى الاتحاد السوفيتى والتجديد الديمقراطى فى أوروبا الشرقية .

ويركز الكتاب على خمس اطروحات رئيسية ليست بالجامعة أو الشاملة ، ولكنها على أية حال تعطى فكرة عن الفروض الرئيسية لهذه المعالجة التى تهدف الى تجذب مزالق السرد القصصى أو الوصفى المقالى .

والاطروحة الأولى « الشيوعية فى أوروبا الشرقية » وهى مقال تاريخى فى المقام الأول .

وتبحث فى تنوع التقاليد فى أوروبا الشرقية قبل الشيوعية ونشأة

الأنظمة الشيوعية عقب الحرب العالمية الثانية ، والآلية الخاصة بالكتلة السوفيتية ثم ستالينية نيكيتا خروتشوف Nikita Khrushchev التي أجهضت ، ثم الكوارث الرئيسية فى تاريخ الكتلة الشرقية فى [يوجوسلافيا فى عام ١٩٤٨ ، والمجر ١٩٥١ ، تشيكوسلوفاكيا ١٩٦٨ ، وبولندا فى ١٩٨٠] . كما يتضمن هذا الفصل أيضا ثورة العلاقات السوفيتية / الشرق أوروبية وأثر الانتقال السوفيتى من مرحلة برجنيف التى اتسمت « بالجمود » الى بروترويك / جورباتشوف ، و « التفكير الجديد » بصدد العلاقات الدولية .

وهنا كانت المحاولة لتبصير القارئ بالنقاط التى لها دلالة ومغزى فى تاريخ أوروبا الشرقية فيما بعد الحرب العالمية الثانية .

الأسطورة الثانية « المجتمع المدنى الصاعد » تمدنا برؤية مقارنة للاستراتيجيات والسبل التى انتهجتها الحركات المستقلة [تضامن بولندا ، ميثاق ٧٧ التشيكى اليوجوسلافى ، المعارضة الديمقراطية المجرية] وكذلك يمدنا بتحليل كيفية ظهور هذه الجماعات فى ظروف قمعية سادت الفترة التى تلت النظام الستالينى السلطوى .

كما سيتم مناقشة برامج مستنيرة ووثائق سياسية أخرى لتساعد فى تحديد الخيارات النظرية والمحتملة لقوى المعارضة . وللهولمة الأولى سيكون من المستحيل بالنسبة للدارسين لأوروبا الشرقية أن يفهموا أصول وتوجهات حركات التغيير الجارية دون الرجوع الى مقال فيسلاف هافيل المدوى « قوة المثقورين » . ومع ذلك فإن الثورة فى أوروبا الشرقية أظهرت ما للمثقورين من مقدرة على التغيير والخلق وشارك الحدث فى جعل العقول الناقدة أمثال هافيل ويانوس كيس Janos Kis وجيورج كونرد Gyorg Konard ، وميلوفان جيلاس (١١) Leszek Kolakowski وليتسك كولاكفسكى Milovain Djilas وآدام متشكنك Adam Michnik تعمل وتبدع .

والأسطورة الثالثة « انتصار المثقورين » ، تتعرض لآليات الثورة فى أوروبا الشرقية اثناء الاجتياح الثورى سنة ١٩٨٩ وتشرح التفاصيل الواقعية والملموسة التى تفسر أسباب انهيار وانقسام الأنظمة الشيوعية . ونجد فى الأحداث التاريخية الخاصة بكل دولة والخاصة بالمنطقة ككل أهمية كبرى فى فهم وتفسير هذه التغيرات . كما يركز هذا المقال على انتصار منظمة تضامن فى الانتخابات ، وتكوين أول حكومة غير شيوعية فى تاريخ أوروبا بعد معاهدة يالطا (١٢) ،

ونهاية الأوهام الاصلاحية المعتدلة وانتقال المجر الى التعددية ، والأبعاد الدولية والمحلية لكل من « الثورة المعتدلة » بالمانيا الشرقية و « الثورة الناعمة » فى تشيكوسلوفاكيا وانتصار المنبر المدني Civic forum وصحوة بلغاريا والاطاحة بالديكتاتور تيودور جيفكوف Todor zhivkov والثورة الضالطة برومانيا - وجبهة الخلاص الوطنى National Salvation Front كرمز جديد للحزب الشيوعى ، وانهاى كل أثر لتيقوى يوجوسلافيا وذلك فى تفاقم الصراعات العرقية وظهور الأحزاب والمركبات المنشقة الجديدة .

والأطروحة الرابعة « مخاض الديمقراطية » تناقش فرص الديمقراطية ببلدان أوروبا الشرقية . ومرة أخرى فان المعالجة من طريق المقارنة تمد القارئ بدراسة عميقة للأيديولوجيات السياسية وظهور الأحزاب الجديدة بالمنطقة ، وهنا فنناقش العقبات الجديدة فى طريق التطور الديمقراطى بما فى ذلك جمود البيروقراطية الحكومية والحلول التى تطرحها السلطة الجديدة ووجود الطموحات الشعبية ، وانبعاث المشاعر العرقية التى طال تجاهلها . وقد عبر كينيث جوت Kenneth Jauitt عن ذلك قائلا بأن المستقبل بأوروبا الشرقية ليس للأحزاب الديمقراطية المعتدلة ولا الأحزاب الديمقراطية الحرة ، بل من المحتمل أن تمر المنطقة بتجربة قلائل واضطرابات غير مسبقة يكمن وراءها « حركات الغضب » الأصولية الحديثة التى تمت وتأصلت فى جو من اليأس السياسى والاحباطات الاقتصادية .

والأطروحة الخامسة « ديمقراطية أم عرقية ؟ » تبحث فى أسباب تزايد التوتر بين الأحزاب المستقلة والتى تتخذ موقفا معاديا للغرب ومعاديا للحركات العرقية المتشددة والتجمعات الديمقراطية والأحزاب ذات التوجه الليبرالى . وأود أن أؤكد مرة أخرى اقتناعى بأن مستقبل أوروبا الشرقية ليس بمستعص على الفهم وأن سقوط الشيوعية فتح أبوابا عديدة جديدة للأمم التى طال خداعها والاحتيال عليها ، وعلى أية حال ، هأنذا لا نستطيع أن نتجاهل التغيرات التى تحدث على نحو دراماتيكي فى البلدان التى سلب منها قوتها وخبراتها وما لهذه التغيرات من أثر معنوى على الجماهير الجريحة . ووفقا لما أسماه رالف دورين Ralph Dohren وداع الدموع التاريخى فانها لم تكن تجربة مبهجة تلك التى تكشف المأساة الواقعة فى العديد من البلدان فى المنطقة وذلك مع التقدم البطيء فى عمليتى الاصلاح الاقتصادى والاجتماعى وبدلا من الانتعاشة الاقتصادية المتوقعة فقد طلب من شعوب تلك

البلدان أن يشدوا الحزام على بطونهم أكثر مما سبق . وهذا بدوره خلق فرصا لانتشار الاشاعات ، والدجل ، والتنبؤات الكاذبة بين الجماهير .

وأود أخيرا أن اعبر عن شكري وامتناني التام لكل هؤلاء الذين قدموا لي يد العون كي يخرج هذا الكتاب الى النور .

فلاديمير تسمانيانو

Vladimir Tismaneanu

واشنطن

١٨ يوليو ١٩٩١

التهوامشي

(١) أوروبا الشرقية :

تضم بلدان ألمانيا الشرقية والمجر ويوجوسلافيا ورومانيا وبلغاريا وفنلندا وتشيكوسلوفاكيا وأطلق عليها « الشرقية » تميزا لها عن أوروبا الغربية الرأسمالية (المترجمة) .

(٢) تعنى التوتاليتارية الشمولية وهى عقيدة سياسية تقضى بأن المواطن لا بد أن يكون خاضعا تماما لسلطة الدولة المطلقة (المترجمة) .

(٣) الميافلوفية :

ترجع هذه التسمية الى الفسيولوجى الروسى ايفان بتروفيتش بافلوف (١٨٤٦ - ١٩٣٦) وتشير هنا الى نظرية الارتباط الترطى التى تقول انه اذا ارتبط مؤثران مختلفان بفعل واحد ، فان وقوع احدهما كفيل باحداث هذا الفعل حتى وان لم يكن المؤثر الاصلى - (المترجمة) .

On the fate of Marxism in Eastern Europe (Published by Routledge in 1988). (٤)

(٥) قانون عسكرى يطبق على أرض محتلة من قبل القوى العسكرية التى تطلبها الحكومة فى حالة الطوارئ اذا ما فشل القانون المدنى فى الحفاظ على الأمن والنظام وقد أقره ياروزلسكى للسيطرة على المعارضين فى بولندا - (المترجمة) .

(٦) حلف وارسو :

هو تكتل سياسى اقتصادى بقيادة الاتحاد السوفيتى ، ويضم كل دول أوروبا الشرقية الشيوعية - (المترجمة) .

(٧) الديمغرافية : هى علم دراسة السكان وله ثلاثة فروع رئيسية وهى الديمغرافيه الكمية - الديمغرافية الاقتصادية والاجتماعية - دراسة القوانين الديمغرافية - (المترجمة) .

(٨) اترارومنيشكا وتعنى الموقد الرومانى .

(٩) الشيوفينية : تعنى الافراط فى الوطنية وترجع هذه التسمية الى بيكولاشيرمين Nicola Shavin (فرنسى الذى عرف بوطنيته المفرطة وانتمائه الشديد للنازيين (المترجمة) .

(١٠) عملية هلسنكى :

هى المؤتمر الأوروبى للأمن والتعاون الذى أعلن ميثاقا شهيرا صدر فى باريس عام ١٩٩٠ وفيه أعلنت نهاية الحرب الباردة بين القوتين العظميين أمريكا والاتحاد السوفيتى - (المترجمة) .

(١١) جيلاسى ييلوفان

سياسى ومناضل شيوعى ماركسى ومن أبرز المفكرين السياسيين فى يوجوسلافيا - (المترجمة) .

(١٢) معاهدة يالطا (فبراير ١٩٤٥)

تم بموجبها تقسيم المانيا الى ثلاثة أجزاء ، جزء لأمريكا ، وجزء لبريطانيا والثالث لروسيا . وبموجب هذه المعاهدة تدعى فرنسا الى الاشراف على منطقة رابعة (المترجمة) .

الفصل الأول

الضحايا والخارجون على التاريخ أوروبا الشرقية قبل الشيوعية

« ان دول أوروبا الشرقية كمائلة مكونة من قوميات صغيرة لها رؤيتها الخاصة عن العالم تلك الرؤية التي تركز على ارتياح عميق في التاريخ . التاريخ الذي كان معبود هيجل وماركس والذي يجسد العقل والمنطق ، ذلك التاريخ هو الذي يحكمنا ويتحكم في مصائرنا ، انه تاريخ الفاتحين ، ولكن شعوب دول قلب أوروبا ليسوا بفاتحين . وهم لا يستطيعون أن ينفصلوا عن تاريخ أوروبا أو أن يخرجوا عليه ولكنهم يمثلون الجانب الجائر من التاريخ . أنهم ضحايا والخارجون عليه » .

ميلان كنديرا

Milan Kundera

ان الاجتياح الثوري عام ١٩٨٩ الذي أدى الى انهيار الأنظمة الشيوعية المنيع بعد واحداً من أهم الأحداث التي شكلت العالم الجديد ، فقد قامت على نحو مفاجيء الانفجارات الاجتماعية والسياسية في المنطقة ، تلك الانفجارات التي أثبتت عدم استقرار الأوضاع الشيوعية التي طالت سيطرتها على المنطقة . ويعد التحطيم المذهل لسور برلين والذي يعد الرمز الوحيد والأكثر جلاء لعملية الفصل بين الشرق والغرب هو الذي ساهم في هذا التغير الدراماتيكي لأوروبا السياسية والجغرافية . ونحن لا نبالغ في مغزى هذا الاجتياح ، اذ تبين هذه الأحداث تغير وجه أوروبا . ان تحرر الطاقات الاجتماعية والسياسية بأوروبا الشرقية من أغلالها ، وكذلك اندلاع نيران التعصب العرقي التي طال تجاهلها وانكارها هي ما بهم كل المعنيين ببناء نظام دولي يسوده السلام والرخاء . واذا نجحت هذه الأمم في الانتقال الى اقتصاد السوق ونظام التعددية السياسية ، فان ذلك سيكون هو الفائدة المحبذة التي ستعود على العالم من مثل هذا التطهر . واذا لم يحدث فان صراعات من نوع آخر ستبطل برأسها في المنطقة التي سبدها القوت

عبر تاريخها الطويل ، بل ان اوروبا الشرقية ومستقبل القارة سوف يصبحان
 نهيب الصراعات ، والتوترات ، والنزاعات ، ولابد أن نذكر هنا أن هريين
 عايتين قد اندلعتا من هذه المنطقة ، ولم تستطع الشيوعية خلال
 أربعة عقود من الاشتراكية ان تزيل ما خلفته هذه الصراعات من آثار
 على المنطقة بل على العكس فان هذه الصراعات استمرت في الوجود
 تحت القشرة الخارجية الزائفة التي خلقتها آلة الدعاية الماركسية
 اللينينية . أما الدولية البروليتارية (١) والمجتمع الاشتراكي ، فهي أشياء
 لم يكن لها وجود الا في عقول الشيوعيين الدكتاتوريين فقط . وحقيقة ،
 ان الماضي بتقاليده وذاكراته مازال يثير كلا من الجهود الفردية والجماعية
 للتخلص من الانظمة النوناليتارية . ويفيد التمييز بين دول مركز أوروبا
 الشرقية وباقي دولها المحيطة في توضيح مستويات المعارضة التي
 واجهتها الشيوعية . فبلدان مركز أوروبا الشرقية هي تشيكوسلوفاكيا ،
 المجر ، بولندا ، وجمهورية ألمانيا الديمقراطية ، أما باقي دولها فهي
 البانيا ، وبلغاريا ورومانيا ويوجوسلافيا وبعيننا تاريخ هذه الدول بما
 فيه من عادات دينية وسياسية على فهم آلياتها المختلفة سواء وهي
 نخضع للحكم الشيوعي أو في وضعها الراهن ، ولا يمكن للشهيرة
 أن تمحو أثر التمايزات التي تعمقت في بلدان تختلف عن بعضها البعض
 في تطورها السياسي والاقتصادي والثقافي . وترجع هذه التمايزات
 الى ان بعض هذه البلدان تنتمي الى هابسبورج (٢) Habsburg
 — الامبراطورية الألمانية — والبعض الآخر يخضع لهيمنة الدولة
 العثمانية (٣) وروسيا ، أما الجزء البلقاني (٤) فان التطورات السياسية
 التي وقعت فيه خلال القرن العشرين جاءت قاصرة ومتأخرة . وقد
 أقيمت في مركز أوروبا الشرقية مؤسسات تم انشاؤها وفقا للمفهوم
 الشرق أوروبي للقانون ومفهوم الحقوق الفردية . وقد كانت مجتمعات
 شمال أوروبا الشرقية متخلفة وهشة تماما ، ولم تكن للتعددية أسس
 راسخة اذ كانت تمنى من القلاقل كما كانت عرضة للتمردات
 والانتهاكات الدكتاتورية ، ويعد التاريخ أداة لا غنى عنها لفهم أبعاد
 العقبات التي تقف في طريق البحث الجارى من أجل إعادة بناء هذه
 المنطقة من أوروبا على أساس ديمقراطي . وتعد كل البلدان في هذه
 المنطقة بمثابة بنى حكومية جديدة كما تعد نتاجا لصحوات قومية عظيمة
 تميز بها القرن العشرون . وجميعهم يدينون بشكلهم الحالي للترتيبات
 الدولية التي نلت تحولين هائلين في هذا القرن . وفي نفس الوقت فان
 مصطلح « أوروبا الشرقية » بمعناها المطلق سيبدو لبلدان هذا الجزء
 من القارة كما لو كان نوعا من التعصب . وقد ردت ثورات ١٩٨٩

من بين عوامل ومؤثرات أخرى — الهويات الأوربية لهذه الأمم من جديد . وعندما لجأ الناس في براغ لبيتزج وتيمشوارا 'Tuniswara' وصوفيا Sofia الى الشوارع للاعراب عن احتجاجهم ، فقد فعلوا ذلك ليس لأسباب اقتصادية فقط بل ربما كانت هناك أسباب أكثر أهمية من مجرد أزمة الاقتصاد الاشتراكي منها الاستياء العام ، وانحسار عالم السياسة والاقتصاد داخل ديكتاتوريات بيروقراطية خنقت الناس وسببت لهم التعاسة والاحباط . وكان واضحا ان ما حدث عقب الحركة النشطة في الشهور التي سبقت الثورة هو عودة للمشاكل القديمة مثل احتجاج الكرواتيين على سيطرة دولة الصرب عليهم . وشجب الصرب للحركة الانفصالية التي يقوم بها الكروات والسلوفانيون والاضطهاد العرقي للمجسريين في رومانيا وشجب انتهاك حقوقهم كاتليات ، وكذلك الاضهاد العرقي للأتراك في بلغاريا والقاء المسئولية على المطالبين بدولة بلغاريا تقتصر على البلغاريين ، وكذا سخيرية السلوفاك من الرئيس فدرسلاف هافيل كبطل يرمز للتفوق التشيكي ، وشجب التشيكيين لقومية السلاف الانفصالية ، وبدت الديمقراطية في هذه البلدان نمودجا مثاليا بالنسبة لما هو حادث في الواقع . ونسببت الأحزاب الشيوعية السابقة في أوربا الشرقية في احياء الشرارة الثورية الأولى ، أما في قلب أوربا الشرقية فلم يقوموا بتغيير الأسماء فقط بل والعادات أيضا وبدا أنهم ينقلون الى قيم الديمقراطية الاجتماعية . وحدث انقسام داخل المنطقة بين البلدان التي تحطم فيها النظام الشيوعي تماما وبين هؤلاء الذين وقفوا في مكان ما في منتصف الطريق مثل حالة رومانيا ، وصربيا وبلغاريا . وباستثناء تشيكوسلوفاكيا فإنه لم يكن لدى أي من تلك البلدان تراث ديمقراطي ، وفي نفس الوقت لا يجب أن ننسى أن التغيرات الجارية كانت ضد فكرة الوحدة الأوربية وأن ثمن التورط في أشكال جديدة من السياسات السلطوية تسبب في عزلة دولية وفي ارتكاب جريمة في حق الدول التي مازالت تقع تحت خط الفقر والتي شهدت نهاية الشيوعية ، والمنافسة بين الاتجاهين — الطموح العرقي في مواجهة الطموح الديمقراطي — هم أهم التطورات التي حدثت أمام هزيمة الشيوعية . وفي كلمات الصحفي البولندي آدم متشسك الذي يتبنى مبدأ استخدام القوة لتحقيق الأغراض السياسية حيث يقول :

« الى جانب الصدام القائم بين اختلاف الرؤى الثقافية واختلاف المفاهيم الحضارية تبرز مشكلات ملموسة تطرح العديد من الأسئلة ، مثل : ما هي الطريقة المثلى التي يجب أن تدار بها دفعة السياسات ؟

بالطرق الثورية دون اللجوء الى العنف ام باتباع منطق الاجتياح الثورى والتطهير ؟ . ايجب أن تكون المجتمعات مفتوحة أم بالعكس يجب أن تكون مغلقة داخل نظم محددة خاصة بها ؟ ايجب على الأنظمة السياسية أن تبقى على كل الآليات التى تعتمد على الديمقراطية أم على الحفاضة على مبدأ الانتقام من ممثلى النظام السابق ؟ وبمعنى آخر هل يجب أن يتخذ الطريق الذى اتخذه اسبانيا بعد أن تخلصت من حكم فرانكو Franco أم الطريق الذى اتخذه ايران حال تخلصها من الديكتاتور شاه الى آيات الله ؟ (٥) .

ولأن دول شرق أوروبا لعبت أدوارا مهمة على الساحة الدولية فان مستقبلها غير مؤكد ومشكوك فيه ، وسيدافع المتفائلون عن أن الخيار الوحيد لهذه الدول هو الديمقراطية . بينما يرى المتشائمون : أن الخيارات المنطقية فادرة في التاريخ وأن التقاليد السياسية والثقافية وكذلك الأساطير الثابتة يمكن أن تؤدي الى بزوغ أنظمة سلطوية جديدة تعتمد على ما يحدث من مأس واضطرابات جماعية . الشئ الوحيد المؤكد هو أن الثورة التى قامت ضد التوتاليتارية عام ١٩٨٩ فتحت العديد من السبل والأبواب وسيظل السؤال « هل ستصبح هذه الدول ديمقراطية أم عرقبة ؟ » دون جواب .

ان احتلال المانيا لمبولندا أدى الى اندلاع حرب طريفة بين دول المحور (المانيا واطاليا واليابان) ودول الحلفاء (بريطانيا العظمى ، فرنسا ثم الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية بعد عام ١٩٤١) . وتركت الحرب العالمية الثانية كل أوروبا فى دمار شامل سياسيا واقتصاديا مما خلق بيئة مناسبة تماما لتوسعات ستالين السريعة التى انطلقت من الاتحاد السوفيتى . ومما ساعد على انتشار الشيوعية عبر النصف الشرقى من أوروبا الخوف والفرع الذى أصاب صانعى السياسات والمواطنين فى أوروبا الشرقية وهو ما ساعد أيضا على التعجيل بنشوب الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى . وأدت الحرب الباردة بدورها الى تكاثر وتزايد وتطوير الأسلحة النووية على المستوى العالمى ، كما أدت الى ظهور المكارثية (٦) فى الولايات المتحدة الامريكية والتى كانت أحد توابع تلك الحرب .

وبناء عليه ، فإن قهم أوروبا الشرقية يرتبط بفهم الأمن العالمى وقضايا الأيديولوجيا القومية . وما يحدث لدول أوروبا الشرقية يذكرنا بأحدى الحوادث التى كانت تروى لأطفالنا . تقول القصة : « ان مسمارا

سقط من حدوده حصان ، فانخلعت الحدود وكبها الحصان فسقط راكبه الذى كان يحمل رسالة مهمة الى أحد القواد فهزم القائد لأنه لم ينلق الرسالة ، وخسرت المعركة بسبب مسمار صغير . ولخمسین عاما تقدم العالم رويداً دون مشاركة كاملة من جانب دول أوروبا الشرقية وإن استقرت أوضاعها فى ظل الأنظمة الشيوعية المتحالفة مع موسكو ، وكان من السهل آنذاك تبين الخط الذى تسير فيه سياساتها ، ولكن انهيار تلك النظم ترك صانعى السياسات ورجال الأعمال والمواطنين العاديين فى شتى أرجاء العالم يبحثون عن مناهج جديدة لفهم هذه المنطقة ، وهو ما يسعى اليه هذا الكتاب .

إن فهم السياسات والشعوب فى أوروبا الشرقية وفهم الكيفية التى ترتبط بها ديناميكيات هذه المنطقة بالاستقرار العالمى يتطلب معرفة بتاريخها أو على الأقل تاريخها الذى يعود لبداية هذا القرن . وتعد حقبة عام ١٩٨٩ فى دول قلب أوروبا وأحياء الحنين الوطنى لامبراطورية هابسبورج عام ١٩٨٩ أكثر من مجرد ظاهرة ثقافية ، إذ كان هناك اتجاه لجعل عصور هذه الامبراطورية الغابرة تبدو وكأنها عصور مثالية ، كما كان هناك اتجاه للاقرار بأن الامبراطورية النمساوية المجرية فيما قبل الحرب العالمية الأولى هى النموذج الكنفدرالى الممكن لدول قلب أوروبا . وعلى عكس هذا الاتجاه الأسمى ، يبدو لنا أن مشاعر التعصب القومى (الشوفينية) التى سادت عصر ما قبل الشيوعية لم تندثر بعد .

ومن ناحية أخرى اجتاحت هذه الشعوب رغبة عارمة للعودة للعصور الذهبية التى كانت فيها براغ وبودابست وبوخارست ووارسو تعد حقيقة عواصم لأوروبا ومهداً لتجارب ثقافية جريئة ، أخذت مواقعاً طليعية فى الحركة الإبداعية فى الأدب المعاصر ، حيث ظهر فرانز كافكا Franz Kafka فى براغ وقدم للأدب رواياته الرائعة ، كما ظهر جورج لوكاس George Lukas وارثر كوستلر Arthur Kostler وبيلا بارتوك (٨) Bela Bartok فى بودابست . كما قدم أوجين لونشيسكو Eugene Lonesco ، وميرتشيا الياد Mircea Eliade وإميل كيوران Emil Cioran انتاجهم الأدبى لأول مرة فى بوخارست وكى يتمكن من فهم حقيقة وباء التوائرات العرقية السياسية والثقافية ومدلولاتها بالنسبة للمستقبل لا بد أن نستدعى مرة أخرى تجدية بلدان أوروبا الشرقية التاريخية التى مرت بها بين عامى ١٩١٨ و ١٩٤٥ قبل مجئ النظم الشيوعية نتيجة لكارثة الحرب العالمية الثانية . وربما تبدو تلك كفكرة مكررة ولكن بالنسبة لدول شرق أوروبا فإن ماضيها السابق على الشيوعية مقدمة لها . وسيكون من الأفضل لمواطنى هذه

البلدان الذين عاشوا في ظل الشيوعية ولم يخبروا الا القليل من المبادئ الديمقراطية مثل حرية الرأي أن يتمكنوا من اقرار أنظمتهم السياسية متسامحة وغير سسلطوية . وفى نفس الوقت فإن اعادة بناء الديمقراطية فى هذه الدول ، تعتمد على مدى قدرتها على التغلب على المشكلات والمصاعب الناجمة عن ميراثها من التمايزات العرقية ، والاجتماعية ، والسياسية العديدة والمعتدة .

ولكن وكما أشار الفيلسوف السياسى الفرنسى جين فرانسوا رافيل Jean-Francois Ravel ان المشكلات القديمة هى فى نفس المشكلات الجديدة ولكنها تحل سمات بداية القرن الواحد والعشرين وهو يعنى هنا أن تلك المشكلات ستظل مستعصية على الحل طالما أن الديمقراطية والبرلمان غائبان (٩) .

عالم مفتت ، ١٩١٨ - ١٩٤٥

كانت أوربا الشرقية خلال القرن التاسع عشر مجرد جزء من قارة أوربا ، وكان الغرب يعلم - بلا ريب - بوجود المجرين والرومانيين والبولنديين ولكن الغرب جنح دائما الى اهمال ذلك الوجود باعتباره لا يمثل خطرا حقيقيا عليه ، ومعظم البلدان التى تدور حولها المناقشة فى هذا الكتاب اثبتت كدول مستقلة متعددة القوميات وهو ما استتبع انهيار الامبراطوريات الأوربية العظمى فى ١٩١٧ - ١٩١٨ .

وقبل الحرب العالمية الأولى فإن وجود الهيمنة الامبراطورية النمساوية المجرية أبقى على العديد من الصراعات الدينية والثقافية ، والشرقية التى اكتنفت أوربا الشرقية منذ ١٩١٨ وتعرضت هذه المشاعر الى كبت طويل ومع التوترات المستعصية بأوربا الشرقية فإن العالم الذى بنى فوق أشلاء الامبراطورية الزائلة والأحلام الولسنونية Wilsonian (١٠) عن العالم الديمقراطى شهد انفجارا دمويا لروح التعصب والنقاء العرقى (١١) ووضعت هذه الأمنم متعددة القوميات الأسس الخاصة بهذه المبادئ النبيلة كأساس لحق تقرير المصير ولكن هذه الأسس جاءت خلوا من ضمانات حماية الأقليات .

وأقيمت حدود فاصلة جديدة لتسوية الخلافات القائمة بين الغازين ومن وقعوا تحت حمايتهم ، وغالبا ما تجاهلوا مشكلات الأقليات الكبيرة ، واعتبرت الجماعات الحاكمة صيحات هذه الأقليات من أجل

الاستقلال الثقافي تحريضا على الفتنة والعصيان . وكان الألمان والبولنديون في تشيكوسلوفاكيا ، والأوكرانيون واليهود ببولندا ، والمجريون واليهود والأوكرانيون في رومانيا من بين هؤلاء الذين مروا بتجربة الانتهاكات والاضطهاد العرقية وما ترتب عليهما .

وكانت رومانيا البلد الذي لصق بركب الحلف الدولي Entente (والذي تكون بشكل أساسي من روسيا وبريطانيا وفرنسا) قد كونت بموجب معاهدتي فرساي تريانون 'Trianon' (١٢) فتوسعت بأراضيها الإقليمية فضمت ترانسيلفانيا وكوفينا الشمالية Northern Bukovina من الإمبراطورية النمساوية المجرية وبساريا Bessarabia من روسيا . وكنيجة من نتائج الترتيبات الدولية الجديدة والتي أقرتها معاهدات فرساي ظهرت يوجوسلافيا لأول مرة ككيان سياسي جديد متكامل تحكمه أسرة صربية أرثوذكسية ويضم هذا البلد الصرب الكرواتيين والكاثوليك والسلافيين ومسلمي البوسنة والهرسك .

وكنيجة لهزيمة الإمبراطورية النمساوية المجرية وكنيجة لوجود منطقة تناحر للأطماع والطموحات الغربية ، فإن أراضي المجر الإقليمية نقلت الى ثلث الأراضي التي كانت موجودة قبل عام ١٩١٤ (١٣) . ونالت المجر نفسها كجزء سابق من الإمبراطورية المتعددة القوميات التي تسيطر عليها النمسا استقلالها ، إلا أن الأقليات المجرية الكبيرة قدر لها أن تعيش في ولايات أنشئت حديثا أو كانت موجودة من قبل .

وكانت تشيكوسلوفاكيا واحدة من هذه الكيانات السباسبية الجديدة التي ضمت المقاطعات التي وقعت في الإمبراطورية السابقة ومنها بوهيميا Bohemia ومورافيا Moravia وسلوفاكيا Slovakia . ومن بين بلدان تلك المنطقة بدت تشيكوسلوفاكيا — رغم أنها تخلو من صراعات عرقية جوهرية على أنها التجربة الديمقراطية الوحيدة التي حققت نجاحا ، كما كانت تمتلك نظاما برلمانيا فعالا يقوم على التوجيه الجيد للقوى النيابية وهو الشيء الذي استلهم من مثيله الأمريكي . وعند تأسيسها في عام ١٩١٨ فإن جمهورية تشيكوسلوفاكيا أظهرت تساهجا مع المعارضة السياسية بما فهم الشيوعيين ولكنها فشلت في إرضاء مشاعر السلوفاك Slovaks القومية القوية . وكان الأب المؤسس لأول جمهورية تشيكوسلوفاكية هو توماس ج. مزاريك Tomas G. Masaryk مقتنعا بأن النمو الاقتصادي والاجتماعي سيكون كافيا لمحو الخلافات القائمة بين التشيكيين Czecks والسلوفاكيين Slovaks ، وقد اتهم المجريون بأنهم أول من أحيا فكرة القومية السلافية (١٤) . ومن ناحية أخرى

بدت بتشيكوسلوفاكيا بما تملكه من تقدم تكنولوجى مثالا جيدا اذا ما قورنت بالمستوى الاقتصادى لدول أوروبا الشرقية الأخرى .

وكانت بلغاريا ورومانيا حكومات ملكية منذ القرن العشرين ، وظهرت يوجوسلافيا بعد عام ١٩١٨ كمملكة . أما المجر فقد حكمها فى عام ١٩١٩ بعد ثورة شيوعية قصيرة الأجل ميكلوس هورثى Miklós Horthy وكان اميرالا بلا أسطول ولعب دور الوصى على ملك لا وجود له .

وكان لرومانيا بتبينها دستور ١٩٢٣ (الذى انبثق الى عدد كبير عن نموذج بلجيكي) نظام متعدد الأحزاب فى اطار ملكية دستورية . ورغم التصفية المستمرة لحركات اليمين المتطرف واليسار المتطرف ، فان النظام البرلماني أدى وظيفته بشكل صحيح حتى عام ١٩٣٨ عندما نادى الملك كارول الثانى King Carol II بالدكتاتورية الملكية وحل الأحزاب والبرلمان . ولذا فان الفترة ما بين عامى ١٩٢٣ ، ١٩٣٨ تعد هى المرحلة الديمقراطية الوحيدة فى تاريخ هذا القطر . أما بولندا فقد ولدت كأمة حرة فى عام ١٩١٧ بانفصالها عن امبراطورية القيصرية الروسية ، وظلت معظم الفترة التى وقعت بين الحربين جمهورية خاضعة لنظام حكم متسلط استمد قاداته شرعيتهم من مقاومتهم للجهود السوفيتية التى كانت تهدف لاعادة بولندا الى حظيرة الامبراطورية السوفيتية .

ورغم أن البانيا كانت رسميا مملكة مستقلة الا أنها فى الواقع كانت تابعة اقتصاديا ودبلوماسيا لاطاليا (١٥) .

وفى ظل هذه البلدان كان الاتجاه نحو الثورة البلشفية والموقف السوفيتى يحظى بأهمية بالغة . وبعد قرون من العيش تحت السيطرة السياسية والثقافية للامبراطورية النمساوية المجرية ، والمانيا الامبريالية وروسيا القيصرية ، وتركيا العثمانية فان معظم مواطنى أوروبا الشرقية أصبحوا شديدي الرغبة فى التأكيد على هويتهم العرقية .

وبذا بزغ فجر القومية . ولكن الدولة السوفيتية بادعائها تمثيل مصالح العمال بصرف النظر عن قومياتهم بدت وكأنها التهديد الأبدى « للوجود المطلق » للقوميات الجديدة .

غير أن اسطورة الدولية التى روجت لها الشيوعية الدولية (الكومنترن Comintern) التى أسسها لينين فى موسكو عام ١٩١٩ لم تستطع سوى اجتذاب جماعات صغيرة من غلاة المتحمسين .

وحاول السوفيت تصدير ثورتهم ولم يترددوا في استخدام الجيش الأحمر الذى زحف الى وارسو فى عام ١٩٢٠ ؛ لكى يجعلها جمهورية سوفيتية ، ولو كان قد نجح فى ذلك لاستطاع القضاء على هويتها العرقية لعقود طويلة .

وبعد أكثر من خمسة وخمسين عاما من هزيمة الجيش الأحمر فى بولندا قال آدم متشنك وهو يبرز أهمية ذلك الانتصار فى كتابه معجزة على نهر فشتول (١٧) :

« اننا ندين لنصر ١٩٢٠ على البلاشفة بالحفاظ على استقلال بولندا الفكرى الذى الهم وما زال يلهم الأجيال . وان قدرتنا على مقاومة التحول الى النظام السوفيتى ترجع الى حد كبير الى الذخيرة التى توافرت خلال فترة ما بين الحربين . ولو كان الجيش الأحمر قد انتصر فى معركة وارسو ، ولو كانت لجنة مؤقتة قد بدأت فى حكم بولندا ، فلربما كنت الآن أعيش فى كرويانا أو بريدجان واربما ما كنت الأتكام البولندية ولربما كان الدب الروسى قد فتك بالانتلجنتسيا البولندية ، كما فتك بالانتلجنتسيا الروسية فى عهد ستالين (١٨) » .

وهنا يشرح متشنك لماذا كانت سياسة انشاء «الحجر الصحى» ضد التوسع البلشفى فى أوروبا الشرقية أمراً شائعاً بين شرائح اجتماعية كبيرة بما فيهم المضطهدين ، وأدى الوعى بالتهديد السوفيتى الى توحيد جهود الحلفاء البولنديين والتشييكوسلوفاكيين والرومانيين للتعاون من أجل القيام بمبادرات دولية . ولكن استمرار العداءات القومية بين الدول وقف عقبة فى طريق الحاجة الملحة لسياسة شرق أوروبية خارجية موحدة وشاملة .

وداخل كل واحدة من تلك البلدان كان هناك حلم اجتماعى ، كما قلل التوزيع الجديد للأراضى فى مستهل العشرينات من المستوى المعيشى للفلاحين . وفيما عدا تشيكوسلوفاكيا ، فإن البطالة وخاصة بطالة المتعلمين التى سببها وجود تضخم فى أعداد المحامين والمدرسين والصحافيين ، قد كانت لها دلالة تشير الى تصاعد تيار التطرف السياسى بما فيه الإرهاب والتعنف .

وأدى الاستياء الاجتماعى الى تفجير الكراهية والغضب والعداوات . وكانت المؤسسات الديمقراطية الجديدة التى تتخزن البرلمانات والسلطات القضائية المستقلة نهضة للغاية حتى انها عجزت عن احتواء تلك المذابح المتطرفة . وكانت الحركة الفاشية فى رومانيا

قد تكونت فى بداية العشرينيات واتخذت اسم «فيلق الملك ميخائيل» ثم عرفت فيما بعد « الحرس الحديدى » وقد تسببت فى تفككهم الاحباطات الاجتماعية والفويا العرقية ، وتلاعبت بالرموز الدينية واعدة بالتطهير الروحى للفساد الذى ساد الحياة السياسية بالبلد ، وحاولت أن تعبىء الرومانيين ضد الأقليات العرقية وعلى رأسها الأقلية اليهودية . ووحسدت منظمة الحرس الحديدى بين التيارات الرومانتيكية المعادية للرأسمالية مع التيارات الشوفينية المعادية للسامية ، كما نظرت المنظمة للديمقراطية البرلمانية باعتبارها عنصرا غريبا على رومانيا ويجب أن تستبدل بالدكتاتورية (١٩) .

وفى الثلاثينيات أخذت السلطة اليمينية تجمع زخمها فى هذه البلدان، وهنا نستثنى تشيكوسلوفاكيا ثانية ، رغم أن آثار الحركة المؤيدة للنازية كانت تتزايد بين الأقلية الألمانية هناك . واهتمت القوى الغربية بعد فشلها فى اعطاء ضمانات مؤكدة ضد القوى الرجعية باعادة رسم الحدود التى أقرت فى معاهدة عام ١٩٢٠ (تريانون) مما ساعد الحركات الفوغاتية على تجنيد المزيد والمزيد من الموالين . وقد أخذوا عن النازية بألمانيا والفاشية بإيطاليا احتقارهم للنظام البرلمانى وظهروا استياءهم من الديمقراطية الليبرالية . وبدلا من ذلك فقد رغبوا فى ارساء قواعد الديكتاتوريات التى تقوم على ناليه الزعيم والقيسم التى تعادى الأجانب وتنادى بنقاء الأصل العرقى . وظهرت مثل هذه الحركات فى رومانيا تحت اسم الحرس الحديدى - بقيادة كورنيلو زيل كودرينو Corneliuzelea Codreanu ، وظهرت فى المجر تحت اسم « الصلبان السهمية Arrow Crosses » وكذلك فى سلوفاكيا حيث ظهر حزب متطرف ينادى بالحفاظ على نقاء السلالة وكان مؤسسها اندرى هلنكا Andrej Hlinka . وكانت هذه الأحزاب المتعصبة دعامة لخطط هتلر التوسعية وبوقا دعائيا لها .

وشهدت أوروبا الشرقية على نحو متزايد ومتزامن مع تصاعد التوترات السياسية ازدهارا ثقافيا فريدا من نوعه . وأصبحت بودابست وبوخارست وبراغ وبلجراد وكراكو وزغرب مراكز ثقافية مفعمة بالحركة حيث ولد المبدعون الشبان ، على نحو محموم اتجاهات فلسفية وفنية جديدة . وكان السرياليون والاعلاميون على سبيل المثال منتشرين فى رومانيا وتشيكوسلوفاكيا على نحو مفرط مثلما وجدت الاتجاهات الفلسفية العصرية مثل الوجودية وفلسفة الفينومينولوجى « علم الظواهر » . وكانت المنطقة التى اعتبرت نفسها حينذاك جزءا من قلب أوروبا وتقع كما كانت فى وسط الطريق بين الأورال والشواطىء

الغربية للقارة) هى موطن طليعة الرواد كما كانت مهداً لمعظم الاتجاهات الثقافية المعاصرة وأكثرها حداثة ، بما فى ذلك ظهور المسرح الهزلى ، وفلسفة التحليل النفسى ، وفلسفة اللغويات (البنيوية وفلسفة الدخيل المنطقى) . وأدرك الشعب فى هذا الجزء من العالم أهمية الحفاظ على ذاكرته كما حاولوا دائماً أن يهربوا من الماضى المؤلم . وقد كان التاريخ بالنسبة لهم مقترنا بالمذابح والتعنت والجور والهزائم المتلاحقة . . وكانت الذاكرة تحفظ كلا من الأحلام الديمقراطية التى لم تتحقق بعد والآمال فى إقامة مجتمع من المخلصين . وكان الألمان والأوروبيون والفرنسيون على دراية تامة بما يجرى ، وهم فى ذلك لا يشبهون الروس — بمدى ما يتسم به نظامهم وأوضاعهم السياسية من هشاشة . ويقول ميلان كنديرا القصاص التشيكى فى كلماته الآتية :

« ان دول قلب أوروبا كمائلة مكونة من قوميات صغيرة لها رؤيتها الخاصة عن العالم . تلك الرؤية التى تركز على ترتيب عميق فى التاريخ . التاريخ الذى كان معبود هيجل وماركس والذى يجسد العقل والمنطق ، وهو الذى يحكمنا ويتحكم فى مصائرنا ، أنه تاريخ الفاتحين . ولكن تسعوي دول قلب أوروبا ليسوا بفاتحين ولا يستطيحون أن يذوقوا عن تاريخ أوروبا أو أن يخرجوا عليه ، ولكنهم يمثلون الجانب الجائر من التاريخ ، أنهم ضحاياهم والخارجون عليه . تلك هى الرؤية المتحدرة من الخطأ الوهم والتى تعد مصدراً لثقافتهم وحكمتهم ومصدرها لما لهم من « روح ساخرة — تسخر من عظمتهم وعزتهم » (٢٠) .

وتتمثل الحتمية التاريخية فى التقاربة المبهمة للامبراطورية الروسية والامبراطورية الألمانية التى جعلت المبدعين بقلب أوروبا ينظرون للوعود العاطفية للأيديولوجيات الراديكالية مثل الشيوعية والفاشية بازدراء . وعلى أية حال فإن بعض المبدعين المثقفين أمثال الفيلسوف المجرى جورج لوكاس والكاتب الرومانى بانيت سستراتى Panait Strati والشاعر البولندى الكسندر وات Alexander Wat اعتنقوا الشيوعية : لأنهم شعروا بالاغتراب فى بيئاتهم البرجسوازية الأصلية وحاولوا الارتقاء عليها بمناصرة العقيدة اللينينية التبشيرية إلا أنهم أدركوا فيما بعد أنهم قد خدعوا وأولى الكثير منهم ظهورهم للعقيدة الشمولية وأصبحوا أكثر ناقدية ضراوة وقسوة . وانتهى الأمر بالعديد منهم الى المرارة والتشاؤم واحتقروا النفاق الزائف واعلنوا بأنهم من وجود فرص حقيقية للديمقراطية كى تصمد أمام أعدائها ، وقضوا أن يعيشوا حياتهم الخاصة . ونجد فى حالة الكاتب المجرى المولد آرثر كوستلر (٢١) ، مؤلف رواية « ظلام فى عز النهار » وهى

الرواية الكلاسيكية التى تهاجم الستالينية ونشرت فى انجلترا فى مايو ١٩٤١ ، رمزا لما آلت اليه مصائر معظم مبدعى دول قلب أوروبا فى قرن الأوهام الراديكالية والوله المدمر بها . اما دانييلوكس Danilo Kis الروائى اليوجوسلافى فقد كتب مقالا مشهورا عن أوروبا المركزية بعد عدة أعوام من انتحار كوستلر فى بداية الثمانينات قال فيه :

« ان المفامر المبدع كوستلر ومن خلال عمله » الخيار المطابق

Ultimate Choice بعد حتى على مستوى أوروبا كلها فريدا من نوعه . ان سيرته الذاتية فى تحقيقها الراديكالى يمكن أن نرى فيها سيرة كل مبدع يعيش فى قلب أوروبا » (٢٢) .

ولعب المبدعون فى أوروبا المركزية دورا حاسما فى شرح أهمية المبادئ والقيم وفى الدفاع عن الذاكرة الثقافية لتلك الأمم الى حرمت طويلا من وجودها كدول مستقلة . واعتبر المبدعون فى بولندا والجر وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا على نحو واسع هم حاملو الموية الأخلاق والفضائل . واثناء القرن العشرين كانت الانتلجنسيا (وهى المصطلح الروسى الذى يشير اخلاقيا واجتماعيا الى شرائح معينة من طبقة المبدعين) هى رأس الحربة التى تقدمت الصراع من أجل الحرية السياسية القومية وهى المجموعة التى استمرت تمارس دورها التبشيري حتى بعد تقسيم الدول حسب القوميات . وناصر المبدعون البارزون الاتجاهات السياسية التى كان لها تأثير فوري على شرائح اجتماعية عريضة والتى وضعت نفسها تحت امرة هؤلاء الذين وضعت فيهم ثقتهم ، بل وأكثر من ذلك فان المبدعين فى بلدان قلب أوروبا أصبحوا رموزا للقضايا الاجتماعية والقومية .

لقد رصد الكسندر وات الأحلام والأوهام اليوتوبية التى تنشأت بين أوساط المثقفين فى الفترة التى توسطت الحرب وذلك حين قال الكسندر — الكاتب البولندى — فى حديث له مع تشسلاف ميلوش Czeslaw Miloz ان الشيوعية لاقت قبولا لبدى المبدعين لأن الشيوعية قد اشبعت التعطش الانسانى الى القيم النبيلة ونادت بالتضامن والأخوة :

« انه دفع الاخوة — الاخوة ٠٠٠ لقد بدأ الأمر بها ، ولكن بدأ واضحا انه لم يكن هناك من يدعمها سواء اكان حزبا أم كنيسة . لقد عجزت الكنيسة عن ذلك لانها كانت ضخمة وباردة وشعائرية ومزخرفة . . . ان الكنيسة الشيوعية مثلها مثل المجتمعات المسيحية الأولى قد رقت نفسها حول خلية يعرف فيها أفراد المجتمع بعضهم بعضا

ويتعاضون في حب • وهكذا فإن الدفء والحب المتبادل قد وجد في مثل هذه الخلية الصغيرة التي يحيط بها عالم عدواني آثم « (٢٣) •

لقد استطاعت الحركة التوناليتارية أن تطل تلك البلدان ، وذلك تحديدا لأن التوترات الاجتماعية بلغت ذروتها ولأن المنظمات الديمقراطية كانت عاجزة عن خلق ثقافة سياسية تعددية . وقد تم تدشين الدولية التالية (الكمنترن) والتي تضمنت اخضاع كل الأحزاب الشيوعية المحلية لرغبات وأوامر وتوجيهات موسكو — ووفقا « لشروط الالتحاق بالدولية الشيوعية » والتي اعلنها مؤتمر الكمنترن الثاني في ١٩٢٠ فان قرارات المقررات المركزية في موسكو سوف تقرض على كل الاحزاب التابعة وكل من يعارض تلك القرارات والتوجيهات سوف يكون عرضة لتوجيه تهمة الخيانة وعرضة للطرد من حرم الشيوعية (٢٤) •

لقد وجد العالم الشيوعي ضالته فبعد موت لينين عام ١٩٢٤ استخدم ستالين الكمنترن كأداة لتنفيذ مخططاته التوسعية .

وأصبحت الأحزاب القومية احصنة طروادية ، وأصبحت الجماعات الشيوعية في كل انحاء العالم أدوات في يد موسكو • واستطاع الشيوعيون أن يستندوا بتأييد بعض العمال الراديكاليين في أوروبا الغربية وكذلك المبدعين الذين اغضوا اعينهم عن الأوضاع الحقيقية القائمة في روسيا السوفيتية . ان تهديد الاتحاد السوفيتي الدائم بالاغارة على الدول المجاورة جعل من الصعب على الأحزاب الشيوعية ان تستقل بذواتها ، وقد كان الموقف أكثر دراماتيكية في حزبي رومانيا وبولندا اذ رفضنا الادعاءات السوفيتية في أراضيها الاقلية . ومن ثم نظر اليهما الاتحاد السوفيتي باعتبارهما معاديتين للقومية • وقد وجدت الأحزاب التي تشكلت في العشرينيات الاستراتيجية السوفيتية لفهم أوامر الهيئات الديمقراطية التي تشكلت حديثا . وفي الحقيقة فان الأحزاب الشيوعية في كل بلدان أوروبا الشرقية فيما عدا الحزب التشيكوسلوفاكي كانت غير شرعية • لقد اختير الجيل الأول من الزعماء الشيوعيين الشرق أوروبيين من هؤلاء الذين شاركوا بفاعلية في أعمال الكمنترن في العام الأخير من حكم لينين ، وبعض هؤلاء كان مطايعا لستالين والبعض الآخر كانوا ستالينيين مؤمنين به ، بل لقد شاركوا في التدبير للمذابح التي أقيمت لأحزابهم • وقد أصر ستالين على أهمية « بلشفة » هذه الأحزاب وذلك بالتخلص من الجيل الأول واستبداله بجيل أكثر طاعة واسهل انقياسا •

١١

١٢

٣١

وفى الثلاثينيات تم تصفية الائتلاف الذى يشمل كل الأحزاب الشيوعية الشرق أوروبية فى مذابح الانطهير الكبير بالاتحاد السوفيتى . ولان ستالين شعر بنفور تجاه الشيوعيين البولنديين واتهمهم بارتكاب أخطاء التروتسكيين (٢٥) Trotskyists واللكسمبرجيين Luxemburgists (٢٦) ، التى لا تغفر فتولى فى عام ١٩٣٨ مهمة تصفية الحزب الشيوعى البولندى . وشق فيرا كوسترتسفا Werakostrzewa ، ويوليان لنسكى لينشنسكى Julian Lenskiteszczeni والفرد فارسكى Alfred Warski القادة التاريخيين للحزب الشيوعى البولندى ، كما تعرضت كل فئات الشيوعيين البولنديين للنفى والذبح فى السجون السوفيتية ، و مر آخرون فى دول أخرى بتجارب مشابهة منهم ميلان جوركيك Milan Gorkic السكرتير العام للحزب الشيوعى اليوجوسلافى الذى تم تصفيته فى الاتحاد السوفيتى وكذلك الآباء المؤسسون للشيوعية المهمة ومنهم الكسندر دوبر جينو جريا Alexander Dobrogeanu-Gherea (٢٧) وأمرى الدار Imre Aldar وديفيد فابيان David Fabian وأدى التدخل فى أروهم « الدولية » الى اقتناع الشيوعيين بأنهم اذا ما قدموا خدماتهم للثورة البلشفية فإنهم بذلك يخدمون قضية الثورة العالمية وتحرر البروليتاريا ولذا ، قبل الشيوعيون المخلصون حكم ستالين الدموى دون أدنى اعتراض . ومع استبدال النواة الأولى للقادة الشيوعيين بجيل أكثر خنوعا من الأعضاء الشيوعيين الذين تلقوا تدريبهم بموسكو تمت التصفية الكاملة لكل الاتجاهات الناقدة داخل هذه الأحزاب .

ورغم الطاعة العمياء التى أبدتها هذه الأحزاب لموسكو فإن بعضها وجدت علاقتها بموسكو على هذا النحو الخانع تضمها فى موقف محرج ، وكانت موسكو دائما تعامل الحزب الشيوعى الرومانى بازدياء ان علاقتها به كانت هزيلة وذلك بالتحديد لأنه لم يكن قادرا على التخلص من وضعه الهامشى (٢٨) . ومن ناحية أخرى فإن الكرملين فرض عليهم حدودا كان عليهم ألا يتجاوزوها مما منعهم من التحول الى حزب جماهيرى بينما تمتع الحزب البلغارى بمعاملة كريمة من جانب الكرملين وذلك يرجع فى الأساس لما لزعمائهم من مكانة دولية أمثال جورجى ديمتروف Georgi Dimitrov الذى أصبح بعد تيرئة ساحته بموجب معاهدة ليبزج Leipzig (٢٩) فى ديسمبر ١٩٣٣ الرمز المعبود لكل اليساريين الدوليين . وقد اتهم النازيون ديمتروف اللاجئ السياسى بألمانيا بأنه العقل المدبر لحريق البرلمان الألمانى Reichstag ، بعد تولى هتلر للسلطة فى يناير

١٩٣٣ . وقد حاول ديمتروف شجب القادة النازيين باعتبارهم الجناة الفعليين لهذا الاستفزاز السياسى . وقد تم السماح لديمتروف بمغادرة ألمانيا والذهاب الى موسكو حيث أصبح الرئيس التنفيذى للمكتب (٣٠) . أما فى المجر فتحت الاطاحة بالنظام الثورى اللينينى برئاسة بيلاكوف Bela Kun بدعم من الجيش الرومانى ، ثم شنت كون فى الاتحاد السوفيتى فيما بعد باعتباره « عدو الشعب » واختفى اسمه لعقدين كاملين من سائر المنشورات الشيوعية التى تناولت كميونة بودابست التى حالفها سوء الحظ فى ١٩١٩ .

وبعد ١٩٣٨ عهدت قيادة الحزب الشيوعى اليوجوسلافى السرى الى مناضل شيوعى كرواتى هو جوسيب بروز الذى عرف باسمه الحركى الشهير « تيتو » . وكان من الشيوعيين اليوجوسلافيين الذين سطع نجمهم ميلوفان جيلاس طالب الفلسفة الذى سيصبح فيما بعد نائب رئيس الجمهورية الذى واصل تحرره من وهم الشيوعية كما أصبح أحد الاصوات الناقدة للديكتاتورية الشيوعية ولسلوك تيتو الأوتوقراطى .

ومن ناحية أخرى ظهرت حركات يمينية لاقت قبولا فى بادئ الأمر من الاصلاحيين ثم الجماعات المدنية الاجتماعية فيما بعد ، وذلك من خلال استخدام قيم ورموز شيوعية أسطورية . وعلى عكس الشيوعيين الذين انتقدوا الأوضاع القائمة باسم الالتزام التام بالدفاع عن الاتحاد السوفيتى « والأرض الأم لبروليتارية العالم » المزعومة فقد انتقد اليمين المتطرف الديمقراطية والراسمالية لفشلها فى خلق « جسد دستورى قومى » . وفى رومانيا ضم اليمين المتطرف العديد من الأحزاب والجماعات الصغيرة العدد بالاضافة الى « الفيلق legion » (أو الحرس الحديدى فى الثلاثينات وكان قوامها الجموع المحبطة من المبتعثين الشباب والطلاب والقساوسة والعمال غير المهرة ، الا انها جميعا وبشكل عام حملت اتجاهات معادية للغرب والسامية والابداع . ووجهت هذه الأحزاب اللوم للشيوعية باعتبارها بدعة يهودية ماسونية (٣١) ووعدت بتطهير الحياة السياسية الفاسدة وذلك ببناء نظام ديكتاتورى يقوده رجال اقوياء حباهم الله بمواهب خاصة منهم رئيس منظمة الحرس الحديدى كورنيلو زيلاكودرينو وكان نمونجهم المثالى هو انشاء نظام سياسى قائم على المبادئ الرومانية والارثوذكسية . وبمعنى آخر فقد نادوا باستبدال النظام « القومى العسكرى » بأخر برلمانى مدنى .

واستخدم أعضاء الحرس الحديدي الارهاب السياسى لتحقيق أهدافهم السياسية ، ففى ديسمبر ١٩٣٣ اغتال أحد الفدائيين من الحرس الحديدي رئيس الوزراء الليبرالى ايون ج . دوكا Ion G. Duca الذى عرف بوجهات نظره المؤيدة للغرب والمعادية للفاشية . وأجبر منطق اليمين المتطرف - خاصة بعد تولى الحزب النازى فى ألمانيا الحكم - طبقه السياسيين الرومانيين على التورط فى أعمال قمعية ضد زعماء الحركة الفاشية . وقبض بوليس كارول الثانى على كودرينو نفسه وقتلوه عام ١٩٣٨ . وتم شجب الديكتاتورية الملكية وقمع النظام البرلمانى قمعاً . وبدأ أن تصاعد العنف فى هذا البلد حتى .

وتلقت تشيكوسلوفاكيا والمواطنون المنحدرون من أصل مجرى ونموسوى لطمة مميته فى مارس ١٩٣٨ عند توقيع اتفاقية ميونخ والتي اعترفت بحق ألمانيا الذى تدعيه فى اقليم السوديت (٣٢) Sudetenland وفى سبتمبر من نفس العام احتل الجيش الألمانى براغ وأعلن هتلر تعيينه لحكومة تشرف على بوهيميا ومورافيا ، وقفزت سلوفاكيا مطالبة بحقها فى الاستقلال وتأسيس نظام موال للنازى بزعماء مونسنيور تيسو Monsignor Tiso الذى كان من اقطاب الدعوة للملكية . وفى أغسطس ١٩٣٩ وضعت المعاهدة النازية السوفيتية نهاية لآى أوام خاصة بإمكانية منع وقوع الحرب .

وتعاونت القوات السوفيتية والألمانية فى تهريق أوصل بولندا وشلل وزير الخارجية السوفيتى فيتسلاف مولوتوف لاختفاء بولندا من على الخريطة الأوربية . فلم يكن السوفيت مثل النازيين يتقبلون وجود الجمهورية البولندية التى أسماها مولوتوف مستخفا « الابن غير الشرعى لمعاهدة فرساي » (٣٣) . وفى اللحظة التى أحكم فيها الأدب الروسى والنسر الألمانى قبضتيهما الحديديتين على تلك البلدان لم يعد لما عرف بقلب أوروبا أى وجود .

ويرى شيسلاف ميلوف أن جميع البلدان التى عانت من عواقب الحلف السوفيتى النازى استمرت فى الوجود ككيان لا وجود له الا فى نطاق ذاكرة ثقافية معذبة ، حيث يقول :

ربما كان القارق الأساسى بين شطرى أوروبا ماثلاً فى الاختلاف بين الذاكرة وعدمها ، فشعوب غرب أوروبا لا ترى فى حلف مولوتوف روبنزروب (٣٤) أكثر من شبح نكرى لماض غارق فى الضباب . أما نحن وأعنى نحن الذين اکتوينا بهذه الاتفاقية التى أبرمتها القوتان العظيمان ، فاننا نراه حقيقة واقعة يلمسها كل من ولدوا فى بلداننا

بعد الحرب . ولذا فسوف أخطر بتقديم تعريف بسيط جداً لوسط أوروبا ، فأقول انها تلك البلدان التي كانت موضع مقايضة حقيقة أو محتملة بين الاتحاد السوفيتي وألمانيا في أغسطس ١٩٣٩ . انها عقود من الألم والمهانة التي تميز بلدان أوروبا الشرقية عن شقيقاتها الغربية (٣٥) .

وفي يونيو ١٩٤٠ وجه السوفيت انذارا لرومانيا لتتسحب من إقليم روسيا البيضاء وشمال بوكوفينا .

وكان رد الملك كارول الثاني ، الذي كان معزولا دوليا والذي أطاح بالنظام الديمقراطي في ١٩٣٩ الاستسلام التام والخضوع للانذار السوفيتي شديد اللهجة .

وخرى الألمان والايطاليون في أغسطس على رومانيا اتفاقية فيينا Vienna Award التي نالت بموجبها المجر ترانسلفانيا .

وتأسست بعد عدة أيام من قرار الملك من رومانيا دكتاتورية جديدة بقيادة الجنرال أيون انتونسكو Ion Antonescu وقائد منظمة الحرس الحديدي هوريا سيما Horia Sima وحاولت منظمة الحرس الحديدي في يناير ١٩٤١ التخلص من انتونسكو ولكن محاولتها باءت بالفشل . ولما انشئت الدكتاتورية العسكرية غادر هوريا سيما رومانيا متوجها الى ألمانيا وأعلن انتونسكو حاكما على دولة رومانيا .

ولما هاجمت ألمانيا يوجوسلافيا عام ١٩٤١ نظمت في الحال حركات مقاومة عديدة كان أكثرها قوة الحركات الصربية الدولية بقيادة الجنرال درازا ميهاجلوفيك Draza Mihajlovic المعروف باسم تشيتنيك Chetniks .

أما حركة المقاومة الشيوعية فقد قادها تيتو وقد عرفت باسم حركة « الأنصار Partisans » .

وإثناء هذه الفترة حافظت المجر على علاقات جيدة مع الألمان رغم أن حركة « الصليبان السهمية » المغالية في الشوفينية قد نجحت في تطويق الأدميرال هورتي Admiral Horthy ومحاصرته . أما النظام العسكري ببيلغاريا فكان مقاربا لمثيله الألماني حيث ناضل من أجل ابقاء بلده بعيدا عن الصراعات التي أخذت تطل برأسها فوق المنطقة .

ولادة سنتين تقريبا — بين سبتمبر ١٩٣٩ ويونيو ١٩٤١ عندما هاجم هتلر الاتحاد السوفيتى — اتخذت الأحزاب الشيوعية المحلية فى بلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا ورومانيا موقفا غير مناوئ للنازية بل انها وجهت اللوم لبريطانيا وفرنسا اللتين اخذتا تعدان العدة للحرب وتجريان المناورات العسكرية • (وكانت يوجوسلافيا استثناء) • ويفسر رفض الأحزاب الشيوعية الشرق أوروبية التورط فى معارك مقاومة النازى ، وذلك بين أغسطس ١٩٣٩ ويناير ١٩٤١ ، أنها كانت تابعة للحكومتين الذى يهيمن عليه الاتحاد السوفيتى •

وكانت توجيهات الكومنترن فى أغسطس ١٩٤٠ الى هذه الأحزاب هى أن تقاوم بكل ما أوتيت من قوة مساعى الدوائر المؤيدة لبريطانيا والمؤيدة لفرنسا — تجار الحرب الامبرياليين » — وذلك لأن الدعاية الستالينية نددت فى شهور العسل مع هتلر بالديمقراطيات الغربية . بل ان الشيوعيين الفرنسيين تعهدوا بمد جسور التعاون الوثيق مع النازيين كما أن الاحزاب الشيوعية بأوربا الشرقية قامت بالمثل باعاقه جهود المقاومة ضد الالمان الا انهم اخفوا هذه الاعمال المشينة فيها بعد واختلقوا أسطورة الدور الحاسم للشيوعية فى مقاومة الغزاة الالمان فى بلدان شرق أوروبا •

وعندما هاجم هتلر الاتحاد السوفيتى فان الاتصالات بين موسكو والاحزاب الشيوعية فى أوروبا جمدت وأصبحت هذه الأحزاب فى احدى الفترات حرة التصرف ، وهذا يفسر الاستراتيجيات — التى غلب عليها طابع الاستقلالية والجرأة — التى اتبعتها القیادات المحلية بما فيها الجهود التى بذلها الشيوعيون اليوجوسلافيون لاصلاح المؤسسات التى كانت ذات طابع سوفيتى دون علم ستالين أو موافقته ، وعلى نفس الشاكلة انخرط الشيوعيون البولنديون المحليون بقيادة فلاديسلاف جوميلكا Wladislaw Gomułka فى إعادة بناء الحزب الشيوعى وأخفوا بيد حركة « الانتصار » دون انتظار مباركة الاتحاد السوفيتى •

وفى سنوات الحرب كانت السمة المميزة للعلاقة بين الكرملين والاحزاب الشيوعية بأوربا الشرقية هى انقطاع المعلومات والدعم بين المركز وتوابعه ومن ثم ، انبثق داخل كل حزب شيوعى نواة محلية (وطنية) كما برزت قيادات محلية موازية تماما وبديلة لهؤلاء الدخلاء الذين تم اعدادهم فى موسكو • وفى يوجوسلافيا ، فان نزعات تيتو الراديكالية وميله للخروج عن سيطرة ستالين جعلت الأخير يدفع

تيتو نحو القيام بمبادرات لم يجن منها القادة الشيوعيون الا تدهور
علاقاتهم مع الائتلافات الغربية . ولابد ان نذكر هنا ان ستالين قرر في
عام ١٩٤٣ ان يحل الدولية الشيوعية كدليل على حسن نواياه تجاه
تشرشل Churchill وروزفلت Roosevelt .

وأصبح واضحا في آخر الأمر ان الانفصال الذي تم تبريره في وقت
ما على أنه وعى الأحزاب المحلية الناضجة بأن حاجتها لتوجيهات
موسكو قد تضاعلت ، استفاد منه ستالين لتحقيق طموحه الدعائي كي
يخفف من حدة كره الأحلاف ومقتها للارث الذي خلفته الثورة البلشفية .

وحال تغلغل السوفيت في الأراضي الاقليمية لأوربا الشرقية قاموا
بفرض سيطرتهم على الأحزاب الشيوعية وتولى المسكوفيون
Muscovities « (الشيوعيين الذين قضوا سنوات الحرب في
منافهم بموسكو) مناصب القمة وانضم كل من آنا بوكر Anapauker
وفاسيل لوكا Vasile luca الى جورج جورجيو — دج Gheorghe
Gheorghiu-Dej كسكرتيرين للجنة المركزية للحزب الشيوعي الروماني .
وفي بولندا أصبح بوليسلو بيرت Bolesław Bierut — رئيس حكومة
لوبلين Lublin التي تدعمها موسكو — السكرتير العام للحزب
الشيوعي البولندي الذي بادر بتصفية الشيوعيين المحليين وعلى
رأسهم جوميلكا .

وفي تشيكوسلوفاكيا وغيرها استعاد السوفيت هيمنتهم السابقة
التي كانت قد توقفت فعينوا المهاجرين السوفيت السابقين وهم على
التوالي كليننت جوتفالد Klement Gottwald ورودولف سلانسكي
Rudolf-Slansky كرئيس ، وسكرتير عام الحزب الشيوعي في
يوغوسلافيا . وفي بلغاريا فان الحزب الذي تم تأسيسه محليا بقيادة
ترتشيو كوستوف Tracho Kostov كان يجب عليه ان يشترك
في السلطة مع هؤلاء المسكوفيين جورجي ديمتروف ، وفاسيل
كولاروف Vasil Kolarov — ، وفلكو تشرتيكوف Vulko Chernekov
واستولى الموسكوفيون في المجر على السلطة تحت قيادة الحزب
الشيوعي وأسسوا دكتاتورية متمثلة في الرباعي المكون من ماتياس
راكوسي Matyas Rakos السكرتير العام وتابعيه المخلصين إيرنو
Erno و « جيرو Gero » (الموظف السابق في مفوضية الشعب
للشئون الداخلية NKVD (٣٦) الذي تولى مهمة تصفية الثورات
التي قامت ضد ستالين في برشلونة Barcelona (وذلك أثناء
الحرب الاسبانية) وميهالي فاركاس Mihaly Farkas وجوتسيف ريفيا

Jozsef Revia والتابع السابق والمفكر الماركسي الشهير جورج
لوكاسي الذي تبنى الستالينية المتشددة .

واستطاعت يوجوسلافيا أن تخلق نموذجا خاصا بها فنجح تيتو
في خلق قاعدة جماهيرية فاعلة لنفسه ولرفاقه ومنهم ايفان كارديلي
Edvard Kardelj والكسندر رانكوفيك Alexander Rankovic
وميلوفان جيلاس . ورغم الأحداث الدموية في الحرب العالمية الثانية
شرح الشيوعيون اليوجوسلافيون رغم دعمهم الذي لم يضعف لستالين
وللاستراتيجية الدولية السوفيتية في تحويل حركتهم الى حركة قومية .
وكانت مشكلة الكرملين الحقيقية مع تيتو في أنه كان يكن الحب والاعجاب
التامين والواضحين لستالين ورغم ذلك كان طموحه الأول أن يصبح
نظير ستالين في البلقان ، وادى هذا التصميم الواضح من جانب تيتو
على تحقيق طموحه الى دخوله في صراع مع الديكتاتور السوفيتي
وهو الصراع الذي بدا خفيا أول الأمر الا أنه سرعان ما أصبح علنيا .

وقام الشيوعيون اليوجوسلافيون بأعمال إرهابية ضد اعدائهم -
النازي وغيره - وأقيم نظام سياسي سرى واستعمرت أساليب القمع
بشكل مباشر من ترسانة البوليس السرى السوفيتي (٢٧) (NKVD) .
وعمل تيتو على توسيع نفوذه في دول البلقان ، فأرسل بمبعوثه
سفيتوزار فكماتوفيك Svetozar Vukmanovic ليوطد علاقاته مع
الشيوعيين اليونانيين الذين انشغلوا في حرب أهلية ضد المؤيدين
للنظام الاستبدادي الموالي للغرب . وكانت يوجوسلافيا تتعامل مع
الأحزاب الشيوعية الألبانية الصغيرة بقيادة أنور خوجه Enver Hoxa
- مدرس اللغة الفرنسية بمدينة تيرانا Tirana (٣٨) - من موقع
الأخ الأكبر .

وعندما قرر ستالين أن يستعدى تيتو ويطرده من حركة الإمية
الشيوعية ، تذكر خوجة وزملاؤه الذا الذي لحق بهم على يد
اليوجوسلافيين المتعجرفين ودعموا الحملات السوفيتية المعادية
اليوجوسلافيا .

أوهام وفوضى :

ما الذي وعدت به هذه الائتلافات الشيوعية كي تحرر أممها
سياسيا ؟

ما هي المبادئ التي تبناها وما هو برنامج العمل الذي سيطرحونه
لتحديث النظم السياسية الاقتصادية والاجتماعية بدولهم ؟

ان مبعث هؤلاء الذين تورطوا في أنشطة شيوعية خلال الحرب العالمية الثانية هو تقديسهم التام ودون تحفظ للاتحاد السوفيتي ، إضافة الى القناعة التي كانت لدى معظم الشيوعيين وهي أن نضالهم ضد الفاشية هو جزء من التحرر العالمي والانسانى من العبودية .

فقد تبنى الاتحاد السوفيتي لقضية التحرير الانسانى كان له اثر توسطت واساط المبدعين فالتحق العديد منهم خلال الفترة التي الشيوعية وهم على خلال سنوات المساومة ضد النازية بالحركة وتم التعظيم على المعلومات بأنها تقدم صيغة مثلى للمعقولة التاريخية . Great Purge الذي جرى في تفصح بشاعة التطهير الكبير USSR ، بل لقد رفض الكثيرون الأنظمة السوفيتية الاشتراكية افتراء فاشيا . ١١ توفر منها باعتبارها

ان المناورات الماكرة التي مارستها الديمقراطية السوفيتية وخاصة بعد مؤتمر الكومنترن السابع Comintern Congress (التي حيث اتبعت استراتيجية « الجبهات الشعبية ») وهي المنظمات التي ترفع مظلة الهيمنة الشيوعية) جعلت الناس يؤمن بأن أوروبا الشرقية سوف تحكمها بعد الحرب أنظمة ديمقراطية شعبية ، وبدا أن الشيوعيين يتصرفون باعتبارهم الممثلين الحقيقيين للتعددية واستخدمت اسطورة المجتمع الخالى من الطبقة حيث سيزال كل التوترات السياسية والاقتصادية وتستبدل بجنة أرضية ، حيث تسود المساواة بين البشر وهو ما استخدم كمبرر لرغبة المناضلين الشيوعيين في الانغماس في نضالهم الهادف . ولم تتوفر لدى دمي الكرملين وأوروبا الشرقية أى نية لبناء نظام تعددى ، أو لبناء مجتمعات لاطبقية وظنت العقول المدبرة للكمنترن بأن وصول القوات السوفيتية لهذه البلدان سيمنح الأحزاب الشيوعية تقوفا سياسيا هائلا يدحرون به كل خصومهم .

ومنذ الثلاثينيات اصطبغت الأحزاب الشيوعية بالصيغة الستالينية بكل ما تحمله الكلمة من معنى الا أن الايمان بإمكانية تحقيق الأحلام الاشتراكية كان لا يزال يراود البعض ، وأبدت هذه الأحلاف بصفة عامة استعدادها التام لخدمة مصالح الاتحاد السوفيتي ودون أدنى تردد . وأعرب كثيرون عن استيائهم من الأحزاب المحلية الاشتراكية الديمقراطية التي أيدت اتخاذ طريق ثورى لتحقيق مجتمع أكثر عدالة . واتهم الشيوعيون خصومهم بأنهم عملاء للبرجوازية مستخدمين في ذلك وسائل الدعاية الفظة كما حاول ستالين أن يحافظ على صورته (على

الأقل حتى تنتهي الحرب العالمية) كرجل دولة محنك وحكيم وذلك بتخلي الشيوعيين المواليين للاقتصاد السوفيتي عن رطانتهم وبتعهدهم بالعمل كأبطال للاستقلال القومي .

وأثناء سنوات الحرب العالمية الثانية كانت الأحزاب الشيوعية آنذاك تطالب وتعلو من شأن التيم الوطنية من خلال لجان تنظيمية ، والحقيقة أن كثيرين من مناضليهم قد حكم عليهم بالسجن أو قتلوا في السجون الفاشية ، وقد أصبح هؤلاء رموزاً للتضحية والبطولة الحقيقية إلا أن آلة الدعاية استغلت تضحياتهم بهجارة وقدمتها للجماهير كأدلة على مراعاة المصالح القومية . وكف الشيوعيون عن تلميع وتمجيد رموزهم ، ومدوا أيديهم لتشكيلات سياسية وذلك لخلق مظلة واسعة من تلك الحركات التي كرست نفسها لاقامة الحكومات الديمقراطية المزعومة . أن تلك هي الخفايا التي تكمن وراء الأوهام التي تنذر بها الكثيرون في الغرب بما فيهم بعض صانعي القرارات السياسية وأكثرهم تأثيراً عندما حاولوا إيجاد تفسير لموقف ستالين بشأن مدى معقولية الثورة العالمية ، ومدى أهميتها .

ورغم أن هذه الأوهام كانت كالبوبق بالنسبة لهؤلاء الذين لديهم الأمل في تحقيقها ، إلا أنهم تجاهلوا تماماً الطبيعة التوسعية للمنظام السوفيتي والتي كانت واضحة للغرب ، مما أدى إلى عقد عدد من الاتفاقيات بما في ذلك اتفاقيات مؤتمر طهران Teheran (١٩٤٤) و يالطا (٣٩) Yalta (١٩٤٥) . واقنع الاتحاد السوفيتي شركاءه الغربيين في طهران و يالطا بأنه يملك الحق في الدفاع عن مناطق نفوذه في أوروبا الشرقية .

ولا يهم ما اصطفت به اتفاقية يالطا من وعود براقعة عن الديمقراطية ، فقد استغل الاتحاد السوفيتي دوره الدولي ليقر نظاماً تابعة له في دول أوروبا الشرقية .

وباسم النضال ضد ما خلقته الفاشية من اضطهاد يشع للأحزاب الديمقراطية بأوروبا الشرقية تأسست الرقابة وتم التشديد عليها وأنشئت نظم سياسية سرية لاضطهاد وملاحقة كل من يجروء على نقد الشيوعية . كانت معاداة الشيوعية (أو معاداة السوفياتية) تعسد فاشية ، ولأنهم أدركوا عدم وجود أية عقبات تقف في وجه نفوذهم ، فإن الأحلاف الشيوعية المحلية بدأت في التحرك بجرأة متزايدة .

أن الوجود العسكري لروسيا في دول أوروبا الشرقية منح الائتلافات الشيوعية الجماهيرية أبواقاً تهتف لهم وتحميهم وبذلك تكون

روسيا قد وظفتهم وبنجاح كى ما يحققوا أهدافهم ~~وهدموا~~ وعودا
السياسى ، وعلى أية حال فان هذه الأحزاب - فى الواقع العمى
بادرت بالقيام بعمليات التصفية والتغير المستمرين وأرست قواعد
هيمنتها السياسية التى انسمت بالنزعة الفردية .

واستخدمت هذه الأحزاب - كى تحقق أهدافها - مجموعات
صغيرة من الأحزاب - التقليدية الشعبية والتشكيلات السياسية
والشخصيات السياسية البارزة والتى هبى لها أن التعاون مع المحتل
ستالين سيضمن بقاءهم فى مناصبهم السياسية . ولم يرغب الشيوعيون
على أية حال فى التورط فى السلطة ومنطق اللينينية ديكتاتوريتها العسكرية
وبممارستها السلطوية المطلقة جعلت الشيوعيين يستعدون على نحو
أفضل لكسب الجولة ، كما كانوا على اقتناع - بعكس أعدائهم - بأن
نظام الحزب الواحد فقط هو القادر على حل مشكلات بلادهم كما كرهوا
بشدة النظام البرلمانى ونظروا للبنى الديمقراطية على أنها أنظمة
عضال .

وعلى عكس منافسيهم لم ينقسم الشيوعيون فى خطوط أيديولوجية
وعقائدية ، وإنما كانوا تجمعات متماسكة ومتناغمة قلبا وقالبا وحقيقة
فان هذه المجموعات لم تكن متناغمة بالقدر الذى تنشده ، بل كان هناك
بعض النزاعات التى لم تكن بسبب الاختلاف حول مسائل عقائدية
أو استراتيجية بقدر ما كانت بسبب الصراع على السلطة والمناصب
القيادية . وكان الشيوعيون بارعين فى منح روح الدمى غير المشروط
للقوى التى يقفون بصنها تلك القوى التى تطيع أوامر قيادتها دون
أدنى اعتراض أو تردد .

ولكى تكون شيوعيا حقيقيا عليك محاصرة أى شخص يطالب
بحرية الفكر أو الحرية الشخصية وذلك لتحقيق مصالح الكيان .

وبينما كانت القضية هى الاضطلاع بالسلطة وإقامة ديكتاتوريات
على الطراز السوفيتى فان الحزب الشيوعى تصرف ككيان واحد دون
أى اثر للفوضوية السياسية أو الاجتماعية ، ان عقيدة ستالين هى
الاطار الذى يجمع هذه الأحزاب وهى البديل الكودى للينينية وقد
اكتسبت بعد انتشار الجيوش الشيوعية حول العالم صفة الدولية ،

ولأن الستالينية حقيقة بينة فإن من المتوقع من أعضاء الحزب أن يؤمنوا بمعتقداتها ويكون هذا الإيمان مشوباً بعواطف دينية ، بل وينكروا ذواتهم وأنسقلالهم الشخصي والعقلي ويخضعوا الحزب بنفس الجساسة ، بل أن المستترين فيهم ~~كان الأمر خيالا أسطوريا أقرب ما يتصل به عليهم النبوءة السحرية~~ . وأخذت التجربة بما فيها من سحر بالباب المناضلين حيث كانت طريقا لتجاوز أى شكل من أشكال الاغتراب وتحقيق الحرية السياسية عن طريق الخلاص التاريخي (٤٠) .

وكان مناخ سلو الحزب على اقتناع تام بأن البشر فى حاجة للنموذج الستالينى بما اتسم به من خطط جامدة ومبادئ كلية ، تقوم بتلقين التعاليم « للإنسان الجديد » كما كانوا مؤمنين بأن هذا النظام يفوق بنية العالم البرجوازي الذى يعبه الصراع المتمثل فى التناقض بين الذى يملك والذى لا يملك (المعوز - المعدم) وبين فئة الانتلجنسيا المعزولة والسلطة . وقد اعتقدوا بأن تصدير المؤسسات التى على الطراز السوفيتى لبلدانهم سوف يضمن التحديث والنهوض الاقتصادى السريع .

ولتحقيق هذه الأهداف الخاصة بالتقدم والتحديث ، فإن العبيد من الأحزاب الشيوعية بأوروبا الشرقية شرعت فى عمليات تخريبية ذات آثار محيطة على المجتمع المدنى . وكان الهدف الرئيسى للممارسة فى هذا القرن فى الواقع هو : إبادة مصادر الإبداع البشرى ، وعزل الأفراد عن بعضهم البعض والزج بهم فى هوة الخلافات والعداوات وتقويض أو اصر التضامن وتدعيم تفوق سيادة الحزب ، وتمجيد السلطة المطلقة والهيمنة الكلية . وذلك تطلب ضرورة اختفاء الاتجاهات والجماعات السابقة وإعادة صياغة المعانى السامية للوطنية والعائلة والعداات القومية فى ضوء العقيدة الشيوعية ، بل لقد تم فرز شامل للتراث الثقافى لكل بلد ومراجعة المسلمات الأخلاقية بما فيها تلك المهمات التى اشتقت من التقاليد الأوربية الانسانية فى ضوء رؤية العقيدة الماركسية للصراع الطبقي .

لقد لاقت وعود الاشتراكيين بالدفاع عن مصالح المعدمين فى مواجهة الاغنياء وبدعم المقهورين بسبب الظلم الاجتماعى قبول الشعوب التى تعاني من الصراعات الاجتماعية المفرطة وذلك قبل الحرب العالمية الثانية ، ومن ناحية أخرى وعد الاشتراكيون باعطاء المبدعين وضعا اجتماعيا مرموقا ، وهى الفرصة التى اعتبرها كثيرون من المفكرين هبة من الله لن تعوض .

لقد أساء الشيوعيون استخدام ثقة الطبقة العاملة عندها ادعوا أن حزبهم هو مستودع كل المبادئ الإنسانية وقد قدر التاريخ له أن يكون القوة الحاكمة في المجتمع . وتغلغل أعضاء الحزب في النقابات وسيطروا تماما عليها باعتبارها « الطريق » إلى الطبقة العاملة . ورغم أن الشيوعيين كانوا يدافعون عن البروليتاريا ، إلا أنهم لم ينفوا في هذه الطبقة التي حاولوا — باسمها — أن يصلوا للسلطة إذ نظروا للعمل على أنهم مجرد جماهير مراوغة وتجمع غير فعال عاجز عن فهم مصالحة الخاصة ، أما الشيوعيون الحقيقيون فهم الأقلية المثقفة التي اثرتها مهمتها السامية واعتبرت أية معارضة لخطط حزبهم جريمة .

النشوء ونظرية العسكريين

بعد عامي ٤٤ — ١٩٤٥ الماساويين ومنذ أن أعلن السوفييت بأنهم لا يهدفون إلى إقامة أنظمة شيوعية في شرق وقلب أوروبا بدأت الأمور تتغير في عام ١٩٤٦ . وبلغت الحرب الباردة Cold war ذروتها ودخلت الحرب الأهلية في اليونان والتي بدأت عام ١٩٤٤ مرحلة أسوأ من ذي قبل ، وهاجم الغرب بشدة الممارسات السياسية الشيوعية التي اتسمت بالعنف مما جعل ستالين يدرك أن الوقت قد حان للتخلي عن الشعارات التي ترفع للتهدة وخاصة فيما يتعلق بالجبهات الشعبية والاتلافات القومية . كما كان المناخ مناسباً في الكرملين لظهور الصراعات الشرسة من أجل النفوذ وذلك بين فرقيتين تنازعا ليكون لأحدهما اليد العليا في بطانة الطاغية العجوز ، أحدهما مكون من عملاء موسكو بقيادة جورجى مالينكوف Georgy Malenkov ولافرينتى بريا Lavrenty Beria ، والآخر من الرئيس السابق لحزب ليننجراد أندري زدانوف (٤١) Andrei Zhdanov إذ بدأ محاولات مستمرة ودعوية كي يبرهنوا لستالين على التزامهم التام الذي لا يعرف الكلل بمبادئ الصراع الطبقي الدولي .

ويرى زدانوف أن اللجنة البريطانية وهي الدعامة الأولى للقوى المعادية للشيوعية في اليونان أولا ثم قرار الولايات المتحدة لإقرار العلاج الاقتصادي في أوروبا الغربية من خلال خطة مارشال Marshall Plan (٤٢) ثانيا كانا مؤشرين واضحين على أن المهلة الخاصة بالاتفاق الدولي مع الأتحلاف « البرجوازية » السابقة بلغ نهايته ، ورأى كهنة الأرثوذكسية

الستالينية ، أن المرحلة الجديدة في الصراع العنيد بين قوى السلام والتقدم والقوى الرجعية ودعاة الحرب قد بدأت .

ولم يعد هناك أى متسع للبحث عن « الطريق القومى للاشتراكية » ، ثم كانت صيحة الحرب التى أصدرها زدانوف لكل الشيوعيين والقوى التقدمية ، فالتفوا حول الاتحاد السوفيتى باعتباره « قلعة الأحلام الانسانية عن المساواة والسعادة » ، ان النظرية التى أنشأها زدانوف رجل ستالين الأول وتبصر ايدولوجيا الكرملين هى مهد فكرة الأممية وسبب انتشارها حتى موت ستالين فى مارس ١٩٥٣ .

وقد أوضح زدانوف استراتيجيته الخاصة بتقوية الصراع الطبقي الدولى وتوضيح مدلولاتها لأوروبا الشرقية وذلك فى الاجتماع السرى الذى تم فى بولندا فى مدينة تسكلارسكا بوريا Szklarska Poreba فى ديسمبر ١٩٤٧ . وفى هذه المناسبة اجتمع ممثلو الأحزاب الشيوعية البلغارية والتشيكية والفرنسية والبولندية والرومانية واليوغوسلافية لمناقشة رد الأحزاب المشترك على ما أسماه ستالين السلوك العدوانى الجديد للامبريالية الأمريكية وبلغ الاجتماع السرى هدفه بتشكيل مكتب معلومات للأحزاب الشيوعية وأحزاب العمال فى مدينة بلجراد Belgrade ويشار لهذه المنظمة الجديدة باسم الكومنفورم Cominform الذى يدل على رغبة موسكو فى احتواء التيارات المبعثرة داخل عالم الشيوعية ، ورغم أن الهدف من انشاء الكومنفورم جعله امتدادا للكومنترن الا انه افتقر للمنزلة التى تمتعت بها الأممية علوة على عدم انضمام بعض الأحزاب المؤثرة للكومنفورم منها الحزبان الشيوعيان الصينى واليونانى لانخراطهما فى حروب أهلية .

بل لقد غاب عن الكومنفورم حزبا اليابان والمانيا الشرقية وهذا يعنى أن الكومنفورم لم يضم كل الأحزاب الفاعلة على الساحة الأوروبية ، أو قل التى تتمتع بنفوذ وسطوة .

وكان صوت الشيوعيين اليوجوسلافيين صوتا مسموعا مطالبا بتوحيد الجهود ضد الغرب واتهموا زملاءهم من ايطاليا وفرنسا بـ « الانهازمية » و « الاستسلام » و « الانتهازية اليمينية » ، ومنذ الاجتماع السرى فى تسكلارسكا بوريا أصبح لزدانوف مكانة عالية مرموقة فى الاتحاد السوفيتى وبين كل الشيوعيين ، وبعد عام واحد فقط منذ أن وجه اللوم للشاعرة آنا أخماتوف Ann Akhamatov والفنان ميخائيل زوتشنتكو Mikhail Zoshchenko لانحرافهما عن عقائد الواقعية

الاشتراكية والتي ترى انه « يجب أن يرتبط الفن بمهمة الانتقال الأيديولوجي وتنشئة العمال على الروح الاشتراكية (٤٣) ومن خلال حملة ١٩٤٦ المعادية للثقافة كون زدانوف نظرية شوفينية مضادة للغرب والخاصة بالادعاء الروسى بالتفوق الأخلاقى والتزام المثقفين بالتكيف مع أوامر الحزب على نحو صارم :

« ان حضارتنا التي تعبر عن المستوى المعيشى المرتفع اذا قورن بنظيره في الدول البرجوازية وثقافتنا التي تتفوق عن مثيلتها في الدول البرجوازية من حقها ان ترشد الآخرين لنظام اخلاقى شعبى جديد ، اين يمكنك ان تجد مثل امتنا ؟ اين يمكنك ان تجد مثل هذه الصفات الانسانية الرائعة التي يتمتع بها شعبنا السوفيتى في حرب ارض الاجداد Fatherland ... ان الكاتب لا يستطيع ان يتابع الأحداث الا عندما يكون في الصفوف الأولى للجهايم ، يجب ان يريهم الطريق الى التقدم ولكن في ضوء الواقعية الاشتراكية ومسترشداً بالدراسة الواعية للواقع ويمحاولة فهم اسس نمونا وتطورنا » (٤٤) .

واهاب زدانوف في الاجتماع السرى لتأسيس الكمنفورم بالشيوعيين لاصدار بيان فحواه ان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية هو الذى يجسد حقا الاهداف الانسانية للصراع المعادى للنازية بينما قاومت القوى الغربية هتلر لأسباب ترجع لأطماعهم وأهدافهم الامبريالية فقط .

وكشف هذا البيان مدى صعوبة الموقف السوفيتى المحلى والدولى ان اهتم بحشو العقول بالأخيلة الأيديولوجية وبالهجوم الانتقامى ضد الغرب ، وراى المنظر الأول لستالين ان الاتحاد السوفيتى والبلدان الديمقراطية الأخرى لابد ان تجعل اعادة وتقوية اواصر النظم الديمقراطية فى اوريا ، وابادة الفاشية ومنع اى اعتداء جديد على أى جزء من ألمانيا واقامة تعاون ممتد وشامل بين الدول الأوربية من أهدافها الأساسية ، ومن ناحية أخرى حققت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى هدفا آخر من وراء دخولهم الحرب وهو اقتحامهم الاسواق كمنافسين لألمانيا واليابان وبذلك فرضوا هيمنتهم ، واستمر زدانوف فى جداله قائلا :

« ان الفرق بين تعريف أهداف الحرب ومهام الاستقرار التي تلى الحرب تأخذ أبعاداً أكثر عمقا بعد انتهاء الحرب وبناء عليه تم تشكيل معسكرين ، المعسكر الإمبريالى والمعادى للديمقراطية ، وهدفه الأساسى هو فرض هيمنة الامبريالية الأمريكية وسحق الديمقراطية ،

والعسكر المعادى للامبريالية وهو معسكر ديمقراطى كان هدفه الرئيسى هو تقويض اواصر الامبريالية وتدعيم الديمقراطية ، وابادة كل اثر للفاشية » (٤٥) .

وكان قصد زدانوف قاطعا لا يشوبه أى غموض فهو يرى أنه لا يوجد طريق وسط بين الاشتراكية على الطراز السوفيتى والرأسمالية الغربية ، وترجمت رؤيته العقائدية Manichean هذه فى التعجيل والاسراع بعملية فرض هيمنة روسيا على البلدان الشرقية (٤٦) وتبعيتها لها ، وعندئذ فرض على أوروبا الشرقية نمودجا يكمن فى التخلص التام من التوجهات السابقة على الصعيد الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والثقافى ، وكذلك اقضاء كل الأعداء الذين يتمتعون بثقل حقيقى على الصعيد السياسى .

وشيدت البنى الجديدة على انقراض هذه المجتمعات المظحونة ، والتى يتم اخضاعها بفرض التبعية عليها ومن ثم تحويلها لنسخ كربونية من المجتمعات السوفياتية من حيث : البرلمانات البيفائية ، والسيطرة الشيوعية على كل أجواء ومجالات المجتمع واقامة مجمع لمعسكرات الإيابة ليتولى أمر العناصر السياسية المشكوك فيها واقامة مؤسسة للاقتصاد المركزى حيث تلغى الملكية الخاصة تماما وتستبدل بملكية الدولة لكل مصادر الثروة .

وفى رومانيا ، على سبيل المثال ، بدأ تطبيق هذا النموذج فى مارس ١٩٤٥ : وقد قام نائب وزير الخارجية السوفيتى اندريه فيسبىنسكى Andrei Vyshinsky بزيارة لرومانيا وأجبر الملك ميخائيل على تعيين بيترو جروتزا Petru Gроза رفيق نضاله على درب الشيوعية كرئيس وزراء رومانيا . وعندما رفض الملك ازادات لهجة النائب العام السوفيتى حيدة وهدد بالتدخل السوفيتى . وفق نفس الوقت عيبا الشينيوغينون: جحافلهم المقاتلة وتشروا الأزهات فى أرجاء البلد . لذا فان الملك استسلم للأمر (الدكتات) السوفيتى ، وسقط البلد فى أيدي الحكومة التى مینت من قبل السوفيت وغين الشيوعى تيورى جورجسكو Teohari Georgescu وزيرا للداخلية مؤكداً بذلك على مدى تدهور النظام الديمقراطى واكمل التحول للسوفياتية فى ديسمبر ١٩٤٧ وذلك عندما أجبر الملك على التخلّى عن عرشه وأعلنت رومانيا جمهورية شعبية وحدث نفس السيناريو فى معظم بلدان أوروبا الشرقية ، ففى المجر احتل الشيوعيون المناصب الاجتماعية ، وشغلوا كل المواقع الحيوية بالحكومات .

وأشار الزعيم الشيوعي ماتياس راكوسي Matyas Rakosi

— متهمًا — إلى « الاستبعاد » الذي يتم للشركاء غير الشيوعيين في الحكومات الائتلافية (٤٧) وعلى عكس المجريين استخدم الشيوعيون البلغاريون تكتيكات « المواجهة » لضعاف منافسيهم أولا ووصلوا إلى السلطة ثانياً (٤٨) . وفي بولندا برز الشيوعيون مرة أخرى أثناء الحرب تحت اسم حزب « العمال البولنديين » « Polish Worker Party » بقيادة القائد السري فلاديسلاف جوميلكا والذي حاول أن يستدر مشاعر الجماهير القومية ولكنه لم يجد أى مردود لدى الجماهير التي ظلت تنظر إلى الشيوعيين على أنهم أدوات للحكومة السوفيتية . وانخرط الشيوعيون في عملية « التهذبة » وذلك بما مارسوه من قمع حاد لآخر جيوب المقاومة المسلحة ضد الشيوعية بمساعدة ودعم من الاتحاد السوفيتي ، مستغلين مواقعهم القيادية في الوزارات المختلفة .

ويسجل أحد السياسيين البولنديين الذين شهدوا على هذه الواقعة ملاحظاته الآتية :

« ... في السنوات التي تلت الحرب مباشرة لم تكتسب الأحزاب الشيوعية وحلفاؤها دعماً شعبياً مؤثراً في بولندا بل وظلت الغالبية العظمى من البولنديين موالين مخلصين للبولنديين في المنفى ودعموا المعارضة التي قادها حزب الفلاحين البولندي . ولم يتقبل النظام الشيوعي السلطة في بولندا ، إذ كان هناك صراع عنيف بين حزب العمال البولندي ومن ورائه القوة العسكرية السوفيتية والقوى السياسية المعادية للشيوعيين ومن ورائها الغالبية الساحقة من الشعب البولندي » (٤٩) .

وما يؤكد استمرار المقاومة البولندية المعادية للشيوعية هو الإصرار العنيد على الاتصال بالكنيسة الكاثوليكية . وكان وضع الكنيسة الكاثوليكية المتجاوز للقوميات والميثاق في تبعتها للفاشيكان مصدراً للدعم الدولي ، بينما حاول الشيوعيون قطع أية آصرة بين الجماعات المحلية والعالم الخارجي . وفيما بعد ستمثل الكنيسة الكاثوليكية معقلاً للمجتمع المدني البولندي رغم حصار الشيوعيين لها .

وكانت تشيكوسلوفاكيا هي آخر الضحايا التي سقطت فريسة للسياسات السوفيتية المدمرة . وقد دبر الشيوعيون لحشد مظاهرات ضخمة في فبراير ١٩٤٨ لاجبار الوزراء المعادين للشيوعية على الاستقالة لما زعم عن قيامهم بأشقة تأمرية . واضطر الرئيس أدوارد بتيش

Edward Benes الى أن يذعن لأذار الزعيم الشيوعى كليمت جتولد الذى شكل حكومة جديدة خالية من ممثلى الأحزاب الديمقراطية . وأصرت الدعاية الشيوعية على أن يتم لها الغلبة فى تشيكوسلوفاكيا بطريقة سلمية ودستورية .

وعلى أية حال فالحقيقة هى أن الشيوعيين كانوا يعدون أنفسهم من أجل الحسم العسكرى للقوى الديمقراطية وكانت فصائل الميليشيات مستعدة للعمل العسكرى فى المصانع التى تقع فى كل أنحاء القطر . وساهم تواجد فاليرين زورين Valerian Zorin نائب وزير الدولة السوفيتى للشئون الخارجية عند وقوع الانقلاب العسكرى فى الضغط على المعارضة ، واعترف واحد من المشاركين فى هذا الانقلاب بعد عشرين عاما من ضربة فبراير خلال ربيع براغ Prague Spring ١٩٦٨ قائلا :

« لقد أفسدنا صورة قصة فبراير ... وزورنا التاريخ الحقيقى لفبراير وأشعر اننى لم أكن أمينا أبداً فى السرد ، الآن فقط أرى أن الوقت قد حان لعمل دراسة ناقدة تجعلنا نضع أيدينا على الأخطاء وانصاف الحقائق والحقائق الزائفة التى روجت فى فبراير ١٩٤٨ داخل أرجاء الوطن وخارجه » (٥٠) .

ووصف زدانوف الانظمة الجديدة فى أوربا الشرقية بأنها لم تكن دكتاتوريات بلوريتارية ناضجة ، بل هى مشاريع لصيغ سياسية جديدة تسمى « الديمقراطية الشعبية » (٥١) . وقد عكست الجريدة الرسمية للكمفورم الصيغة السياسية الجديدة فى شعارها « من أجل سلام دائم ، من أجل الديمقراطية الشعبية » وكان ستالين نفسه هو الذى ألف هذا الشعار الطويل . لقد كان هذا الشعار الأخرق محاولة لإجبار الاعلام الغربى — متى ذكروا صحيفة الكمنفورم — أن يرددوا شعاراتها .

لقد كشفت ضربة براغ فى فبراير ١٩٤٨ عن لهفة ستالين كى يغرى الأحلاف الشيوعية الشرق أوروبية لقبول منحة الغرب لاسداء العون لهم من خلال خطة مارشال Marchall plan . واعتقد ستالين باغراء من خطة مارشال المشار إليها بأن الوقت قد حان للكآ عن تشجيع أو قبول أى مبادرات سياسية تأتى من جانب الشيوعيين المحليين . أن ما يقوم به ستالين يبين أن الكمنفورم جاءت للوجود من أجل توحيد كل من السياسات الداخلية والخارجية للأنظمة التى أنشئت حديثا فى ضوء التفسير السوفيتى للتغيرات التى تتم فى ميزان القوى

الدولى ، كما استهدف ستالين من تكثيف التناقضات الامبريالية جعل الهجمات ضد الأقطار الشيوعية أكثر ضراوة ولم يسمح لأحد باختراق الصفوف فى هذا المنعطف التاريخى الخطير .

وقد دعم تينو وبحماس توجه ستالين الجديد رغم أن الفرصة كانت سانحة لينو كى يتوسع فى برنامجه الخاص .

ولسخرية الأقدار لم تتلاق وجهتا النظر السوفييتية واليوجوسلافية للصراع الطبقي الدولى وظلا خطين متوازيين لا يلتقيان حتى ان الصدام بين البلدين كان واقعا لا محالة . وتجاهل تيتو سلوك ستالين الغيور وبادر بمشروع من أجل كونفدرالية دانوبية Danubian تتضمن يوجوسلافيا وبلغاريا ، وربما رومانيا .

اما الاتصالات السرية لتيتو مع المسكوفيين فقد كان السوفييتون على علم تام بها باعتبارها تحديا لسيادة روسيا العظمى على الجميع داخل المعسكر الشيوعى بل وداخل الحركة الشيوعية العالمية .

لم يستطع ستالين أن يتحمل وجود قطب للسلطة يضاهيه وينائوه ، فكرس جهوده على ترويض قيادة يوجوسلافيا المتمردة . وتبدلت الخطابات بين الكرملن وتينو ولكن دون جدوى . وهكذا سبق السيف العذل ولم يعد قى مقدور القيادة اليوجوسلافية التراجع عن الانشقاق وفور رفض تيتو الخضوع للنفوذ السوفييتى الذى ينم عن شعوره بالتفوق ، تحول لعدو لدود للديكتاتور السوفييتى ، واعتبر ستالين كل المنشقين والمنتمين للتروتسكية Trotskyism وكل « الحركات المنشقة » الأخرى أشرا را لا بد من القضاء عليهم واستئصالهم تماما فى الاتحاد السوفييتى .

ان النزاع مع يوجوسلافيا خاصة بعد أن قطع تيتو اتصالاته مع الكنفورم فى يونيو ١٩٤٨ أعطى اشارة البدء للمذابح الدراماتيكية داخل أحزاب شرق أوروبا الشيوعية. ولكنه يشير فى ذات الوقت الى ان هيمنة الاتحاد السوفييتى على الدول الأخرى لم تستطع أن تقمع الاتجاهات الوطنية المحلية حتى داخل أكثر الحكومات الشيوعية تأييدا للسوفييت . ومع ذلك فقد كرس تيتو كل حياته من أجل القضية الشيوعية . لقد أصبح تيتو قائدا بموافقة ستالين ولكن خطأ تيتو القاتل — من وجهة نظر ستالين — هو آمله فى الاحتفاظ بحكمه المستقل الدستورى ليوجوسلافيا وبعلاقته بالكرملن فى آن واحد .

وفى هذا الوقت الحرج وبالتحديد عندما قرر الامبرياليون ان يكتفوا
 اعمالهم العدوانية ضد « الديمقراطية الشعبية » مع ظهور شواهد
 لحرب عالمية ثانية وشيكة ، قرر ستالين انه لن يسمح لأى بلد او زعيم
 بالتورط فى التجارب الخاصة بالأممية الدولية فالزعيم يعتبر الأممية
 خيانة للاتحاد السوفيتى بل وخيانة للمبادئ اللينينية الماركسية المقدسة
 ومن ثم وجهت ابشع التهم لهؤلاء الأميين ومنها التعاون مع الجستابو
 Gestapo ووكالات الاستخبارات الغربية . لقد كانت الفردية هى
 عقيدة الستالينية ومن تم وجب ان تستأصل ودون رحمة كل الانجاهات
 المعادية لفكرة سيطرة « الواحد » . لقد كان الهدف من الكومنفورم توحيد
 سياسة الانظمة التى تأسست حديثا بما يتلاءم مع راديكالية السلوك
 الدولى السوفياتى وبما يضمن منع مثل هذه الصدامات ، الا ان الشرط
 الوحيد لمنح الشرعية للأحزاب الشيوعية الحاكمة أن ندور فى فلك
 الاتحاد السوفيتى ، وان تنفذ جميع توجيهات ستالين دون احجام . وقد
 خضت الأحزاب الشيوعية فى أوروبا الشرقية بالقوة وبفضل ستالين
 وصلت الى المواقع القيادية ، ومن ثم نعم القادة الحزبيون داخل بلدان
 عدة فى الكتلة السوفيتية بتقديس شعوبهم الا انهم لم يكونوا سوى
 ظلال تعكس ايمانهم الشديد بالزعيم ستالين .

وقال جوميلكا الزعيم الشيوعى البولندى عن القادة المحليين انه
 « يمكن اعتبارهم مجرد ظلال او ضوء مستعار ، انهم يضيئون مثلاما يضىء
 القمر » (٥٢) .

لقد رأى ستالين انه لا مجال للشك وحذر من التفكير والذكاء
 الناقد ونظر الى الماركسية على أنها الحقيقة الكلية المنزهة عن كل
 شك ، وادعى ستالين أنه سيحسم كل القضايا الشائكة والمواقف
 المحيرة بما له من وحدوية كلية مزعومة . لقد احتفى بكوادر النظام
 العسكرى العدوانى السلطوى وكان الزعيم هو الضمان الوحيد للبقاء
 الأيديولوجى والخضوع التام لأوامره هو التصرف الوحيد المقبول
 اجتماعيا ، ومن ثم تحطم مبدأ الحكم الذاتى المدنى وحل محله الطاعة
 العمياء من جانب المناضلين السياسيين . وكى تتحقق الوحدة الأيديولوجية
 والنظام الصارم فان الماركسية ابتكرت وأتقنت طريقة « التطهير » التى
 كانت الدعامة الأساسية للسيادة الستالينية وهى البديل العصرى
 لمفصلة العصور الوسطى . وقد تبناها صبية ستالين الأوربيون
 الشرقيون وكيهوها حسب أغراضهم . وأصبح الحزب هو القائد

الأعلى الذى يطبق حرفيا منهج ستالين ووجد الشعب فى مؤلفات ستالين اجابات للأسئلة المستعصية . وقد وصف كل مناوىء بأنه « عدو الشعب » ، وحكم على اعضاء الاحلاف السياسية التقليدية ، وأعضاء الكنيسة ، وممثلى الانتلجنسيا القومية الذين رفضوا التعاون مع الأنظمة الجديدة بالسجن لمدد طويلة من خلال محاكمات صورية أو محاكمات سرية خاطفة ، وهذه هى المرحلة الأولى للتطهير فى أوربا الشرقية . واقتاتت المذابح بعد عام ١٩٤٩ بالأحلاف الشيوعية نفسها وراح ضحيتها هؤلاء الستالينيون المخلصون ، بل كانوا أول من دفع ثمن آلة الارهاب الشرهة .

ويرى الفيلسوف البولندى المولد لتسك كولاكفسكى ان المذابح ساهمت فى القضاء على البقية الباقية من الحكم الذاتى الذليل وخلق جو اشتراكى لا يجرؤ أحد على نقده :

« ان هدف الشمولية هو تحطيم كل أشكال الحياة الطائفية التى لا تقرها الدولة بل تقوم بمراقبتها عن كثب وتفرق بين الأفراد ليتحولوا لأدوات فى يد الدولة التى ينتمى لها المواطنون ولا يجب ان يحملوا لغيرها أى ولاء ولا حتى ايدىولوجية الدولة » (٥٣) .

لقد كان ستالين المستفيد الوحيد من تفسير وتأويل العقائد الأيدىولوجية لتلائم التغيرات فى الخط الرسمى للحزب واتسمت الأيدىولوجيا بالغموض والجمود وكانت خليطا من الأعراف البالية والتحريمات ، التى لابد للفرد أن يعتمدها ويطيعها طاعة عمياء . وفى الوقت الذى كان السياسيون الحزبيون أبرياء مما وجه اليهم من تهم ، فقد حاول الستالينيون قمعهم ، لأنهم كانوا رموزا لتقاليد سياسية مرفوضة ووصفتهم النظرية الستالينية المزعومة بأنهم طبقة من « الاعداء الموضوعيين » وذلك لأنهم عبروا عن تحفظهم على الممارسات السوفيتية بل وانتقدوا ستالين نفسه وما حدث من جدل وخلافات مع تيتو كشفت عدم الثقة التى تفشت بين زعماء شرق أوربا ومنهم لاتسلو راجيك Lazlo Rajk فى المجر وكان قد شارك الحرب الأهلية ومد أواصر الصداقة مع حاشية تيتو . وكان الفرض من عملية التطهير المستمرة هو القضاء على أية مبادرات محلية والتأكيد على استمرار الهيمنة السوفيتية على الدول التابعة لهم تامة .

ويرى زيجنيو بريجينيسكى Zbigniew Brzezinski المحلية شيئا مبالغا فيه بل ان الأمر مجرد « انشغال غير واع بالاهداف

المحلية الأهلية الشيوعية على حساب الأهداف السوفيتية الأعم والدولية » (٥٤) . لقد نظر للمحلية على أنها فلسفة غير حكيمة لمعارضة السيطرة السوقية ، وأنها تأييد لرؤية بعض الزعماء الشرق أوروبيين أمثال فلاديسلاف جوميلكا في بولندا ولكريتيو باترسكانيو Lucretiu Patroscanu في رومانيا وتريتشيو كوسنوف Traicho Kortov في بلغاريا ، ولا يعنى ذلك ان المصالح القومية تعارضت بالضرورة مع جدول الأعمال السوفيتي . وبعد ردع كل المبادرات والأهداف المحلية بدا أن الحكام « المحليين » الشرق أوروبيين لم يكونوا على صواب وتعرض معظمهم اما للموت أو السجن لاتهامهم بأبشع التهم وأسخفها .

وأصبحت المحلية ظاهرة دولية وسعى ستالين لاقتلاع هذا الاتجاه وهو برغم والا ستصبح خطرا يهدد الهيمنة السوفيتية التي عمل على فرضها على كل دول أوروبا الشرقية ، وتعرضت التيتوية Titoism باعتبارها محاولة شجاعة وخطيرة لاعادة الرأسمالية ولفصل يوجسلافيا عن : عائلة الأشقاء الاشتراكيين لهجوم الكنفورم وأصبح هدفه الأول -ان لم يكن الوحيد هو قمع مثل هذه الطموحات المحلية . وكان القضاء على المحلية نهائيا والى الأبد وفرض الوحدة على هذه الدول شيئا لا بد منه . وعبرت وجهات النظر السوفيتية عن مدى الهيمنة السوفيتية التي لاقت كل التقديس باعتبارها معصومة من الخطأ .

ولتحقيق المخطط الستاليني في أوروبا الشرقية تم اتباع استراتيجية واحدة تؤدي في نهاية الأمر الى تحويل الثقافات السياسية القومية المتعددة لنسخ كربونية من التجربة السوفياتية التقدمية . وتورطت الأحزاب الشيوعية المحلية في محاولات مشبوبة لتقليد النموذج الستاليني وأحيانا تعزيز أكثر سمات النظام الشمولى السوفيتي بغضا محققين بذلك غايات استراتيجية .

الأهداف الاقتصادية : التصنيع

وفي المجال الاقتصادي كانت ستالينية شرق أوروبا تعنى تبني نموذج الاقتصاد المخطط . وتشكلت اللجان العامة للتخطيط في كل البلدان الاشتراكية الشرق أوروبية . وكانت مهمتها هي رسم المهام الأساسية للاقتصاد الذي نملكه الدولة ومن ثم بنى اقتصاد الدولة المخطط على تأمين وسائل الانتاج الرئيسية وقامت الديكتاتورية -الاقتصادية الستالينية بدور مهم لاقامة

الصناعة الثقيلة خاصة الصناعة الآلية الكبيرة ، ونطبقا للعقيدة السوفياتية القائمة على مبدأ الاكتفاء الذاتى الاقتصادى الا أن فرض التصنيع على دول مثل رومانيا وبلغاريا التى تفوقت فى السابق فى المجال الزراعى يعد خرقا للمسيرة الاقتصادية الطبيعية ويقضى على المصدر الأساسى للمناخ للنمو الاقتصادى وهو الزراعة ، ومن ثم شرعت كل الدول الشرق أوروبية فى إقامة بنية صناعية وتجاهلوا نهما أهمية التوازن بين الفروع الاقتصادية المتعددة . وأدى الانحلال بالتصنيع السوفيتى الى إطلاق العنان لمشاريع ضخمة Pharaonic مثل مد القنوات وإقامة مصانع الصلب دون الأخذ فى الاعتبار النماذج الاقتصادية الأساسية .

لقد أقيمت هذه المشاريع لأسباب أيديولوجية بحثة بصرف النظر عن مدى فاعليتها حتى اذا ما فشلت فى تحقيق النتائج المرجوة فإن اللوم يلقى على المخربين المزعومين الذين حاولوا خلق عقبات فى طريق المسيرة الظاهرة التى تبغى تحقيق مجتمع غير طبقى .

لقد رغب الشيوعيون فى الانتقال بالطبيعة والمجتمع معا الى المرحلة الجديدة ومن ثم دمجوا بين التخطيط الاقتصادى والاجتماعى والتربوى بصورة قسرية ومستبددة . ان المعادلة اللينينية الكلاسيكية « الاشتراكية او القوة السوفياتية + الصدمة الكهربائية » لم يبق منها سوى الطرف الثانى أى الصدمة الكهربائية بل لقد تغيرت فى المرحلة الأولى للستالينية وأصبحت الاشتراكية تعنى ببساطة « الصدمات الكهربائية + الارهاب » تحت اسم الدولية البروليتارية فرض الانحلال السوفيتى الاتفاقيات التجارية المجحفة على الدول التابعة له واجبرهم على انشاء مؤسسات تجارية متحدة مع الشركاء السوفيت والى تضر بمصالح الدول الشرق أوروبية اذ بموجبها استغل السوفيتون الفحم الرومانى والبولندى والبورانبوم التشيكوسلوفاكى وتحول اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية USSR على الصعيد الاقتصادى والسياسى الى عاصمة أم وأصبحت الولايات الشرق أوروبية هى مستعمراتها .

★ الأهداف الاقتصادية : الزراعة

لقد الفت الاشتراكية السوفيتية الملكية الخاصة يحل محلها التعاونيات الزراعية التى استدعى وجودها الاعتقاد الماركسى اللينينى بأن طبيعة مهنة الفلاحة شكلت طبقة رجعية جاهلة لا يمكن أن تشارك

في الكميونة الاشتراكية الا من خلال هذه التعاونيات . لقد بذلت جهود ستالينية كبيرة لتغيير أوضاع الفلاحين ، وهو ما يعد ضرورياً لإنشاء كيان اقتصادي مناسب يمكن السيطرة عليه تماما وتم التأكيد على هذه السيطرة عندما نجحت الحكومة في جعل هذه التعاونيات تعتمد عليها اعتمادا كبيرا للحصول على الامدادات التكنولوجية والآلات الزراعية والجرارات .

★ الأهداف السياسية : القضاء على المجتمع المدني :

وعلى الصعيد الاجتماعي سعت الستالينية الى تحطيم العلاقات الانسانية والتي توصف بشكل عام على أنها المجتمع المدني وغرست في نفوس أفرادها الخوف والرعب ولاقوا منها كل هوان اذ اعتبرتهم مجرد تروس في آلة الدولة التوتاليتارية . وتغير النظام الشرعي ليحرم الأفراد من أي احساس بالحماية أو الأمن . وأشبع القضاء الثوري ظمأ الحزب الشيوعي للنيل من المجموعات الحاكمة السابقة والانتقام من كل متشكك في جدوى الأهداف السياسية والاقتصادية ومن ثم قلبت الشرعية رأسا على عقب وعين قضاة جدد وأصبحت الاجراءات الاقتصادية مهزلة حقيقية .

اما السلطة الحقيقية فكانت في يد الجهاز السياسي للحزب الشيوعي بما فيه من فروع تنظيمية وأيديولوجية وسياسية خاصة بالحفاظ على الأمن وتم تطهير الجيش وتجنيد موظفين جدد من العمال الذين أطاعوا وبتعصب أوامر قادة الحزب .

الأهداف السياسية : اخضاع الحياة الفكرية والثقافية لنظام صارم ذي تسلسل واحد :

وفي مجال الحياة الفكرية نجح الشيوعيون جزئيا في ابطال كل الانجاهات النقدية ، وسحق الحزب كل أشكال الانشقاق التي تظهر داخله أو خارجه . وشنت الحملات للتخلص من « الاتجاهات الموضوعاتية والاممية » .

اما الماركسبة اللينينية التي قام سنالين بجمع وتنسيق قوانينها فقدست باعتبارها الأيديولوجية الوحيدة المقبولة ، ولعبت دورا محسرا ومعينا في تلقين الشعب واخضاعه بسهولة لتوجهات الحزب .

وادعت الأيدولوجيا بأنها كاملة وشاملة وأنها مجموعة من المبادئ العامة لتفسير كل الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .
ويكمن مشروع ستالين الأيدولوجي في تكوين نموذج انساني جديد لمقتدكين مواطن ينقاد تماما للحزب . وأشار الكتاب السوفيتيون المنشفون الى هذا « الانسان الجديد » على أنه « السوفيتي المتسق » وبهذا « السوفيتي المتسق » طمحت الانثروبولوجيا للسناالينية لتحقيق أكثر من مجرد الانتقال الاجتماعي . وبعد مرور ثلاث سنوات من ثورة أكتوبر في ١٩٢٠ كتب الكساتب الروسي يفجنى زامياتن Yevgeny Zamyatin عن قمع الاستقلال الذاتي الانساني في البلفينان Leviathan (٥٥) التعاوني حيث قال :

« خذ ميزانا وضع على احدى كفتيه جراما وعلى الأخرى طنا ،
أى على احدى كفتيه « أنا » وعلى الأخرى « نحن » أو دولة واحدة .
ليس من الواضح أن افترض أن « الأنا » يمكن أن يكون لها
بعض أنواع من « الحقوق » في علاقتها مع الدولة هو تماما مثل
الادعاء بأن الجرام يمكن أن يساوى الطن في الوزن ؟ وبناء عليه فإن
الطن يمثل الحقوق بينما يمثل الجرام الواجبات والطريق الطبيعي من
اللا شئئية الى الخلود هو أن ننسى أنك جرام وأن تتشعر نفسك بأنك
جزء من مليون من الطن » (٥٦) .

ان اخضاع النظام الاجتماعي لنسق واحد صارم لابد أن يكون شاملا . ولا يمكن لأى مجال من مجالات الحياة مهما كانت خصوصيته ، أن يفلت من هذا الدمج . وفي كل البلدان التابعة فرضت البيروقراطيات الأيدولوجية (٥٧) ، للقيام بحملات غسيل مخ مشابهة لتلك التي تم تجربتها بالفعل في الاتحاد السوفيتي وملأت الشعارات الدعائية الجوفاء كل وسائل الاعلام . وعهد بالمجال الأدبي للمفوضين المتعصبين حيث كان هدفهم الوحيد التخلص من كل أشكال الفكر المستقل . وأعلنت « الواقعية الاشتراكية » طريقا للكمال الثقافي السياسي وطريقا للانناج الكبير (الجملي) (بضم الجيم وفتح الميم) الخاص بهذا الواقع اليوتوبي ، مما جعل الجمهور يشعور بالامتعااض تجاه هذا الابداع المكفول والمفروض رسميا .

وفقد الأدب والفن والفلسفة كل مصداقية لهم اذ كانوا ذيو لا للنظام القائم ، وأصبحوا مرتعا للكذب والرياء والفساد الأخلاقي ورفضت فكرة من المبدعين التورط في هذا التلفيق وتعاون بعضهم مع النظام بدافع

الخوف أو بدافع الانتهازية ومن ثم أصبح الانتحار الأخلاقي والسلوك المتلون وباء متفشيا بين الانتلجنسيا الشيوعية . وحاول كثيرون ايجاد تفسيراً لتدله الانتلجنسيا الشرق أوروبية بالليزيانية الماركسية أو « الدين الجديد » ومنهم تشيسلوميلونز Czeslaw Milosz عندما حلل في كتابه « العقل الأسير The Captive Mind » الذي نشر في ١٩٥١ عندما وصلت الحرب الباردة لذروتها أوهاام وأخيلة زملائه الذين اعتنقوا الشيوعية بعد وصول القوات السوفيتية لبولندا .

ويرى ميلوتز أن دور الايدلوجيا هو نزع الشك . وغرس الحب والامتنان وبلا حدود في نفوس الأفراد تجاه الحزب ، وادعاء المعرفة الكلية وتقديم اجابات جاهزة لكل القضايا التي لم تحسم ، وتعزيز اعتقاد الفرد بأنه لا يوجد خلاص خارج الحزب أو بعيدا عنه فقال ميلوتز :

« هناك اجناس من الحشرات التي تحقق سمها في جسد اليرقة ، فنصاب اليرقة ونظن انها ستظل مشلولة ونترك نفسها كحاضن جيد لبيض الحشرة السامة فتفقس فيها . ان ماركس وانجلز لم يتنبأ بان عقيدتهم سوف تستغل بنفس الطريقة حيث يدس مخدر المادية الجدلية في عقول افراد الشعب ، وعندما يصاب عقل الفرد بالشلل كما هو مطلوب توضع بيض الستالينية فيه . » وبمجرد ان تكون ماركسيا « يقول الحزب للمريض : « يجب أن تكون ستاليني لأن لا ماركسية خارج الستالينية » (٥٨) .

وقال زيغنيو هربرت Zbigniew Herbert شاعر بولندا العظيم أن دعائم الستالينية هي الخوف ، العظمة ، المنعة المسنمة في اذلال الآخرين ، وقاعدة من المصالح المادية . الا ان هناك مبدعين آخرين قبلوا بل ابتهجوا للتعاون مع المؤسسة الستالينية :

« ستالين أيها المتحدث العظيم ، لقد قلت مرة ان الانسان لا يحتاج لشراء أمة . فالانسان ببساطة يجب ان يملك مقدرات الأرواح البشرية ، ان الحكومة في حاجة للشرعية التي تدعمها طبقة المثقفين أو « الانتلجنسيا » « المبدعة » وخاصة الكتاب . . . لقد كانت هناك هوة بين الحلف ومشاعر الأمة ، واعتقد هؤلاء بأن الأمة جمهور أحق يجب أن تقوده الأقلية المستتيرة مثل هؤلاء الذين بدعوا النظام الفاشي أى الحلف الذي نصب نفسه ثم فرض على الآخرين رؤية عن المستقبل السعيد » (٥٢) .

الخلاصة :

ماذا حدث في كل دولة من دول شرق أوروبا ؟ كيف أمكن اقتلاع نواة التفكير الناقد وتحويله لتفكير عقيم ؟ كيف خطط الجهاز الحزبي الذي ترأسه الائتلافات الصغيرة لسحق كل المعارضة وفرض دوره الأوتوقراطي ؟ من هم ضحايا هذه التطورات ؟

كى يمكن فهم نجاح التجربة الستالينية في أوروبا الشرقية يجب أن نذكر الدور الحاسم الذى لعبه التهديد الدائم بالتدخل السوفيتى المباشر ، ونذكر أيضا التنكيلات الستالينية المحلّة التى قلّدت النموذج الستالينى في ندميرها للمؤسسات المعادية للشيوعية وتفتيت المجتمع المدنى والاحتلال الاحتكارى للساحة الشعبية من خلال المنظمات والمؤسسات التى تسيطر عليها الدولة منها (منظمة الشبيبة الشيوعية ، ونقابات العمال التى سيطر عليها الحزب ، ومجالس منظمات السلام ومنظمات جماهيرية أخرى تابعة) .

وكانت الغاية العليا هى خلق اجماع رأى سلبي ناشئ عن الخوف ومبنى على الالتزام المطلق بالبرنامج السياسى للحزب الحاكم ، أن النظام السياسى هو نظام « عبادة الفرد » وحيث يرمز الشخص للحكمة الجماعية التى لا تخطئ وحيث يعد الاختلاف فى ذاته تدميرا ، وحيث لا توجد مطلقا أية مساحة للمعارضة ، وحيث يقووض الكنان الاجتماعى وائ معيار للثقافة المدنية .

أن تركز السلطة السياسية فى يد نصف اله شيوعى أدى لعبادته عبادة دينية قسرية ولاذلال ماسوشى لتابعيه . وكان العامل الذى ساعد على تخمر مبدأ العبودية الأخلاقى والسبائى هو التعريف السنالينى للدولية على انها حب غير محدود لاتحاد الجمهوريات السوفياتية الديمقراطية وقالت الامتتاحة التى نشرت فى الرود برافو Rudepravo الجريدة التشيكية الشيوعية اليومية فى ٢٥ مايو ١٩٥٢ :

« أن الطريق الى مستنقع الخيانة يبدأ حقيقة من الخطأ المتحرفة

التي تتضمن التشكك فى صحة سياسة الاتحاد السوفيتى » (٦٠) .

وقد تم تبرير الارهاب نظريا على انه الخطيئة التى لا بد منها من أجل الحفاظ على النظام ، كما أكد النظام الديكتاتورى الستالينى أن معارضة الجماعات الاجتماعية المهزومة ستصبح أكثر ضراوة مع تقدم البناء الاشتراكى .

وبالتالى سيكون الرد على تلك المؤامرات التى يثيرها « أعداء الشعب » أكثر الحاحا .

وهكذا كرس الارهاب وعلا شأنه كترىاق يصون المكتسبات الاجتماعية .

ان شعار ملحمة أوروبا الشرقية كان النموذج الستالينى للتطهير الكبير الذى نم بالاحاد السوفيتى : « عندما يضرب أحدهم بفأس على الخشب لا بد أن تطير شظياه » . وفى مرحلة بعينها أثار اتهام تيتو بأنه ينجس على روائب وكالات الاستخبارات الغربية Western Intelligence Agencies جدلا حول اعادة تعريف الأولويات الرئيسية فى مجتمعات الديمقراطيات الشعبية . وأعلنت الأحزاب الشيوعية توظيفها « للديمقراطية الاشتراكية » ، ووصفت « الديمقراطيات الشعبية » على أنها صيغة جديدة لديكتاتورية البروليتارية . وأكدت مبادئ الكمنفورم مرارا وتكراراً على « الدور القائد للحزب الطليعى » . ولم تكن سيادة الحزب موضعاً للتساؤل وطرح — دون تردد — النموذج الديكتاتورى السوفيتى كنموذج صالح للتطبيق متجاهلين كل السمات القومية التى تميز كل بلد عن الآخر ولاحكام السيطرة على كل الآليات التى تضمن التوالد الاجتماعى والحفاظ على الهيمنة المقولية كان دور الحزب دوراً مركزياً وتم التخلص من كل العناصر المحرصة — سواء داخل الحزب أو خارجه وسيطر المرشدون السوفيتيون على البوليس السياسى الذى أخذ على عاتقه مهمة انجاز التوجهات الأيديولوجية الأساسية . ان الارهاب كان قحوى الديكتاتورية الأيديولوجية فى شكلها الناضج (١٩٤٨ — ١٩٥٣) كما استمرت الدعائية داخل هذه الديكتاتورية وعجز النظام عن اكتساب أى شرعية .

وتكتسب الشرعية عادة عبر رسوخ مؤسسى ، واستقرار ، وضمان الحفاظ على مبادئ معينة أو على الأقل الحفاظ على الحد الأدنى من وحده الرأى القومى . وتحت مظلة السنالينية فى كل من الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية قام الطغمان الأوتوقراطى بتحطيم الفاعلية الوظيفية للحزب كمؤسسة مستقلة بل تحول لمجرد ملحق للمكتب الخاص بالمسكرتير العام . وفى هذا الصدد قال بيترام وولف : Betram Wolf

« نهدت نظام حكم الحزب الواحد فان الحزب يعد أى شيء الا أنه منزب . بل يتجهوا الى شارس فلشاكم بأهيه ، ويصبح فريق عمل يتمتع

أعضاؤه بالامتيازات وله الأمر وعلى الآخرين الطاعة ، كما تنحصر مهمة فريق من المناضلين السياسيين في حث كل شخص ، كى يبدل آقضى ما عنده لتنفيذ خطط الزعيم ، ويصبح بوقا مسموعا يذيع الأوامر التى لا تعصى والعقائد التى لا تخطىء ، اذهم عيون وآذان النظام ، ان الحزب هو قوة اختراق الصفوف ، والمهيمن على كل المنظمات والأندية والاتحادات النقابية والمزارع الجماعية والمصالح والأجهزة الحكومية والجيش والشرطة ، انه حلقة الاتصال لنقل أوامر القائد للأمة المسلوبة الارادة والأعضاء وللمنطافين مع هذ النظام فى دول أخرى » (٦١) .

ان الكتيبة الثورية تتبع الخطة التى ستعيد بناء الانسان والطبيعة والمجتمع بقتله سديد ، وتم زرع النظام الستالينى فى كل دول أوربا الشرقية البابعة للاتحاد السوفينى وذلك بعد الحرب العالمية الثانية ومن نلك البلدان : البانيا ، وبلغاريا ، وبشكوفسلافيا وجمهورية المانيا الديمقراطية ، والمجر وبولندا ورومانيا ، وفى يوجوسلافيا وبسبب رفض تبتو العند لندخل ستالين فى الشئون الداخلية لبلده وبسبب نخاصه الذى تلا ذلك مع الكمفورم كان هناك ثمة نموذج متفرد سينبثق حيث أقر تيتو دورا قياديا للحزب الشيوعى يختلف عن نظيره الروسى .

وباستثناء زعماء يوجوسلافيا استمدت كل التشكيلات الشيوعية ادعاءها بالشرعية من تبعيتها للاتحاد السوفيتى ولستالين نفسه ، ولم يكن فى المستطاع دعم الأفكار الابداعية الراديكالية وذلك لافتقار الشيوعيين فى ذات الوقت للقاعدة الجماهيرية ، بل لقد نظر الشعب لوسائل الاعلام وكذلك للشيوعيين المحليين على أنهم عملاء لقوى أجنبية . ونظرت معظم شعوب الدول الشرق أوروبية للشيوعيين على أن « هم » مجموعة من المليشيات الفاضلة التى تخدم طاغية أجنديا ، فى محاولة لفرض نموذج اجتماعى ليس له جذور فى نراثها القومى .

وللإكيد على أحادية السلطة ، خططت الأحزاب الشيوعية للقضاء على الثقافات الشعبية فى البلدان التى تهيمن عليها . ولحل الأحزاب الاجتماعية ، ونم احتواء الفصائل اليسارية فمما يدعى أحزاب العمال المتحدة .

وعمل الشيوعيون على تجنيد فصائل من الطبقة العمالية الصناعية وترسبع قاعدتهم الاجتماعية ، وباسم الصراع ضد القوى الأجنبية فان الأحزاب المعادية للشيوعية تعاونت معاً أو انضمت لبرلمانات ببغائية ليس لها أية سلطة فعلية يسيطر عليها الشيوعيون تماما . واستخدمت

نظرية ستالين عن شد أزر الصراع الطبقي وما يترتب عليه من نتائج ، ونظريته عن سيكولوجية الحصن المنيع كمبررين لاقامة بوليس سياسى مهيمن ومرهوب بشكل عام ، حيث يهاجم كل من يتجاوز الخط الذى رسمه الحزب نعيم مناخ رعب عام وعدم ثقة متبادل .

ان نموذج الفرد فى هذه المجتمعات هو نموذج فرد متجرد من ذاته مستعد للوشاية بالأصدقاء وأقرب المقربين حيث اعتبرت الخيانة فضيلة اذا ما كانت فى سبيل الحزب وبئس المنطق يعد الاحجام عن التعاون مع البوليس السياسى جريمة سياسية . ويقودنا هذا الحديث الى ذكريات ناديزدا ماندليستام Nadezhda Mandelstam أرملة أوسيب ماندليستام Mandelestam الشاعر الروسى العظيم الذى توفى فى معسكرات التعذيب الستالينية Stalin's Gulag اثناء الارهاب البشع حيث تصف بمرارة شديدة المناخ الخانق الذى ساد مثل هذا المجتمع ، والتى تشير فيها للمحظة آنا أخماتوفا Ann Akhmatova فكتبت ناديزدا نقول :

« فى تلك الفترة التى صعد لها الناس فى الخارج وبالذات المهاجر الروسى اساء الجميع فهم حياتنا ، وكثيراً ما رددت أختاتوف جملة اصابتنى بالحقق وهى « انهم غيرون من معاناتنا » اذ أن سوء الفهم لا يستحق الحسد ويأتى من استحالة تصور طبيعة التجربة ، ويأتى ايضا من طوفان الأكاذيب التى التوت بسببها الحقائق ورفضتها عقولنا حقيقة لا يوجد شيء يستحق أن نحسد عليه ، لا يوجد فى معاناتنا شيء راق . وليس المقصد هو البحث عن سمة تعويضية ، اذ لا يوجد فى حياتنا شيء سوى الارهاب الحيوانى والألم . لا يمكن أن احسد الكلب الذى تسحقه ثاحنة ولا القطة التى يلقيها سفاح من الطابق العاشر ، ولا يمكن أن احسد أناسا مثلى تشككوا فى كل شخص حولهم باعتباره خائناً أو واشيا أو جاسوسا ، ولم يجرؤوا على التفوه بأفكارهم حتى لأنفسهم خشية أن يفاجأوا بمن يظهريهم اثناء نومهم وأخذهم بعيدا الى السجون . لا يوجد — واستطيع أن أجزم — ما نحسد عليه » (٦٢) .

ان الملايين فى كل بلدان أوربا الشرقية عاشوا هذه المشاعر المروعة كالكابوس . ولم تتوقف محاولات الشيوعيين للقضاء على الاستقلال الفردى . ولم يكن فى مقدورنا أن نلمح أية بارقة نور أو أمل فى نهاية النفق المظلم ، فقط كان هناك المقاصل التى بعد لقطع رقاب المصادين للشيوعية ، بل والاتلافات الشيوعية نفسها وبأكثر الطرق وحشية . ووضع الكمنفورم الأساسى لسن القوانين للمحاكمات الصورية حيث يتهم الشيوعيون المتطرفون بالخيانة والجاسوسية .

هوامش الفصل الأول :

الدولية البروليتارية

أهم مبدأ لايدولوجية الطبقة العاملة (الشيعة) والأحزاب الماركسية اللينينية – وتتجلى فى تضامن الطبقة العاملة وطلبتها الشيوعية وشعلة كل الأمم فى وحدة وتنسيق أعمالها وفى الدعم والعون المتبادلين – (المترجم) •

(٢) امبراطورية هابسبرج

وتضم (سويسرا أو هابسبرج) وهى جزء من البيت الألمانى الملكى الذى حكمه ملوك النمسا من عام ١٢٧٨ الى ١٩١٨ – (المترجمة) •

(٣) الدولة العثمانية

وتشمل تركيا وفلسطين والسعودية ومصر وبلاد البربر والبلقان وأجزاء من روسيا والمجر (المترجمة) •

(٤) البلقان

وتضم دول رومانيا ويوغسلافيا وبلغاريا واليابان – (المترجمة) •

(٥) Adam Michnik, "The Presence of Liberal Values," East European Reporter, 4 no. 4 (London . Spring-Summer 1991), 71.

(٦) الماكرثية

هى حركة ظهرت فى خمسينيات القرن العشرين بأمريكا . وهى حركة سياسية قادها السيناتور الجمهورى جوزيف مكارثى الذى استفاد من وجود تقليد دستورى فى بلاده . وهو حق الكونجرس فى استجواب المواطنين . فامتشا اللجنة العليا المشهورة بلجنة النشاط المعادى لأمريكا وامام هذه النجبة استدعى مشوهى الفكر من الادباء والفنانين والمدرسين – (المترجمة) •

(٧) الكونفدرالية

وهى اسم يطلق على كل ائتلاف أو اتحاد يضم مجموعة من البلدان لتحقيق أهداف معينة ، الا أن ما يميزه هو انه تنسيق فوقى بين النظم الحاكمة . وهو ما يجعله مختلفا عن الاتحادات الفيدرالية والتي تكون ذات طابع شعبى – (المترجمة) •

(٨) For a splendid account of the spiritual effervescence in Budapest before World War 1, see John Lukacs, *Budapest 1900 A Historical Portrait of a City and its Culture* (New York : Grove Widen.

Jean-François Revel, "Sortir du communisme, une tâche sans précédent dans l'histoire. 6 *Est-Quest*, no. 90. (Paris, June 1991), p. 3.

(١٠) الأحلام الوُسُوْنِيَّة ويَقْصِدُ مبادئ ولسون (الرئيس الأمريكى) التى عرضها فى مؤتمر الصلح فى باريس (باريس – تريون) ١٨ يناير ١٩١٩ – (المترجمة) •

(١١) المقصودية : هى حقوق مقصورة على شخص أو جماعة – (المترجمة) •

(١٢) معاهدة فرساي – تريانون ١٨ يناير ١٩١٩ وفيها إقامة دولة جديدة من بولندا وانتشاء المجر البولندى وتأسيس دولة تشيكوسلوفاكيا ، وخطت الحدود السياسية الجديدة وحق مبادئ ولسون – (المترجمة) •

Joseph Rothschild, *Return to Diversity : A Political History of East Central Europe Since World War II* (New York : Oxford University Press, 1989), pp 3-24.

(١٤) راجع :

Carol Skalnik Leff, *National Conflict in Czechoslovakia : The Making and Remaking of a State, 1918-1987* (Princeton, N. J. : Princeton University Press, 1988), p. 138.

Rothschild, *Return to Diversity*, p. 70. (١٥)

(١٦) الزيولوت

وهو اسم يطلق على مجموعة ذات أفراد متعصبين نحو دين أو عقيدة ويرجع هذا الاسم الى الزيولوت اليهودي فى القرن الأول قبل الميلاد والذى عارض الهيمنة الرومانية على فلسطين - (المترجمة) .

(١٧) *Visual* نهر فستقل

يقع فى بولندا ويصب فى خليج جدنسك - (المترجمة) .

Adam Michnik quoted in Jacques Rupnik, *The Other Europe : The Rise and Fall of Communism in East-Central Europe* (New York : Schocken Books, 1989), p. 28. (١٨)

For a clear analysis of Romania's interwar political life, see (١٩)
Vlad Georgescu, *The Romanians : A History* (Columbus : Ohio State University Press, 1991), pp. 189-232.

Milan Kundera, "The Tragedy of Central Europe," *The New York Review of Books*, April 26, 1984. (٢٠)

(٢١) كوستلر

هو ارثر كوستلر (١٩٠٥ - ١٩٨٢) وهو كاتب مجرى يهودى وهو معروف بمناهضته للمستالينية - انظر ترجمة كتابه « القبيلة الثالثة عشرة » ضمن سلسلة الالف كتاب الثانى .

Danilo Kis, "Variations on the Theme of Central Europe," (٢٢)

Crosscurrents : A Yearbook of Central European Culture, no. 6, (Ann Arbor : University of Michigan, 1987), p. 11.

Alexander Wat, *My Century : The Odyssey of a Polish Intellectual* : (Berkeley University of California Press, 1988), p. 15. (٢٣)

Helmut Gruber, *International Communism in the Era of : A Documentary History* (Garden City, N. Y. : Anchor Books, 1972), pp. 241-46. (٢٤)

(٢٥) التروتسكية *Tortskyism* .

يعود هذا الاسم الى ليون تروتسكى الشيوعى المناهض لستالين وللدكتاتورية والبيروقراطية وكان يرى أن الثورة فى روسيا لن تنجح الا بثورة تعم أوروبا كلها - (المترجمة) .

(٢٦) اللكسمبرجية :

نسبة الى الثائرة الألمانية - البولندية المولد - روزا لوكسمبورج Rosa Luxemburg (١٨٧١ - ١٩١٩) ، التى اعتنقت الشيوعية عام ١٨٩٠ وعاونت فى تأسيس « عممة ' تاكوس » . ويرتبط اسم روزا بانتفاضة عام ١٩١٩ والتى قُتل على أثرها .

For the fate of foreign communists in the Soviet Union (٢٧)

during the Great Purge, see Robert C. Tucker, *Stalin in Power The Revolution from Above, 1928-1941* (New York : Norton, 1990. pp. 504-13.

See Kenneth Jowitt's discussion of this issue in his *Revolu-* (٢٨)

tionary Breakthroughs and National Development : The Case of Romania, 1944-1965 (Berkeley and Los Angeles : University of California Press, 1971), pp. 175-77.

(٢٩) ليبزج

مدينة فى ألمانيا الشرقية .

(٣٠) فى عام ١٩٣٥ وفى مؤتمر الكومنترن السابع والأخير القى ديمتروف الخطاب الافتتاحى حيث وضع فيه التعريف الستالينى الأرثوذكسى للفاشية حيث وصفها بأنها « ديكتاتورية أكبر قوى السلطة المركزية الأحادية رجعية » . وبعد الحرب العالمية الثانية عاد ديمتروف الى بلغاريا حيث أصبح رئيسا للدولة حتى موته المفاجئ والعامض بينما كان فى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٤٨ . وبعد انهيار النظام الشيوعى فى بلغاريا تم إزالة جثمان ديمتروف عام ١٩٩٠ من متحف موسوليم Mausoleum وهو محط على الطران السوفيتى وذلك بمدينة صوفيا لجزء من الحملة القومية لازالة الرموز الشيوعية . لمزيد من التفاصيل انظر

Drachkovitch, *Biographical Dictionary of the Comintern* :
New, Revised and Expanded Edition (Stanford, Calif. : Doover
Institution Press, 1986).

(٣١) ماسونى

هى المضاد لحركة « اللاماسونية » التى ظهرت فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٢٦ وكذلك تقوم على أساس أن الانضواء تحت لواء جمعيات سرية لا ينسجم مع المواطنة الصالحة الشريفة - (المترجمة) .

(٣٢) اقليم السويد :

المنطقة الواقعة شمال تشيكوسلفاكيا فى جبال سودتى - (المترجمة) .

Norman Davies, *Hart of Europe : A Short History of* (٣٣)

Poland (Oxford and New York : Oxford University Press, 1986),
p. 426, and Anthony Read, and David Fished, *The Deadly Embrace :
Hitler, Stalin, and the Nazi-Soviet Pact 1939-1941* (New York :
Norton, 1988).

(٣٤) معاهدة مولوتوف - روبنتروب

هى امتداد لاتفاقية هتلر - ستالين التى تمت فى ١٣ آب - أغسطس سنة ١٩٣٩ والتى نصت على حدود مناطق النفوذ للطرفين وبعد أسبوع من المعاهدة قامت الحرب العالميه الثانية . وفى أواخر عام ١٩٤٠ قدم الألمان مذكرة بتصوراتهم ومقترحاتهم عن الحدود وفى أواخر تشرين الثانى - نوفمبر ١٩٤١ أبلغ مولوتوف السفير الألمانى بالموافقة على الحلف -

الرباعي المقترح شريطة عقد اتفاقية خاصة بأمن الاتحاد السوفيتي ومصالح في أوروبا والشرق الأقصى - (المترجمة) .

See "What I Central Europe The Telltale Scar," *The New Republic*, August 7 and 14, 1989, p. 28.

NKVD (٣٦) وهي اختصار للمصطلح الروسي Vnutrennikh Del وتعني مفوضية الشعب للشئون الداخلية . وسترد فيما بعد بمعنى البوليس السري السوفيتي .

For Tito and Titoism, the literature is enormous and very (٣٧) controversial. See Adam Ulam, *Titoism and the Cominform* (Cambridge : Harvard University Press, 1952), and Vladimir Dedijer, *The Battle Stalin Lost : Memoirs of Yugoslavia* (New York : Viking, 1971)

Archi Pipa, "The Political Culture of Albanian Communism", (٣٨) in Tariq Ali, *The Stalinist Legacy : Its Impact on the Twentieth Century World Politics* (Harmondsworth, Middlesex : Penguin Books, 1984), pp. 434-64.

(٣٩) يالطا . مدينة في الاتحاد السوفيتي تقع في شمال جمهورية أوكرانيا (المترجمة) .

See Leszek Kolakowski, *Main Currents of Marxism*, vol. III, (٤٠) *The Breakdown* (Oxford : Oxford University Press, 1978), and Vladimir Tismaneanu, *The Crisis of Marxist Ideology in Eastern Europe : The Poverty of Utopia* (New York and London : Routledge, 1988)

Gavriel D. Ra'anani, *International Policy Formation in the USSR : Factional "Debates" During the Zhdanovschina* (Hamden, Conn. : Archon Books, 1983), and William O. McCagg, Jr., *Stalin Embattled 1943-1948* (Detroit : Wayne University Press, 1978).

(٤٢) خطة مارشال يومية ١٩٤٧ وقدمها « مارشال » وزير خارجية أمريكا ودعا فيها دول أوروبا الغربية الى وضع برنامج كبير يهدف الى انعاش اقتصادياتها وقدمت الولايات المتحدة الأمريكية من خلال هذا المشروع المساعدات المادية للبدول الأوروبية (المترجمة) .

The Statutes of the Union of Soviet Writers adopted in 1943, (٤٣) as quoted by Abram Teriz (Andrei Sihyavsky), *The Trial Begins and On Socialist Realism* (Berkeley, and Los Angeles : University of California Press 1982), p. 148.

Quoted in McCagg, *Stalin Embattled*, pp. 250-51. (٤٤)

Ibid., p 264 : the full text of the declaration appears in *For a Lasting Peace, for People's Democracy* no. 1 (Belgrade, 1947), p. 1.

Zbigniew Biezinski, *The Soviet Bloc : Unity and Conflict* (٤٦) (Cambridge : Harvard University Press, 1967), pp. 3-151.

- Paul Ignatus, "The First Two Communist Takeovers of Hungary : 1919 and 1948," in Thoma T. Hammond, *The Anatomy of Communist Takeovers* (New Haven : Yale University Press, 1975), p. 395. (٤٧)
- Nissan Oren, "A Revolution Administered : The Sovietization of Bulgaria", in Hammond, *Anatomy*, pp. 321-33. (٤٨)
- Adam Bromke(*Poland's Politics : Idealssm vs. Realism* (Cambridge : Harvard University Press, 1967), pp. 60-61. (٤٩)
- Kulturny Noviny*, do. 7 (Prague 1968), Quoted by Pavel Tigrid, "The Prague Coup of 1948 : The Elegant Takeover," in Hammond, *Anatomy*, p. 400. (٥٠)
- (٥١) الديمقراطية الشعبية : استعملت الأحزاب الشيوعية هذه الكلمة لتدل بها على الأنظمة السياسية الجديدة التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية في أوروبا الشرقية وولدت الديمقراطيات الشعبية الأوروبية بواسطة حركات المقاومة ضد النازية التي توّدها الأحزاب الشيوعية وقد مرت بمرحلتين
- المرحلة الاولى دامت حتى عام ١٩٥٦ وكانت هذه الأنظمة كلها تتبع النموذج الاشتراكي السوفياتي .
- المرحلة الثانية بدأت كل دولة تتبع سياسة تتفق مع واقعها القومي والخاص - (المترجمة) .
- Brezinski, *Soviet Bloc*, p. 65. (٥٢)
- Kolakowski, *Main Currents* (note 20 above), II : 85. (٥٣)
- Brzezinski, *Soviet Bloc*, p. 52. (٥٤)
- (٥٥) الليفيثان كلمة تعنى الدولة التوتاليتارية التي يعم فيها البيروقراطية - (المترجم) .
- Quoted by Mikhail Heller *Cogs in the Wheel : The Formation of the Soviet Man* (New York : Knopf), p. 6. (٥٦)
- Agitprop وتدعى تلك البيروقراطية الايديولوجية باسم اقسام الاجتروب وهو مكتب خاص للدعاية . (٥٧)
- Czeslaw Milosz, *The Captive Mind* (New York : Vintage Books, 1981), p. 220.
- Jacek Trznadel, "An Interview with Zbigniew Herbert", *Partisan Review*, no. 4 (1987), pp. 559-60. (٥٩)
- Brzezinski, *Soviet Bloc*, p. 67. (٦٠)
- Berram Wolfe, *Khrushchev and Stalin's Ghost* (New York : Praeger, 1957), p. 10. (٦١)
- Nadezhda Mandelstam, *Hope Abandoned* (New York : Atheneum, 1974), pp. 249-50. (٦٢)

الفصل الثانى

أبناء فى الضباب

من الديمقراطية الشعبية الى « الاشتراكية المتطورة

« Developed Socialism

« لقد أمضيت حياتى مثلما يعيش ابن فى الضباب لم أعرف شيئاً ، بمعنى ، كنت أعرف ولا أعرف فى آن واحد ، مثل الجميع حولى . فى المعتقل فقط عرفت ماذا يعنى الصراع السياسى فى المديسكر الشيوعى ، وبين الشيوعيين عرفت ما هو البغض البشع ، ما هو التعصب ، ما هى القسوة التى يسفر عنها هذا التناحر » .

الكسندر وات

Alexander Wat

أدت بارانويا ستالين الى استفحال الارهاب فى كل من الاتحاد السوفيتى وأقطار أوربا الشرقية التابعة له . لقد رأى ستالين أن الاستقلال الذاتى الذى بدعه ستالين وتحديه السافر لسلطة الكرملين تعد خيانة للشيوعية لصالح « الكتلة الامبريالية » وأمر مشيعيه أن يركزوا البحث عن مخربين أقوياء وحقيقيين . ونموذج ستالين للارهاب العظيم Great Terror — نظرية ١٩٣٧ التى نادى بمضاعفة الصراع الطبقي حتى تتقدم الاشتراكية — تجناه الطغاة المحليون فى الدول التابعة بحماس شديد . وتمتع البوليس السرى فى كل دولة من دول شرق أوربا الشيوعية بسلطات مطلقة لذلك لم يشعر أحد — حتى ولو كان عضواً فى الحزب بأنه بمنأى عن موجة القمع العاتى .

الاذاب والمقاصل :

ان فئة « العدو الموضوعى » أى هؤلاء الذين تمكنوا بفضل ما لهم من وضع اجتماعى من التآمر ضد النظام الشيوعى كانوا وقودا للارهاب واستخدمهم رجال ستالين لتبرير القمع . وكان الهدف من وراء المحاكمات الصورية التى تمت فى الديمقراطيات الشعبية خلق

اجماع رأى قوميا على ائتلاف القمة الشيوعى ويبقى على حالة عامة من.
العرب والهلع بين الجماهير ، وقد رأى جورج ه . هودز
George H. Hodes الذى نجا من مكيدة لانتسلو راجيك Larzlo Rajk
١٩٤٩ بالمجر ان المكائد كانت اشارات يبعث بها لكل المفكرين الأحرار
ذوى الشأن أو للراديكاليين فى الأقطار التابعة ، وطريقة لفضح أى
شخص يحاول الجهر بخلافه مع السلطة باعتباره مجرما خديسا
أو عميلا للامبريالية ، واعتبرت الاختلافات التكتيكية خيانة وتخريبا
وتجسسا (١) . الا أن هذه المحاكمات لم تكن مجرد تكرار للمذابح
الدامية التى دمرت الكيان السياسى السوفينى فى الثلاثينيات .

ورغم أن طقوس المحاكمات الصورية فى الأقطار التابعة كانت
مشابهة لمثيلاتها فى الاتحاد السوفيتى ، فان تحديد المدعى عليهم اختلف
باختلاف تاريخ كل واحد منهم .

وقد أرسل ستالين فرقا خاصة من « المستشارين » لسلك الدول
التابعة للاعداد للمحاكمات واجراء الاستجوابات وتلفيق سيناريوهات
محكمة شريفة كى تبرر عقوبات الاعداء التى صدرت ضد المدعى عليهم
وكان البلشفيون القدامى Old Bolsheviks (٢) أمثال جريجورى زينوفيف
Grigoryzinovye وليف كامينيف Lev Kamenev والكسى رايكوف
Aleksi Rykov ونيكولاي بوخارين الذين تحدوا ستالين وقدموا بدلا
لبرنامجهم ، ضحايا للمحاكمات الصورية السوفيتية اضافة الى الضحايا
من الحلف الستالينى نفسه . وقد تم التخطيط للمحاكمات الصورية
بسبب اختتام الكمنفورم مع يوجوسلافيا واعتبر تيتو رأس « عصابة
القتلة والجواسيس » الا أن ذلك كان مبررا للتعمية والتمويه .

ان الحد من هذه المكائد لم يكن يعنى أن بداخل الأحزاب الشيوعية
التي رُق أوربية حركات تهدف للحد من التأثير السوفيتى وتشجيع
التجارب الشيوعية القومية البناء بل ان الصراعات تصاعدت بين
الأجنحة المختلفة وخاصة بين الشيوعيين المحليين والمسكوفيين (أى
الشيوعيين الذين عادوا من المنفى بموسكو بعد نهاية الحرب العالمية
الثانية) الا أن هذه الصراعات لم تكن تعنى وجود عصبية حقيقية
عبر أوربا الشرقية مستعدة لتبارى اليوجوسلافيين فى تحديهم لدكتاتورى
موسكو . ورأت الستالينية أنه لا بد من الإبقاء على حالة الطوارئ
والارهاب وضرورة فضح المؤامرات التى تحاك ضد الشيوعية ، اذ لا أحد
فوق الشبهات ، ومن الممكن أن يكون الضحية التالية لآلة التعذيب البشعة ،

واتبعت في أوروبا الشرقية نفس الدكتيكات والاجراءات التي استخدمت في محاكمات موسكو السورية : وأستندت تهم حكم الاعدام على اعترافات المدعى عليهم فقط دون أى أدلة مادية ووقفوا في قنص الاتهام بعد عملية تعذيب نفسى بشمة يتقبلون الأحكام باستخفاف وقال هودز في ذلك :

« كانت المحاكمات السورية تقم في أوروبا الشرقية حتى قبل ان يكون هناك تخاصم بين ستالين وتيتو واستخدمت كأداة لاجل الازهاب المتأخية في الدول السوفيتية التابعة في الفترة التي سبقت الحرب تدور في ذلك الحزب السوفيتي ، وكانت جزءا لا يتجزأ من الستالينية وتطبيقها في الدول التابعة خطوة مطلقة باعتبارها جزءا من النموذج السوفيتي الذي جرب ... كان للمحاكمات السورية جيتى دعائية يبرر الارهاب السياسى . وكان هدف هذه المحاكمات هو تسفيهى النموذج السياسى السوفيتى ، ووضعها في الحامض وإبادتها ، ولعدم نظام لا عدل فيه . ولتحويل تمايزات أيديولوجية سياسية مجردة الى جرائم عامة جليلة - انها تحرض العامة ضد البشر الذى يجسدهم المتهمون تقسوم بتحذيرهم من تقديم أى عون أو دعم لهذه المعارضة » (٣) .

ولأن الأنظمة الجديدة في أوروبا الغربية كانت تعاني من مصاعب اقتصادية وفشلت في كسب الدعم الشعبى الجماهيرى لسياساتهم الاجتماعية ، فان هذه الأنظمة تورطت في ممارسة مسعورة للارهاب والاعدام ، ان المحاكمات السورية بدأت في البانيا في مايو ١٩٤٩ عندما أعدم عضو المكتب السياسى 'Poliburo' السابق وزير الداخلية كوشى زوكسى 'Koci xoxe' باعتباره تيتوى - والحقيقة أن تيتو حاول عقب الحرب العالمية الثانية ان يمد نفوذه عبر أوروبا الشرقية ولم تكن هناك أية بادرة تنم عن معارضته لخطوة ستالين الا أن « التيتوية » جنحت الى التأكيد على المصالح القومية ضد السياسيات التى فرضها ستالين على الاحلاف الشيوعية المحلية ، وفي سبتمبر ١٩٤٩ اعترف لاتسلو راجيك ، وزير المجر السابق للشئون الداخلية وأحد قيادات القمة الشيوعيين بعد الحرب ، بجريمته في محاكمة علنية وحكم عليه بالموت مع رموز حزبية بارزة سابقة ، وقد أصيب القاضي بالهستيريا عند النطق بالحكم . وقد ربط ستالين بين مؤامرة راجيك المزعومة وبين أعمال تيتو وأنشطته المناهضة للشيوعية وتورطه مع المحرضين في الاعداد للهجوم على النمسا ضد الديمقراطية الشعبية .

« ان الامبريالية الأمريكية هي المحرض والمنفذ لبرنامج تيتو رانكوفيتش Rankovic السياسي وخطط « الانقلاب Putsch »
 لقد استمالت وكالات الاستخبارات الأمريكية والبريطانية تيتو وعصبته حتى أثناء الحرب ضد هتلر ، لمنع الحرية القومية والاجتماعية عن شعوب أوروبا الشمالية الشرقية ولعزل الاتحاد السوفيتي وللتحضير لحرب عالمية ثالثة ٠٠٠ والانقلاب الذي خطط له تيتو وعصبته في ألمانيا كي ما تضعه خلية راجيك للجانوسية موضع التنفيذ ، لا يمكن فهمه بعيداً عن سياق المخطط الدولية للامبرياليات الأمريكية ٠٠٠ التي تتفاهم دون هواده ٠ وطالب شعبنا بالموت للخونة ولي باعتبارنا ممثلين للسلطة المتهمة وكنت أنا نفسي مع هذا المطلب ، اذ يجب أن تسحق رأس الأفعى التي تريد لدغنا ٠٠ وكان رد الفعل الوحيد ضد الكلاب المسعورة هو ضربها حتى الموت » (٤) .

وفي ديسمبر ١٩٤٩ وجه لعضو المكتب السياسي السابق واحد اساطين الاقتصاد البلغاري تريشيوكوستوف Traicho Kostov مع آخرين تهمة مماثلة لتلك التي وجهت لراجيك : التجسس ، النيتوبة ، والتعاون مع السياسة البرجوازية السرية أثناء السنوات التي كان فيها الحزب سريا . وفي حالة كوستوف فان المرحية العلنية التي تم الاعداد لها جيداً تم كشفها بقرار مفاجيء لمحامي المتهم بدحض التهم التي وجهها المدعى العام الا أن كل شيء عاد لأصله ثانية بعد استراحة قصيرة ، وفي آخر الأمر قبل كوستوف الذي اتهم مثله مثل القادة الشرقيين الآخرين حكم المحكمة ، بل وتعاون مع المحكمة لانجاز مهمتها ، ونراجع عن محاولته الأولى لانكار التهمة واعترف وفقاً لرابونتشيسكو ديلو Rabonnichesko Delo الجسدية الشيوعية الرسمية اليومية بأنه لم يكن الا ندلاً . ولن نخوض هنا في بحث أسباب تعاونهم مع معذبيهم ولكن يمكن القول بأن اعتقادهم اللينيني الارثوذكسي بأن الحزب هو حامل الحقيقة التاريخية وان من الواجب عليهم أن يقدموا حياتهم قرباناً على قداس المصالح العليا للحزب هو الدافع الرئيسي وراء تصرفهم على هذا النحو . ولأن ارواحهم تشربت بعبادة لا نهائية للستالين ، والاتحاد السوفيتي فانهم كانوا يفتقرون لأدنى جنوح للاستقلالية التي قد تساعد على ادراك الفخ الذي وقعوا فيه ، وقد صعد بعضهم بوابل التهم الذي وجه اليهم حتى انهم اعتقدوا في البداية بأنهم كانوا ضحايا لضربة مضادة للثورة ، ورفض قليلون سلسلة التهم التي دبرت لهم . وساعد استخدام الضغط الجسدي والنفسى بما في ذلك التهديدات التي وجهت لحياة اقرباء المتهمين في تفسير كيفية انتزاع اعترافهم .

وفى ديسمبر ١٩٤٩ ، ومن خلال وقوع الحزب الشيوعى اليوجوسلافى فى ايدى القتلة والجواسيس الذين سلموه لقمة الكمنفورم ببودابست ، ندد الزعيم الشيوعى الرومانى جورجى جورجيو - دجى بزميله السابق فى المكتب السياسى ووزير العدل السابق لوكسريتو بترسكانيو Lucretiu Patrascanu باعتباره خائنا تيتوى وعميلا اجنبيا . وقبض على بترسكانيو بعد خطاب جورجيو - دجى الا انهم لم يستطيعوا اجبار بترسكانيو على افشاء اسرار الرفاق فى المحاكمة الصورية التى عقدت فى بوخارست ورفض ان يعترف بجريمة لم يرتكبها ورغض التورط فى اعترافات علنية فاشستية . وظل فى السجن حتى عام ١٩٥٤ حتى حكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص بعد محاكمة ملفقة .

وبعد الاجتماع نفسه فى بوخارست ١٩٤٩ وامتدادا للحملة الدولية المعادية لمؤيدى تيتو المزعومين جرد الزعيم البولندى فلاديسلاف جوميلكا من رتبة لاتهامه بالافتقار للحذر الثورى فيما يتصل بمبدأ الدولية وحدود اقامته فى بولندا تحت مراقبة البوليس السياسى . اما حزب الشمال البولندى المتحد فقد وقع بعد مذبحه هريق جوميلكا فى يد عصابة المسكوفيين بقيادة بولسلو بيرت وجاكوب بيرمان Jakub Berman وهيلارى مينك Hilary Minc وفى وقت المحاكمات أصبح المناخ فى الديمقراطيات الشعبية خائفا حيث تفتى الخوف من المتسللين وحيث الاحتفاء بعبقريه ستالين العالمية والاذلال الذى تلاقيه الانتلجنسيا . وادى الهجوم على التقاليد القومية الى خلق مناخ من اليأس والقنوط والكره . وبدت المحاكمات لمعظم الجماهير وكأنها تجرى فى عالم آخر . وكان طرفا الاتهام شيوعيين وشارك المواطن العادى فى هذه المهزلة وقرض عليهم ترديد التهم الملفقة ضد المتهمين ليؤكدوا على الاكاذيب . وكان المواطن العادى مدركا بان المصير المأسوى للزملاء الشيوعيين الثبوذيين يمكن ايضا ان يصيبه فى أية لحظة ، بل ان كل فرد كان يشعر فى قرارة نفسه بان الدور سياثيه وبانه المرشح للضربة التالية للالة الاجرامية ، كما اجبرت آلة الدعاية الشيوعية الهائلة كل الجماهير على الانغماس فى احتفالات جماهيرية لشايعة الحزب ورفع شعاراته . وفى نفس الوقت وتعزيزا لمنطق الالتزام والقسر تم استيراد نموذج اجبارى من الاتحاد السوفيتى لرئع انتاجية طبقة العمال ، ومن لا يمثل من العمال لأوامر الحزب يعتبر سياسيا غير اهل للثقة واسفرت المحاكمات الصورية عن انفصام شيزوفرينى فى عقلية الفرد ، اذ انه كان يهتف علانية لنفس القيم التى كان يمقتها فى قرارة نفسه .

ان الضحايا الرئيسيين فى المحاكمات الصورية التى جرت فيما

بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٥١ كانوا أعضاء في الاحلاف « الشيوعية الدولية » أو « شيوعيين وطنيين » وهم النقيض للموالين للديكتاتور ستالين . ونجد كوسى زوكسى وترشيو كوستوف ولوكريتيو بترسكانيو وفلاديسلاف جوميلكا ولاسلو راجيك قد قضوا سنوات الحرب في بلدانهم ، وشاركوا في حركة المقاومة ضد النازي على عكس زملائهم الذين تلقوا تدريبهم بموسكو والذين وصلوا في دبابات الجيش الأحمر Red Army ولم يحققوا أى شرعية من انخراطهم المباشر في حركة « الانصار Partisan » . واستاء الشيوعيون « المولون لومنههم » (اللاتجاهات التي تجنح لتقديم التنازلات للمسكوفيين الذين استغلوا علاقاتهم الحسنة بموسكو وتاجروا بها وتعاملوا مع الشيوعيين من جنسيتهم على أنهم شركاء في مرتبة أدنى . وتفهم ستالين وجود هؤلاء المتحيزين واستغلهم في التمهيد للمذابح المستمرة في الأقطار التابعة .

وفي بداية الخمسينيات أبدى ستالين اهتماما متزايدا بدور اليهود باعتبارهم حاملي « رؤية للعالم الأسمى » وباعتبارهم داعمين « موضوعيين » للغرب . ولا يهم الشيوعيين إذا كان الفرد ، ضد النظام ولكن يعينهم ما يدور بذهنه أو ماذا يمكن أن يفعله استنادا لموضعه الاجتماعي (إذا كان منحدرا من عائلة برجوازية . درس في الغرب ، ينتمي لأقلية معينة ، وهلم جرا) . ونظم الستالينيون حملات شاذة ضد السامية في الاتحاد السوفيتي ، وضد الكتاب اليهود والنقاد والأدباء . وكان شبح المخطط الضخم يطل برأسه على السكان اليهود السوفيتيين . وأدى الأضرار في الديمقراطيات الشعبية ضد « أممية بلا جذور » (شفرة تعنى اليهود) الى تورط زعماء شيوعيين محليين في مذابح الائتلاف ضد زمر « المسكوفيين » التي يسيطر عليها شيوعيون من أصل يهودي (العديد منهم فر من الفاشية وطالبوا باللجوء الى الاتحاد السوفيتي في الفترة التي توسطت الحربين) . ان التخلص من الموالين المخلصين لستالين وصل لحد مذهل في تشيكوسلوفاكيا ففي محاكمة أكتوبر ١٩٥٢ الصورية حكم على رودلف سلانسكى الذي ظل سكرتيراً عاما للحزب الشيوعي حتى سبتمبر ١٩٥١ ومن منصبه هذا أشرف على عملية اضطهاد الشيوعيين وغير الشيوعيين بالاعدام شنقا في ديسمبر ١٩٥٢ ، كما أعدم غيره كثيرين من المناضلين البارزين ذوي الأرومة اليهودية . واتهم سلانسكى ورفاقه بالتآمر الصهيوني والتواطؤ المباشر مع شبكة التجسس الغربية . ولم يستطع سلانسكى الذي كان الرأس المدبر للمذابح في تشيكوسلوفاكيا أن يدرك التهم الغربية التي وجهت اليه فحاول الانتحار في زنزانته أكثر من مرة ،

وقد توصل سلانيسكى لرئيس الحزب وصديقه السابق كليمنت جتولد أن يمنحه فرصة يدافع فيها عن نفسه إلا أنه رفض . وكان الهدف من هذه المحاكمات الصورية ادانة التآمر الذى يحاول القضاء على استقرار الكتلة الشيوعية ومن ثم لم يكن بالإمكان ابراء ساحة المتهمين .

وفى مايو ١٩٥٢ اعلنت وسائل الاعلام برومانيا نبأ التخلص من ثلاثة أعضاء من المكتب السياسى ، اثنان منهم كانوا زعيمين لمركز موسكو للهجرة Moscow emigrecenter النابع الحزب وذلك أثناء الحرب العالمية الثانية ، وشغل الثلاثة منصب سكرتير الحزب . وتقاسموا السلطة المطلقة مع زعيم العصبة المحلية جورجيو - دجى . وأحد هؤلاء الثلاثة أنا بوكى الزعيمة السوفيتية المتمرسه والتي طالما احتفت بها وسائل الاعلام الشيوعية باعتبارها مناضلة منزهة عن الأخطاء إلا أنها فقدت وظيفتها كوزيرة للشئون الخارجية وحددت اقامتها . وكذلك اتهم رفيقها الموسكوفى المجرى المولد فاسيل لوكا Vasilluca بالقيام بالتخريب الاقتصادى وذلك أثناء توليه لمنصب وزير المالية كما وجهت له تهمة التعاون مع السياسة البرجوازية أثناء نشاط الحزب السرى وتم القضاء عليه ومات فى المعتقل فى أوائل السنينات ، أما ثالث هذه المجموعة فهو تيهارى جورجيسكو Teahari Georgescu الشبه به المظنم الرئيس السابق للشئون الداخلية واتهم بالتعاون مع فريق بوكى ولوكاس وحكم عليه بالسجن ولكن سرعان ما أطلق سراحه . وعمل جورجيكو فيما بعد فى وظائف وضيعة .

إن الظروف المحلية والدولية هى التى أدت الى هذه المذابح فى رومانيا . وكان هناك ثمة منافسة على السلطة بين عدة دجى وأنا بوكى ، ومصدر تنافسهم لا يكمن على أية حال فى اختلاف معتقداتهم السياسية ولكن فى طموحهما الشخصى وغرورهما . واستغل جورجى فى نزاعه مع بوكى اهتمام ستالين بجعل الأحلاف الشرق أوروبية الشيوعية « عرقية » أى اهتمامه بالتخلص من الزعماء اليهود بما فيهم أنا بهكر . واقنع جورجى الكمارين بأنه أكثر المثلين للمصالح السوفيتية ولاء واتهم مناوئيه باللجوء لحيل تهدف الى تقويض استقرار الوطن وإعادة الرأسمالية .

فى الاتحاد السوفيتى بلغت الحملات المعادية لأمريكا والمعادية للسامية أشدها وذلك فى فبراير ١٩٥٣ ، أى قبل موت ستالين بشهر واحد ، مع الاكتشاف الزائف « لمؤامرة الأطباء » . ووفقا للرواية الرسمية فإن أطباء الكرملين وكان أغلبهم من اليهود ، قد تورطوا منذ آمد

بعيد في أنشطة إجرامية تهدف لإبادة القيادة السوفيتية وتصفيتهم جسدياً .

وهكذا تم القبض عليهم جميعاً وخضعوا للتعذيب الجسدي والنفسي الرهيب ، ولم يمنع إجراء محاكمة علنية صورية القيام بمذبحة شاملة معادية للسامية وتقويض استقرار السكان اليهود في صربيا (٥) سوى موت الزعيم ستالين . ووصل النظام مع محاكمة سلانسكى « ومؤامرة الأطباء » الى أقصى حدود اللامعقولية ، وقد رجعت أكثر الاتهامات غرابة ضد اليهود السوفيتيين واليهود الشرق أوروبيين ودون أدنى اعتبار للحد الأدنى من المصادقة . وكان « الخط الحزبى » مرناً يتغير حسب نزوات اديكتاتور السوفييتى وافقر الجميع بما شئهم السكرنارية العامة المحلية الى الشعور بالحماية والبعد عن الاتهام بالخيانة والمثول أمام محاكمة صورية . وبصرف النظر عن جريرة الضحية كان شاغل المستشارين السوفيت ، والمخرجين الفعليين لمسرحيات المحاكمات الصورية هو تأكيد صدق شكوك ومخاوف ستالين وإضافة أسماء جديدة على نحو متوالى الى كشف المجرمين الذين افترض أمرهم ، ولكن هذه المذابح طالت آخرين غير زعماء اللثة فيمجرد أن تفشت هذه المذابح دوى صداها فى الحزب كله وأسفرت عن ثلث نام لكل استقلال فردى . 'واستخدمت الوسائل الإرهابية اتبع أى اتجاه نقدى وأصبحت الطاعة هى المفتاح الذهبى للبقاء حيا .

وعند وفاة ستالين فى الخامس من مارس ١٩٥٣ كانت بإسـدان الكتلة السوفيتية منخرطة فى النظام السياسى الذى بنى على الإرهاب كما اشتركت فى المساومات الايدلوجية والاقتصاد الموجه . ركائز المذابح باعتبارها أداة الحلف للاستبدال والتعبئة السياسية ظاهرة مميزة لكل بإسـدان الكتلة . ويرى زيغنىسو بريجنسكى أن السمات الرئيسية للنظام الداخلى السئالينى هى جعل المنظمة المؤسسية جماعية ، وفهم النفوق والسبادة السوفيتية باعتباره نجسداً لدور ستالين وزعامة الدولية الشيوعية ، وكذلك النظر لدور السبادة الذى يعزى للأيدلوجية باعتباره مصدر الشرعية السياسية للأحلاف الحاكمة ، واستقلال الاتحاد السوفيتى لاقتصاد الدول التابعة (٦) . ويمكن ان توصف هذه الممارسات السياسية بالنظر لسماتها الأساسية المميزة بأنها توتالبتارية خاصة بعد أن خطط حزب الدولة المنفرد بالسلطة لامتصاص أو إبادة كل أشكال الاستقلال الذاتى . وكانت

المانيا الشعبية الديمقراطية German Democratic Republic

أقل الدول تأثراً بما يجري لأن سياسة الدولة لم يتم إرساؤها إلا بعد أن بنى صور برلين Berlin Wall في عام ١٩٦١ ليكمل العزل التام لألمانيا عن الغرب .

★ تحدى تيتو وسقوط الحكم الفردي :

من الصعب المبالغة في أهمية رفض تيتو للانحناء أمام دكتاتوريات ستالين . لقد كانت المرة الأولى التي يجرؤ فيها شيوعى تلقى تدريبه في الكونغرس على تحدى سيادة الكرملين ويطالب بأن يكون لحزبه دور مستقل ، ومثلت معارضة ١٩٤٨ - ١٩٤٩ التي أبداه تيتو فى مواجهة ضغوط ستالين وابتزازه نقطة تحول فى تاريخ الأهمية الشيوعية . لقد كان أول رفض موفق لادعاء ستالين بأحادية الحقيقة ، ودحض المعتقد الستالينى عن الدولية ، والتمسك والاعتزاز بالقيم القومية فى مواجهة السلوك الأمبريالى السوفيتى . ورفض تيتو عقيدة الكمنفورم التى يجب أن يحكم بموجبها كل الشيوعيين ويتوجهوا صوب الاتحاد السوفيتى وصوب ستالين شخصيا . وكان تيتو يرى أن كل حزب شيوعى — كبيراً كان أو صغيراً — من حقه ان يؤسس خطأ سياسيا وفقا لمصالحه الخاصة التى يقررها بنفسه . ومنذ أن قادوا حركة مقاومة جماهيرية ناجحة لمواجهة المحتلين النازيين ، شعرت القيادات اليوجوسلافية بأن لها الحق فى تبني رؤية مختلفة لدورهم القومى داخل عالم الشيوعية .

ان مطلب تيتو الخاص بتدشين القومية الشيوعية كان هو الانجاه للسائد داخل الأهمية الشيوعية . التى رغبت من شأن الأولويات الوطنية على المبادئ والأهداف الامبريالية . لقد كان مطلباً قومياً فى مواجهة الضغط الشديد الذى فرضه ستالين على الاتجاهات القومية . ومن ناحية أخرى لم يسمح باستئناف الحركات القومية والسمات الأيديولوجية لأوروبا الشرقية فيما قبل الشيوعية — وعُضد تيتو وجهة نظره عن أيديولوجية الوحدة اليوجوسلافية الاشتراكية التى لا يجمعها أى شئ مشترك مع القوميات الصربية والكرواتية والسلافية التقليدية ، وتجاهل ستالين تماماً بل واحتقر الاعتزاز بالقومية ، ولم يدرك أن تيتو قرر أن يقاوم ضغطه ، وأمكن للشيوعى اليوجوسلافى أن يعبىء رأى العام الا أن ستالين استاء من النظام السياسى الجديد وقال لزملائه فى المكتب السياسى : « اذا أشرت بأحدى أصابعى ، فسيسقط تيتو » وهو ما نقله نيكيتا خوروشوف Nikita Khurshchev (٧) .

ولم ير الديكتاتور السوفيتي في الاله اليوجسلافي سوى عبد جرؤ على أن ينازع سيده في سلطته .

ولم يدرك اليوجوسلافيون مقدار ما يكتنه لهم ستالين من كره وحقد ، وتصرفوا باعتبارهم موالين للاتحاد السوفيتي ولم يكن تيتو أقل ميلا للتصنيع من ستالين . ولم يكن أقل التزاما — في مستهل حكمه — ببدا الجبائية . وقد خطط البوليس السياسي بقيادة الكسندر رانكوفيك عمليات الارهاب ضد « أعداء الطبقة » في يوجوسلافيا . ولأنهم تخرجوا من مدرسة التقاليد الستالينية فقد نظر القواد اليوجوسلافيون للحزب على أنه مصدر المنطق والأداة الكاملة التي لديها اجابات جاهزة عن كل الأسئلة الصعبة وذلك من خلال تطبيق المعتقدات اللينينية الستالينية .

ومن ثم تمسك تيتو ورفقاؤه مبدئيا بالنماذج والقواعد الأيديولوجية اللينينية الستالينية ، وردت الزعامة اليوجسلافية على اتهامات ستالين بمحاولتها التفوق على ستالين في الأرثوذكسية .

وفي المرحلة الأولى من الصراع رأى تيتو أن الصراع نجم عن سوء فهم مؤسف ولقى ما أبداه تيتو من استخفاف نحو الديكتاتور السوفيتي رد فعل عنيف من ستالين . وقد مر وقت طويل حتى انخرط الزعماء اليوجوسلافيون في تناقض تام مع الستالينية التي كانت آنذاك في أوج نضجها وقد استخدموا طرقا سلطوية في تحديدهم للستالينية تماثل تلك المستخدمة في « الديمقراطيات الشعبية » في صراعها مع « أعداء الطبقة » فالشيوعيون الذين رفضوا وجهات نظر تيتو وواصلوا ولاءهم للكمنفورم وأيدوا هجومه العنيف على الحزب الشيوعي اليوجوسلافي قد لقبوا « بالكمنفورميين » واعتبروا عملاء ، كما نفى بعض هؤلاء لمسكرات المعتقلين السياسيين النائية بما فيهم جولي أوتوك Goli Otok (٨) الشيوعي المعروف ، وتدبر آخرون وسائل للهرب الى « الديمقراطيات الشعبية » المجاورة حيث شنوا حربا للدعاية ضد هؤلاء الذين وصموا بأنهم « العصاة التيتوية والخونة » . وقد شجع تيتو ايجاد « طريق للاشتراكية » على أن يكون يوجوسلافيا يختلف عن مثيله السوفيتي المغالى في البيروقراطية والسلطوية وذلك لحاجته الشديدة للدعم والتأييد الشعبيين . أن تزايد حرص يوجوسلافيا على « ادارة شئون نفسها » ووعدا للعمال بالمشاركة في اقرار المشاريع الصناعية نم عن رغبة حقيقية في التخلص مع النظام المتحجر

الذى يضع الادارة المؤسسية البيروقراطية فى قبضة الاتحاد السوفيتى .

وضعف تيتو بعد أن عزلته حركة الأمية الشيوعية كلها واغترت على عقائده التى لاقت منه كسل تقديس وفرض نموذج يوجوسلافيا « لادارة شئونها بنفسها » من أعلى ، ووضعت مبادرات الجماهير التلقائية تحت سيطرة الحزب الصارمة مستخدمين آلة الدعاية . ان الاصرار على مراعاة الشئون الداخلية ليوجوسلافيا كان المفترض ان يؤدى لانهار النظام الشيوعى بل وتكوين خط سياسى يخلف عن مثيله فى الاتحاد السوفيتى تحت قيادة ستالين . وادخرت المطالبة بالأهلية صراعا ظهر فى المستقبل بين المراكز الشيوعية المتنافسة اضافة الى الصدام بين وجهات النظر الخاصة بالتفسير التوتالىتارى والانسانى للماركسية واللينينية . ورأى تيتو ومعاونوه فى النعرة العرقية اداة لتقوية القاعدة الجماهيرية أكثر مما لو كانت دافعا عميقا من أجل طلاق يوجوسلافيا من روسيا .

ان السياسة الخارجية لم تكن تنفصم كلية عن الشئون الداخلية ولذلك فان نقد تيتو لسلوك ستالين الاميرالى زاد من ضراوة نقده للنظام السوفيتى . وقد وصف النموذج السوفيتى فى عدد من الوثائق النظرية التى نشرها الشيوعيون اليوجوسلاف فى بداية الخمسينيات ، بأنه ديكتاتورية يسيطر عليها آلة ضخمة بيروقراطية . وأكدت هذه المنشورات على أن الحزب الشيوعى بالاتحاد السوفيتى لم يعد الحارس الخاص للبروليتاريا العالمية ، ولم يعد سوى مجموعة من البيروقراطيات ويقاؤها أصبح مرهونا باستمرارية المذابح ، وان النظام السوفيتى تدهور فتحول الى رأسمالية دولية تديرها الطبقة الجديدة من الحكام البروقراطيين . وفى عام ١٩٥٠ قرر تيتو وعصبته تجنب اخطاء ستالين فجربوا نمودجا يعطى للعمال حق السيطرة المباشرة على وشروعات الانتاج الا أن التتويين لم يتخلوا تماما عن الدور القبادى للحزب . واستمر توظيف خلايا الحزب الشيوعى ، واستمرت الحكومة المركزية فى التحكم فى تعيين المدراء فى المواقع الصناعية وحاولوا تحسين صورة الحزب الشيوعى فى المجتمع باعتباره تشكيلا سياسيا ذا « شخصية فدائية وديمقراطية » .

وعندما أجرى تيتو هذه التقيزات بدأ لستالين أنه تخلى بالفعل عن الاشتراكية واعتبر ستالين التشاور مع العمال فيما يتعلق بالمشايرع الصناعية واعطاءها الحق فى اتخاذ القرار النهائى دليلا قاطعا على الفوضوية السياسية و « الليبرالية البرجوازية » . ولم يغير الزعماء

في الاتحاد السوفيتي — حتى بعد وفاة ستالين — نظرتهم الى القيادة اليوجوسلافية وظلوا على وصفهم « بالارتدادية » . ولا تعد المحاولات التي بذلها الزعماء في يوجوسلافيا للتقليل من الأضرار التي سببتها البيروقراطية الشديدة اصلاحا جذريا للنظام اذ أن تيتو ابقى على دور الحزب القيادي وجرم أي تشكيلات سياسية بديلة ، كما فرض رقابة صارمة على المطبوعات وعلى المصلحين أمثال ميلوفان دجيلاس نائب تيتو السابق ، الذي تجاوز الحدود المسموح بها داخل الحزب في مجال « الابداع » .

في عام ١٩٥٣ قرر الزعماء اليوجوسلافيون التخلي عن التمازج في الزراعة ، وتورط تيتو باعتباره المتحدث الرسمي في نقد حاد وبناء لنموذج الاتحاد السوفيتي باعتباره نموذجا جامدا وديكتاتوريا . وعلى عكس النظريات السوفيتية التي أصرت باستمرار على ضرورة تقوية الدور الذي تلعبه ديكتاتورية البروليتاريا ، طالبه الشيوعيون البرجسلافيون باستلهم الاشتراكية (الحقة من الماركسة الأصيلة ما يحد من نطاق مشاريع الدولة حتى يتم « أفول دور الدولة » . ان عملية « البحث عن رجل » التي قام بها اليوجوسلافيون عندما نادوا بفلسفة وممارسات مختلفة للاشتراكية (٩) ، لم تضمن الانفصال التام عن عقيدة الحزب باعتبارها مستودع العقلانية التاريخية . ان الصراع يكمن في اصرار « الشيوعيين » على « الاشتراكية » .

المشين المفروض عليهم من قبل زعماء « الشيوعيين » انهم « مسيرون » في الاستقلال القومي ببلادهم . لقد وجه الشيوعيون في يوجوسلافيا نقدا نظريا للامتيازات التي يتمتع بها الحزبيون . مع ذلك لم يتم تقايسها وعندما هاجم ميلوفان دجيلاس الذي كان آنذاك نائب رئيس الدولة أعضاء النظم الحزبي (النومنكلاتورا) (١٠) تم طرده أولا من تحالف الشيوعيين اليوجوسلافيين ، ثم اعتقل بعد أن نشر اتهاماته « للطبقة الجديدة » من الملوك واعتبر « عنصرا مخربا » (١١) . وكان تيتو مستمدا لشجب الفضائح الستالينية وأن بأسف للبيروقراطية الاشتراكية الا أنه رفض تشجيع النقد البناء للأصول النظامية للأوتوقراطية (١٢) الشيوعية .

لقد طرح تيتو مبادرة ورؤية نقدية مختلفة تتمسك بنظام الحزب الواحد ولكن دون قمع . وفي خطابه للتهنئة بكريسماس عام ١٩٤٩ شجب تيتو الستالينية بسبب اقرارها للظلم والمدوان حيث قال :
« ان هؤلاء الذين يسكنون سمائهم يقبى ميذا » الغاية تسمى
« لوسيلة » يجب ان يتذكروا ان هذا القول المأثور شاع عمليا بين

اليسوعيين في زمن المحاكمة الكاثوليكية الرومانية لكشف الهرطقة .
لا يمكن للأعمال العظيمة أن تتجزأ بوسائل قدرة أو بمشاعر مزيفة . إن
الأشياء العظيمة لا يمكن أن تخلق إلا بالأساليب النظيفة وبمشاعر
ساذقة وهذا ما تؤمن به دائما » (١٣) .

ورغم هذا ، فإن الزعيم اليوجوسلافي لجأ لنفس الوسائل التي
ينقدها مع التيار الراديكالي داخل حزبه . إن رؤية تيتو لم تختلف في
الواقع عن رؤية استاذة ، ولم يختلفا أيضا في الهدف وهو الاحتفاظ
بالسلطة المطلقة في يديه .

الستالينيون الشرقيين أوروبين :

إن فهم تطورات الأحداث في أوروبا الشرقية في الخمسينيات،
يتطلب الحديث عن السمات الرئيسية للأحزاب الشيوعية في هذه
البلدان ، فنجد أن جميع التشكيلات اللينينية في المنطقة - وهذا نستثنى
تشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا مرة أخرى - كانت تعاني من عجز
دائم عن كسب الشرعية والدعم الجماهيري ، رغم انضمام ملايين
الأعضاء لهذه التشكيلات إلا أن الشيوعيين كانوا قلة واستمدت
الأحزاب شرعيتها من ولائهم اللا محدود واللا مشروط للاتحاد السوفيتي
ولستالين شخصيا .

ولم يقاوم أحد حتى الزعماء اليوجوسلافيون ادعاء الاتحاد السوفيتي
بالهيمنة داخل عالم الشيوعية . ولم يخل أحد بالتضحية مهما كانت
كبيرة لأظهار ولائه والتزامه بالقضية الشيوعية .

إن الأهمية كانت عقيدة لدى كل الأحزاب الشيوعية التي تتبنى
فلسفة حزبية واحدة ، وواجب العضو الفرد كواجب العبد وهو الطاعة
العمياء للأوامر التي تأتي من أعلى وأطلق على هذا المنطق العسكري
المركزية الديمقراطية . وكانت الحياة داخل الأحزاب شعائرية وسلطوية
وهرمية إلى أقصى حد ويقوم الأعضاء بعملهم بما يتوافق مع رؤية القادة
التي تتولى بمهارة عملية التنظيم والتوجيه وحصر كل أشكال الشقاق
الحزبي والاتجاهات النقدية ، مما جعل المناخ مناسبا لازدهار الحماس
الآلي والرومانتيكية المزيفة وتم استبعاد وإبادة كل من عبر عن أدنى
شك في سياسة الحزب .

وتمت قيادة الأحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية بواسطة نواة
شديدة التعقيد والأحكام من العسكريين الذين اقتنعوا بضرورة تطبيق

النموذج السوفيتي في بلادهم دون أي تحفظ أو تردد . وقد رأس
 أحزاب الكتلة السوفيتية قادة ثوريون محترفون تلقى معظمهم تدريبهم
 في مدارس الكمنترن وقد تم اخبار مدى ولائهم للاتحاد السوفيتي على
 مدار سنوات طويلة . ولتحقيق المشاريع الأساسية للمستالينية ، أسس
 هؤلاء الناس نظاما من الارهاب والابادة ولم يفلت من هذا النظام حتى
 انصارهم المتحمسون . وفي هذه القطاعات الشيوعية لم تكن هناك
 مساحة للولاء الشخصي أو الارتباط بأي شيء سوى الحزب باعتباره
 أسمى من أي عنصر فردي . وبنى الحزب وجهة نظر أحادية عن العالم
 باعتبارها الحقيقة الوحيدة المقبولة واعتبروا كل ما هو دونها ارتدادا
 وخطرا حقيقيا ، وأسفرت هذه الحساسية المفرطة تجاه أية حقائق
 لا يكون الحزب مصدرها عن معاداة للابداع . ونظرت أحزاب الكتلة
 السوفيتية لكل المبدعين بما فيهم المبدعين الشيوعيين أنفسهم نظرة
 شك وارتياح أي نقد قد يوجه للأوضاع الراهنة ، وأدى الاعتقاد بأن
 الأحزاب تجسد وعي طبقة البروليتاريا الصناعية ، إلى محاولة
 الائتلافات داخل هذه الأحزاب لتوسيع قاعدتهم الجماهيرية لدى
 العمال .

وكشفت الصحيفة البولندية تيرسا تورانسكا Teresa Toransk
 في سلسلة من المقالات التي أجرتها في أوائل الثمانينيات مع بعض
 الزعماء السابقين في الحزب الشيوعي البولندي ونشرتها في كتب
 بعنوان « هم oni » كل الأساطير والفتنات والسخط والأوهام التي
 سلبت الشيوعيين في بولندا ارادتهم . وأهم هذه المقالات كانت مع
 عضو المكتب السياسي Politburo وسكرتير اللجنة المركزية
 Central Committee Secretary السابق جاكوب بيرمان (١٩٠١ -
 ١٩٨٤) الذي حاول أن يدافع عن خيارات وتصرفات جيله السياسي إذ
 رأى أن الشيوعيين البولنديين كانوا محقين عندما اعتبروا سياسات
 ستالين في بولندا بطولية ، وادعى أن السوفيت ضمنوا حرية بلادهم
 الاجتماعية والقومية . وعندما كشفت تورانسكا التي تربطها علاقة مع
 تضامن عن الكوارث والمصائب الفادحة التي سببها الشيوعيون للأمة
 البولندية فان بيرمان رد قائلا :

« ان هذا محض افتراء ، لقد اتينا بالحرية السياسية ٠٠٠ لم
 نأت الى هذا البلد كمحتلين ولم نتخيل أنفسنا كذلك . وبعد كل الكوارث
 التي نزلت بهذا البلد اتينا بالحرية السياسية في أجل صورها لاننا
 نخلصنا أخيراً من هؤلاء الألمان وهذا أسفر عن شيء ما وانني أعلم أن
 هذا الشيء ليس بالمهين . لقد أردنا لهذا البلد أن يتقدم للأمام وأن

يستندشق عيبر الحياة الصرة • ان آمالنا كانت متعلقة بالنموذج الجسدي
أبولندا والذي لم يحدث مثيله من قبل وكانت هذه هي الفرصة الوحيدة
التي واثت هذا البلد منذ ألف عام ، كما كنا نريد أن تستثمر هذه الفرصة
بنسبة مائة في المائة • ونجسنا • وعلى أية حال فقد كنا على وشك
النجاح لأننا كنا على حق ولم تكن آمالنا محض خيال ولم نستخدم عزنا
من نراغ ولكن تاريخنا -- بل التاريخ كان بجانبنا » (١٤) •

وهكذا لم يكن الشيوعيون في حاجة لأي دليل على (اجتماعي
أو ثقافي أو معنوي) يمنحهم الثقة بأنفسهم لان التاريخ هو الذي
منحهم تفويضا ولان أحلامهم عظيمة من أجل تحقيق الخلاص دون أدنى
اهتمام لصير هؤلاء الذين كرسوا هذا المخطط اليوتوبى ، وكانهم
يحاولون فرض السعادة على الناس وذلك بالتوحد مع معتقدتهم
التبشيرية من الدور المختار لأحزابهم مما جعل الأحلاف الشيوعية
توصد أبوابها أمام أية إشارة تنبع من المجتمع الذي ثبطت هممه ويدهل
فى باطنه التمرد والفوضى • ولم تحاول هذه الأحزاب استقاء خطتها
من الواقع الفعلى لكل بلد بل جنت هذه باستمرار الى فرض التغيير
على المجتمع واذا لزم الأمر أن تنمعه • وهذا يفسر الهوة السحيقة بين
الائتلافات الحاكمة أى « هم » كما أطلق عليهم المواطنين الماديين
وجموع الجماهير أى « نحن Us » . وفيما بعد قاطعت الأحلاف
الشيوعية فى أوروبا الشرقية التقاليد القومية لبلدانهم لصالح جمعية
« محررى البشرية » المتجاوزة للقوميات • واقتنع زعماء احزاب الكتلة
السوفيتية مثلا كان لينين مقتنعا --نما أسس الحزب البلشفي فى بداية
القرن العشرين بأن الشعب فى حاجة الى قوة خارجية لتنويره وتعليمه،
وبدون حزب طليعى لن يكون هناك أمل فى عتق حقيقى • وفى نهاية
إقصائه مع تورنسكا أعرب بيرمان عن دفاعه المستميت عن السمو
الأخلاقي للشيوعية الأصلية ، وأكد أن اليوم الذى سيتحقق فيه
الحلم بثورة كرنية قادم لا محالة ، وسوف تصبح كل فضائح وجرائم
الحقبة الستالينية مجرد نكريات مقال :

« وبدون استخدام أية كلمات سحرية كى يبدو ايمانى قويا ،
فاننى مقتنع بأن مجمل أعمالنا قد تم انجازها ببهارة وحصدنا أخيرا
ثمارها وخلصت الوعى البرافندى وذلك لأن كل المميزات التى انبثقت من
مذهبنا الجسدي سوفك بل لابد أن تخرج للحياة واذا لم تدمر بهرب ذرية
ولم تفتش داخل اللا شميئية فسيكون هناك فى النهاية اختراق للعقلية
التي ستكون لها طبيعة مختلفة تماما • ويعدها ستكون نحن الشيوعيين
قائمين على تطبيق كل المبادئ الديمقراطية التى كان لابد أن تطبقها

لكننا لا نستطيع ، لأن ذلك فيه هزيمتنا وإبادتنا • ربما يتم ذلك في خمسين أو مائة عام ، اننى لا أتكهن ، ولكننى على يقين بأن ذلك للسوفيت يحدث يوما ما «(١٥) •

ان بيرمان وغيره كثيرين اعتقدوا بأن التاريخ فى صفهم وكان هذا الاعتقاد السمة التى ميزت الأحلاف الشيوعية فى كل البلدان التابعة للاتحاد السوفيتى • وقد كان لدى أنا بوكرفس الايمان وظنت ان الاتحاد السوفيتى هو عماد الانسانية التقدمية • وفى الوقت الذى تحولت فيه بولندا للمستالينية تولى الحكم فى بولندا بوليسلاف بيرت Boleslaw Bierut (١٨٥٦ — ١٨٩٢) وهو العميل السوفيتى السرى السابق الذى خدم كمرشد لکمترن فى بلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا خلال الفترة التى توسطت الحرب • وحكم بلغاريا « رباعى » مكون من الزعيم الشيوعى ماتياس راكوسى (١٨٩٢ — ١٩٧١) الذى قضى خمسين عاما فى سجون الادميرال هورثى بسبب ممارساته الشيوعية ومزاملته الوثيقة لارنو جيرو (القيصر الاقتصادى) وجوزيف ريفيا Jozsef Revia « الأيديولوجى الرئيسى » وميهائى فاركاس (وزير الدفاع) • وتولى قيادة الحزب فى بلغاريا فالكو تشرفينكوف Vulko Chervenkov (١٩٠٠ — ١٩٨٠) الذى خدم فى الثلاثينيات كنائب لمدير مدرسة الکمترن اللينينية بموسكو • وفى المانيا الشرقية تولى زعامة الحزب ولهم بيك Wilhelm Pieck (١٨٧٦ — ١٩٦٠) وولتر ألبريخت Walter Albricht (١٨٩٣ — ١٩٧٣) اللذان تركا وطنيهما بعد اجتياح هتلر فى ١٩٣٣ وقضى هؤلاء الزعماء — هذه الفترة فى منفى بموسكو وعادوا الى المانيا فى عام ١٩٤٥ •

اما فى رومانيا وبعد التخلص من عصبة (بوكز — لوكا) قاده جورجى جورجيو — دجى الحزب الشيوعى (١٩٥١ — ١٩٦٥) وكان عاملا فى السكة الحديد وقضى أكثر من عشر سنوات فى السجون ومعسكرات الأشغال الشاقة كما قضى الزعيم التشيكوسلوفاكى كلمينت جوتولد (١٩٥٣ — ١٩٥٦) سنوات الحرب فى المنفى السوفيتى (١٦) • وفى موسكو التقى الجميع خلال سنوات الحرب أو خلال الفترة التى توسطتها الا ان قصة ما جمع بينهم من علاقات لها كتاب آخر وتم اعداد بيرمان وبوكز وراكوسى وغيرهم من الزعماء الشيوعيين الشرق اوروبيين كى يكونوا ميليشيات تتخذ سقائين قدوة لها فى السلوك الشرى الصحيح وأبدوا اعجابهم بصلابة الزعيم السوفيتى وبصره ضد عصب المعارضة وشاركوه عداءه للغرب • وهكذا آمن تلاميذ النظرية الستالينية بنظرية التعاضد الدائم والمستمر للصراع

الطبقى وبذلوا قصارى جهدهم لاقامة نظام يقمع كل الاتجاهات الناقدة وراوا في عقيدتهم الاشتراكية الصواب كله وفي الرأسمالية الشر كله ، وليس هناك طريق وسط بين الاثنين ، وانطلاقا من هذا الايمان زرعوا هذه المبادئ في عقول الطلاب في بلدانهم . وكى يتعرف الشيوعى على الماركسية لايد أن يبدأ بتعلم وحفظ نصوص الكومنترن Comintern Vulgate وقبلها دون تحفظ باعتبارها شعارات ستالين الناجمة ، بل ورأى الشيوعيون في الكتلة السوفيتية أن صياغات ستالين التعليمية أفضل ما عبر عن أفكارهم ومعتقداتهم الخاصة . وكان الامتزاج العقلى والعاطفى بين النبوءة والأنظمة شيئا لا يتزعزع .

وعندما توفى ستالين قاست الأنظمة الشرق أوروبية مشاعر اليتيم ، اذ كان ستالين أكثر من مجرد نصير بل كان حامى حماهم ومحقق أحلامهم ورمز قوتهم ، والمصدر الحقيقى لسلطتهم وبدونه سوف يشعرون بالعجز .

نيكيتا خروتشوف و « المسيرة الجديدة New Course »

وعادت القيادة السوفيتية بعد وفاة ستالين لفرض هيمنتها على الاقطار التابعة . واثرتفجير الصراع الشرى على السلطة فى الكرملين على استقرار الائتلافات الحاكمة فى الاتحاد السوفيتى . وعندما استأنف السوفييتيون علاقتهم مع يوجوسلافيا رأى الزعماء الشيوعيون الشرق أوروبيين أن سلطتهم يحيق بها خطر جسيم ، ومن ثم قاوموا بكل ثقلهم انحراف تيتو عن الأيديولوجية الموضوعية ، بل واستحلوا دم الرفيق الشيوعى . وعلاوة على ذلك لم تتهاون زعامة الاتحاد السوفيتى الجديدة فى الحفاظ على قلعة ستالين الحصينة فى أوربا الشرقية الا أن الكرملين حاول تعديل بعض من عقائده الأساسية .

فى صيف عام ١٩٥٣ قام نيكيتا خروتشوف Nikita Khrushchev زعيم الحرب الشيوعى السوفيتى ومالينكوف Malenkov رئيس الوزراء وكلاهما موضع الاحترام ، باستدعاء الزعماء المجريين للاجتماع بهم فى موسكو حيث طلبوا منهم تطبيق استراتيجة جديدة ستضمن لعامة الشعب مستوى معيشيا أفضل كما ستضمن انكماش الارهاب . واضطر راكوسى للتنازل عن منصبه كرئيس للوزراء لامرى ناجى Imre Nagy عضو المكتب السياسى السابق الذى استبعد من القيادة فى أواخر الأربعينيات بسبب مناهضته للزراعة التعاونية .

وفى ألمانيا الديمقراطية عجلت وفاة ستالين بتفشي التوترات فى حزب الوحدة الاشتراكى (SED) Socialist Unity Party الحاكم . وفى يناير ١٩٥٣ فرض الحزب عشرة فى المائة زيادة فى ساعات العمل فى مواقع البناء ببرلين (دون زيادة مماثلة فى الأجور) مما أدى الى اندلاع الاضطرابات والمظاهرات أمام المقرات الرئيسية للحزب الشيوعى . وسحقت القوات الألمانية الشرقية والسوفيتية هذا العصيان المسلح المعادى للثوتاليتارية وكان الأول من نوعه فى أوروبا الشرقية . ورسميا فان عشرات بل مئات على الأرجح ماتوا أثناء هذا الردع الحاسم . وفى كلمات تقطر مرارة عبر بيرتولت برخت Bertolt Brecht الشاعر والكاتب المسرحى الشهير عن هذه المأساة قائلا :

« بعد انتفاضة ١٧ يوليو ،لقى سكرتير الاتحادا وريقتاته الستالينية ، قائلا ان هؤلاء قد راهنوا على ثقتهم فى الحزب ، ولن تعود الا اذا تضاعفت الجهود . وعندئذ سيكون يسيرا على الحكومة ان تسحق الشعب أو تختار غيره » (١٧) .

ان انتفاضة برلين الشرقية كانت أولى حلقات سلسلة الانفجارات المتتالية للحنق الشعبى ، ضد الأنظمة العقيمة التى نصبت نفسها فى أوروبا الشرقية بمساعدة مباشرة من الجيش الأحمر — وكان لتلك التمردات طبيعة مزدوجة . فهى عصيان سياسى ضد النظام الاجتماعى المعادى للحرية والذى أهدر كل الطاقات الانسانية من ناحية ، وحركات التحرر القومى ضد القوى الأجنبية المثلة فى الاتحاد السوفيتى من ناحية أخرى . ولذا فان تعطش الشعوب الشرق أوروبية . للتمرد عام ١٩٥٦ عبر عن مطالب سياسية واجتماعية واقتصادية . وتصدى الشعب للنظام القائم بعد أن أدركوا أن أساسه هش ، وهاجموا أسلوب التعمية الأيديولوجية التى تبرر ظلم الشيوعيين الجائر . أما الماركسية اللينينية كما نشرها ستالين فقد فتحت عليها النيران فى المؤلفات والمقالات العامة للمبدعين أصحاب المذهب اليسارى الذين شعروا بأن العصب الحاكمة قد تلاعبت بأحلامهم الرومانسية وآمالهم البريئة ، وظل المبدعون الذين حجبت وجهات نظرهم ومنع نشرها بعيدا عن ما بدا أنه صراع العائلة الشيوعية ، ومن هؤلاء المبدعين نضرب مثلا واحداً بلوسيان بلاجا Lucian Blaga وهو واحد من الفلاسفة والشعراء الرومانسيين البارزين ، حيث منع الحزب نشر جميع أعماله فيما عدا بعض الكتب المترجمة وقضى حياته يعمل كأمين مكتبة . وحاول الزعماء الجدد فى الاتحاد السوفيتى البرهنة لانصارهم

فى الحزب وفى الفرق العسكرية والحكومية ان زمن الارهاب الأعمى قد ولى . واستنتج الزعماء السوفيت خاصة بعد تهرد برلين أن الأساليب المتبعة للقمع والارهاب والاستغلال الاستعماري فى أوربا الشرقية لابد أن تستبدل . وأبلغوا قناصلهم العسكريين فى عواصم أوربا الشرقية ضرورة استخدام أساليب جديدة للقيادة وصيغ جديدة للسلطة فى ظل هذه الظروف المتغيرة . وبإدراك السوفيت بالتقرب من تيتو وبإقامة علاقات ودية معه وطلبوا ممن قاطعوه من زعماء شرق أوربا أن يحذوا حذوه . وادى التعديل فى « خط الحزب » الذى كان مقدسا وثابتا ولا يمكن تغييره الى التشوش وتخطب الأحزاب الشيوعية الشرق أوروبية . وأدرك ماتياس راكوسى وعصبيته فى المجر وكذلك جورجى جورجيو - دجى فى رومانيا ، وبوليسلو بيريتر فى بولندا وأنطونين نوفتني Antonin Novotny فى تشيكوسلوفاكيا ، وولتر البرخت وولهم بيك فى جمهورية المانيا الديمقراطية وفلكو تشرفنكوف فى بلغاريا وأنور خوجة فى البانيا أن استمرار وجودهم السياسى يعتمد على قدرتهم على التعامل مع مذهب الاتحاد السوفيتى الحاد اذا ما نشب فى بلدانهم . لقد انكشفت التهم الكيدية التى سبق ووجها الستالينيون المتشددون لمنافسيهم خلال المحاكمات بعد أن رد لتيتو اعتباره وكف الجميع عن وصف القيادات اليوجوسلافية باعداء الانسانية . وبإدراك اعداء الستالينية وهم ملينكوف وخروتشوف بنشر تلك العداوة على نطاق واسع فى أوربا الشرقية وكان طبيعيا أن تهاطل القيادات المحلية التى استمدت شرعيتها - كما ذكرنا آنفا من تأييدها المطلق لستالين فى اعلان عداؤها له ، ورغم أن هؤلاء مجزوا عن تقييد الحرية السياسية الا أنهم وبالتأكيد قد أثروا على مسيرتها .

ولأن الاتحاد السوفيتى كان يندفع فى اتجاه احترام الجريات ، فان الضغوط من أجل احترام الحرية السياسية فى كتلة الاتحاد السوفيتى كانت قوية ومؤثرة .

علاوة على ذلك كان الوضع الاقتصادى فى تلك البلدان شديد التدهور . وتأكد الاتحاد السوفيتى من خلال المعلومات التى جمعها عملاؤه فى بلدان الكتلة ضرورة تبنى مسيرة جديدة وبسرعة والا ستكون الانفجارات الاجتماعية فى المنطقة حتمية . وفى المجر ، عين امرى ناجى وهو أقل من راكوسى وحشية ميلا للايدلوجيا رئيسا للوزراء بمباركة الاتحاد السوفيتى . وذلك فى يونيو عام ١٩٥٣ ، وأطلق العنان لبرنامج جريء ملىء بالخطط الاقتصادية والسياسية الجديدة . وتتلخص استراتيجية ناجى فى تخفيف العبء الواقع أو المفروض على طبقة

العمال فى المصانع وتخفيف الضغوط عن كاهل الفلاحين وذلك بالتطبيق الجبرى للتعاونيات وتمهيد طريق جديد للشرعية يتضمن عفوا جزئيا عن المسجونين السياسية وغلق معسكرات الاعتقال . وكان الاجراء الأخير يعد عمليا على قدر كبير من الاهمية ، بل كان أكثر تحديا لكل النظم الستالينية الشرق أوروبية .

ان قرار ناجى بالتخلص من السجون المجرية اكسبه شعبية حقيقية وجماهيرية كبيرة ، جعلته منافسا لا يستهان به لراكوسى الذى أخذ موقفه يزداد ضعفا .

واتبع الزعماء فى بلدان شرق أوروبية أخرى نفس استراتيجيات الحرية السياسية الا أن التزامهم بها وتحمسهم لها كان أقل من ذلك الذى أظهره ناجى . وعند اندلاع الصراع على السلطة فى الكرملين حاول الرؤساء الشرق أوروبيين المحليون كسب ثقة الزعماء السوفيتيين ، واعتبروهم أقل تورطا فى الانفصال عن الارث الستالينى الذى اكتسح أوروبا . وادى ما حققه خرتشوف من انتصار على مالينكوف فى عام ١٩٥٥ الى أن يستعيد راكوسى سيادته وأزيح ناجى من منصبه فى الوزارة والحزب الشيوعى بتهمة « الانتهازية اليمينية » .

وفى مايو من عام ١٩٥٥ اتخذ الاتحاد السوفيتى خطوة أخرى فى اتجاه تحويل هيمنتهم فى المنطقة لشكل مؤسسى وذلك بتكوين حلف وارسو كنوع من المصاهرة العسكرية التى تستند الى صلات أيديولوجية . وعبر زيجنيو بريجنسكى عن رأيه فى حلف وارسو فقال :

« انها المعاهدة الرسمية الوحيدة التى تشكل أهمية كبيرة لأنها تجعل الدول [الأوروبية الشرقية] ملتصقة تماما باتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، ولأنها تحد من العمل المستقل وتسمح بوجود (ومن ثم التأثير السياسى) القوات السوفيتية فى قواعد على أراضيهم » (١٨) .

وضم حلف وارسو فى البداية ألبانيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والمانيا الشرقية وبولندا ورومانيا والاتحاد السوفيتى . وبعد الانشقاق الألبانى السوفيتى فى ١٩٦٠ انفصلت قيادة تيرانا Tirana عن حلف وارسو الذى شجبه الألبان باعتباره أداة للامبريالية السوفيتية . وتخلت ألبانيا رسميا عن الحلف فى أغسطس عام ١٩٦٨ عندما غزا الاتحاد السوفيتى وأحلافه تشيكوسلوفاكيا . وبينما كفل حلف وارسو للاتحاد السوفيتى فرض هيمنته السياسية والعسكرية على البلدان

المتهمدة وضمن تبعيتها له ، فان أول الاتحادات التى تشكلت فى عام ١٩٤٩ ضمن سياسة فرض هيمنة الاتحاد السوفيتى الاقتصادية على بلدان المنطقة كان مركز المساعدات الاقتصادية المتبادلة The Council of Mutual Economic Aid أو (CMEA) .

ان الأداة التى استخدمت لجعل اقتصاديات هذه البلدان معتمدة تماما وللأبد على الاتحاد السوفيتى هى « التخصص فى الإنتاج الصناعى » وأعيدت صياغة مبادئ الاشتراكية الدولية ، لتلائم المفهوم الجديد لهيمنة اقتصادية محدودة وتنسق مع الجهود المبذولة لخلق كيانات اقتصادية عابرة للقوميات خاضعة كلية للمصالح السوفيتية . وبعد عام ١٩٦٠ كان مركز المساعدات الاقتصادية المتبادلة سيمثل الاطار الذى ستنفذ من خلاله سياسة التكامل الاقتصادى لبلدان شرق أوروبا ذات الاقتصاد المركزى المخطط ، لقد كان من المفترض أن تنبثق عن هذه الجهود الاقتصادية المشتركة سوق اشتراكية متحدة . وبعد اجتياح عام ١٩٨٩ أصبح كل من حلف وارسو ومركز المساعدات الاقتصادية المتبادلة لا تربطهما أية علاقة وسعت الدول الأعضاء لهما . وفى الاجتماع الذى عقد فى فبراير ١٩٩١ ببودابست وضم وزراء خارجية ودفاع بلدان حلف وارسو ، تقرر حل الاتحاد العسكرى فى ٣١ مارس عام ١٩٩١ (١٩) .

مؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى العشرون - قنبلة معاداة الستالينية :

ان أهم الأحداث التى أدت الى تدمير ارث الستالينية كان « الخطاب السرى » الذى سلمه نيكيتا خروتشوف Nikita Khrushchev فى فبراير عام ١٩٥٥ لمؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى العشرين (CPSU) وفيه هجم خروتشوف لأول مرة الزعيم السابق وذلك لأسباب عدة : أولا انه أراد أن يطعن فى شرعية خصومه فى المكتب السياسى للحزب السوفيتى لأن تعاونهم مع ستالين كان أكثر توفيقا منه وهم «فتسلاف مولتوف Vyacheslav Molotov ، لازاركا جنوفتش Lazarkagnovich جورجى مالينوف وكلمنت فورشيلوف Kliment Voroshilov» وثانيا . لأن تدمير أسطورة ستالين ضرورى لاستعادة امتيازات الحزب كمصدر فعلى للسلطة السياسية أو بمعنى آخر للتأكيد على الوثائق المؤسسية لصفوة الحزب التى حاق بها الخطر بسبب استبداد شخصية ستالين ، وثالثا : لأن ادعاء « العودة الى اللينينية الحقة » باعتبارها الخط الحزبى الجديد يجعل خروتشوف يبدو كمُدافع عن استعادة الشرعية الاشتراكية وحامى البيروقراطية من الارهاب السياسى السرى ،

ورابعا : أعطى « الخطاب السرى » (لم يذكر وجوده فى السجلات الرسمية للمؤتمر ، ونشرته الصحافة السوفيتية فى بداية عام ١٩٨٩) الفرصة لخروتشوف لحصر أعدائه داخل كل من الائتلاف السوفيتى وداخل الحركة الشيوعية (بما فيهم بعض زعماء الدول الشيوعية وعلى رأسهم ماوتسى تونج Maozedong فى الصين) باعتبارهم ذوى عقائد فاسدة تعجز عن مواكبة التغيرات فى العالم المعاصر .

وتم ابلاغ الوفد المفوض عن الأحزاب « المتأخية » فى الحال عن ما يحمله « الخطاب السرى » لخروتشوف من قنابل موقوتة ، وتم اجبارهم أيضا على الاعتراف بأن اتهام « الدعاية البرجوازية » لستالين لعب دورا أساسيا فى الارهاب كان صحيحا . وأكد خروتشوف على دور ستالين فى تحطيم حلف البسلامة Bo'shevik ، وعلى نزاعه الاجرامية ، وتورطه المباشر فى بناء نظام ارهابى . إن اغشاء أسرار الخطاب السرى بعد أن حصلت النيويورك تايمز New York Times على نسخة من الخطاب ونشرت نصه الكامل أثار ردود فعل واسعة النطاق . وأشار ليتسك كولافسكى الى التجربة المريرة التى عاشها الآلاف من العسكريين الذين نشأوا على تعاليم ستالين الذى كان أكثر حكام العالم الشيوعى سلطوية عندما اكتشفوا أن « قائد الانسانية التقدمية ، والملم ، والأب الروحى للشعب الروسى والأستاذ والمعلم ، والعبقريه العسكرية العليا ، بل أعظم عبقريه فى التاريخ كان ارهابيا يتلذذ بتعذيب الآخرين ، وبالقتل الجماعى ، مع جهله بالثئون العسكرية وهو ما عرض الاتحاد السوفيتى لطامة كبرى » (٢٠) . ان الخطاب ركز على سيكولوجية ستالين المضطربة وأكد على شخصيته السيكوباتية ومن ثم افتقاره للمصداقية . لقد حاول ستالين فرض نظام الحزب الواحد ومن ثم حكم بقبضة من حديد بمساعدة كتية من المؤيدين . ورأى خروتشوف أن البحث فى أسباب هذه الفضائح يرتبط بالكشف عن مسئولية ستالين الشخصية عنها ، وبدلا من التركيز على الظروف البنيوية الموضوعية التى افترت مثل هذه الشخصية السيكوباتية وبدلا من التركيز على المقدمات اللينينية للستالينية ، بذل خروتشوف تصارى جهده ليبرىء ساحة « الحرس القديم » اللينينى البلشفي .

وفى خطاب خروتشوف بدا بيريا Beria شيطانا بينمسا بدا سنالين كبيدق ساذج تلاعب به هذا المغامر المجرى من كل القيم . ويرى خروتشوف أن هلاك الحزب كان نتيجة لكائد بيريا البشعة وشكوك ستالين المرضية . ولم يتسائل خروتشوف لم تقاعس الحزب عن مواجهة المسيرة التخريبية وأذعن لها مطاطىء الرأس ؟ . وكان البديل

الاستراتيجية من أجل البقاء ومنع هؤلاء الوحوش السادية من الوصول لقمة الحزب هو التخلص منهم وإبادتهم . ولم يضمن الشيوعيون للجماهير أن انحرافات ستالين لن تتكرر في المستقبل وعلاوة على ذلك فإن التزام خروتشوف للصمت المحير والمشؤم ساعد في تسديد الضربة القاضية لمصير ضحايا ستالين من اللاشيوعيين . ولم يبد خروتشوف أى ندم في « الخطاب السرى » فيما يتعلق بملايين الفلاحين الذين تمت إبادتهم أثناء المجاعة التي سببتها الحكومة في أوائل الثلاثينيات ، ولم يشر إطلاقاً لحالات الأعدام التي تمت بالمنطقة أو لتصفية الأحزاب السياسية الديمقراطية ولم يبد أى ندم على تدمير الأحلاف القومية في الجمهوريات الخاضعة للهيمنة السوفيتية . وفي نفس الورقة أكد خروتشوف على أن عام ١٩٣٤ كان بداية الكارثة وذلك عندما خطط ستالين لاغتيال زميل المكتب السياسي سيرجى كيروف Sergikirov لأنه ظن أن سيرجى يناقسه على القمة .

لقد رأى خروتشوف أن نكبة ستالين بدأت في اللحظة التي قرر فيها أن يطلق هجومه ضد البروقراطية الستالينية نفسها . ولم يعبر خروتشوف عى أدانته لمنطق الارهاب ، إنما ادان التطبيق « المنحرف » للارهاب ضد خادمي المشروع الشيوعى المخلصين وهذه هي المفالطة الرئيسية للخروتشوفية التي بذلت جهداً خارقاً لتقزيع اللينيونية عن أى تعاون مع الستالينية ولم تقم سوى برد الاعتبار لضحايا الارهاب الستالينى الذين خدموا الحزب البلشفى وزعيمه بتفان . ويقودنا هذا المنطق لضرورة تحليل المحاكمات الصورية التي جرت في الثلاثينيات وتنفيذ التهم اللامنتطقية التي وجهت ضد معارضى ستالين من « الحرس القديم » البلشفى — لقد تم التشهير بـتروتسكى Trotsky وزينوفيف Zinoviev وكامنيف Kamenev ورايكوف Rykov وبوخارين Bu Kharin باعتبارهم أعداء الحزب وكثيراً ما تلقى ستالين المديح لصراعه الذي لا يكل ضد هؤلاء المتآمرين . أن التجميـل الأيديولوجى لأسلوب الأكاذيب ، والفساد ، والقتل الجماعى والفرع المتفشى كان عقيدة « عبادة الفرد » . أن النظام السياسى سيبدو مختلفاً لو أبدى ستالين مزيداً من التواضع والانسانية . ورفض خروتشوف وضع نوايا ستالين الشخصية فوق الشبهات . وكان آخر زعيم يتولى الحكم هو دائماً الزعيم الشيوعى المخلص وكانت وسائله وليست غاياته هي التي تدان . واعترف خروتشوف بأن الجرائم الارهابية تمت « أثناء حياة ستالين وتحت قيادته وبموافقته » . وعلى أية حال عجل « الخطاب السرى » في الوقت ذاته باصدار حكم البراءة على الزعيم الفقيد وذلك بالاشارة لالتزامه المزعوم بالمبادئ الثورية حيث قال :

« أن ستالين كان مقتنعا بأن ذلك كان ضروريا من أجل الدفاع عن مصالح الطبقة العاملة ضد مكائد الأعداء وضد هجوم الطبقة الامبريالية . وقد رأى ذلك من منطلق مصلحة الطبقة العاملة ومصصلحة الانتصار الذي حققته الاشتراكية والشيوعية . ولا نستطيع أن نقول ان هذه ممارسات طاعية طائش . . واعتقد أن ذلك كان شيئا لايد منه من أجل مصلحة الحزب ومصصلحة الجماهير العاملة وباسم الدفاع عن مكتسبات الثورة . ان المأساة كلها تكمن في هذه الادعاءات والأكاذيب » (٢١) .

وبعبدا عن تبرير خروتشوف لأعمال ستالين ، فإن « الخطاب السرى » أضفى الشرعية على التمرد ضد المؤسسات والقيم الستالينية . وحاول الاتحاد السوفيتى أن ينقذ ما يمكن انتقاذه من أساطيره الأيديولوجية الا أن موجة التحرر اكتسحت كل البلدان التابعة وكانت المجر وبولندا هما أول من بادر لاكتشاف معنى جديد للاستقلال الذاتى وللتخلص من العقائد الستالينية المحنطة — ويمكن استشعار الآثار العميقة الناتجة من المؤتمر السوفيتى فى كل بلدان الكتلة الأخرى حين جنحت انتلجنسيا الحزب للرايكاكية ونقد مساوىء الماضى .

كوارث ١٩٥٦ فى بولندا :

لقد توفى الزعيم الشيوعى البولندى بوليسلو بيرت الذى أطيح به لافشائه أسرار المؤتمر العشرين فى مارس ١٩٥٦ وتبع ذلك صراع مروع على السلطة وقع بين فصائل مختلفة داخل ائتلاف الحزب . ولفهم السمات المميزة للشيوعية فى بولندا ، يجدر الاشارة الى الجذور السياسية والفكرية لتشكيل الحزب وكذلك الى المحن التى مرت ببولندا وهى تحت الحكم الستالينى . لقد كان الحزب الشيوعى البولندى السرى Polish Communist Party من أقل الأحزاب اللينينية الشرق أوروبية التى تعانى من التفتت — لقد استاء ستالين من الزعماء الشيوعيين البولنديين المتهمسين وخطط لآبادتهم أثناء التطهير الكبير . وتم حل الحزب الشيوعى البولندى فى عام ١٩٣٨ بمرسوم من اللجنة التنفيذية Executive Committee للأمم المتحدة الشيوعية Communist International التى اتهمت الحزب البولندى بأنه عش للجواسيس ، ووكر للعملاء المحرضين للبوليس السرى البولندى . لقد كانت لطة خطيرة وجهها ستالين ضد المجموعة السياسية التى تعانى من الأمراض النفسية نتيجة لعملها السرى ومنها الشك ، والطائفية والافتقار الى الرؤية السياسية .

لقد أشار ايزاك دوتشر Isaac Deutscher الى أحد أسباب كره ستالين للشيوعية البولندية وهو علاقة الشيوعية البولندية بالثقاليد اللكسمبرجية المهجورة وتبنيها لمنطق الاشتراكية الراديكالية لروزا لوكسمبرج Rosa Luxemburg ولم يكنوا أى احترام لستالين رغم أنهم اعتبروا الاتحاد السوفيتى رمزا لمنتهى آمالهم . وهنا يجب أن نذكر أن الحزب الشيوعى البولندى قد صيغ على نحو مخزن بالصيغة البلشفية وذلك فى أواخر العشرينيات وبداية الثلاثينيات وقبل مناضلوه أوامر الكمنترن دون أن ينسوا ببنت شفة . وطرح ايزاك دوتشر سؤالا حول الآثار الستالينية على الحلف الشيوعى البولندى فقال :

((كيف حدث ذلك ، لابد أن نسأل ، كيف للحزب الذى يملك هذا الرصيد من النضال السرى الذى امتد لعقود وتبنى الفكر الماركسى الجليل ولفترة طويلة (امتدت سبع سنوات) أن يذعن على نحو مخزن لهذا الهجوم الوحشى ودون أدنى اعتراض ودون القيام بأية محاولة للدفاع عن الزعماء المناضلين الشهداء ودون أدنى محاولة لرد اعتبارهم ولم يعلنوا أن هؤلاء الذين اعدمهم ستالين سيظلون أحياء وسيواصلون النضال ؟ كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟ يجب أن نكون واعين تماما لما تعرضت له الشيوعية البولندية ولسنوات عديدة من قبل الستالينية للتعذيب المعنوى هذا إذا ما أردنا أن نفهم انهيارها التام تحت وطأة هذه اللطمة)) (٢١) .

أن الحزب الشيوعى البولندى استعاد نفسه كقوة سياسية فعالة فى المقاومة المعادية للنازية وكان ذلك أثناء الحرب العالمية الثانية . وكان زعيم الحزب فلاديسلاف جوميلكا وأصبح بعد تحرر بلاده سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى البولندى إلا أن العصابة المسكوفية بقيادة بوليسلو بيرت وهيلارى منك Hilary Minc وجاكوب بيرمان استبعدت جوميلكا الذى قضى سنوات الارهاب الستالينى معزولا بعد أن حددت أقامته بمنزله .

ومن بين السمات المميزة والبارزة للثقافة السياسية البولندية فى العقد الأول من الحكم الشيوعى المقاومة القومية وضعف الأيديولوجية الماركسية اللينينية وقوة السلطة السياسية للكنيسة الكاثوليكية Catholic Church (٢٢) ورغم أن الصراع الأيديولوجى المستمر من قبل الشيوعيين ضد الكنيسة بات مستعرا ، فإن الكنيسة الكاثوليكية ظلت تقوم بدورها فى استقطاب البولنديين . ولأن معاداة الستالينية كانت تنتمى فى الاتحاد السوفيتى فان الحلف الشيوعى البولندى اتخذ أول

خطواته في طريق الانشقاق فانقسم لطائفتين الأولى من المدافعين عن الحرية السياسية والأخرى من الأصوليين المحافظين الذين رفضوا التخلي عن أي من العقائد التقليدية . ورفع عن جوميلكا قرار تصديق إقامته وأطلق سراحه في عام ١٩٥٤ وذهبت تهمة بالفساد « القوسى » المزعوم على النسيان . وأصبحت بولندا في عام ١٩٥٥ مرتعا خصبا للصراعات الفكرية الملتهبة ، وابتهج المفكرون لافشاء أسرار مؤتمر الحزب الشيوعي السوفيتي العشرين (٢٢) . وخلال عام ١٩٥٦ أقيم أكثر من مئتي ناد فكرى لبحث القضايا الشائكة في ماضى الأمة وحاضرها بصراحة شديدة . ان اطلاق سراح الرأى العام أعاد الحياة للمجتمع المدنى البولندى المحاصر .

وطرح المفكرون البولنديون مبادئ جديدة للاشتراكية . ولم يكن نقدهم للحزب الحاكم يرجع للحنين أو العودة للنظام الفاشل بل يرجع لحد ما للاعتقاد بأن المبادئ الحقيقية للاشتراكية قد نسيها الجيروقراطيون الشيوعيون في غمرة اهتمامهم بتوسيع نطاق سلطتهم . لقد عانى المفكرون المتسردون من آثار معنوية ونفسية مفجعة تجمعت عن الاستبدادية الديكتاتورية وطالبوا بأنسنة النظام القائم ، الا أن نهجهم كان نهجا تطويريا أكثر منه ثوريا . لقد أرادوا تغيير نظامهم من الداخل وعلقوا آمالهم على زمرة الحزب الحاكم التى تبدو أكثر تفتحا . واطلقت قصيدة الكاتب الشيوعى آدم فاسك Adam Wask «قصيدة للشباب» التى نشرت فى عام ١٩٥٥ العنان لمحنة سياسية وأدبية بين الليبراليين والمحافظين . وفى قصيدته شجب فاسك افتقار القيادة الحزبية للوعى بمدى تردى المستويات المعيشية للطبقة العاملة وأدان غياب نظام شرعى عادل وندد بالكذب باعتباره أحد السمات التى يتعذر محوها من الحياة اليومية في بولندا الستالينية فقال :

✽ الناس هناك مطحونون ،

وفى القاع يعيشون ،

أبدأ للمسرح لا يذهبون ،

والصفار من التفاح البولندى لا يأكلون ،

والبنون والبنات يكذبون بالاجبار ،

والزوجات يطردن خارج الديار ،

والمراهقون يموتون من غم القلوب ،

أنهم يعانون الاجحاف والتهجير ،

انهم عرايا سلبهم قطاع الطرق الثياب ،
 من أجل هؤلاء نناشد السلطة معنى للشرعية ،
 فهؤلاء ينتظرون دعما ، وهؤلاء ينتظرون عدلا ،
 ينتظرون ، وقد طال الانتظار ..

وبعد هذا الاتهام القاسى الموجه للنظام القائم ، عدد فاسك
 المطالب الأساسية للمجتمع المدنى الصاعد ببولندا الا انه رأى مع
 زملائه الذين آمنوا بالعتيدة الماركسية أن الحل يمكن أن يأتي من خارج
 الحزب الشيوعى . وقد قدمت هذه المطالب لزعيم مستنير غير معروف
 استطاع فيما بعد أن يعيد للاشتراكية الحقيقية كرامتها ، وتعتبر السطور
 التالية من قصيدته عن روح التعديلية كمحاولة لتصحيح مساوئ
 النظام دون التبرؤ من أكثر المؤسسات أهمية ألا وهى الحزب الشيوعى
 نفسه حين قال :

- لنا على هذه البسيطة مطالب ،
- مطالب أناس مهملة ،
- نريد مفاتيح الأبواب الموصدة ،
- نريد حجرات لها ثوابذ ،
- نريد حوائط لا تبلى ،
- نريد معرفة ما خفى ،
- نريد زمنا إنسانيا ،
- نريد بيتا آمنا ،
- كى تضيق المسافات ،
- بين العمل والكلمات

- لنا على هذه البسيطة مطالب ،
- ومن أجلها سنناضل ،
- من أجلها سيموت الملايين ،
- في المعارك ،
- من أجل حقيقة واضحة
- من أجل خبز مغموس بالحرية

- من أجل مشاركة فعلية
- من أجل مشاركة فعالة .

- نطالب بذلك كل يوم
- نطالب من خلال الحزب (٢٤) .

لذا أطلق فاسك حملة معادية للايديولوجيين الشيوعيين الذين ردوا عليه بأكثر الطرق وحشية . ونشرت صحيفة الحزب الرسمية تريبونا لودا Trybuna ludu القصيدة ووصفتها بأنها هستيريا طفولية ، وأشار الكاتب ستانيسلاف بارنتزاك Stanislaw Boranczak أن هذا العبث الطفولي جعل كتابة فاسك تبدو موجهة ومحرضة :

« ان المتطوق الذى تحاول قصيدة فاسك اثباته منطوق سخيف وان يتصرف كالطفل الذى تنتابه نوبة غضب عندما لا يوافق الواقع توقعاته . ان القاء فاسك لقصيدته فى الصالون الأدبى ١٩٥٥ كان اهانة لكل فرد » (٢٥) .

ان قصيدة فاسك تحذير للجميع من الأحداث التى ستقع فى القريب العاجل .

لقد فقدت الطبقة الشيوعية الحاكمة فى بولندا ثقتها لحظة انعقاد مؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى العشرين ، وتحطمت الأوثان العتيقة وأنهارت المبادئ المقدسة وتناثرت أشلائها هنا وهناك ، وأصبحت حاجة بولندا اتبنى نهج جديد لاشتراكية ملحة .

وبدا الانفصال عن المعتقد الستالينى الخاص بالدور القيادى للأجهزة الحزبية بينا . وقرر المفكرون زيارة المصانع واجراء الحوارات مع العمال لنشر أفكارهم اللارثوذكسية ، وبدأت الحياة السياسية والفكرية البولندية تتمحور الى قطبين ، قطب المحافظين يثبدهم الحنين للستالينية وقطب انصار التغيير . وكانت الاهلية أو قل اغراء الوقوف على محددات مميزة للطريق البولندى نحو الاشتراكية تتجاذب بين القطبين مع ميل واهن للعودة للستالينية . ورات معارضة ١٩٦٥ البولندية امكانية تحقيق الكمال من خلال النظام الشيوعى نفسه وليس بالخروج عليه ومن ثم اتسمت التغيرات بالتدرجية وخلت من الصراعات الضارية بين الحكام والمحكومين . ان الأحداث التى جرت فى بوتسان Poznan فى يونيو ١٩٥٦ أكدت عكس الاعتقاد السائد بأن

« الإصلاحات » يمكن أن تتم بطريقة سلمية هادئة حيث بدأت الطبقة العاملة في اعلان تمردا .

واتسعت الهوة بين المصلحين والدجمائين ، وسببت عودة جوميلكا للسلطة ضفوطا للبقاء على الحزب ونظراً للاضطهاد الذى عانى منه تمتع جوميلكا بشعبية جارفة حتى انه تمكن من تطهير صورة الحزب وحدث الانقسام بين الائتلاف الحاكم ، حول طبيعة العلاقات البولندية السوفيتية المستقبلية .

ورأى الليبراليون بل والمفكرون الرجعيون ضرورة اقامة علاقات بين بولندا والاتحاد السوفيتى بشرط أن تكون علاقة الند بالند .

ومنذ أن نحا الليبراليون منحى راديكاليا ، زاد تشدد المحافظين وعادوا لاستخدام الشعارات المعادية للابداع وللأجانب وللسامية . ووصلت الأزمات داخل قمة الهرم الحزبى لنقطة الانفجار . وطالب كل من ضباط الحلف الحزبيين وجماعات الضغط اللاهزبية بعودة جوميلكا لرئاسة اللجنة المركزية . وفى نفس الوقت طالبوا باقالة فورية للمارشال السوفيتى قنسطنطين روكوسوفسكى Konstantin Rokossovsky من منصبه كوزير للدفاع (كان تعيينه فى هذا المنصب احدى الدلائل على انتهاك ستالين للشرعية واذلاله للاعتزاز القومى البولندى) . وقرر كسكثير أول Edward Ochab الشيوعى المحنك الذى تزعم الحزب خلفاً لبوليسلوڤيرت فى مارس ١٩٥٦ الموافقة على توقيع قرار ترشيح فلاديسلاف جوميلكا فى اجتماع اللجنة المركزية العاصف ١٩ أكتوبر ، وحضر الاجتماع ممثلو الاتحاد السوفيتى وهم نيكيتا خروتشوف وفيتسلاف مولتوف وأنستاس ميكويان Anstas Mikoyan ولازار كجنوفتشى الذين وصلوا لوارسو على نحو مفاجئ دون دعوة لمتابعة مجريات الأحداث والتأثير فيها ان أمكن . ورغم التحفظات السوفيتية تم انتخاب جوميلكا كسكرتير أول First Secretary للحزب وأعلن تأسيس « الطريقة البولندية للاشتراكية » . وأكد الزعيم الجديد على الحاجة لسياسة داخلية مستقلة وأكد مرة أخرى على بقاء بولندا على ولائها لحلف وارسو . وبينما لعب تيتو دورا مهما وخاصة فى الأحداث العالمية عندما حول يوجوسلافيا لدولة محايدة اقتضت مطالب جوميلكا على الحصول على الاستقلال القومى . ورأى جوميلكا أن تحالف بولندا مع موسكو لا غنى عنه من أجل وحدة الأمة خاصة فى ضوء الحق الذى تدعيه المائبا الغربية فى بعض الأراضي الاقليمية .

ولم يجرؤ جوميلكا أن يتجاوز حدود الإصلاح المقيّد حتى فى السياسة الداخلية ولم يدرك مسئولية الحزب تجاه المستقبل الاقتصادى وظل متعلقاً بأهداف الخطة المركزية ودافع جوميلكا أيديولوجياً عن الهيمنة الماركسية اللينينية ومنع إقامة حوار حقيقى مع الكنيسة الكاثوليكية ووصفها بالمرجعية إذ كانت تناهض النظام القائم باستقطابها لكل من رأى فى الحكم الشيوعى حكومة مفروضة عليهم من قبل قوى أجنبية . وأسفرت التغيرات التى أحدثها جوميلكا وكذلك الإبطاء من الاستثمارات الصناعية والسماح بمزيد من التجريب الفكرى والفنى عن تخفيف حدة الضغوط الداخلية . أما المقاطعة الصريحة لستالين فكانت بالنسبة لجوميلكا طموحاً بعيد المنال إذ كانت أقصى آماله تعديل النظام وليس استبداله . لقد خلا المناخ السياسى فى بولندا أثناء سنوات حكم جوميلكا الأولى من أى توترات مقارنة بالبلدان الشرق أوروبية الأخرى إلا أن التعددية السياسية ظلت مجرد أمنية . ووعده جوميلكا بشفاء سريع من التوعك الاقتصادى ، وخطط لتضليل الكثير من المفكرين الذين ظنوه عدواً حقيقياً للستالينية وتهلّلوا لوصوله للسلطة . وفى الواقع لم يبد جوميلكا تفهماً لوجهة نظر هؤلاء الذين طالبوا بتغيير ثورى داخل النظام ، وظل راضياً عن الهيكل المؤسسى القائم بصرف النظر عن إمكانية سقوطه .

وأعرب جوميلكا عن ارتياحه فى المجالس العمالية المشاغبة ، وفى المواقع الصناعية واعتبرها تهديداً لسلطة الحزب . وأراد جوميلكا تدعيم أواصر سلطته داخل التنظيم الشيوعى فشرع فى قمع أية مبادرات قد تتولد تلقائياً من القاعدة الجماهيرية واستعاد سيطرة الحزب الكلية على المجتمع . وأطلق العنان فى عام ١٩٥٧ لمذبحة ضد المفكرين الرجعيين الذين اتهمهم بمحاولة تقويض النظام الاشتراكى . لقد تقلصت حرية الصحافة البولندية — ولم تكن كذلك من عام سبق — ومنع المؤيدين للاشتراكية الديمقراطية من الاقتراب من الجمهور ، وأصبحت التعديلية التى تبناها هدفاً لحملات تشويه تخططها السلطة . وتجسدت التعديلية فى وجهة نظر لبيتسك كولافسكى الذى كان استاذاً فى الفلسفة بجامعة وارسو حين قدم فى كتابه القصير « ما الاشتراكية ؟ » الذى صدره نظام جوميلكا سلسلة من التعريفات السلبية للاشتراكية واعتبرها النظام تحريضية ، كما نوه عن المعنى والمحتوى الحقيقى لمبدأ الاشتراكية . وألقى كولافسكى بما عرف عنه من سخريه وحصافة

الضوء على أكثر العوامل أهمية فى العقيدة الرجعية فقال :

الاشتراكية ليست :

- ١ - مجتمعا تحدد فيه اقامة أى مواطن ويحاصره البوليس .
- ٢ - مجتمعا يعيش فيه الانسان تعسا لأنه لا يعبر عما يدور
بخلفه .
- ٣ - مجتمعا يعيش فيه الانسان على أفضل حال لأنه لا يفكر على
الاطلاق .
- ٤ - الدولة التى يلعن جيرانها الجغرافيا .
- ٥ - الدولة التى تريد من كل مواطنها أن يكون لديهم نفس وجهات
النظر فى الفلسفة ، والسياسة الخارجية والاقتصاد والأدب والفن .
- ٦ - الدولة التى تحدد حكومتها حقوق مواطنيها ولا يحدد
مواطنوها واجبات الحكومة .
- ٧ - الدولة التى بها ملكية خاصة لوسائل الانتاج .
- ٨ - الدولة التى تعتبر نفسها اشتراكية بالاجماع لانها تخلصت
من الملكية الخاصة لوسائل الانتاج .
- ٩ - الدولة التى تعرف دائها رغبة شعبها دون أن تسأله .
- ١٠ - الدولة التى يردد فيها الفلاسفة الكتاب نفس ما يقوله
الجنرالات والوزراء .
- ١١ - الدولة التى يمكن التنبؤ فيها بعودة الانتخابات البرلمانية .
- ١٢ - السدولة التى لا تحب أن يطالع مواطنوها الصحف
والمجلات (٢٦) .

ان هذا التعريف الساخر للاشتراكية يعد أهم التحليلات التى
تصف الأوضاع المزرية التى فرضها الشيوعيون على الأمم الشرق
أوربية . وبينما أعد جوميلكا العدة لاحتواء الاختبار الثورى المتمرد
والقضاء على كل أثر له فى بولندا فان الحركة الجماهيرية فى المجر
نجحت فى اسقاط النظام القديم وبشرت بمجتمع تسوده تعددية
سياسية حقيقية .

نداء الحرية : امرى ناجى Imre Nagy والثورة المجرية :

أقيم فى بودابست فى ١٦ يونيو ١٩٨٦ احتفال مهيب لرد اعتبار
امرى ناجى وغيره من الشهداء بعد أكثر من ثلاثين عاما من تلميح النظام

لسمعتهم باعتبارهم محرضين للمؤامرة المضادة للثورة عام ١٩٥٦ ودفنوا في مقبرة معلومة . وفي نفس الوقت اختلق النظام قصص تبرئ هؤلاء الذين خانوا الثورة وتواطؤوا مع الغزاة السوفيت . واجبر جيانوس كادار الرجل الذي أذعن للأمر السوفيتي وحكم الأمة لعقود ثلاثة على الاستقالة من الحزب وقبل عام من انتهاء فترة رئاسته . وحاول الزعماء الجدد كارولى جرونس Karoly Grosz السكرتير العام وميكولوس نيميث Miklos Nemeth رئيس الوزراء جاهددين الحصول على السلطة تحت اسم الشيوعية الإصلاحية . وبسبب وجود جورباتشوف Gorbachev فى الكرملين لم يعد اجتياح ١٩٥٦ يوصف بأنه مضاد للثورة . لقد استمر حزب العمال الاشتراكى المجرى Hungarian Socialist Workers' Party فى المطالبة برد الاعتبار لأمري ناجى وزملائه . وانضم امرى بوتسجاي Imre Pozsgay المصلح المنشق على جماعته ورئيس الجناح الليبرالى لائتلاف الحزب وكذلك روتسو نايرز Rezso Nyrs أبو الإصلاح الاقتصادى فى أوائل السبعينات للمعارضة الديمقراطية عندما طالبت بكشف حقيقة اجتياح ١٩٥٦ القومى .

وعندما حاول الشيوعيون الاصلاحيون فى المجر الانضمام لهذا الركب الذى مجد اجتياح ١٩٥٦ تناهى لأسماعهم حديث وقع على لسان فكتور أوربان Victor Orban وهو أحد زعماء اتحاد الشبان الديمقراطيين Federation of Young Democrats (FIDESZ) وهو الحزب السياسى الذى ضم أعضاء معادين للديمقراطية فقال :

« فشلنا نحن الشباب فى التوصل لفهم أشياء كثيرة كانت تبدو واضحة للأجيال السابقة . أننا متحIRON فى أمر هؤلاء الذين افترضوا على الثورة وعلى امرى ناجى ثم أصبحوا فجأة أعظم المؤيدين لسياسات رئيس الوزراء السابق ، ونجد زعماء الحزب الذين نظروا لثورة ١٩٥٦ نظرة احتقارهم انفسهم الذين يتدافعون الآن للنسج فى الاكفان كما لو كانت تعاويذ تجلب الحظ . لا يجب أن نمثن لوعودهم بدفن الشهداء بعد واحد وثلاثين عاما ، ولا يجب أن نشكرهم لسماعهم لمنظمتنا السياسية بأن تمارس عملها » (٢٧) .

ودل حديث أوبرن على الهوة الشاسعة بين الأوهام الرجعية للأجيال السابقة ورفض الشباب المجرى الجلى لأية صيغ شيوعية ، وفقد الحزب الشيوعى كل مصداقية له فهو الحزب الذى حكم ضد ارادة الشعب وهو لا يستحق شكرا أو امتنانا لتبنيه المفاجيء لمبادئ التسامح . ومن ثم كان الاحتفال بتأبين امرى ناجى فى يونيو ١٩٨٩ وداعا رمزيا لهؤلاء المصلحين . وعلت الأصوات مطالبة بمقاطعة

حاسمة للنظام الشيوعي وإقامة نظام سياسى تعددى قوامه اقتصاد حر وحكومة تحاسب من قبل الشعب . وقد تبنى ناجى هذه التجريبية الرائدة منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وأظهر شجاعة فائقة فى الدفاع عن قضية الشعب ضد الشيوعيين الذين قمعهم .

ولعبت الانتلجنسيا دوراً قيادياً فى الانفجار المجرى المبكر المعادى للشمولية وذلك لأسباب عدة : أولاً أن الانتلجنسيا خضعت أثناء سنوات الحكم الستالينى لاجراءات قمعية وحشية ، ثانياً ان ممثليها اعتبروا أنفسهم ممثلين للقيم القومية التى حققت الستالينية من شأنها ، وثالثاً ان الانتلجنسيا اعتبرت نفسها المضطلمة بالدور القيادى فى الصراع ضد الاستبداد باعتبارها ائتلافاً مستنيراً له تقاليد ثورية تعود لاجتياح ١٩٤٨ الاجتماعى والقومى ، ورابعاً أن الانتلجنسيا البولندية والمجرية بطوائفها العريضة والتى اعتنقت قيم الماركسية لم تعد الألاعيب التى يقوم بها البيروقراطيون فى الحكم تقننهم .

وبالنسبة لعمال المصانع فقد أسرتهم وعود الشيوعيين بتحقيق العدل الاجتماعى والمساواة واستغلت الروح الجماعية التى اتسمت بها الاممية الأولى وسياسة الملكية الجماعية فى بث شعور مزيف لدى العمال بأنهم سيحكمون المجتمع . وساهم هذا الشكل من المقصورية فى توسيع الهوة بين العامل والمفكر فنظر العمال للمفكرين باعتبارهم المسببين للمشاكل ، بينما نظر المفكرون للعمال باعتبارهم القاعدة الاجتماعية الرئيسية اللازمة لاحكام السيطرة على النظام ، ولم يتم التعاون الحيوى بين الاجنحة الراديكالية لكل من الانتلجنسيا والطبقة العمالية الصناعية الا فى السبعينيات ، وناشد المفكرون فى عام ١٩٥٦ الدعم من الجناح المعادى للتيار الديماجوجى فى الأحزاب الشيوعية فحاولوا ضم بعض عصابة جوميلكا . وقد أبدى المفكرون فى المجر الاهتمام بناجى وأنصاره لأن راكوسى وحاشيته خضعوا تماماً للستالينية، وأن التيتوية لعبت دوراً مهماً فى التحام حركة الاصلاح الراديكالية وانتقل أثرها لكل بلدان أوروبا الشرقية واعتبر الاصلاحيون استراتيجية تيتو فى رفضه للستالينية نموذجاً لا بد أن يحتذى ولم يخف الديوجوسلافيون مع التعديليين (٢٨) ، وبذلت حركة الاصلاح فى أوروبا الشرقية فى عام ١٩٥٦ محاولة لحل التناقضات البنوية والتوترات داخل كيان السلطة القائم الا أن هذه المحاولة التى قام بها ناجى وبعده كولاكفسكى لم تكن تهدف لالغاء النظام الشيوعى

بل شددت على امكانية اصلاح الوضع الراهن فى اطار الشيوعية .
لقد فشلت التعديلية فى التحول لبديل للنظام الشيوعى لانها لم تهتم
بمعاناة الجماهير أو الرفض القومى للشيوعية (٢٩) .

لقد حلل آدم متشنك المؤرخ البولندى الشهير والمدافع عن الحقوق
المدنية طبيعة التعديلية الماركسية فى مقاله « التطور الجديد » الذى
عرض فيه استنتاجات لها دلالة عن ما يجرى فى بولندا بل وفى بلدان
أوروبا الشرقية كلها . ويرى متشنك أن زيف الرجعيين يأتى من إيمان
هذه الجماعة بأن الحزب الشيوعى لديه القدرة على أحداث تغيير بنيوى
وهو ما يعد المثالية بعينها :

« يعتمد مفهوم التعديلية على رؤية حزبية داخلية قاصرة . ولم
تتحول أبداً لبرنامج سياسى . واقترحت أن النظام القائم يمكن أن يتحول
لنظام إنسانى وديمقراطى وأن الديكتاتور الماركسى كان لديه القدرة على
استيعاب الفنون المعاصرة والعلوم الاجتماعية . وأراد التعديليون أن
يتم التغير داخل اطار الحزب الشيوعى والمقيدة الماركسية . وهم
يريدون أن ينتقلوا « من قلب » العقيدة والحزب فى اتجاه الإصلاح
وتحقيق المصلحة العامة » (٣٠) .

وأكد متشنك على أن نقطة ضعف التعديليين ترجع فى الأصل
الى افتقارهم لبرنامج راديكالى معارض وتأثرهم بالأوهام والاخليلسة
الماركسية ولم يدرك التعديليون أن البرنامج الخاص بالتغيير الجذرى
هو الوحيد الذى يمكن أن يمدهم بقاعدة جماهيرية :

« لا يكمن خطأ « التعديليين » القاتل فى هزيمتهم فى صراعهم من
أجل السلطة داخل الحزب (ولم يكن بإمكانهم الظفر بها) فقط ولكن فى
طبيعة هذه الهزيمة ، أنها هزيمة مسئولين تم طردهم من مواقعهم فى
السلطة وجردوا من ثقلهم السياسى . وقد حدث ذلك لأنهم أرادوا تطبيق
برنامج سياسى ديمقراطى يسارى التوجه على نطاق واسع » (٣١) .

أن ما حدث فى المجر كان الأول من نوعه فالحركة الاجتماعية
القادمة من القاعدة الجماهيرية فاقّت توقعات وآمال جماعة التعديليين
وتحولت الحركة الى ثورة ضد الشمولية بعد أن انضم اليها عمال
المصانع وبعد قرار أمزى ناجى الشخصى بثنى مطالب الانتفاضة
الشعبية . ولأول مرة استخدم الجماهير فى المجر العنف للدفاع عن
أنفسهم ضد الأعمال القمعية التى فجرتها القوات الأجنبية . ومن
الضرورى أن نؤكد هنا أن الثورة المجرية لم تكن مجرد رد فعل يهدف
لاستعادة النظام القديم ancien régime ولكنها كانت انفجاراً للفضب

الشعبي ضد انتهاك البروقراطية الشيوعية لمبادئ العدل والمساواة بين البشر . وهذه الثورة الديمقراطية الأولى من نوعها في أوروبا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية أصبحت نموذجا يحتذى به وكان لها أثر كبير على كل الحركات الاجتماعية المعادية للمشمولية في المنطقة .

ان صلف وصفافة الحزب الشيوعى المجرى تحت قيادة راكوسى وجيرو عجلا بانفجار السخط الجماهيرى .

وفى عام ١٩٥٥ وبعد عامين من تجريب سياسة « المسار الجديد » تم التخلص من ناجى وحاولت عصبة راكوسى أن تعيد هيمنتها الكاملة على البلد ، الا أن الوقت كان قد فات لأن هؤلاء الستالينيين الذين استماتوا من أجل استعادة السلطة لم يدركوا طبيعة المؤثرات القادمة من موسكو ، ولم تقدمهم فى مواجهة ربح التغيير العاتية التى تهب على المنطقة كلها . ومن ناحية اخرى فان المفكرين البولنديين كانوا قد تذوقوا تجربة الديمقراطية فى العاملين اللذين تولى فيهما ناجى رئاسة الوزراء ورفضوا أن تسلب منهم تحت نير الضغوط الحزبية . وتحدى المفكرون السلطة ضارين بتهديدات راكوسى عرض الحائط ، ورفضوا تصديق الأكاذيب الرسمية واطلقوا العنان للبحث عن « ثورة العقل » (٣٢) . ان تقدم الحركة الثورية الجماهيرية كان لها مقدمات منطقية عديدة ، أولا ان تحدى السلطة الشيوعية لن يكون ممكنا طالما ظل الحلف الشيوعى متماسكا ، بمعنى أن الكوارث الاجتماعية كى ما تتحول لكوارث سياسية فى هذه الانظمة يجب على الأحزاب الشيوعية أن تفصل بين القضايا الأيدلوجية والشخصية . أما الصراع الدائر فى المجر بين المتشددى الستالينيين راكوسى وجيرو وحاشيتيها وجماعة التعديليين بقيادة ناجى زاد من هذه الهجمات ضد الدولة البوليسية . وثانيا أدى تأزم الموقف الثورى وتآكل سلطة الحزب الى افشاء الأسرار وخاصة « الخطاب السرى » لخروتشوف ففقد راكوسى لمصادقته السياسية وبدلا من الاستعانة ببعض التعديليين لتحسين الموقف كثفت الزعماء المجرىون حملاتهم ضد أعضاء الحزب المتمردىين وبادروا بنصب مقاصل جديدة ضد المفكرين النقاد . وشجع ما أصاب الحزب الحاكم من ضعف المعارضين على تكوين ائتصاد يضم معظم المفكرين والطلاب وممثلى طبقة عمال المصانع . وفى صيف ١٩٥٦ تقريبا عم الساحة السياسية والثقافية مناظرات حامية حول قضايا جوهرية مثل قضية تاريخ الحزب الشيوعى ، حرية الصحافة ، ورد اعتبار ضحايا الارهاب الستالينى فى المجر .

وكانت حلقة بيتوفى Petofi Circle دليلا على صعود الحياة المدنية وعقدت فيها المناقشات والمناظرات التى تتعلق بقضايا ديمقراطية الحياة العامة وطرق التغلب على التراث الستالينى ، واستطاع مؤيدو ناجى أن يطالبوا بالأفكار التى عبر عنها رئيس الوزراء السابق فى مذكرة تخاطب قيادة الحزب وذلك فى الشهور الأولى من عام ١٩٥٦ . وتتطلب الدفع بتطوير الاشتراكية — حسبها رأى ناجى — ابتكار منهج جديد للماركسية ، وبدلا من تقديسها نادى بتعديلها تبعا للتحائق المتغيرة ، وفوق ذلك فإن الاشتراكية كما يدعى ناجى مهددة بسبب اهتراء القوى السياسية الحاكمة والتى اتبعت النهج السوفيتى حيث نجد الديمقراطيات الشعبية قد « تبدلت على نحو بين ديكتاتورية الحزب والتى لا تعتمد على عضوية الحزب ولكن على ديكتاتورية الفرد وعلى تحويل أجهزة الحزب وبالتالي أعضاء الحزب ل مجرد أدوات تحركها هذه الديكتاتورية » (٣٣) . ولا يملك هذا النظام السلطوى — والحديث لناجى — أى شئ يفعله بصدد الاشتراكية الانسانية : « ان الحكم لا تنسبه أى روح اشتراكية أو ديمقراطية ولكن الذى ينسبه هو روح بوناپرتنة Bonapartist لديكتاتورية الأقلية . وأهدافه لا نحددنا الماركسية ولا دراسات الاشتراكية العلمية ولكن تحددها وجهات النظر الأوتوقراطية والتى ناضلوا للحفاظ عليها بأى ثمن وبأية وسيلة » (٣٣) .

ويمكن ان نحدد من خلال وجهة نظر ناجى كل الأصول الفكرية لأسطورة التعديلية ، فمن ناحية ندد ناجى بسيطرة الحزب القابضة على السلطة باعتبارها غير شرعية وضد الديمقراطية بكافة المقاييس ومن ناحية أخرى تمسك ناجى بتفسير « الاشتراكية العلمية » على أنها مذهب للتحرر الانسانى ، ولم يذكر السبب الرئيسى للظروف القمعية التى أثرت فى ناجى وهو الادعاء الأيديولوجى بأن احتكار المعرفة والمعصومية من الخطأ هما سمتا الحتمية التاريخية الماركسية . ومثل هذه الجذور الفكرية لتحدى ناجى « للديكتاتورية البوناپرتية ، والفردية » باسم التحول الانسانى للاشتراكية فارتكزت على « نظام بنوى وشرعى خاص بالديمقراطيات الشعبية بهيئته التشريعية وحكومته وديمقراطية الحياة الاجتماعية والرسمية بكاملها » (٣٤) .

ووصلت هذه القضايا فى المناقشات التى تمت داخل حلقة بيتوفى الى مدى أبعد من مجرد التطوير بل لمدى تجاوز أهداف ناجى المعلنة ، وشعر الكتاب والصحفيون المشاركون فى المناقشات بأنهم تحرروا من الحصار والقيود التى فرضها المنطق البلشنى على أفكارهم ، وادركوا ،

أن الخطأ في الأيديولوجية والتي بررت وحدانية السلطة وقصرها على عصابة من البروقراطيين المتعطشين لمسكف الدماء . ومثالا على ذلك هو تيبوردري Tibor Dery الكاتب الذى عمل طويلا كمناضل نشط فى الحركة الثورية اذ رفع صوته فى واحدة من المناقشات مجاهراً برفضه للنظام الذ مجد جرائم ستالين قائلاً :

« طالما اننا نوجه نقدنا لشخص بدلا من معرفة مكنم الخطأ سواء فى النظام نفسه أو فى الأيديولوجيا فلن نحرز أى تقدم واننى وافق باننا سنستخلص من الزعماء الحاليين وكل ما أخشاه أن نطاردهم ويطاردونا وكلانا فى هذه الحالة من الضعف . . يجب أن نبحث فى نظامنا الاثتراكى عن الأخطاء التى سمحت لزعمائنا بإساءة استخدام سلطتهم بل وتركنا أيضا عاجزين عن التعامل مع بعضنا البعض بالشكل الانسانى الذى نستحق . وان الأخطاء فى القضية لهى أخطاء بنائية قلصت حقوق الأفراد لحد كبير وزادت فى نفس الوقت من أعبائه » (٣٥) .

وأعلن المفكرون البولنديون أن الحرية مبدأ عالى ولن تقف عند الحدود التى وضعتها الطبقة الحاكمة الانانية .

وان عقيدة الحزب التى تفسر كل المفاهيم الأخلاقية فى ضوء مصالح الطبقة العاملة كما رسمها المشيعون الشيوعيون قد طرحت جانبا باعتبارها دجلا ، وبدا أن فكر الحزب (Partinost) الذى ظل لوقت طويل بنأى عن أى شكل من أشكال استعباد العقل وحظر ملكة الابداع . وعبر جيولاهاى Gyua Lahay وهو أيضا كاتب ستالينى سابق - بما لا لبس فيه - عن اشتياق الانتلجنسيا لحرية ثقافية وسياسية كاملة وذلك حين قال :

« حسنا » ، دعنا نحصل عليها بسرعة . نحن نتحدث عن الحرية الكاملة للأدب . . . فالكاتب مثله مثل أى شخص آخر يريد أن يقول الحقيقة دون قيود ، أن ينقد أى شخص وأى شىء ، أن يحزن ، أن يحب ، أن يفكر حتى الموت . . أن يؤمن بوحدانية الاله أو لا يؤمن ، أن يشك فى صحة الاحصائيات ، أن يفكر بطريقة لا ماركسية ، أن يكره زعماء بعينهم ، أن يعتبر القانون هو حياة الشعب » (٣٥) .

وتعطشت حركة الاصلاح لدمقرطة بنية الحزب واطلاق العنان للإصلاحات الاقتصادية وتخلص سريع من المركزية ، وتحرر سياسى وحرية ثقافية وشخصية .

ان تزايد تحدى المصلحين جعلت الستالينيين فى القيادة ينتابهم الفزع والحيرة بصدد الخط السوفيتى الجديد ولم يجدوا طريقة للتعامل معه ، تحول راكوسى واتباعه لديناصورات سياسية ، ونظروا للمفكرين النقاد على أنهم عناصر مخربة تريد استبدال النظام القائم بالرأسمالية . وفى مارس ١٩٥٦ وتحت ضغط من القاعدة الجماهيرية اضطر راكوسى الى أن يوافق على رد اعتبار لاسلو راجيك . ولأن راكوسى هو الرأس المدبر للمحاكمات الصورية لم يتحرك على أى مستوى سياسى لتقديم التعويض التاريخى . وفى صيف ١٩٥٦ وعندما أقدم راكوسى يائسا على اطلاق حملة جديدة ضد « المؤامرة التى يقودها » امرى ناجى « المزعومة قرر السوفيت أن يستغلوا نفوذهم وأن يستبدلوا الطاغية الستالينى الذى أصبح فى موقف يحسد عليه .

ان استبدال راكوسى زاد الأمور سوءا ، اذ تولى الحكم ايرنو جيرو الرجل الثانى فى قيادة الحزب اذ عجز عن المطالبة بممارسات سياسية نظيفة فى وقت تصفية الحسابات الوحشية . وبحثا عن طريقة لتوسيع وتقوية سلطته بالتعاون مع عدد من الشيوعيين الذين تمت محاكمتهم وسجنهم خلال الارهاب الستالينى قام جيرو برد اعتبار جانوس كادار الذى كان عضوا بالمكتب السياسى ووزيرا للمشئون الداخلية كما تخطى عن أسلوبه السابق وحاول مد أواصر الصداقة مع يوجوسلافيا . ولقد كانت هذه لمحات متفرقة عن طبيعة هذه الجماعة السياسية التى فقدت كل شرعية لها . وكان تولى جيرو للحكم يعد تحديا للشعب المجرى بأسره ، رغم ما قام به جيرو من اجراءات تصالحية وفشل الحزب الشيوعى فى القيام برد فعل قوى ضد الاضطراب الذى بلغ اقصى مدى له .

لقد تحول الحزب فعلا الى فيلق سياسى اقتصرت وظيفته على نقل وتنفيذ قرارات الحكام المتضاربة . ان فريق جيرو أهدروا الارادة الشخصية وألقوا اللوم على الديكتاتورية التى يحميها البوليس السياسى الذى لم يثبت أمام الفضب الشعبى المستعرج كما فشلت البيروقراطية الشيوعية فى التصدى للمقاومة الجماهيرية العظيمة .

لقد أصبحت الراكوسية قائمة دون راكوسى منذ أن اقتصر عمل جيرو على القاء الخطب الساخطة على ناجى وفريقه الذين ترددوا فى اعلان تخليهم عن ولائهم للحزب ولم يتخلصوا سوى من اسطورة سنالين وابقوا على رؤيتهم الرومانتيكية للحزب باعتباره مخولا من التاريخ للقيام بدور تحررى حتمى . وفى اكتوبر ١٩٥٦ عاد ناجى لوضعه السابق فى الحزب الا أن جيرو رفض تعيينه رئيسا للوزراء .

وفي ٢٣ أكتوبر خرج مئات الآلاف من المواطنين الى شوارع بودابست مطالبين بتأسيس دولة القانون وبمعاقبة راكوسي وعصابته وبإعادة تعيين امرى ناجى كرئيس للوزراء ، ويتسريح البوليس السياسى وبسحب القوات السوفيتية من قواعدها بالمجر . وقد اكتسبت هذه الحركة الثورية شخصية سياسية وقومية وتحولت لعصيان شعبى سبب الفزع لجيرو الذى أسرع بطلب العون من روسيا وأعلن حالة الطوارئ ووجه خطابا عنيفا وصف فيه التمرد بأنه « مضاد للثورة » ، وأمر البوليس باطلاق الرصاص على المظاهرات السلمية ولهذا السبب قررت اللجنة المركزية عزله ليحل محله ناجى . وانتخبت قيادة جديدة للحزب ضمت كلا من ناجى وكادار ، وبمجرد أن أدى ناجى اليمين الدستورية أعلن عن برنامجه من أجل الديمقراطية . ورغم تدخل الاتحاد السوفيتى القصر فى ٢٤ أكتوبر فان القوات السوفيتية عملت بأسلوب « انتظر لترى » . وأكد السفير السوفيتى فى المجر يورى أندروبوف Yury Andropov لناجى أن حكومته لن تتدخل فى الشؤون الداخلية لبلده . وما بدا على أنه مجرد جمهرة تحول الى ثورة شعبية . واكتشف امرى ناجى الشيوعى المحافظ ، ان الشعب يريد التخلي كلية عن النظام الشيوعى وإقامة نظام تعددى حقيقى . وتشكلت مجالس ثورية فى المصانع كشكل من أشكال الديمقراطية . واكتسب ناجى جماهيرية كبيرة عندما قام باستشعار نبض الحركات التاريخية فى بلده وتبنى المطالب الشعبية الخاصة بالتخلص من النظام الستالينى . ان العمل الثورى فى الداخل قويت شوكلته بعد صحوة ناجى وجماعته وما مارسوه من ضغوط وبعد اكتشاف ازدواجية موقف الاتحاد السوفيتى بصدد التفريات التى تتم فى المجر . ومن ثم ، لا نستطيع أن نقول ان ناجى بدأ كمصلح وانتهى كثورى ولكن تجاوز فيما بعد منطق احداث التغيير فى اطار الحزب الشيوعى ولحق بزخم الحركة المضادة للنظام التى اجتاحت كل الصروح الحصينة للاشتراكية البيروقراطية .

وبتخريض من الحركة الجماهيرية المتدفقة ، قرر ناجى أن يوسع قاعدة حكومته وذلك بقبول مبدأ التعددية السياسية . ومع حلول نهاية أكتوبر ١٩٥٦ كفت المجر عن الأخذ بالديمقراطيات الشعبية ، وتحركت سريما نحو نظام تعددى . لقد قرر الاتحاد السوفيتى التعامل مع هذا التحدى الذى قام به احد تابعيه السابقين فخرج باعلان ٣٠ أكتوبر الذى أقر فيه بالتزامه الشديد بمبادئ المساواة الكاملة فى العلاقات التى تربط موسكو بالدول التى اصطلح على تسميتها العائلة الاشتراكية وعندما أقر السوفيون بالانتهاكات السابقة لهذه المبادئ وعد الكرملين

ياحترام السيادة القومية للأقطار الشرق أوربية . لقد كان لهذه الوعود السوفيتية اثر مهدىء على الشعب . فإساء ناجى تقدير مدى تصميم موسكو على حفظ النظام الشيوعى فى المجر فبعد عدة ايام أثبتت روسيا عدم تهاونها مع هذا النوع من الحكومات وذلك عندما تدخلت القوات السوفيتية تدخلا مباشراً للقضاء على حكومة ناجى الشرعية ولسحق حركة المقاومة المجرية .

وجاء التدخل السوفيتى الثانى فى المجر بسبب قرار ناجى بتدشين النظام المتعدد الأحزاب وبتكوين « مجلس عسكرى ثورى » لقيادة القوات المسلحة المجرية ، فاستشعر الاتحاد السوفيتى الخطر يهدد وجوده فى المجر وادركوا أن انهيار الحزب الشيوعى المجرى أصبح وشيكاً فاتخذ الكرملين قرار التدخل المباشر واعادة النظام السلطوى البيروقراطى ، لقد عجل القرار الذى اتخذه ناجى فى ٣١ أكتوبر باجراء مفاوضات لانسحاب المجر من حلف وارسو ، وقراره فى أول نوفمبر باعلان المجر دولة محايدة بهذا التدخل المباشر اذ أدرك الكرملين ان المجر قد بدأت مسبرة قد تنقل عدواها لدول أخرى فتقضى على تبعية هذه الدول للاتحاد السوفينى اذ قامت الثورة المجرية بالتخلص داخليا وخارجيا من الأطر المؤسساتية لنظام الديمقراطيات الشعبية . ونظرا للغضب الناجم عن هذا التحدى غير المسبوق ونظرا لضغوط المتشددين داخل حركة الأممية الشيوعية وخاصة ماوتسى تونج فى الصين ، قررت القيادة السوفينية أن تضع نهاية لتجربة التعددية المجرية . واختفى جانوس كادار من بودابست ليعلن من إحدى المحطات الاذاعية السوفيتية ولادة « حكومة العمال والفلاحين الثورية » وفى ٤ نوفمبر هاجمت القوات السوفينية المواقع والوحدات العسكرية الموالية لحكومة ناجى . ولجأ ناجى وأنصاره الى السفارة اليوجوسلافية ، واضطروا بعد أن أعطاهم كادار وعدا بعدم اتخاذ أى اجراءات انتقامية ضدهم لقبول اللجوء السياسى الذى عرض عليهم من قبل الحكومة الرومانية ، وهناك — فى رومانيا — خضع جميع زعماء الحكومة لاستجوابات مستمرة من قبل «وظفى البوليس السياسى السوفيتى بمساعدة موظفى الحزب الرومانى والمحدثين باسم المجر .

وفى يونيو ١٩٥٨ تمت محاكمة صورية لناجى وأنصاره فى بودابست وحكم عليهم جميعا بالاعدام شنقاً .

ان محاولة ناجى لتدعيم الاشتراكية بالديمقراطية كان لها اثر عظيم ولا نبالغ لو قلنا ان هذا الاصلاح الراديكالى قد تجاوز حدود

المنطق الذى تطرحه الاممية الشيوعية الذى تبناه تيتو فى يوجوسلافيا الذى لم يسمح بالانشقاق الكامل عن الشيوعية ولم يطبق النظام التعددى فى بلده رغم النقد القاسى الذى وجهه لأساليب ستالين الديكتاتورية . ان قضية الشيوعيين القوميين امثال تيتو وجوميلكا كانت دفاعا عن ذاتيتهم القومية والاحتفاظ — فى حالة يوجوسلافيا — بهامش واسع نسبيا من الحرية فى مجال السياسة الخارجية . ان الشيوعية القومية — كما كان يقول ميلوفان جيلاس — ظلت دائما شيوعية رغم أنها أقل استبدادية (٣٧) . وأصبح واضحا لناجى أن ديمقراطية النظام الحاكم تتطلب انهاء الادعاء غير الشرعى للحزب الشيوعى بحقه فى احتكار السلطة .

ان مشكلة امرى ناجى كانت فى تمزقه بين ولائه للشيوعية والقيم الديمقراطية وكذلك فشله فى ادراك مدى ما اتسم به السلوك السوفيتى من استبدادية على الصعيد الدولى ووضع ثقته فى زعمائه وخدعته ووعودهم . وعلى أية حال لقد كان ناجى زعميا له قيم أخلاقية نبيلة جعلته يلتزم قدر الامكان بوعوده للأمة المجرية الا انه أجبر مثل جوميلكا على تقليص الحركة الثورية ومناورتها ثم خنقها فى النهاية ، لقد قاوم الاجتياح فى المجر منطق الاستسلام للأمر الأجنبى بعد قرار ناجى بمناصرة الضحايا لا الجلادين .

والدرس العظيم المستفاد من الثورة الديمقراطية المجرية أن الحركة الجماهيرية التى استلهمت من مثاليات انسانية كان فى مقدورها القضاء على الطغيان الحقيقى والقيام باختراق حقيقى لعالم التوتاليتارية الخانق ، وانهاء الارث الذى تركته معاهدة يالطا فى أول عشرة أيام من الاجتياح وعبر فرانس غير Ferenc Feher وأجنس هيلر Agnes Heller عن ذلك نقالا :

« لأننا نعيش فى عالم تتعاون فيه القوى العظمى بشكل مريب ، وفيه تخون القضايا الراديكالية أهدافها الأصيلة ، وفيه تعاني حركات التحرر من أنواع شتى من طغيان الاستبدادية الأصولية فان شهر أكتوبر المجرى ، [لأنه ديمقراطى راديكالى ومستقل ونادى «بجمهورية الجديدة» الاشتراكية] يعد عملا شريفا وواعدا ، لأنه جعل الأمة تشعر بثقاة معنوية واجتماعية كانت فى أشد الحاجة لها » (٣٨) .

ان هذه الثورة التى تحطمت آمالها فى التحرر والعق السيسى استمرت لعقود طويلة مثالا على روح التضامن المجرية .

ان مبدأ السياسة الواقعية Real Politik لم يستطع هزيمة البحث القومى عن الحقيقة التاريخية رغم المعاهدة التى فرضها كادار

الذى نجح فى إقامة نظام من انجح الأنظمة فى دول المعسكر المتطرفى .
ان الأكاذيب السمجة التى بنى على أساسها حكم كادار الذى زعم
وجود « مؤامرة مضادة للثورة » بتحريض ناجى ، وأصدقائه لم تسفر
الا عن مزيد من التمرد ، وبدلا من دفن ذكرى اللحظات البطولية للعصيان
أثارت دعائية كادار الحنين لتجربة ناجى فى التعددية (وبظرت اليها
الجمهير كنموذج) وفتشى بين المواطنين اعجاب كبير بالسياسيين
الذين فضلوا التضحية بأنفسهم عن التعاون مع المحتل . وأصبحت
تضحية ناجى مثلا تحذو سياسات ما بعد الاشتراكية حذوه وساعد
دحض ناجى لعالم البيروقراطية الشيوعية المخادع مع تأييده لحق المجتمع
فى الحلم الذاتى فى مقاطعة الطريقة الأبوية والبلشفية المستبدة فى ادراك
شرعية التمردات المدنية ضد الوضع الارهابى الراهن ، ومن ثم دشن
ناجى تقليد المعارضة السياسية الذى ارتكز على اللا عنف ، والفخر
المدنى ، والمسئولية الأخلاقية . ان اشارة ناجى لمحدودية التحدى
الخرتشفوى للسبائينية ، واعتقاده فى إمكانية قلب النظام الجائر القائم
يعد نبؤا لأجيال المستقبل من المنشقين فى الكتلة السوفيتية بكاملها ،
وهكذا تعلم العالم الشيوعى كله من تجربة الثورة المجرية . وفى ذلك
قال مير وهيلر :

**« لقد كان للثورة المجرية السبق فى مهاجمة النظام العالمى المستبد
الذى بدعه هؤلاء الذين وقعوا اتفاقيتى يالطا وبيوتسدام Potsdam (١٩٤٥) .
انها الثورة المجرية التى كانت درسا نتعلم منه ان الحكم الشمولى يمكن
ان يتداعى من الداخل وهو عكس ما اعتقده الناس لأمد طويل » (٤٠) .**

وعلى عكس ناجى الذى آمن بسيادة الشعب ، فضل جانوس كادار
ان يذعن للمنطق الامبريالى ويطيع أوامر خروتشوف . لقد كره الشعب
المجرى كادار كما لم يكره زعيما من قبل ، اذ تم فى عهده اعدام ناجى
ورفاقه فى يونيو ١٩٥٨ بتواطؤ منه . وحاول كادار بعد أن خفف السوفيت
أنفسهم من توجههم المتشدد وأذعان خروتشوف « لتعددية » ماو أن
يهدىء الشعب الثائر لناجى ورفاقه ، وفى نفس الوقت أعدم واعتقل
عشرات الآلاف من أبناء الشعب كما نفى آخرون اجباريا .

وتسببت المذبحة التى دبرها كادار والمتعاونون مع المحتل وما تبعها
من عواقب فى استنزاف وتصفية الانتلجنسيا فى المجر ومنهم جورج
لوكاس الفيلسوف المجرى الماركسى الذى تولى منصب وزير الثقافة
فى أول حكومة ثورية لناجى وظل سنوات عديدة عاجزا عن نشر أعماله
واتهمه مأجورو الحزب بأنه « تعدلى خطر » . أما الكتاب المناضلون

الذين اشتركوا في دائرة بيتوفى فقد تركوا وطنهم وهاجروا وبعضهم اعتقل .

وبعد القضاء على الثورة المجرية مع حلول عام ١٩٥٦ ظلت مناطق النفوذ التي صدقت عليها اتفاقيات نهاية الحرب العالمية الثانية كما هي ، كما استعاد الاتحاد السوفيتى دوره كحارس للأرثوذكسية داخل الكتلة الشرقية وتؤكد من أن أى بدع مماثلة لما فعله ناجى لن يكون له أدنى تأثير على البلدان التابعة . وفى وثائق مؤتمر الأمم المتحدة الشيوعية الذى تم في موسكو في نوفمبر ١٩٥٧ ، وصفت التعديلية والشيوعية القومية بأنها انحراف عن الماركسية اللينينية . ان ما نشر فى عام ١٩٥٨ عن برنامج الحلف الشيوعى اليوجوسلافى اعطى الفرصة للدوجماتيين أمثال جورجيو دجى برومانيا والبرخت Ulbricht بالمانيا الديمقراطية لتجديد هجماتهم على تبتو والتيتوية . وتؤكد السوفيت من أن هيمنتهم الأيدلوجية والعسكرية ستصمد في وجه أى دخلاء .

لقد كانت موسكو مستعدة لتحمل ما تلاقيه من احتقار وازدراء على الصعيد العالمى كى تحافظ على وحدة الكتلة ضد أى محاولة شيوعية قومية . لقد سحب تيتو أيضا تأييده لأمري ناجى ، بسبب الضغط السوفيتى المتواصل . ولم يشأ الزعماء فى يوجوسلافيا أن يجابهوا العزلة مرة أخرى ولذلك ادعوا للزعيم السوفيتى عن الخطر المضاد للثورة فى المجر واعتبروا حكومة ناجى « ابتسار » وقرروا فى نهاية الأمر أن يتولى كادار للحكم .

وكشفت الثورة المجرية أن الخروتشوفية Khrushchevism هى في واقع الأمر استراتيجية للحد من اجراء تعديلات في قمة الحزب وبرهنت بما لا لبس فيه على الطبيعة الامبريالية للاتحاد السوفيتى وهيمنته التامة على دول الكتلة الشرقية ، وداخل هذه الامبراطورية السوفيتية لم يسمح خروتشوف بتقدم الحركات الاستقلالية في جمهوريات مثل البلطيق Baltic ومولدافيا Moldavia أو اكرانيا Ukraine بل استمر في تطبيق برنامج ستالين عن السوفيائية ولم يقبل الغاء وعلى الصعيد الدولي كان قمع الثورة المجرية دليلا على هيئوتراطية القيادة السوفيتية في ادعائها التخلي عن الطرائق الستالينية في تعاملها مع البلدان التابعة ، وصفق حكام الولايات الشيوعية الأخرى لردع الثورة وللحكم الذى صدر ضد ناجى وإنصاره عام ١٩٨٥ ، بل ان جومسكا الذى عانى أكثر من غيره من الهيمنة السوفيتية وصف تدخل روسيا في المجر بأنه « التصرف الصحيح والضرورى » (٤١) . وطبقت

السياسية الجديدة ، وهى تضيق الخناق الأيديولوجى ، على كل بلدان أوروبا الشرقية ، وعادت القوى الستالينية تنظم نفسها بحيث تتخلص من معارضيهما الليبراليين • وفى ألمانيا الشرقية ، كمثال ، اجبر الفيلسوف الماركسى إيرنست بلوخ Ernst Bloch على الهجرة بعد أن شنت السلطة حملة شعواء ضده • وقبض على فولفجانج هاريتش Wolfgang Harich أستاذ الماركسية الشاب الذى وضع برنامجا لتحويل بلده للمسار الديمقراطي . وأكدت صحف الحزب على ضرورة التصدى « للأيديولوجية البرجوازية والتعديلية » • وهكذا ازداد نفور مفكرى شرق أوروبا يوما بعد يوم من هذه السلطة الدوجمائية وعبر الشاعر جيرارد زويرنز Gerhard Zwerenz عن ذلك قائلا :

ان الأيام تمر كثيبة

فمن الخوف

صمت الكتاب

وفى الحصار

ندوات النقضاد

والأدب المنشور

كفر به الجمهور

ولكنهم يدفعون له الأجور (٤٢) •

وفى تشيكوسلوفاكيا حيث كان الاقتصاد أكثر انتماعا عنه فى دول الكتلة الشرقية الأخرى ، طمأنت هزيمة الثورة المجرية الستالينيين الجدد برئاسة حليفه جوتولد ، انتونين نوفتنى الذى اعتقد أن سماح الاتحاد السوفيتى بمزيد من التحرر لن يضر • وفى عام ١٩٥٨ وأنشاء الحملة المضادة للتعديلية وبعد عامين من حل الكنفورم رسميا تأسست جريدة دولية تعبر عن وجهات نظر مشتركة لحركة العالمية الشيوعية وذلك فى مدينة براغ واتخذت اسم قضايا السلام والاشتراكية Problems of Peace and Socialism وهى نفس الجريدة التى اتخذت اسم نشرة الماركسية العالمية World Marxist Review •

وبعد عام ١٩٦١ تبنى الشيوعيون المجرىون استراتيجية داخلية أكثر ديمقراطية ، ولخلق حد أدنى من اجماع الرأى القومى قاطع كادار الشعار الستالينى « من لا يكن معنا فهو ضدنا » واستبدل به آخر أقل استبدادية وهو « من ليس ضدنا فهو معنا » • وبعد المؤتمر الثامن للشيوعيين المجرىين فى نوفمبر ١٩٦٢ ، أعلن كادار سياسة التصالح القومى وتبنى استراتيجية اقتصادية تهدف الى رفع المستويات المعيشية

للجماهير وتشجيع الملكية الخاصة المحدودة ، والعمل الحر الصغير وبارك خروتشوف استراتيجية المهادنة التي اتبعها كادار والتي عرفت باسم « اشتراكية التجانس » . وفي مارس ١٩٦٣ أصدر عفوا عاما وأطلق سراح آلاف من المعتقلين السياسيين المجريين . وفي مقابل مساحة الحرية المحدودة طالب النظام رعاياه بالكف عن توجيه أى نقد للاتحاد السوفيتى وبالتفاضى عن شهادة ميلاده التي وقعت بالدم . وأبدى الحزب استعداداه للتعاون مع كل الأنكياء الذين لا يتساءلون عن الشرعية السياسية (٤٣) .

★ محاولات الاستقلال : معاداة التبعية الستالينية فى رومانيا والبنانيا :

فى رومانيا ، خاصة بعد قمع الثورة المجرية شددت القيادة الستالينية قبضتها على الشئون الداخلية ، وتخلص جورجيرو - دجى من العصبية الموالية لخروتشوف التي حاولت أن تطيح به ، واهتم بشدة بالتخلص من عضوين بالمكتب السياسى وهما اسويوف تشيزيفتش Isoif Chisinevech المنظر الرئيسى للحقبة الستالينية فى رومانيا وميرون قنستانتينيسكو Miron Constantinescu الشيوعى الماركسى الذى أبدى ميلا نحو التعددية . ورغم انهما لا يتمتعان بشعبية كبيرة الا أن جورجيرو أصر على أن يفضح دورهما فى ارهاب أوائل الخمسينات باعتباره أحد الدلائل على تورطهم فى أنشطة معادية للحزب . وكان خروتشوف فى هذه اللحظة مشغولا جدا فى صراعه ضد مناوئيه الستالينيين فى الكرملين حتى انه عجز عن مد اتباعه الرومانيين بأى دعم . وفى عام ١٩٥٨ حدثت مذبحة ضخمة للانتلجنسيا فى الحزب وطرد عشرات الآلاف من الحزب الشيوعى وبعدها سمي رسميا حزب العمال الروماني Romanian Worker's Party وفى يونيو ١٩٥٨ اسفرت المفاوضات السرية بين جورجيرو دجى وخروتشوف ، عن قرار الكرملين بسحب قواته من رومانيا ، وكان ذلك يعد دليلا على ثقة الاتحاد السوفيتى المطلقة والاعتراف بمحدودية فى الرومانيين الأرثوذكس وفى قدرتهم على حفظ النظام واستقراره ، وكان فى سحب القوات السوفيتية من رومانيا ما أقنع الغرب بأن التدخل فى الجزر كان مجرد حادثة وأن السوفيت لم يكن لديهم النية لاستمرار سياستهم الامبريالية تجاه الاقطار التابعة السابقة . وفيما بعد ثبت أن الشيوعيين الرومانيين برئاسة جورجيرو دجى قد خدعوا خروتشوف ، إذ كان هدفهم هو ضمان اتساع هامش استقلالهم القومى وعم خضوعهم لأى انذارات وذلك لمزيد من النكوص عن الستالينية . وفى الحقيقة كانت رومانيا والبنانيا أكثر الدول الاشتراكية التى تعرضت للقمع السوفيتى .

ولم يجرؤ أحد في رومانيا على تحدى سلطة جورجيو ، حيث يتعرض كل من يجرؤ على توجيه تهمة الاشتراك في مفاسد الستالينية للتصفية الجسدية . لقد ارتقت سياسة جورجيو - دجى لأعلى مستويات الستالينية ، فقد فضل التصنيع الكبير وشن حملات لا هوادة فيها من أجل احلال التعاونيات . وفي ربيع عام ١٩٦٢ أصبحت الزراعة الرومانية تعاونية . وأعلن جورجيو - دجى انتصار الاشتراكية الباهر وبداية مرحلة جديدة وهى « اكتمال البنية الاشتراكية » . وبدأ لجورجيو أن حملة خروتشوف الثانية المعادية للستالينية في المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى في أكتوبر ١٩٦١ ونقل رفات ستالين من ضريح لينين Lenin's Mausoleum خطأ لا يفتقر .

وكزعيم ستالينى متمرس استاء جورجى من سياسات الزعماء السوفيتيين الغربية إذ رأى أن المزيد من الليبرالية لن يسفر الا عن تقويض دعائم النظام القائم وتهديد أنظمتهم .

لقد كان جورجيو - دجى مثل خوجة بألبانيا ونوفتى يتشيكوسلوفا والبرخت فى المانيا الشرقية يتفق مع ماوتسى تونج فى شعوره المفرط بقوة وأهمية معجزات ستالين .

وفى عام ١٩٦٠ زار أنور خوجة زعيم الحزب الشيوعى الألبانى موسكو لحضور مؤتمر الأممية الشيوعية الثانى وفيه هاجم خروتشوف لدوره المحرض الذى يهدد الاستقرار فى عالم الشيوعية وقد كان لهذا المؤتمر آثار مفاجئة . وبعد عام من هذا المؤتمر وجه الشيوعيون الصينيون نفس الهجوم على خروتشوف ومنحوا خوجة مساعدة اقتصادية . وبعد أن أعلن خروتشوف المقاطعة الاقتصادية لألبانيا ، وأصبح الشيوعيون الألبان بعد المحاولة السوفيتية لاذلالهم وحصارهم أكثر نقاد « التعديلية الحديثة » ضراوة واتهموا خروتشوف بأنه يحفر مقبرة الأممية الشيوعية . وامتنعت البانيا عن المشاركة فى أنشطة الكتلة الشرقية وقطعت العلاقات الدبلوماسية مع موسكو والدول التابعة لها (٤٤) .

وأسفرت المقاومة المحدودة للستالينية التى تمت السيطرة عليها تماما عن شن هجوم جديد على المنافسين السابقين لجورجيو مثل عصابة (بوكرا - لوكا) وكان قد تخلص منهم عام ١٩٥٢ . وفى عام ١٩٥٧ اعادة الكرة فتخلص من عصابة تشيزنفتش - قسطنطينكو) وتم شنق عضو المكتب السياسى السابق لوكريتيو بتراتشنسكو Lucretiu Patrascau فى عام ١٩٥٤ واستمر فى تشويه سمعته باعتباره خائنا للطبقة العاملة . وفى نفس الوقت أكد جورجيو - دجى على

عصبوية ائتلافية الحزب والحكومة • واستبدل الحزبين المجريين واليهود برومانيين عرقيين قدموا فروض الولاء لجورجيو - دجى لصعودهم السريع والمفاجئ للسلطة • وفى هذا الوقت ظهر نيقولاى شوسسكو Nicolae Ceausescu أصغر الأعضاء فى المكتب السياسى واعتبر وزيراً للزعيم •

وبادر جورجيو - دجى بالتقرب ثانية من تيتو ليتكن من مواجهة الهجوم السوفيتى وهتف للمطالبة بعدم التدخل السوفيتى فى الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى • وعندما أراد خروتشوف أن يدفع فى اتجاه تكوين وحدة تكاملية عابرة للقارات داخل مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة (CMEA)، عارض الرومانيون بعنف هذه الاقتراحات وقاطعوا اجتماعات القمة بالكتلة الشرقية، ولم يعد امام جورجيو - دجى وعصيته وسيلة للدفاع عن هيمنتهم السياسية سوى تأمين استقلال البلد الاقتصادى، ولانهم تلاميذ المدرسة الستالينية فقد آمنوا بأن الطريق الى الاستقلال الاقتصادى هو التصنيع السريع مع التأكيد على أهمية الصناعة الثقيلة، والاكتفاء الاقتصادى لرومانيا لأن الطريقة الوحيدة للانفلات من الضغط الأجنبى - ويعنى هنا الضغط الروسى - لقد نشرت الصحف الرومانية فى عام ١٩٦٣ - ١٩٦٤ عددا من المقالات المعادية للسوفيتيين وانتقدت الخط السوفيتية لفرض الاندماج على اقتصاديات بلدان دول شرق أوروبا • وفى ذات الوقت ونظراً لتدهور نفوذ خروتشوف فى الكرملين اتخذ جورجيو - دجى موقفاً محايداً من الصراع الواقع بين الحزب الشيوعى الروسى والصينى • لقد انتقد جورجيو - دجى خطة خروتشوف لفرض الدمج لأنه أدرك أن رومانيا ستدخل ضمن الترتيبات الشرق أوروبية الجديدة وستخضع للاقطار الأكثر تقدماً مثل المانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا • ولعبت العداءات الشخصية بين جورجيو - دجى من ناحية والبرخت ونوفتنى دوراً مهماً فى تفجر الصراع •

وفى صيف ١٩٦٣ نشرت الصحافة الرومانية وثائق عن طمرى الصراع الصينى السوفيتى وعن «الخط العام لحركة الأمية الشيوعية»، وهنا نستطيع أن ندعى أن جورجيو الذى لم يدخل ضمن عصابة ماو الثورية استغل الوقيعة بين عملاقي العالم الشيوعى لخلق منطقة نفوذ خاصة به ورصد ج ف براون J. F. Brown ذلك قائلاً :

((لقد فهم جورجى الداھية دلالات النزاع الصينى - السوفيتى Sino-Soviet حول الاقطار الشرق أوروبية التابعة • ورأى انهم

يستطيعون الآن فقط مناورة الكرملين • وفي الوقت الذي كان فيه مستعدا لأخذ جانب السوفيت ، لم يكن لديه مانع في أن يصبح ماويا Maoist ، كوسيلة للحصول على تقاضات الاتحاد السوفيتي « (٤٥) •

وفي الواقع فان جورجيو - دجى تعاطف مع دفاع ماو العنيد عن التراث الستالينى • وفهم جورجيو مثله مثل كل من عاصر زمن الارهاب أن حملة خروتشوف المترهلة ضد تاليه الفرد لن تسفر سوى عن عزله من قيادة الحزب الشيوعى • واستخدم دجى القومية سلاحه لتقوية نفوذه ، وتذكر الشيوعيون الرومانيون النذل الذي تذوقوه على يد موسكو غاداروا لها ظهورهم وتعهدوا بالالتزام بالقيم القومية ، ورد اعنبار الرموز الشابة للانكلنسيا الوطنية وأعيدت كتابة التاريخ وفقا لخط الحزب الجديد ولم تعد الروسية اللغة الأجنبية الالزامية التى تدرس بالمدارس •

وفي ابريل ١٩٦٤ بلغ النزاع السوفيتى الصينى أشده على نحو غير مسبوق فأصدر الحزب الشيوعى الرومانى بيانا يتعلق بالقضية الرئيسية داخل حركة الأممية الشيوعية ، وتأثر هذا البيان باستقلال تيتو وأكد على حق كل حزب شيوعى في تقرير استراتيجيته الخاصة وانكروا على الكرملين الهيمنة التى يتمتع بها داخل الكتلة الاشتراكية ونادى بعلاقات جديدة فيما بين الأحزاب والبلدان الشيوعية ، على أن يكون قوامها المساواة والاحترام للعادات والمصالح القومية •

ان تحدى رومانيا لهيمنة الاتحاد السوفيتى اكسب جورجيو - دجى جماهيرية عريضة رغم الخط السوفيتى الدين الذى تبناه ، وشعر دجى بأنه في مأمن فاعلن عفواً عاماً عن المعتقلين السياسيين ونشرت مخطوطات كارل ماركس Karl Marx التى طال فرض الرقابة عليها وهى المخطوطات التى تنفذ سياسة الامبراطورية الروسية التوسعية تجاه الامارات الدانوبية Danubian فى القرن العشرين • وتم تنظيم جماعات عمل قدمت نقداً راديكاليا لما قام به الاتحاد السوفيتى من سلب ونهب لرومانيا فى الخمسينيات • ان اعادة المطالبة بالقيم القومية خدمت بالطبع مصلحة جورجيو - دجى ومعاونيه في الائتلاف الشيوعى الذى حاول مناورة الرموز القومية كي ما يفرض هيمنته وسيطرته المطلقة على البلد • وفي نهاية حكم جورجيو - دجى وفي مارس ١٩٦٥ كان على رومانيا أن تختار بين محاكاة تيتو فتسمح بمزيد من الرونة الايدولوجية والانفتاح على الغرب أو ترك الحزب الشيوعى قابضاً السلطة فتدعم العداء السلطوى القومى لأى تحرر ، لقد توفى جورجيو دجى في مكتبه عام ١٩٦٥ ولا يستطيع أحد أن يتكهن بمجريات الأحداث لو أن جورجيو عاش فترة أطول •

وبعد وفاته اتبع خليفته نيكول شاوشيسكو منهج مناوئة السنتالينية لتعزيز سلطته ، الا أنه لم يستطع التحكم فى مقدرات السلطة من خلال معارضته للسوفيت مثلما فعل جورجى فحاول أن يجعل نفسه زعيما قوميا . ان الصيبي الذى كان يعمل صانعا للأحذية لم يتلق تعليما حقيقيا ، لم يثق فى المفكرين ورفض الليبرالية أيا كان شكلها وتؤكد من فكرة القومية لخدمة مصلحته وأخذ شاوشيسكو بصلف بالمنهج الستالينى فى مجال الاقتصاد الا أنه سمح خلال السنوات الأولى من حكمه بالنحر — نسبيا — من القيود الدجماتية المفروضة على الحياة الفكرية فى القطر ، وفيما بعد انشغل فى تعزيز نفوذه وبناء رؤية أصيلة للشيوعية القومية لتتضمن المبادئ الماركسية اللينينية والعرقية ، وآمن شاوشيسكو — كستالين — بالدور المقدر للحزب الشيوعى ودافع عن هيمنته وانفرادة بالسلطة . وكان حلمه الكبير إقامة دولة قوية شديدة المركزية ومتسعة عرقيا وأشار بثقة الى « الشعب الموحد العامل الذى يتحدث لغة فريدة من المفردات الشيوعية » . وبالمقارنة بالزعماء الشرق أوريبيين الآخرين تمتع شوشيسكو الى حد ما بوضع مميز ، اذ حكم بلدا تخلو أراضيها من جنود القوات السوفيتية ، وبدلا من استخدام هذه الميزة لدمقرطة النظام السياسى فقد اقام حكما فرديا ديكتاتوريا والذى سيصل فى الثمانينيات الى أقصى درجات اللامعقولية .

بلغاريا : التحالف المخلص

ان الاتجاه البلغارى نحو الخرثشوفية عكس الصراعات التى تفشت بين القيادات السوفيتية . واستمد تودور جيفكوف Todor Zhivkov الزعيم البلغارى الشرعية السياسية من افشائه لأسرار مؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى العشرين . وفى الواقع خطط جيفكوف فى عام ١٩٥٦ للتخلص من راعى الكمنترن السابق ونصيره فالك تشرفينكوف .

وفى جلسة ابريل ١٩٥٦ الكاملة الأعضاء تم التصديق على اكذوبة جيفكوف باعتباره ممثلا للشيوعية الجديدة . واستمر الصراع بين جيفكوف وعصبة تشرفينكوف حتى المؤتمر الثانى والعشرين فى عام ١٩٦١ عندما وضع خرثشوف الاطار السياسى المعادى للحركة المضادة للستالينية التى اجتاحت الأقطار التابعة . وبعد ازاحة تشرفينكوف من الحزب

استمر الستالينيون في معارضة دعوات جيفكوف من أجل اذابة الجليد الذي اصاب الشئون الداخلية . وفى مؤتمر الحزب الواحد والعشرين احيط انتصار جيفكوف على معارضة الستالينيين بهالة من التقدير وهاجم جيفكوف انتون يوجوف Anton Yegov رئيس الوزراء المشدد الذى شارك في مذابح الخمسينيات وعزله من منصبه الحزبى والحكومى ومع ذلك كان جيفكوف نفسه بيروقراطيا شيوعيا ماهرا التزم بالليبرالية السياسية ولكن دون حماس حقيقى . وفى عام ١٩٦٦ تأسد جيفكوف خروتشوف عندما تحدى المفكرين فبدا بالفنانين الليبراليين السوفيتيين أمثال الشاعر بافجنى يوفتشينكو والمثال ارنست نيزفستنى Ernst Neizvestny فخطط لمذبحة هائلة للبلغاريين المعادين للستالينية . وتم نفي كل من انتقد النظام . وابتعدوا عن العاصمة صوفيا واستأنف البوليس السياسى مطاردته لكل من حام حوله أدنى شك ، وأعدمهم لمعارضتهم للنظام . وعندما تنحى خروتشوف من الحكم فى أكتوبر ١٩٦٤، حاول جيفكوف الفوز بالحقوة لدى القيادة السوفيتية الجديدة وعلى رأسها ليونيد برجنيف Leonid Brezhnev والكسى كوسيجين Aleksei Kosygin . وفى ربيع عام ١٩٦٥ دبر الشيوعيون المتربسون بالتعاون مع قيادات الجيش للاطاحة بجيفكوف الذى أعلن تأييده غير المشروط للاتحاد السوفيتى بعد أن نجح فى قمع الانقلاب وجعل من هذه التبعية مصدرا أساسيا لقوته ، وفيما بعد عندما يكف الاتحاد السوفيتى دعمه ويفقد مصدر قوته ، سيتمكن الانقلابيون فى المكتب السياسى من الاطاحة به فى نوفمبر ١٩٨٩ .

الخلاصة :

ان الصدمة التى نجمت عن الحملات التى شنّها خروتشوف لمعاداة الستالينية ألقت بظلالها على كل بلدان شرق أوروبا . وأسفرت الفوضى التى تفشت فيما بين الائتلافات المحلية عن فقدان الحزب لهيئته ولاحث حركات التحرر فى الأفق خاصة فى بولندا والمجر . وطالما انكشف زيف التهم التى وجهها الستالينيون لتيتو أصابت المنطقة حمى الشيوعية القومية . ان انهيار أسطورة ستالين وتحطيم ادعاءات خروتشوف الخاصة بطرح منهج جديد مبتكر لنظام ثورى شجعت الشكرين الأرثوذكس على مسالة النظام القائم وتحديه .

لقد مرت كل بلدان أوروبا الشرقية مع نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات (وبدرجات متفاوتة) بتجربة ازدهار الاتجاهات التعديلية

التي ظهرت في أجرا صورها في بولندا والمجر ، حيث قوض الصرح الستاليني تحت ضغط التيارات الناقدة وانهارت النسق الشيوعية بسبب الآلية السياسية القائمة فنما جنين نظام سياسى تعددي ، إلا أن هذه التيارات الناقدة سحقت من قبل القوات الروسية في نوفمبر ١٩٥٦ . وبعد هزيمة الثورة المجرية ، حاول السوفيتيون استعادة تماثل وانساق الكتلة لكن محاولتهم باءت بالفشل ونمت في كل بلدان شرق أوروبا اتجاهات نرفض المركزية ورفضت الأحلاف المحلية الطريقة المهينة التي يحضون عليها تحت الحكم الشيوعي .

ومن ناحية أخرى ، جاءت المبادرات في تلك البلدان من الزعماء المحليين ، وأجبروا موسكو على الاذعان لقراراتهم ومنهم الزعيم الشيوعي والتر برخت الذي اقنع الكرملين بأن إزالة سور برلين هي الطريقة الوحيدة لوقف النزيف الديموجرافى في بلده .

وفى المجر فاز كادار باجماع الرأى القومى بسبب فتحه ملف أحداث عام ١٩٥٦ ودوره في رد اعتبار حكومة ناجى الشرعية . لقد كانت مساومة قوامها الأكاذيب وأنصاف الحقائق والأوهام الخاصة بإمكانية إصلاح النظام الشيوعي القائم من الداخل بدلاً من استبداله . ورغم افتقار المجر للاستقلالية في إدارة شئونها الداخلية ، إلا أن اتساع هامش الحرية الفردية والحد من سلطات البوليس السياسى أحدث توازناً ما داخل القطر . واحتفظ الرومانيون بمسافة متساوية بينهم وبين كل من موسكو وبكين والتزموا الحياد فيما يتعلق بالصراع الحاد المتصاعد بين العملاقين الشيوعيين . لقد اتسمت سياسة رومانيا الخارجية بشيء من الاضطراب بينما حافظوا على أدواتهم القمعية سليمة والتصقوا بالتفسير الستالينى الأصولى للبنى الاشتراكية . واستمرت يوجوسلافيا غى قبيلتها لمسياسة عدم الانحياز الخارجية إلا أن تيقنوا لم يخف دعمه لبرنامج خروتشوف المعادى للماوية .

وعلى الصعيد الداخلى أجريت اصلاحات جديدة في اتجاه الادارة الذاتية وأسس النقاد الماركسيون صحيفتهم براكسس (٤٦) Praxis . ونادوا من خلالها بطلاق لا رجعة فيه للاشتراكية البيروقراطية . وانتقدوا تبو وحلفه الشيوعى بسبب تناقض موقفهم من مقاطعة النموذج الاشتراكى السلطوى — القائم على عبادة الفرد . ان البانيا هى البلد الوحيد الذى استطاع بفضل عزلته وأدواته القمعية أن يقضى على أى شكل من أشكال المعاداة للستالينية .

وعندما تكونت الكتلة نتيجة لاحتلال ستالين الامبريالى لأوربا الشرقية ظهرت دلائل واضحة تنم عن الاعتلال الذى أصابها . وحاول خلفاء خروتشوف احتواء هذه الاتجاهات المتناقضة بتطوير أشكال جديدة من العلاقات فيما بين الدول .

وتحت قيادة برجنيف أصبح التوازن الخاص بالمبادرات السياسية الخارجية بين الاتحاد السوفيتى وأحلافه على رأس أولويات الكرملين الذى حاول إقامة نوع جديد من العلاقات تتمتع بموجبها كل الأقطار بنفس الحقوق ويكون عليها نفس الواجبات . وسمى المفهوم الجديد للوحدة « الدولية الاشتراكية » وهو المفهوم الذى جعل المصالح السوفيتية والشرق أوروبية تتقارب واعتبرت أية محاولة للتشكيك فى طبيعة هذه العلاقات شكلا من أشكال الانحراف عن الخط الأصيل للماركسية اللينينية .

لقد عملت كل الأنظمة القائمة فى دول أوربا الشرقية تحت اسم « الاشتراكية المتطورة » الذى وصفته الدعاية الشيوعية بأنه النظام السياسى المستقر الذى بنى على الاقتصاد الديناميكى واجماع رأى الاجتماعى . وحقيقة الأمر أن الالتفاف حول البرجينية قام على الجمود السياسى ونشر اللامبالاة والاستقلالات الجماعية : لأزد كان مشابها للحقبة الستالينية وان كان أقل بشاعة منها .

ولم يعتمد الميثاق الاجتماعى الخاص بالمجتمعات الشيوعية فيما بعد الستالينية على الارهاب فقط ولكن على الاجراءات الوقائية المتبادلة بين الحكام والمحكومين ، فبينما حمى الأول نفسه بدرع من المصالح الاجتماعية تخلص الأخير عن حقه فى التمرد ضد النظام الجائر الجامد ، وعلى أية حال كان هذا العقد الاجتماعى مرفوضا بل وموضعا للشك ، فالحكام لا يتمتعون بشرعية حقيقية بينما أخذ الوضع الاقتصادى فى التدهور ولم يعد يكفل الاستمرارية لهذا الاتفاق فانهار النظام تماما . وازضافة لذلك فان شرعية هذه الانظمة كانت مزيفة لانها لم تصل للسلطة — باستثناء حكومة يوجوسلافيا — بناء على رغبة الجماهير ، كما فقدت هذه الأنظمة الأيديولوجية التى خدمت عقيدة الماركسية اللينينية كل ما خلع عليها من قدسية ، نتيجة للحملات المعادية للستالينية والاجتياح الاجتماعى لعام ١٩٥٦ .

وعلى عكس الستالينيين العقلانيين الذين قنادوا الأحزاب الشيوعية الشرق أوروبية فى أوقات القمع الوحشى فان الائتلافات الصاعدة نظرت للماركسية على أنها عقيدة شعائرية اجبارية ورفضوا الادعاء اللينينى

بالعالمية واعتبروا للستالينية كيانا مشا • لقد أخذت قلة من الأعضاء في
الائتلافات الشيوعية بالأفكار الستالينية بل لقد استخدموا اللينينية فقط
كستار يخفون وراءه دكتاتورياتهم لضمان سرمدية حكمهم واحتكارهم
للسلطة .

هوامش الفصل الثاني :

George H. Hodos, Shotrials : Stalinist purges in Eastern (١)
Europe, 1948-1954 (New York : Praeger, 1987), pp. 11-12.

(٢) البلشفي *

هو عضو الجناح الروسي المتطرف في الحزب الديمقراطي الاشتراكي الروسي الذي
تولى السلطة بعد ثورة نوفمبر ١٩١٧ في روسيا كما يعتبر البلاشفة قبل الثورة ممثلين
للأغلبية بينما المناشفة تعني الأقلية في الحزب - (المترجم) *

Ibid, p. XIII. (٣)

The trialoh. Loszlo Rajk in Gale Stockes, from Stalinism to (٤)
Pluralism : A Documentary History Eastern Europe Since 1945
(New York and Oxford : Oxford University Press, 1991, pp. 69-70.

See Louis Rapoport, *Stalin's War Against the Jews : The (٥)
Doctors' Plot and the Soviet Solution* (New York : The Free Press,
1990).

Zbigniew Brzezinski, *The Soviet Bloc : Unity and Conflict* (٦)
(Cambridge : Harvard University Press, 1967), p. 137.

Jacques Rupnik, *The Other Europe : The Rise and Fall of (٧)
Communism in East-Central Europe* (New York : Schocken Books,
1989) p. 116 : on Stalin versus Tito. see Khrushchev's "Secret Speech"
in Tariq Ali, *The Stalinist Legacy* (Harmondsworth, Middlesex :
Books, 1984), p. 256.

See Ivo Banac, *With Stalin Against Tito : Cominformist (٨)*

See Ivi Banac, *With Stalin Against Tito : Cominformist*
versity Press, 1988).

See Oskar Gruenwald, *The Yugoslav Search for Man : (٩)
Marxist Humanism in Contemporary Yugoslavia* (South
Hadley, Mass. : J. F. Bergin, 1982).

Nomenklatura (١٠) نومنكلاتورا

هي طريقة في التسمية تستخدم في مجال العلوم والفن والأنظمة ، وهي طريقة
دولية لتصنيف الأسماء اللاتينية الجديدة في مجال البيولوجيا أو من أجل تصنيف
الأسماء اللاتينية الجديدة في مجال البيولوجيا أو من أجل تصنيف الأنواع الحيوانية
والنباتية ، وفي السياسة تأتي بمعنى « تكنوقراط الدولة/الحزب » أو شريحة متميزة من
البيروقراطية - (المترجمة) *

See Milovan Djilas, *The New Class : An Analysis of the Communist System* (New York : Harcourt Brace Jovanovich, 1957), and idem, *Of Prisons and Ideas* (Orlando : Harcourt Brace Jovanovich, 1986).

(١٢) الأوتوقراطية Autocracy

تطلق على الحكومة التي ينفرد فيها شخص واحد بالسلطة المطلقة وصانع القرار - (المترجمة)

Wolfgang Leonard, *Three Faces of Marxism : The Political Concepts of Soviet Ideology, Maoism, and Humanist Marxism* (New York : Paragon Books, 1979), p. 268.

Teresa Toranska, *"Them" : Stalin's Polish Puppets* (New York : Harper & Row, 1987), p. 257. (١٤)

Ibid, p. 354. (١٥)

For these biographies, see the appropriate entries in Branko Lazich and Milorad M. Drachkovich, *Biographical Dictionary of the Comintern : New Revised and Expanded Edition* (Stanford, Calif. Hoover Institution Press, 1986). (١٦)

Brecht as quoted by William Echikson, *Lighting the Night*, (New York : Morrow, 1990), p. 63 ; Timothy Garton Ash, "Comrade Brecht," in his book *The Uses of Adversity : Essays on the Fate of Central Europe* (New York : Random House, 1989), pp. 28-46. (١٧)

Brzezinski, *Soviet Bloc*, p. 174. (١٨)

Celestine Bohlen, "Warsaw Pact Agrees to Dissolve Its Military Alliance," *New York Times*, February 26, 1991. (١٩)

Leszek Kolakowski, *Main Currents of Marxism* (Oxford : Oxford University Press, 1978), III : 451. (٢٠)

Khrushchev's « Secret Report », in Ali, *Stalinist Legacy* (note 6 above), pp. 296-70. (٢١)

Isaac Deutscher, *"The Tragedy of Polish Communism"*, in Isaac Deutscher, *Marxism, Wars and Revolutions : Essays from Four Decades* (London : Verso, 1984), p. 121. (٢٢)

For the Polish Political traditions, see Marcin Krol, "The Polish Syndrome of Incompetentness," in Stanislaw Goniulka and Antony Polonsky, eds., *Polish Paradoxes* (London and New York, Routledge, 1990), pp. 63-75, and Jan Jozef Lipski, "Two Fatherlands, Two Patriotisms," in Robert Kostrzewa, ed., *Between East and West : Writings from Kultura* (New York : Hill & Wang, 1990), pp. 52-71. (٢٣)

- Paul Zinner, ed., *National Communism and Popular Revolt* (٢٤)
*in Eastern Europe : A Selection of Documents on Events in Poland
and Hungary February -- November 1956* (New York : Columbia
University Press 1956, pp. 47-48.
- Stanislaw Baraczak, "Before the Thaw : The Beginning of (٢٥)
Dissent in Postwar Polish Literature (The Case of Adam Wazyk's
'A Poem for Adults')." *East European Politics and Societies*, 3, no. 1
(Winter 1989) : 11.
Quoted in Irving Howe, *Beyond the New Left* (New York : (٢٦)
McCall Publishing Company, 1970), pp. 31-32.
- "Victory Orban's Speech at the Reburial of Imre Nagy," (٢٧)
Uncaptive Minds, II, no. 4. (August-October 1989) : 26.
- (٢٨) التعديلية حركة في الاشتراكية الماركسية الثورية تؤيد الأخذ بروح التطور
(المترجمة)
- Wilham E. Griffith, "The Origins and Significance of East (٢٩)
European Revisionism". in Leopold Labedz ed., *Revisionism : Essays
in the History of Marxist Ideas* (New York : Praeger, 1962),
pp. 223-38.
- Adam Michnik, *Letters from Prison and Other Essays* (٣٠)
(Berkeley and Los Angeles : University of California
Press, 1985), p. 135.
- Ibid.*, p. 137. (٣١)
- See Gyorgy Aczel and Tibor Meray, *The Revolt of the Mind* (٣٢)
(New York : Praeger, 1959).
- Leonhard, *Three Faces oh Marxism* (note 10 above), pp. (٣٣)
282-83.
- Ibid.*, p. 283. (٣٤)
- Ibid.*, p. 284. (٣٥)
- Ibid.* (٣٦)
- See "Christ and Commissar," an interview with Milovan (٣٧)
Djila, in George Urban, ed., *Stalinism : Its Impact on Russia and
the World* (Cambridge, Mass. : Harvard University Press, 1986),
pp. 180-245.
- Ferenc Feher and Agnes Heller *Hungary 1956 Revisited :* (٣٨)
The Message of a Revolution — A Quarter of a Century After
(London : (George Allen & Unwin, 1983), p. 150.

• (٣٩) بوتسدام . مدينة في ألمانيا الشرقية تقع شمال غرب برلين - (المترجمة) •

Ibid., p .vii. (٤٠)

Quoted by Albert Camus in his preface to *The Truth about the Nagy Affair : Facts, Documents*, New York . Praeger, 1959), p.vii. (٤١)

Quoted by Melvin Coran in his masterful essay "East German Revisionism : The Spectre and the Reality", in Leopold Labedz, ed., *Revisionism : Essays on the History of the Marxist Ideas* (New York : Praeger, 1972), p. 254. (٤٢)

The journal ceased to come out in 1990 as an effect of both the dramatic changes in Eastern Europe and Gorbachev's markedly diminished interest in what used to be called the "world communist movement." (٤٣)

See William E. Griffith, *Albania and the Sino-Soviet Rife* (Cambridge, Mas. : MIT Press, 1963). (٤٤)

J. F. Brown *The New Eastern Europe : The Khrushchev Era and After* (New York : Praeger, 1966), p. 206. (٤٥)

(٤٦) براكسسي

• وتعنى الممارسة العملية لما اعتنق نظريا - (المترجمة) •

الفصل الثالث

من الانصهار حتى التجمد

« الاشتراكية الحقيقية » تحكم أوروبا الشرقية

« لا يوجد هناك مثل شيوعية لم تحملها

التوتاليتارية ومن ثم لم تصبح توتاليتارية ولا

ظلت شيوعية »

آدم متشنك •

لقد تم اقضاء نيكيتا خروتشوف عن منصبه كسكرتير أول للحزب الشيوعى السوفيتى Soviet First Secretary ورئيس لمجلس الوزراء Chairman of the Council of Ministers وذلك فى أكتوبر عام ١٩٥٤ نتيجة لضربة وجهت له من داخل الحزب بتدبير من القوى الستالينية البروتراطية الجديدة التى لم تقبل الأساليب التى انتهجها المذكور ووصفتها بأنها « خطط رعناء » ووجهوا لخروتشوف تهمة اضعاف سلطة الحزب الشيوعى بما أجراه من اصلاحات • لقد حرص الزعماء الجدد فى الكرملين على استعادة وحدة عالم الشيوعية التى تضررت على نحو خطير من تفاقم الهجوم العنيف الذى شنته على الصين ، فألغوا البيانات المعادية للستالينية التى أصدرها خروتشوف • واختفى الاسم المدوى للسكرتير الأول السابق لأكثر من عشرين عاما من الخطابات الرسمية السوفيتية •

ان الحملة التى شنها ليونيد برجنيف ونيكولاي بودجورنى Nikolai Podgorny وميخائيل سبسلوفيت M. Khail Suslovate على الصيغة الخروتشوفية للبلاد ، وتخطيطهم لضربة القصر فى أكتوبر اتسمت بالاعتدال الا أنها كانت محاولة واضحة لرد اعتبار ستالين (١) • وأثر القرار الروسى باستعادة الوحدة الأيديولوجية والاتساق داخل الكتلة على أوروبا الشرقية • وفى البداية خشى زعماء أوروبا الشرقية المحليون على مناصبهم من جراء التغيير الذى يتم فى الكرملين ، الا أنهم سرعان ماتأكدوا بأن روسيا سوف تستمر فى منحهم العون والدعم • لقد كانوا أدوات لروسيا لذلك شعروا بالامتعاض نحو إيماءات السكرتير

الأول السابق (خروتشوف) المعادية للاستالينية وفضلوا أن يتعاملوا مع قيادة سوفيتية أكثر روتينية وبالتالي أكثر جموداً . وحاول الزعماء السوفيت الجدد أن يستنهضوا الأجهزة الاستشارية الدولية القائمة وأكدوا على التزامها المتزايد بالتضامن بين الأحزاب الحاكمة في الكتلة السوفيتية . لقد قبل جميع زعماء بلدان حلف وارسو باستثناء جورجي - جورجيو دجى الذى توفى ١٩٦٥ وكذلك خليفته نيكولاى شوشيسكو إعادة الهيمنة السوفيتية على الكتلة - الشرقية كما طالبتهم البرجنيفية Brezhnevism بضمان الاستقرار الداخلى والانسجام الأيديولوجى والاحجام عن المبادرات المنفردة فى السياسة الخارجية . وسعد الحكام فى تلك البلدان بوضع حد لمحاولة خروتشوف الارتجالية .

لقد استغلت الدعاية السوفيتية تزايد الصراع الصينى السوفيتى والتدخل الأمريكى فى فيتنام لاثارة الجدل وتقوية الروابط بين الأحزاب الحاكمة فى أوروبا الشرقية .

✳ ربيع براغ ومذهب خروتشوف :

ان العاصفة التى أثارها مصلحو براغ (٢) فى تشيكوسلوفاكيا لتقديم نموذج للاشتراكية يختلف راديكاليا عن نظيره السوفيتى وضع نهاية للفترة القصيرة التى اتسمت بالهدوء والاستقرار فى أوروبا الشرقية وذلك فى عام ١٩٦٨ . وحاول الزعماء الجدد بتشيكوسلوفاكيا الفوز بشعبية عريضة وضم فئات اجتماعية متعددة للعملية السياسية مما أثار شك العقائديين فى تشيكوسلوفاكيا ودول حلف وارسو ، وخاصة جمهورية ألمانيا الديمقراطية وبولندا والاتحاد السوفيتى . ان افئدة الاحلاف للشرعية السياسية وهو ما يفسر اجتياح ١٩٥٦ فى المجر وبولندا كان ينبىء بكارثة على وشك الوقوع . ورغم المحاولات التى بذلتها البيروقراطيات الشيوعية لخلق شكل من أشكال اجماع الراى الدولى الا أن الشعوب اعتبرتهم ممثلين للنموذج الستالينى المستبد . وفى تشيكوسلوفاكيا أبخرط الرئيس أنتونين توفتنى نفسه فى الاعداد للمذابح وعارض دائماً رد الاعتبار لهؤلاء الذين عانوا من جراء الارهاب ، وبعد رد اعتبار رودلف سلنسكى ومتهمين آخرين رسمياً وكانت احدى المحاكمات الصورية فى عام ١٩٥٢ قد ادانتهم ، رفض توفتنى اعلان ادانته الكاملة لتلك المذابح كما قاطع كل الحركات التى ترمى الى اصلاح البنى السياسية والاقتصادية المفرطة المركزية .

لقد عم البلاد ركود اقتصادى وجمود سياسى وهبطت السروح

المعنوية للشعب وتعاليت الأصوات داخل وخارج الحزب الشيوعي لمقاطعة النموذج الستاليني .

وأقيمت الحوارات الثقافية فى أوائل الستينيات والتي هاجمت ادعاء الحزب بحقه فى السلطة وتحدى المفكرون الحزب من خلال الحلقات الدراسية التى عقدت فى ليبلسى Liblice (٣) فى عام ١٩٦٣ لمناقشة أعمال Franz Kafka كما أثاروا كثيراً من علامات الاستفهام حول عقيدة الواقعية الاشتراكية التى نظرت للفن باعتباره تابعاً للقيم السياسية . واعتبر المفكرون قصص كافكا الرمزية التى تحكى عن إنسان تحول الى وحش Leviathan (٣) بيروقراطى حفز ، أرهاصات تحذير من الديكتاتوريات الشمولية الجديدة ، وقال ادوارد جولد ستركر Eduard Gold Stucker رئيس اتحاد الكتاب التشيكوسلوفاكى أثناء ربيع براغ Prague Spring أن مؤلف « مستعمرة الأثفال الشائكة The Penal colony » يلعب دوراً رئيسياً فى الصراع ضد العزلة التى تفرضها الستالينية وضد الحرب الباردة (٤) . وفى تعليقه على انشقاق المفكرين ادان نوفتنى صعود موجة التعديلية باعتبارها خطراً حقيقياً على الاشتراكية التشيكوسلوفاكية . وفى صيف ١٩٦٧ وفى مؤتمر اتحاد الكتاب ، هاجم المفكرون الرقابة التى يفرضها الحزب على الإبداع الثقافى ، ومن بين معارضى نظام نوفتنى كان هناك عدد كبير من الكتاب الشيوعيين السابقين الذين تحرروا من الأكاذيب والادعاءات الرسمية، ومنهم لودفك فاكوليك Ludvik Vaculik الذى القى خطبة مؤثرة معارض فيها القيود التى يفرضها النظام على ممارسة الحقوق الإنسانية الأساسية فقال :

« ان الموقف الثقافى - السياسى لا يجعلنى أشعر بالأمن والأمان ولأن النظام يحاول أن يجبرنا الى حلبة الصراع : اننى كمواطن لا أشعر باننى فى مأمن بل أشعر اننى معرض دائماً للمصائب وأشعر ان هذا النوع من اللقاءات لن يتكرر ثانية - أجب ان أكون ممثلاً ؟ لا يمكن . اننى لا أرى أية ضمانات مؤكدة . صحيح ان الأوضاع أصبحت أفضل فى المحاكم ، ولكن القضاة أنفسهم لا يشعرون بأن الضمانات كافية . اننى أرى العمل فى مكتب المدعى العام يتحسن ولكن هل لدى أى منا ضمانات وهل نشعر بالأمان ؟ سأكون سعيداً اذا أجريت معهم حواراً لينشر فى المجلة ولكن هل تعتقد أنه سينشر ؟ اننى لا أخشى مقابلة المدعى العام ولن أجيبه عن أسئلته ، قلم أصدر حكماً على ، وشهود سمعة أناس لم يحصلوا عن حقوقهم الأساسية بوصفها حقوقاً طبيعية واسم تعارضى المجالس القومية عودتهم لموطنهم ؟ الا ان ذلك لن ينشر . لماذا

لا يرد اعتبار هؤلاء المضطهدين ؟ لماذا لا يتوقفون عن اضطهادهم للمواطنين ؟ لماذا نساومهم بالمال ؟ لماذا لا نستطيع أن نعيش حيثما نريد ؟ لماذا لا يستطيع مصمموا الأزياء أن يذهبوا لفيينا Vienna و يقيموا فيها ثلاث سنوات ، ولماذا لا يذهب عمال الطباعة لباريس Paris ولا توجه لهم تهمة الاجرام اذا ما عادوا لأوطانهم ؟ » .

وبعد ادانة فاكبولك لمطالبة نظام نوفتنى فيما يتعلق بالتخلى التام عن الممارسات الستالينية أعلن رفضه لادعاء الحزب بتحقيق التقدم الاقتصادى ليوجوسلافيا خلال عشرين عاما من الاشتراكية وسجل جميع المشكلات الانسانية فى تشيكوسلوفاكيا وأهمها مشكلات البنية الأساسية التى تعجز عن تقديمها الأنظمة اللا ديمقراطية مثل الحاجة الى الاحساس بقيمة المجتمع الكاملة والاحساس بأن القرارات السياسية تخضع لمعايير أخلاقية والاحساس بقيمة العمل مهما كان ضئيلا ، والحاجة للثقة المتبادلة بين الناس ، والحاجة لمتعة كل الناس بالعلم والتربية فقال :

« وكنت أود الا أقول أن جهودنا تذهب سدى اذ لا شئ مما أطلب به له قيمة عندهم - بل ان قيمته فى أنه تحذير مسبق . وحتى فى هذه الحالة فان المعرفة الانسانية سوف تتزايد وتتقدم . ولكن هل كان ضروريا أن يتحول بلد عرف على وجه الدقة المخاطر التى تهدد ثقافته وقرائه لمجرد اداة كى يحصل على هذا النوع من المعرفة ؟ » .

وبعد هذه الخطبة لم يكن فى مقدور أحد منع الصراع الذى وقع بين مناصرى الحزب والفكرين ، فقام النظام بطرد فاكبولك وعدد من الكتاب الذين يشاركونه الرأى من الحزب الشيوعى ، كما نظم حملات لتشويه صورة المفكرين النقاد وحاول تعبئة العمال ضد آرائهم الانشاقية الا ان ذلك لم يسفر سوى عن تعبئة الطلاب والجامعيين ضد السلطة .

ان تعالى النظام على السلافيين وتعامله معهم بطريقة مزريسة أسفر أيضا عن مزيد من الازمات ، وازداد الصراع بين المفكرين وأعضاء حكومة الحزب البروقراطية فى سلوفاكيا للحصول على مزيد من الاستقلالية لسلوفاكيا فى علاقتها مع حكومة براغ . وكان السكرتير الأول للحزب الشيوعى السلافى وهو الكسندر دوبتشك الذى تخرج فى مدرسة الحزب العليا High Party School فى موسكو والمعروف بنزعاته الخروتشوفية (٦) من بين الذين تورطوا فى هذه الحركة .

وأيد جوساف هوساك Gustave Husak هو الآخر الحقوق السلافية داخل الجمهورية الاتحادية كما نزع هوساك المحامي المحترف والشيوعي المتمرس عصيان عام ١٩٤٤ السلافى المسلح المعادى للنازية ، ووجهت اليه فى احدى المكائد الستالينية فى اوائل الخمسينيات نهمة القومية مما جعله يبدو نصيرا للحركة الاصلاحية .

واستمر الصراع السياسى فى القمة فيما بين اكتوبر ١٩٦٧ ويناير ١٩٦٨ يتزايد حدة فلم يعد أعضاء اللجنة المركزية يدعمون نوفتنى لأنهم اعتبروه متهمًا ومسئولا رئيسيا عن الكارثة التى أصابت البلد مما جعل نوفتنى ناشد برجنييف مطالبا بالدعم السوفينى المباشر لنظامه . وبعد زيارة قصيرة لبراغ أدرك السكرتر العام السوفيتى أن موقف نوفتنى ضعيف جداً ويتعذر الدفاع عنه ومن ثم وجد أن الحل الوحيد للأزمة هو ابعاده الفورى ، وفى يناير عزل الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى فى جلسة اللجنة المركزية الكاملة الأعضاء نوفتنى من منصبه كسكرير أول وحل محله الكسندر دوبتشيك الزعيم السلافى الذى تصدى سسلطة نوفتنى فى مناسبات سابقة . وفى غضون أسابيع قليلة بدا واضحا أن برنامج الزعيم الجديد سوف يتجاوز حدود علاج اهتراءات النظام . وأجبر نوفتنى فى مارس على الاستقالة من منصبه كرئيس تشيكوسلوفاكيا ، وخلفه لودفك سفوبودا Sudvik Svoboda أحد جنرالات الجيش المجلين وكان قد استبعد فى السابق من قبل الستالينين .

وكان جوزيف سمركوفسكى Josef Smrkovesky الذى انتخب رئيساً لمجلس النواب القومى National Assembly من بين ضحايا المحاكمات الصورية . واستبدل دوبتشيك الشيوعيين المتشددين فى اللجنة التنفيذية بحزبين آخرين مقربين له .

ولم يكن هدف القيادة الجديدة ازالة النظام القائم بل جعله أكثر عصرية وفاعلية .

وطرح المصلحون الشيوعيون فى أبريل ١٩٦٨ وثيقة مهمة هى « برنامج العمل » التى عجز فيها دوبتشيك عن اقتناعه بالأوهام الخاصة بإمكانية تعديل النظام الاشتراكى وبأن النظام المركزى يمكن أن يكون فعالاً وعملياً . ورغم أن هذا البرنامج أبقى على التزام الشيوعيين التشيكوسلوفاكيين بالماركسية اللينينية الا أنه أكد على ضرورة توجيه النظام نحو الديمقراطية، وضرورة التخلّى عن أسلوب الأواصر الديكتاتورية وتعهّد باحترام رأى الشعب وتنفيذه وبالبعد عن سياسة القمع ؛

وتمسك بالشرعية كأساس جوهري وضروري لاقامة كيان سياسي متعاف . وتضمنت الوثيقة التي سميت « طريق تشيكوسلوفاكيا للاشتراكية » النقاط التالية :

١ — تقديم ضمانات جديدة لحرية الرأي والصحافة والجمعيات والممارسات الدينية .

٢ — اقرار قوانين انتخابية تسمح للمرشحين بخيارات أوسع والاعتراف بأربعة أحزاب غير شيوعية شريطة توحيدها في جبهة قومية يسيطر عليها الشيوعيون .

٣ — الحد من الامتيازات الممنوحة للحزب الشيوعي في تعاملاته مع البرلمان والحكومة .

٤ — اجراء اصلاحات اقتصادية كبيرة لتقوية الاستقلال الذاتي للمؤسسات التجارية ، والسماح ثانية باقامة عدد محدود من المشروعات التجارية الخاصة ، وتوفير العملة الصعبة ، وزيادة التبادل التجاري مع الغرب .

٥ — قضاء مستقل .

٦ — وضع فيدرالى للسلوفاك .

٧ — مؤسسة جديدة تمارس عملها بحلول نهاية عام ١٩٦٥ .

لقد كان البرنامج نتاج مصالحة تمت بين المصلحين الراديكاليين وعصبة المحافظين داخل مؤسسة الحزب ، وكانت بعض افكاره واعدة وبعضها الآخر تكرارا بحثا للشعارات اللينينية التي اقرط في استعمالها لحد جعل الدور القيادي للحزب دورا مبتذلا . وأمكن للبرنامج - في نوجه العام - أن يوضع موضع التنفيذ من قبل ممثلى الجناح الديمقراطي وواصلوا بحنهم عن نموذج جدب للاشتراكية .

لقد كانت محاولة للتحكم في دفعة الحزب وابجاد مرفأ له لاعادة الصحة للمجتمع :

« ان هذه الاجراءات الأولية لا تعنى تنازلنا او تخلينا عن مثلنا - دعونا وشأننا مع معارضينا ، فنحن مؤمنون بأنهم سيأخذون بأيدينا للتخلص من الاعباء التي سببها تقليص وتشل فعالية النموذج الاشتراكي اننا نريد أن نعمل القوى الجديدة المتغلطة في الحياة الاشتراكية في حركة دائبة من أجل الوطن ومن أجل مزيد من التحدى الفعال في سبيل

الأنظمة الاشتراكية وتقديم رؤى مستقبلية للعالم وتحقيق الاستفادة الكاملة من مزايا الاشتراكية » .

لقد التزم البرلمان التزاما عميقا بالمثل الاشتراكية ولم تبد القيادة الجديدة أى استعداد للتورط فى مقاطعة شاملة للنموذج السوفيتى للاشتراكية (٧) . وتمت الموافقة على رد الاعتبار لكثيرين من ضحايا القمع الستالينى وسمح لهم بتنظيم جمعياتهم ونواديهم . لقد كان البرنامج حركة اصلاح قام بها مجموعة من الشيوعيين الناقمين على الاداء الاقتصادى الرديء وعلى ما اتسم به حكم نوفتنى من اعتلال اجتماعى . ونظرا لتطور هذه الحركة واستعادة مجموعات اجتماعية نشاطها الذى يدافع عن الأفكار الإصلاحية ، فقد شجب انصار المجتمع المدنى التشيكي والسلافى الصاعد الهامش الضيق الذى سمحت به الاستراتيجية الرسمية من أجل الاصلاح والتجديد .

لقد أدرك دويتشيك ومعاونوه أن الاشتراكية الحقيقية لا يمكن تحقيقها فى عياب الديمقراطية فسمحوا بتدفق المبادرات المستقلة من القاعدة الجماهيرية بما فى ذلك تكوين جماعات واتحادات غير شيوعية أو حتى معادية لها .

ان قوة الحركة التنويرية لاجلال الديمقراطية اذهلت المفكرين التشيكوسلوفاك الذين اتخذوا - دون موارد - جانب أكثر إجنحة القيادة الشيوعية راديكالية . وفى ذات الوقت فشلت المراكز القيادية للحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى فى ايجاد صيغة متكاملة لحل العضلات الأساسية التى تعاني منها البلاد . وجنح البعض فى اللجنة التنفيذية الدائمة للحزب نحو التعجيل بالاصلاحات الشاملة والجريئة ، بينما تخوف آخرون من مخاطرة فقدان سلطتهم السياسية اذا طبقوا النظام التعددى ومن صعد نجم قوى الجناح اليمينى والحوالى على دويتشيك أن يعقد سياساته الإصلاحية . وعلى أية حال ، فان غالبية الحزب أيدت الأفكار التى تبناها دويتشيك وكانوا بين خيارين :

اما تطبيق اشتراكية ذات وجه انسانى أو العودة الى النظام الستالينى الخائق للحريات .

ان اهتمام القوى الأرثوذكسية الاهلية بما يقوم به الحزب من مبادرات فى اتجاه الاصلاحات اطلقت العنان لحركة مدنية دائبة ضد الشيوعية وحظلت بمشاركة وتشجيع الزعماء السوفيتين ، أحلافهم . وفى مارس ١٩٦٨ عقد مؤتمر قمة فى درسدن Dresden بالمانيا الشرقية

حيث عبر كل الزعماء الشيوعيين بحلف وأرسو عن قلقهم بصدد مجريات الأحداث في تشيكوسلوفاكيا . وفى الشهر التالى وانثناء اجتماع جمع بين دويتشيك وبرجنيف ، حاول الزعيم التشيكوسلوفاكى أن يهدىء من المخاوف السوفيتية المتعلقة بخطر « الثورة المضادة » فى بلده . وعبر برجنيف عن انتقاده لاصلاحات دويتشيك واستيائه من الحكومات الشيوعية ليس فى الاتحاد السوفيتى ولكن فى الاقطار الأخرى بالكتلة وقال ان السوفيتيين لا يمكن أن يتهاونوا مع الطموح التشيكوسلوفاكى لاقامة نموذج بديل ومجتمع يعامل فيه الفرد كإنسان وليس كأداة لتنفيذ خطط الحزب .

لقد دخل العالم الشيوعى مرحلة جديدة من الازمات والاضطرابات بسبب تعمق الخلاف بين المصلحين التشيكوسلوفاكيين وزعماء حلف وارسو .

وعبر اليوجوسلافيون والرومانيون علانية عن رفضهم وادانتهم للتدخل الأجنبى لقمع مسيرة الديمقراطية فى تشيكوسلوفاكيا . وبعثت الأحزاب اللاتشيوعية فى فرنسا وإيطاليا وإسبانيا بانذارات مشابهة لموسكو . وفى الفترة التى حوى فيها وطيس المناظرات حول معنى الدولية الماركسية وحول حق كل حزب شيوعى فى تبنى خط سياسى يختاره ولا يفرض عليه فان العديد من الأحزاب الشيوعية الغربية طرحت برنامجها السياسى ، وتحدثت الشيوعية الأوربية حق الكرملين فى املاء خطه على الأحزاب الأخرى وأصرت على عدم امكانية الفصل فيما بين الشيوعية والديمقراطية التعددية (٨) ، وحظى رفض التشيكوسلوفاكيين للنموذج السوفيتى لجموده ولافراطه فى المركزية ولتشكله فى أى مبادرات — بقبول عدد من الأحزاب الشيوعية الغربية ايمانا منها بأن الحاجة أصبحت ملحة للتخلى عن العقيدة اللينينية الخاصة بدكتاتورية البروليتاريا . وعلى الطرف النقيض سعى الستالينيون فى الصين واليابان لعودة النظام البائد واتهموا ربيع براغ بأنه محاولة لافساح الطريق للامبريالية وفى نفس الوقت عارضوا ادعاءات الاتحاد السوفيتى الامبريالية لفرض هيمنة على شرق أوروبا . ورغم ما يحمله الرئيس الصينى ماوتسى تونج من عداوة للمنهج التعديلى الذى يتبناه دويتشيك ، الا أنه انتقد السوفيتيين لاستخدامهم طرقا امبريالية فى التعامل مع أحلافهم وأطلق على برجنيف ورفاقه اسم قياصرة الكرملين .

ولم يسفر النقد السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا سوى عن تحويل ' الاصلاحيين لرايديكاليين . واستمرت طبقة الانتلجنسيا فى ممارسة

ضغطها على القيادة المترددة للتوسع فى التعددية السياسية ولتقديم ضمانات كافية للتخلص من الطرائق الستالينية القمعية بلا رجعة . وبعد ان دعا جورباتشوف Gorbachev لسياسة المصارحة (الجلاسونست) رفض مصلحو براغ مبدأ « ممارسة السياسة خلف الكواليس » . وانخرط الزعماء التشيكوسلوفاكيون بدءا بدوبتشيك السكرتير الأول وسهركونسكى فى حوار مباشر مع ممثلى الراى العام . وفى غضون شهر استتظ المجتمع التشيكوسلوفاكى من سباته وأصبح المتحكم فى عملية صنع القرار . واكتشفت الجماهير قدرتها على لعب دور أساسى فى تغيير الجريبات السياسية ولم تعد مشاركة الجماهير مجرد شعار فارغ . وفى يونيو ١٩٦٨ نشر بيان بعنوان « ألفا كلمة للعمال والفلاحين والعلماء والفنانين وللجميع » فى الجريدة الأسبوعية الجريئة لاتحاد الكتاب « لترانى لستى أو قائمة الأدب Literanilistى » وقد قام لودفك ماكبولك بصياغته بأحكام بحيث يرمز لرفض منطق القبول والاذعان وطالب بالانفصال عن أساليب الهيمنة السياسية والمنورة التى ينتهجها الاتحاد السوفيتى ، وطالب البيان بالتمجيل بعملية الديمقراطية والتخلص من الدوجماتيين فى قيادة الحزب كما طالب بالانتقال السريع للنظام المتعدد الأحزاب ، وقام سبعون من رموز الانتلجنسبا الليبرالية البارزة بتوقيع هذا البيان ثم دعم بتوقيعات أربعين ألف شخص ، وعبر البيان عن حالة عدم الرضا المتزايدة لبطء تنفيذ الإصلاحات وتردد السياسة الرسمية تجاه عملية التجديد ، وأسره الدجماتيون بوهيم الوثيقة باعتبارها « دعوة للثورة المضادة » ومعبرة بكل المعانى عن موقف متعسف ومتعصب . وعارض البيان فكرة الانتقام من هؤلاء الذين حكموا البلد لعقدين متتاليين ورفض أى استخدام للعنف ، بل على العكس فقد أعربت الغالبية العظمى من التشيكيين والسلافين من أملها فى إمكانية تحول الحزب الشيوعى الى قوة ديمقراطية حقيقية :-

((بداية ، اننا نعارض وجهة النظر ، التى تقول ان البعث الديمقراطى يمكن تحقيقه دون الشيوعيين او بمعاداتهم اذ يعد ذلك افتراء غير مبرر ، فللشيوعيين تنظيم جيد البناء ويجب علينا ان ندعم الجناح التقدمى بداخله . . . ان الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى فى حالة تاهب تام للمؤتمر الذى سينتخب اللجنة المركزية الجديدة . دعنا نأمل ان تكون هذه اللجنة افضل من الحزب الحالى ، واذا قال الحزب الشيوعى الآن بأنه يريد الحصول على الحكم فى المستقبل مستندا لثقة المواطنين وليس للقوة ، فدعنا نصدق ذلك طالما نؤمن بالجماهير التى تبعت الآن بمفوضيتها لحضور مؤتمرات المقاطعات والمؤتمرات الإقليمية)) (٩) +

ان الخلاف الرئيسى فى الصراع السياسى داخل الحلف الشيوعى اليوجوسلافى تمحور حول طبيعة الزعامة المستقبلية وحول المخاوف من المحافظين (وأنصارهم من السوفيتيين) حتى ان مؤتمرا الحزب الأربعين الذى بدأ أعماله فى صيف ١٩٦٨ حاول التخلص منهم والتصديق على برنامج « الاشتراكية ذات الوجه الانسانى » الا ان دويتشيك رفض ذلك واضعا فى اعتباره التهديدات السوفيتية المتزايدة كما رفض الاذعان للقوة الستالينية الجديدة التى اعتبرت البيان « مضادا للثورة » .

وتفاهم السخط السوفيتى لتهاون دويتشيك فى اتخاذ اجراءات حاسمة لوقف عملية الليبرالية فقام خروتشوف بممارسة ضغوطه على الزعماء الشيوعيين فى كل من بولندا وألمانيا الشرقية . ان فكرة انتقال عدوى الإصلاح الذى اجتاحت يوجوسلافيا الى البلدان الأخرى أثارت دعر زعمائها . وفى شهر يوليو عقد حلف وارسو اجتماعا فى العاصمة البولندية وفى غياب زعماء تشيكوسلوفاكيا ورومانيا . ووجه المؤتمر خطابا منذرا للزعماء التشيكوسلوفاكيين يطالبهم باقتلاع نبتة الثورة المضادة « من جذورها وتطهير وسائل الاعلام من العناصر المعادية للاستالينية » .

وأوضح الخطاب الذى يعد بكل المقاييس انذاراً أن التمسك بعدم التدخل فى الشؤون الداخلية لأى من البلدان الشيوعية من وجهة نظر الكرملين لا يعد سبأى المفعول أو ملزما طالما القضية تتعلق بمستقبل الاشتراكية فى واحدة من البلدان التابعة .

وأصر السوفيتيون وأحلافهم على أن « الحفاظ على مكتسبات الشعب من الثورة » لا يعد قضية داخلية تخص زعماء تشيكوسلوفاكيا ، بل تخص المجتمع الاشتراكى كله وهو نفس السبب الذى استخدموه لتبرير تدخلهم العسكرى فى المجر عام ١٩٥٦ .

« ليس لدينا أية فية للتدخل فى [الشؤون] الداخلية لحزبك أو بلدك ، ولا نأسوى انتهاك مبادئ الاحترام والاستقلال والمساواة فى العلاقات التى تربط بين الأحزاب الشيوعية والبلدان الاشتراكية » . وفى نفس الوقت لا يمكن أن نقبل وجود قوى عدائية تدفع البلد بعيدا عن طريق الاشتراكية وتهدد تشيكوسلوفاكيا الصاعدة لتخرج عن قطيع البلدان الاشتراكية . وهذا يعنى أن المسألة ليست شأنك وحدك ، أنها شأن كل الأحزاب الشيوعية والعمالية والبلدان التى يجمعها التعاون ، الصداقة » (١٠) .

وهكذا حاول زعماء حلف وارسو ان يجبروا دويتشيك ومعاونيه على انتهاء عملية الاصلاح والتخلي عن طموحهم لتطبيق شكل جديد ومختلف للاشتراكية ولوحوا لهم بنذير التدخل العسكري . ورفض دويتشيك الاذعان لأمر الكرملين، ورفض التهديدات السوفيتية وشن هجوما مضادا فى خطاب بثته محطات التليفزيون فى الثامن عشر من يوليو ودافع فيه عن خيارات حزبه واحتج على اتهمه بالانتهازية والارتدادية :

((اخيراً وبعد سنوات عديدة ، أصبح المناخ فى بلدنا يتيح لكل شخص ان يعبر عن افكاره علانية بلا خوف ويعزز برأيه ويقرر بنفسه اذا كانت قضية هذا البلد وقضية الاشتراكية هى قضيتنا جميعاً ويستعيد من خلال سياسة واضحة وأمينّة وتطهير مخلص وأمين لمخلفات الماضى الكريهة ثقته بحزبنا ، ومن ثم نقول بهدوء ولكن باصرار (اننا) ندرك الآن ما هو الصواب فلا يوجد بديل آخر أمام هذا الشعب سوى تعميق التغيرات الديمقراطية والاشتراكية فى مجتمعه . اننا لا نرغب فى التخلي عن أى من مبادئ برنامج العمل مهما كانت ان الحزب الشيوعى يعتمد على الدعم الثورى للشعب . ان دورنا فى حكم هذا المجتمع لن يكون ارشاديا ولكننا سنخدم تطوره الحر التقدمى الاشتراكي ولن ندافع عن حقنا فى السلطة باعطاء الاوامر ولكن بجهد اعضائنا ويعدل افكارنا)) (١١) .

لقد كان صداما بين وجهتى نظر سياسيتين أى بين التشييكوسلوفاكيين باصرارهم على الاشتراكية ذات البعد الانسانى وزعماء بقية دول الكتلة الذين اهتموا بالحفاظ على الأوضاع القائمة ، ومن ثم نظروا لتجربة دويتشيك من أجل الديمقراطية نظرة مفعمّة بالرغبة .

ان الزعماء السوفيتيين كستالينيين حقيقيين لم يتعاملوا مع المواطنين باعتبارهم ممثلين سياسيين مستقلين اذ رأوا أن ائتلاف الحزب لا بد أن يبقى على امتلاكه الكامل والمطلق للهيمنة على الحكم وتعتبر أية محاولة لاقامة مبدأ للسلطة يختلف عن مبادئهم خاصة ذلك الذى يكرس سيادة الشعب ، محاولة معادية تهدف الى التخريب .

وبعد مرور عشرين عاما على الاجهاض الوحشى لربيع براغ لخص انطونين ليهلم Antonin Liehl وهو واحد من أكثر المبدعين الفاعلين فى حركة الاصلاح معنى المحاولة التى بذلتها تشييكوسلوفاكيا لاعادة النظر فى الرؤية المتحجرة للاشتراكية وطرح نموذج بديل يطالب بمجتمع جديد يسود فيه احترام الحقوق الخاصة لأعضائه :

« ان المحاولة التشيكوسلوفاكية لاصلاح الاشتراكية الواقعية كانت محاولة لايجاد اسباب بناءة تفسر انهيار النظام الستاليني في مجموعه ، ولخلق نموذج لمجتمع مدنى يعيد تجديد واصلاح نفسه بنفسه دون كلل . وكان من الممكن ان تسفر عن تحول تدريجى من الامبراطورية السوفيتية الى كومنولث تربطه المصالح المتبادلة خاصة المصالح الاقتصادية واقامة سوق واسعة مشتركة بينها بعيدة عن الاكراه العسكرى والسياسى » (١٢) .

ان البيروقراطيين فى حلف وارسو اعتبروا حلم التشيكيين والسلافيين والماركسيين الانسانيين كابوسا لانه كان المحاولة الاولى من نوعها لتحديد اهداف الاشتراكية والاهتمام بقضايا العزة والحرية الانسانية ، وادركوا ان تفشى اغراءات الاصلاح فى الاقطار الاخرى سيقوض هيمنة الحزب على المجتمع . لقد فشل دويتشيك ومؤيدوه فى فهم الطبيعة الشمولية للنظام السوفيتى واعتقدوا واهمين ان برجنياف سيقنع بمعتقداتهم الشيوعية الاصلية .

وبناء عليه فان ربيع براغ قد ضرب بجذوره فى تربة من الاوهام وآمن زعماءه بان الاصلاح يمكن ان يولد من رحم النظام القائم ودون تغييره ، وان الحصول على الدعم السوفيتى لمثل هذه المحاولات ممكن . وفيما بعد ادرك زدnek Mylnar سكرتير اللجنة المركزية السابق والمنظر الايديولوجى فى حكم دويتشيك قصور فهم المجموعة الاصلاحية للبيئة السياسية التى يعملون فيها :

« لقد اساعت زعامة الحزب تقدير ثقلها فى الكتلة السوفيتية . ان الاتحاد السوفيتى لديه فكرة عما يجرى من اصلاح ولكنه لم يتخيل ان يصل التصدع فى اسوا الاحوال لما وصل اليه فى تشيكوسلوفاكيا . وفى هذه الحالة ليس امام المرء سوى التصرف مثلما يفعل كادار فى المجر وعندئذ سيكتشف انه عمل لا هدف يرمى من ورائه . وتوهم زعماء الحزب ان عشرين عاما من الشمولية قد افسحت المجال لعملية الديمقراطية ، ومن ثم تمتعوا بدعم جماهيرى هائل وهو ما كانوا يهدفون اليه على الأرجح ليضمنوا قبول الشعب لكل ما يقومون به . واخيرا لقد توهم الزعماء انهم قادرون على تخطى حدود معينة شريطة وجود الدعم الجماهيرى » (١٣) .

وبمعنى آخر ، لقد تورط دويتشيك وأهوانه فى اعمال تجنح الى عاقبة النظام الاستبدادى الموجود وتقويض السيادة السوفيتية فى الكتلة ، الا انهم لم يقدروا مدى جدية التهديد السوفيتى باتخاذ رد فعل

مضاد ، وهكذا فشل الدبشيكويون فى تقدير الهوة بين حلمهم الناهض بتجديد الاشتراكية والسياسة النفعية التى ينتهجها الاتحاد السوفيتى فى العلاقات الدولية والشئون الأيديولوجية . ورأى السوفيت أن الماركسية اللينينية أصبحت منذ أمد بعيد وهما وذلك بسبب البيروقراطية ولم تحاول القيادات الحزبية فى المجتمعات ذات الطراز السوفيتى تجريب الإصلاحات السياسية والاقتصادية الجريئة : ويرجع ذلك الى القمع الذى مارسه خروتشوف فى أكتوبر ١٩٦٤ ضد هذه المحاولات الإصلاحية حتى لا تؤدي « لقلقلة النظام » .

ولم يسمح الزعماء السوفيتيون بعودة الحركة المضادة للستالينية فى أى من البلدان التابعة . وتوقعت القيادات السوفيتية من الأحزاب الشيوعية المحلية أن تسهر على الاستقرار الداخلى وتقمع أى اتجاهات ثاقدة . وكتب ايفان سفيثاك (١٤) الفيلسوف المناضل عن القطيعة مع النظام الشيوعى حيث قال :

« إن أية ديكتاتورية بيروقراطية ينهار كيانها فور توقف النظام عن ممارسة القمع فى المجال الاقتصادى أو السياسى أو الإعلامى . وهذا يعمل امتناع الديكتاتورية البيروقراطية التام عن مناصرة أى نوع من الحريات أو حقوق الإنسان أو افساح المجال لازدهار الاقتصاد . أن مهمة تحول الديكتاتورية التى تحتقر الدوافع النبيلة الى الديمقراطية مهمة مستحيلة .

أن المنظومة تقام كلها ثم تنهار كلها . ومنذ أن رفض الشيوعيون التشيكوسلوفاكيون الاستسلام للأمر السوفيتى لتحجيم الاعلام المستقل اتسمت العلاقات بين موسكو وبراغ بالتوتر الدائم لأن برجنيف رأى أن اعلان الحقائق يمثل قبلة موقوته يجب أن يتعامل معها الحلف أو يسقط ضحية لها . ولم ينتظر » (١٥) .

وأجريت خلال شهرى يوليو وأغسطس مفاوضات جديدة بين المكتب السباسبى السوفيتى واللجنة التنفيذية الشيوعية التشيكوسلوفاكية وتوصل الفريقان لاتفاق يضع نهاية للانتقادات والاتهامات التى يتبادلها الطرفان . وبعد ابرام الاتفاق عقدت قمة لحلف وارسو فى مدينة براتسلافا Bratislava ولم تحضرها رومانيا للمرة الثانية حيث ظهر مدى زيف الوحدة بين الدول الشيوعية . وتضمن التقرير الرسمى لقمة براتسلافا بعضا من العبارات السوفيتية التقليدية عن « الأعمال التخريبية للامبريالية » وأكد على أن البلدان الاشتراكية يجب عليها جميعا أن تفى باستمرار وثبات « بالقوانين العامة اللازمة

لبناء مجتمعات اشتراكية وذلك بتقوية الدور القيادي للطبقة العاملة وطلابها أي الحزب الشيوعي « (١٦) » .

وتوقع السوفيت أن يتصرف دويتشيك كشيوعي مطيع ، في مواجهة انتهاكهم لسيادة دولة تشيكوسلوفاكيا ، كما انخرطوا على الفور في تنظيم حملة ضد القوى الديمقراطية ووسائل إعلامها إلا أن مارد الديمقراطية كان قد خرج من القمقم فاستحوذ على الزعماء الاصلاحيين أن يتراجعوا وإلا فقدوا مصداقيتهم السياسية . واكتسب دويتشيك مكانته كزعيم قومي بسبب قدرته على مقاومة الضغوط السوفيتية لاعادة الرقابة على المطبوعات ولانتهاج اجراءات قمعية ضد تلك القوى التي يمنبرها الكرملين « نخريبية » . وفي نفس الوقت حاولت موسكو تعبئة القوى الدوجماتية في الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي على امل أن يقع انشقاق في اللجنة التنفيذية ويتنحى دويتشيك .

ولكن القوى المؤيدة للسوفيت كانت ضئيلة ولم تحظ الا بدعم ضعيف داخل البلاد وذلك لأن الدعم السوفيتي الرمزي لم يكن كافيا لاستعادة السيطرة البروقراطية . واحتلت قوات حلف وارسو تشيكوسلوفاكيا في ٢١ أغسطس ١٩٦٨ وحاول السوفيتيون فرض حكومة اختاروا أعضاءها بأنفسهم ، كما احتجزوا دويتشيك زعيم الحزب وأولدريش كيرنك Oldrich Cernik وزعماء اصلاحيين آخرين كرهائن ونقلوهم لوحدة عسكرية في الاتحاد السوفيتي . ولتبرير التدخل نشرت البرافدا Pravda جريدة الحزب الشيوعي افتتاحية تتهم فيها دويتشيك بتكوين جناح يميني وبأنه كون عصابة انتهازية قاموا باعمال غير مسئولة مما استلزم تدخلا و « مساعدة دولية » من حلف وارسو . ورفض لودفك سفوبودا رئيس الجمهورية الاشتراك في المفاوضات في غياب الزعماء الشرعيين للبلد، مما اضطر برجنيف أن يوافق على اعادة دويتشيك واعوانه لبلدهم . وسيطرت مئات الآلاف من القوات السوفيتية على المواقع الاستراتيجية في تشيكوسلوفاكيا . ولم يتوقع دويتشيك الكثير لانقاذ تجربة الديمقراطية في تشيكوسلوفاكيا ووجه برجنيف بعجرفة شديدة تهمة خيانة المبادئ الدولية الاشتراكية للزعماء التشيكوسلوفاكيين .

وفي براغ شجب مؤتمر الحزب التشيكوسلوفاكي الأربعون بعنف التدخل السوفيتي وطالبهم باطلاق سراح الزعماء المختطفين .

لقد شعر الزعماء بصدمة نفسية وعجزوا عن ايجاد مخرج للموقف المأساوي الذي حلقه الاحتلال العسكري لبلدهم ، مما جعل دويتشيك

ومعاونيه (باستثناء عضو اللجنة التنفيذية ورئيس الجبهة الوطنية د. فرانيسك كريجل (Dr. Frantisek Kriegel) يخضعون فى النهاية للمطالب السوفيتية . وقام برجنييف بأجراء محادثات فى موسكو واستخدم الزعيم السوفيتى أساليب مهينة ليحط من شأن دويتشيك ، وأوضح أن الكرملين لن يسمح بمزيد من البحث عن الاشتراكية ذات الوجه الانسانى . ورغم أن برجنييف كان مقدرا تماما ماقد يثيره التدخل السوفيتى من ثورة بين الأحزاب الديمقراطية والجماعات على الصعيد العالمى ، إلا أنه لم يخف احتقاره لكل من جرؤ على توجيه النقد للقرار السوفيتى . وبدأ دويتشيك كما لو كان مسلوب الإرادة ، عاجزا عن اتخاذ أى إجراء لمواجهة الكارثة . وأصبحت أقصى آماله ان يستطيع - عندما يعود لبراغ - الحفاظ على بعض أنجازاته .

وأدرك دويتشيك أنه لم يعد له أى دور فى السياسات التشيكوسلوفاكية فقد تحدثه العصبية الموالية للسوفيتيين داخل المكتب السياسى ، وفقد دويتشيك دعم انتلجنسيا البلد الناقدة وكذلك دعم حركة الطلاب . لقد أصبح دويتشيك بعد عزله وتغريبه كبش فداء لكل الانتهازيين الذين أرادوا أن يؤكدوا للكرملين دعمهم اللا محدود للتدخل السوفيتى ومن بينهم دجوستاف هوساك الشيوعى السلانى الذى كان واحداً من أكثر الفاعلين فى ربيع براغ ولكنه فضل نفيير موقفه بعد الغزو . وفى أبريل ١٩٦٩ أصبح هوساك زعيما للحزب وأطلق العنان لعملية تطهير واسعة النطاق لأكثر من نصف مليون عضو من بينهم دويتشيك وسمركوفسكى وكريجل Kriegel ، ومليينار .

ورغم أن عملية التدخل العسكرى فى تشيكوسلوفاكيا كان أقل دموية عن مثيلتها فى المجر إلا ان الموقف كان مأسويا . وقرر الآلاف من المبدعين التشيكوسلوفاكيين طلب اللجوء السياسى للخارج بينما ظل الآخرون يعانون من آثار سياسة « النظامية » أو استعادة النظام التى انتهجها هوساك . ولم يفلح السخط الشعبى المتفاقم أن يمنع الميلاد الجديد للبربرية ، وأصبح الشاعر الفرنسى الشبوعى لويز أراجون Louis Aragon الذى أعلن دعمه العبودى للسوفيتيين بما فى ذلك موافقته على قمع ١٩٥٦ للثورة المجرية وعلى التدخل السوفيتى فى تشيكوسلوفاكيا ووصف مذبحه الثقافة التشيكوسلوفاكية التى قام بها « النظاميون » بأنها « سلب الروح » . وأبدت الحكومة ما تعرضت له تشيكوسلوفاكيا من عقاب رادع لوقف الصراع « داخل العائلة الشيوعية » إلا أن القضية ، فى الواقع ، كانت قد تجاوزت نطاق « العائلة » ، فقد بلغ التدخل السوفيتى درجة القمع العنيف لأية

محاولة نبذل لاعادة تشييكوسلوفاكيا للثقافة الأوربية وللساحة السياسية - وعبر الروائي التشيكي ميلان كنديرا الذى اجبر على مغادرة البلاد بعد عدة سنوات بسبب انتهاكاته السياسية المتكررة حيث قال :

« ان الذى يكمن وراء ستار الدخان الذى يحجب المصطلحات السياسية كالثورة ، الثورة المضادة ، الاشتراكية ، الامبريالية وغيرها ، هو مجرد تبادل للأدوار بين مدنيين • مدنية الامبراطورية السوفيتية والتي غزت قطعة من الغرب ، قطعة من أوربا ، والأخرى المدنية التى تخص بلدان قلب أوربا الأخرى وهذا ما أسماه أرجون Argon » : بسلب الروح • وفى يوم ما سوف يكتب جامعو الأساطير السوفيتية عنهما باعتبارها فجر التاريخ الجديد الا اننى أراها (سواء أكنت على خطأ أم صواب) بداية لنهاية أوربا » (١٧) •

وبعد الغزو تخلت حملة الدعاية السوفيتية عن طريقها لتبرير حق حلف وارسو فى التدخل متى شعر الكرملين بأن « الفتوحات الاشتراكية » تترىص بها المخاطر • ونشرت اليرافدا فى السادس والعشرين من سبتمبر مقالة لسيرجى كوفاليف Sergei Kovalev خير الوثائق الخاصة بالشئون الدولية حيث وضع مبدأ السيادة المقيدة بتفاصيله الكاملة . ورأى كوفاليف :

« ان أهداف أية واحدة من الروابط فى النظام العالمى للاشتراكية يؤثر مباشرة على كل البلدان الاشتراكية ، وكل حزب شيوعى ليس مسئولا عن شعبه فقط وانما عن كل شعوب البلدان الاشتراكية وعن الحركة الشيوعية بكاملها » •

ان البراغدا استنتجت بعد تقديم هذا التفسير المبادئ السيادة الدولية والمساواة بين الدول الاشتراكية ، وهو التفسير الذى يستخدم مصالح الطبقة الحاكمة ، ان الاحتلال السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا يعد تحقيقا لحق البلد فى تقرير مصيره • ان قوات حلف وارسو ، كما ادعى الاتحاد السوفيتى :

« لم ندخل فى الشئون الداخلية للبلاد ، انهم حاربوا دفاعا عن حق الشعب التشييكوسلوفاكى فى تقرير مصيره ليس بالكلام ولكن بالعمل ، حاربوا دفاعا عن حق الشعب فى التفكير وتقرير مصيره بنفسه دون تدخل من جانب المعادين للثورة أو الدوجماتية التعديلية أو القومية » (١٨) •

واعتبر هذا اللون من الدجل الوقح الاحتلال الأجنبي مساعدة دولية ، ورأى التنديك واليوجوسلافيون ان اللغة المهترئة التي استخدمها المحتلون والنظاميون ترمز للقمع والعودة لتطبيق نوع جديد من السياسة الستالينية ان لم تكن هي ذاتها . واستغرق الشفاء من صدمة التدخل والعودة تدريجيا للصراع من أجل بناء مجتمع مدنى بعيدا عن المؤسسات والقيم الرسمية وقتا طويلا .

وبعد الاحتلال السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا والقمع المشين لحرمتها الاصلاحية تشكلت العلاقات بين أقطار حلف وارسو وفقا لتعريف موسكو للسيادة « المقيدة » . والقى برجنيف فى نوفمبر ١٩٦٨ خطابا فى وارسو حيث أكد من جديد على المبادئ الأساسية لهذا المذهب ورأى السكرتير العام السوفيتى أن الدول الشيوعية جميعا يجب أن تقبل دون اعتراض « المبادئ العامة للماركسية اللينينية » ، وأن أى انشقاق عن ارثوذكسية موسكو المعروفة ستعد خيانة لمبادئ الدولية الاشتراكية وللسوفيتيين الحق فى مجابهتها حتى لو اضطرت للجوء للقوة العسكرية . وبالطبع فان ماسمى بالنظامية فى تشيكوسلوفاكيا أعطى درسا لا ينسى لكل من تسول له نفسه محاولة تقليد تجربة دويتشيك ، وتلا الصدام مع ربيع براغ أن أطلقت موسكو العنان لحملة ضسارية لقمع أية محاولات اصلاحية سواء فى الاتحاد السوفيتى أو فى الكتلة . لقد عم الفساد فى كل مكان وفقد الشعب روح التضامن وأى شعور بالانفازل . وأثرت حالة التوتر العام على كل بلدان الكتلة الاشتراكية . ومن ثم تم شجب الانفصال مرة ثانية وأصبح التجمد السياسى والاقتصادى العلامة المميزة للثقافة السباسبية للستالينية الجديدة التى وصفت دائما بأنها برجينية Brezhnevism .

ولقد تعلم المبدعون النقاد فى أوروبا الشرقية درسا مهما من ربيع براغ اذ اكتشفوا أن اعتقادهم المثالى فى إمكانية اصلاح النظام الشيوعى من الداخل أثبت فشله كما أكدوا المعنى الحقيقى للمرونة التى يبدونها الكرملين تجاه أى نموذج بديل للشيوعية بعد الغزو السوفيتى لبلدهم . لقد كانوا شيوعيين مخلصين واعتقدوا ان الزعماء السوفيتيين متمسكون حقا بالاشتراكية كمثال ونموذج . لقد غاب عنهم أن برجنيف ومساعديه لم يكونوا سوى انتهازيين اشتركوا فى المذابح الستالينية ليضدهوا أستمزارهم فى وظائفهم ، ولم تكن مقولاتهم عن الحرية وحقوق الفرد سوى شعارات جوفاء . لقد تشكك المبدعون التشيكيون والسلافيون فى صحة المعتقدات الديمقراطية التى تتبناها القيادات الصربية (دويتشيك

واعوانه) عندها تأكدوا أن ربيع براغ بدأ كحركة استحدثها المصلحون في الحزب ، ولم تبتغ سوى التحديث في النظام الشيوعي وليس القضاء عليه .

إن صلابة مصلحي براغ لم تنجم عن اعتقادهم بأن المصدر الوحيد للشرعية السياسية هو هيمنة الشعب . إن الفكرة الأساسية بأن الحزب قادر على ضمان الانتقال للنمذية التي يجب اعتبارها مركزا لانبعاث نظام تعددي جعلت الشعب متشككا ومتربدا . وكان فيتسلاف هافيل كاتب المسرحيات والمقالات الشاب واحدا من هؤلاء المصلحين ولم يكن ينزى مثل ميلان كانديرا ولودفك فاكبولك وبافيل كهاوت Pavel Kohout للحزب الشيوعي ولم يؤمن أبداً بالأوهام الخاصة بإمكانية إصلاح النظام القائم من الداخل . وبعد مرور سنوات عدة ، طرح هافيل ملاحظاته التالية حول مدا الديمقراطية الذي تتناها الشيوعيون المصلحون بقيادة الكسندر دوبتشيك حيث قال :

« ما سبب هذه الشكوك وهذا التردد ؟ » ومبدئياً لا بد أن نعترف مبلغ الاضطراب الذي أصاب قيادة الحزب في مواجهة كل هذه التطورات . فجأة تمتع هؤلاء الناس بدعم وتأييد عاطفي جم ، أنه شيء لم يجربوا مثله من قبل لأن نوع الدعم الوحيد الذي عرفوه هو دعم يأتي من أعلى ، لقد انتهجوا لكل ما يجرى .

ومن ناحية أخرى فقد تضرعوا من النمو التلقائي المعزف للارادة الشعبية الطيبة . ومرة بعد أخرى فوجئوا بحماية الشعب إذ أن الاحداث التي جرت بدت مبهمه بل ومخيفة في بعض الأحيان . لقد تجاوزت حدود « المسموح » « والمقبول » . دعنا نذكر أن هؤلاء الناس كانوا بيروقراطيين حزبيين عاديين نشئوا على مبادئ الحزب ، شربوا من أوهامه وعاداته وأججافه مع شيء من رؤية منهجية صحيحة وخلفية اجتماعية أصيلة وأفق أرحب قليلا ، والاختلاف الوحيد هو أنهم فاقوا هؤلاء الذين احتكروا مراكزهم الطيبة ممارسة للفكر الحر » (١٩) .

لقد حملت حركة الإصلاح الشيوعية تناقضا فهاؤلاء الذين بدعوا الصراع بغية تأمل دقيق للوضع الراهن هم أنفسهم حصيلة ، ونتاج الأوضاع القائمة . إن ثورتهم ضد اللا منطقية وظلم الستالينية لم يكن تمردا ضد الوجود الماركسي لبناء « المجتمع الأفضل » ولكنها كانت جهدا يبذل لتصحيح انحرافات برنامج أول ما يتسم به العقلانية والانسانية . لقد كانوا أبناء النظام المخلصين ، ولم تكن معارضتهم للقيادة السابقة تحديا للشرعية الأخلاقية والنظرية للاشتراكية التي على الطراز

السوفيتي . ولم يجرؤ أحد حتى المصلح الراديكالي مثل أوتاسيك Ota sik - أحد الاقتصاديين الرئيسيين لربيع براغ - على تجاوز حدود المنطق السائد أو تصور الضرورة الملحة للتخلي عن الخطّة المركزية .

وكان ميلوفان جيلاس - المنشق اليوجوسلافي - كثيرا ما يشير الى الخطورة التي نطوى عليها الصناعة الشيوعية بأن النظام يمكن ان ترسي قواعده ويكون فاعلا بمجرد تقوية وتدعيم أجزائه الضعيفة والقضاء على الفساد ، والحقيقة أن كل جماهير بلدان الكتلة السوفيتية كانوا في حالة عداوة عميقة للنموذج الموجود ورفضوا فكرة استمراره . وعلى عكس دويتشيك وأصدقائه المثاليين ، فهم المناورون الفاسدون في الكرملين الواقع السياسي على نحو أفضل . لقد أدركوا ان تقديم أي تنازل لرفع شأن القوى الاجتماعية ودفعها للأمام سيؤدي في آخر الأمر لمزيد من المطالب الراديكالية . وفي الحقيقة لقد كان برجنيف محقا . لقد كان حتميا أن يسفر تنقيح مفهوم الاشتراكية وتجريدها من الشكل الستاليني المضاد عن سقوط كامل ومدو للنظام القائم ؟

ان الاحتفاظ بالمؤسسات القائمة دل ضمنا على حصانة العقيدة الرسمية وعدم خضوعها للتنفيذ ، وأن المساس بدعوى الحزب الشيوعي بالمعصومية من الخطأ حتى ولو كان هذا الادعاء مجرد تكرار اجباري للشعائر الجوفاء سوف تنجم عنه - لا محالة - آثار ونتائج مأساوية عاجلة . ان وجود الطبقة الحاكمة أمر لا يقبل الجدل لحفظ النظام ومعاملة الرعايا كعبيد خائعين ، لا كمواطنين أحرار لهم حقوق انسانية بعيداً عن مناخ التهديد والوعيد والرعب الذي يعيشون فيه كما كان وجودها ضرورة حتى لا يتمكن الرعايا من تنظيم أي احتجاجات أو عصيان مدني .

ومن ثم كان لزاما على البوليس السري ان يسهر على الهيمنة الديكتاتورية وان يقضى - باستمرار - على أي شكل من أشكال الانشقاق سواء داخل أو خارج الحزب الحاكم . ورغم أن البرجينية خفتت من وطأة الطريقة الستالينية الارهابية ، الا أنها استمرت في الاعتماد على نفس المؤسسات والتكتيك الذي يمنع أي شكل من أشكال التخثر لسخط الشعب فتتحول لحركات سياسية أصيلة . لقد حلل روبرت كونكويسست Ropert Conquest الطبيعة الثقافية السوفيتية تحت حكم برجنيف فقال :

« ان السلطة تتركز في يد بurocratic عنيت نفسها ، واعدت كل الترتيبات المؤسساتية لتحقيق أحد هدفين - اما ضمان استمرار هذه

الحقيقة أو أخفاؤها • ومن ثم كان هناك قوعان من المؤسسات في البلد ،
نوع تنقل من خلاله السلطة وآخر يلقي على أي نوع من السيادة
الشعبية ظلال تصحبها • وكلا النظامين اكتمل طورهما في زمن سنالين
وكلاهما يسير الأمور بنفس الطريقة وحتى اليوم « (٢٠) •

✽ التمرد والتصعيد في بولندا :

ان تحول برجنيف عندما جنح لمواكبة العصر وتحديث الستالينية
ترك آثاره على الشكل المميز للنظم التي على الطراز السوفيتي في
أوروبا الشرقية وهنا أيضا كان تيتو استثناء وذلك لعلاقته المتميزة مع
الكرملين ولما يتمتع به من استقلالية أرحب • وفي بلدان أوروبا الشرقية
الأخرى أدى رفض الإصلاحات وتشديد السيطرة الأيديولوجية والسياسية
الى فوضى عامة غامرة وارتباك تفشى بين أوساط المبدعين النقاد ،
واحساس عام بالعجز والوهن دب بين المعارضين للنظمة • وبدا ان
أوروبا الشرقية سوف تشفى من حالة الشلل الجزئي الذي أصابها
بسبب قيام أحلاف فاسدة وغير فعالة تفرض الوحدة على مجتمعات
يزداد سخطها ، وراحت المنطقة كلها في سبات عميق خلال حقبة
السبعينيات حيث انفرد الحكام بالسلطة دون ظهور تحد جاد من القاعدة
الشعبية • وبدا أن « التهدة » بأوروبا الشرقية التي كانت أحد
الأهداف الرئيسية لسياسة برجنيف الخارجية قد تحققت بالفعل الا ان
بولندا أثارت ثائرة ثائبة مشكلات وازمات في الكتلة في أواخر السبعينيات
والحقيقة أن البولنديين لم يشعروا بالرضا أبدا •

ففى عام ١٩٦٨ وقعت صدامات بين الطلاب الراديكاليين والأجهزة
القمعية • ورغم مضي الشيوعيين البولنديين في قمعهم لأية مبادرات
ثورية قد تأتي من القاعدة ومنع اقامة أى اتحاد بين العمال والمفكرين
الا انهم لم يستطيعوا منع تصاعد النقابات المشتعلة • ورغم الجهود
التي بذلها البوليس لكف أوامر أية حركة تهدف لاقعة هذا الاتحاد
بين العمال والمفكرين فان المدنيين البولنديين المدافعين عن الفعالية (٢١)
خططوا لاختراق القمع الرسمي وتدشين موجة مضادة للشمولية والتي
ستطيح في نهاية الأمر بالنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية •

ان تمرد البولنديين في نهاية الستينيات كان مقدمة للاختراق
التاريخي للجسد الشمولى في بولندا • لقد تخلى فلاديسلاف جومبلكا
الزعيم الذي أتى للسلطة في أكتوبر ١٩٥٦ كممثل للاتجاه الليبرالى داخل
الحزب الشيوعى عن البرنامج الأولى المعادى للستالينية ، وبدلا من

توسيع نطاق الإصلاحات التي وعد بها شرع في تمجيد مبدأ المحافظة على غرار الأسلوب البرجنيفى كما خطط للتخلص من المفكرين والنقاد . وانقسم حل من اصار جومينا والعصبة الراديحانية القوميہ الصاعدة برئاسة الجيرال متسلاف مونسار Mieczyslaw Moszar وزير الشئون الداخلية ورئيس اتحاد الفلاحين الشيوعيين السابق اثناء الحرب العالمية الثانية زعامة الحزب . استغل مونسار بعد توليه الحكم الاتجاه المعادى للأجانب واتهم جوميلكا بالدعة في تعامله مع « المؤامرة الامبريانية الصهيونية » المزعومة . وفى نفس الوقت استهدف مويذر مونسار تنفيذ اقتراحات خاصة بالإصلاحات السياسية والاقتصادية التي اعتبروها سببا في أرجحة قارب الاشتراكية . لقد تبنى مونسار ايدلوجية المعاداة السريعة للسامية مع الكره الشديد للبرالية والديمقراطية . ان المصدر الاساسى لهذه النظريات هو الأدب التقليدى المعادى للسامية والذي ظهر في الفترة التي توسطت الحرب على يد مؤيدى الحزب القومى الديمقراطى المفاالى في القومية والشوفينية ، ولأن المفكرين النقاد يرمزون لبحث الأمة عن المجتمع المفتوح ؛ فلم تدخر حملة مونسار أى جهد لتشويه صورة الانتلجنسيا الليبرالية البولندية (٢٢) . وقال البرفسور جيرسى هولتسسر Jerzyholzer المفكر الليبرالى الكاثوليكي في رصده لنوايا الحملة المعادية للسامية التي تناور الراى العام وذلك بتفجير خرافات معادية للأجانب :

« ان مارسى [١٩٦٨] يمثل مناورة محكمة استهدفت ضمير شرائع عريضة من الجماهير ، ولعبت معاداة السامية دورا جوهريا في هذه المناورة . ومنذ امد ادعو ان العداوة الصهيونية الخفية لرخاء بولندا هي المسئولة عما اصاب بولندا من سوء ظالع . ان المحاولات التي تقوم بها لنفس كل الفجاعات لأنفسنا وكل الاتهامات الممكنة لليهود هي مجرد حنق ليس [الا] على اليهود بل على الأمة البولندية كلها » (٢٣) .

لقد حاولت فصائل أخرى داخل الائتلاف الشيوعى الدفاع عن التهديلات التوافقية التكنوقراطية التي تهدف لتحسين النظام القائم اداريا . وكان ادوارد جبريك Edward Gierek آنذاك واحداً من زعماء هذه المجموعة ثم أصبح زعيم الحزب في المنطقة الصناعية في سيلسيا Silesia . وكان جوميلكا محاصراً بالعصبة الليبرالية التي تنضم لهم وبالمجموعة التكنوقراطية وبالعناصر القومية التي تتزايد حسدتها ومن ثم

حاول الإبقاء على المركزية واعتمد كثيرا على اتصالاته الشخصية مع الزعماء السوفيتيين .

ان الرجل الذي شجب بقوة « عبادة الفرد » في عام ١٩٥٦ هو نفسه الذي أعيد الآن الى مجموعة صناع القرار - واستلهمت قراراتهم من سنالين ومنها ما بنى على وجهات نظر شخصية بحته تحتقر وجهات نظر الآخرين ، وهو ما أسفر عن وقوع المأساة وعجلت بالمزيد من التفكك والفساد (٢٤) .

٢٤ - ان الاحوال الاقتصادية المتردية والاغترار للثقة في الزعماء أسفرا عن انفجار الازمة الجديدة في بولندا ومهد الاضطراب الاجتماعي لانهايار استراتيجية جوميلكا لتحقيق الاستقرار . وتشكلت حركة طلابية عارمة استلهمت قوتها من التفجرات التي وقعت في تشيكوسلوفاكيا ومن التيار العام الذي عم أوروبا للدفاع عن الفعالية المدنية .

ومن الكتابات الناقدة لعدد من المبدعين الكاثوليكين والماركسيين الجدد الذين ألقوا الضوء على التناقضات التي لا يمكن تجاهلها أو تجاهلها في النظام القائم . وكمثال على ذلك قام شابان ماركسيان في بداية عام ١٩٦٥ وهما جيسك كورن Jacek Kuron وكارول مودزلفسكى Karol Modzelewski بتوجيه خطاب مفتوح لحزب العمال البولندي المتحد - أى الحزب الشيوعى - وقيد احتجاجا على الديكتاتوريات البيروقراطية القائمة . لقد أثار الخطاب غضب جوميلكا حتى أنه وضع المفكرين فى المعتقل (٢٥) وطرد - كجزء من الحملة القمعية - أكثر فلاسفة بولندا الماركسيين شهرة لبيتسك كولاكفسكى من الحزب ومنعه من التدريس فى جامعة وارسو فترك بولندا وانتقل لتدريس الفلسفة فى إنجلترا والولايات المتحدة .

وفى ربيع عام ١٩٦٨ وصل الصراع بين الحزب والمفكرين ذروته . وفى مارس قررت الحكومة أن تمنع آدم ميتشيوتز Adam Michiewicz من عرض مسرحيته الكلاسيكية الوطنية « جددتنا حواء The Forebears Eve » وزعمت أن هذا العرض سيسفر عن اعلاء موجة المعادة للسوفياتية . واحتج اتحاد العمال على رقابة الحكومة واتهم الحكام بالجهل والفساد الأخلاقى . ونظم الطلاب فى جامعة وارسو احتجاجا الا أن النظام قرر ردعهم بأساليب ارهابية . وشن سفاحو البوليس السياسى والعساؤون المسلحون ، حملة على حصرم الجامعة ، نجم عنها اصابة واعتقال مئات من الطلبة . وبعد هذا التمرد ، اضرب طلاب المدارس والجامعات .

وعبر ستيفن كردينال فيتزنسكى Steven Cardinal Wyszynski

كبير رؤساء بولندا عن تخوفه من عواقب الطريقة الوحشية التي مارسنها الحكومة ضد احتجاج الطلاب المشروع الذي عبروا فيه عن شكواهم . ويعد تمرد الشباب الحركة الاجتماعية الواسعة النطاق الأولى من نوعها منذ أكتوبر عام ١٩٥٦ . ان المفكرين الذين أملوا ذات يوم ان يقوم الحزب الشيوعي باصلاحات حقيقية كانوا من بين المحرضين والمؤيدين لهذا التمرد وكانت حركة مارس ١٩٦٨ هي النهاية للأمال التي هفت الى اكتساب الحزب قدرة على التغيير الذاتى . لقد كان التمرد لجيل فقد هويته مع وجود القيم الفاسدة والمفسدة للطبقة الحاكمة . ورغم أن الطلاب حرصوا على اعلان التزامهم بالاشتراكية الانسانية الا أنهم أعلنوا عن نيتهم لتشكيل منظمة متحررة من سيطرة ورقابة الحزب .

واتهم كل من جيريك وموتسار جوميلكا « برضاه الشخصى عن حركة التمردية » وطالبوا بقمع يكون عبرة للحركة الديمقراطية . واستمر الصراع بين جوميلكا وموتسار للعام التالى ، فحاول الأول أن يعبئ العمال لصالحه بينما أكد الأخير على معاداته الضارية للأنشطة الابداعية والسامية . ومثلت هذه الصراعات عوائق تحول دون اقامة سياسة موحدة متسقة فى القمة . وأطلق الستالينيون الجدد الشوفينيون شبحا جديدا يثير دائما « العداوة الداخلية » .

وبدلا من تفهم الأسباب السياسية لاحتجاج الطلاب وجهت القيادة اللوم « للمؤامرة الامبريالية الصهيونية » الاسطورية التى اثارها الاضطراب والقتال . وهلل الاعلام الرسمى للقومية الرومانية ولم يكف عن استخدام صيغ مبتذلة تشابه ميلاتها النازية فى هجومهم على المفكرين النقاد والطلاب . لقد كانت الفرصة متاحة لتمرد ١٩٦٨ كى يحرز النصر وذلك لما أظهره من بطولة الا أن نقطة ضعفه الأساسية كانت فى طبيعته الابداعية البحتة وغياب التعاون بين زعماء الاحتجاج الطلابى وبين العمال الذين لم يدركوا أن الحملة القمعية الجديدة سوف تنال منهم أيضا .

وفهم العمال تمرد الطلاب بشكل أفضل حال تردى الأوضاع الاقتصادية وأدركوا أن العيش على الوعود الفضفاضة التى تجذلها الحكومة بهدف التسكين شئ لا يمكن احتماله .

وقام جوميلكا البيروقراطى الذى عزل نفسه تماما عن جمهور الحزب بمجموعة من الاجراءات التى لم تلق قبولا جماهيريا وذلك فى

ديسمبر ١٩٧٠ فرغ أسعار الطعام والوقود بنسبة ثلاثين في المئة .
وخرجت مسيرات عمالية كبيرة في المدن العمالية وبدأت في ميناء جدانسك
Gdansk .

ونجم عن تلك التظاهرات انهيار التوازن والتماسك في
قمة الحزب . ووصف جوميلكا ما أحدثه العمال من قلاقل بأنها «مضادة
للثورة » وأمر الجيش والبوليس بإطلاق النار على المتظاهرين .

ان الرجل الذى وصل للسلطة كرمز يمثل أحلام العمال من أجل
حياة أفضل ختم وظيفته السياسية كمستبد عنيف يقمع بروليتارية
بولندا المتمردة .

واستفادت عصبة التكنوقراط من فقدان جوميلكا لشعبيته وخططوا
للاطاحة به هو ومؤيديه . وفور انتخابه كسكرتير أول للحزب أدان
ادوارد جيريك الإجراءات الانتقامية وقامت بتعهد فريد من نوعه للحفاظ على
رباط وثيق مع طبقة العمال البولندية . ولسخرية الأقدار أن جيريك
نفسه أمر البوليس بعد عشرة أعوام عندما تفجر غضب العمال من جديد
في جدانسك بإطلاق النار على المضربين ، إلا أن تحرك البيروقراطية
الحزبية جاء هذه المرة متأخرا ، فعجزت عن قمع الحركة . لقد مد العمال
والمدعون جسور الروابط الفعلية بينهما والتي فسر غيابها نجاح الأعمال
القمعية السابقة . وبعد اضراب العمال عام ١٩٧٦ شكلت لجنة الدفاع
عن العمال KOR (Worker's Defense Committee) التي أسسها
المدافعون عن الحقوق المدنية والمفكرون النقاد بما فيهم الذين شاركوا في
حركة ١٩٦٨ (٢٦) . وعندما بدأ الاضراب في جدانسك في صيف ١٩٨٠ ولم
يكن العمال وحدهم فقد تلقوا الدعم السياسى الضرورى من لجنة الدفاع
عن العمال (KOR) ومن المناضلين الذين ذهبوا لجدانسك وأصبحوا
مستشارين للجنة الاضراب الداخلية بالمصنع . لقد قام المفكرون أمثال
تاديوتس مازوفسكى Tadeusz Mazowiecki وأدم متشنك وجاسيك كيرن
Jacek Kurn وبرونسلاف جيرميك Bronislaw Geremek بدور بارز
في المفاوضات التي تمت بين الحكومة والعمال .

لقد وقع اجتياح عام ١٩٨٠ في بولندا لأسباب عديدة منها تزايد
انحرافات قيادات الحزب الشيوعى وتدنى المستوى المعيشى للجماهير،
والتردى الاجتماعى العام والنضج السريع للمجتمع البولندى المدنى .
وانبغنت الهامات سياسية طال سباتها بسبب بطلان زعم الحزب
الشيوعى بضرورة تفرده بالسلطة السياسية ومن ثم لم يعه يلقى أى

دعم حتى من البيروقراطيين المحترفين • ان فقدان الحلف الحاكم لثقتهم
بنفسه كان مقدمة لتصاعد مبدأ الفعالية فيما بين العناصر الراديكالية
والانتلجنسيا وطبقة العمال • وعجزت قيادة جيريك لفسادها وعدم
فاعليتها أن نجابه مشكلات البلد الاجتماعية والاقتصادية ولم يقدم
تحقيرهم من شأن أزمة العمال أى علاجات للمصاعب والمحن المتزايدة
التي تواجهها بولندا (٢٧) •

هوامش الفصل الثالث

- (١) For excellent insights into the background of the conspiracy that eliminated Khrushchen, see Sergei Khrushchev, *on Khrushchev* (Boston : Little, Brown & Company, 1990).
- (٢) الإصلاحية تيار سياسي داخل الحركة العمالية ينفي ضرورة النضال الطبقي والثورة السياسية ويقف الى جانب التعاون بين الطبقات ويسعى الى جعل الرأسمالية مجتمع « الرخاء الشامل » بواسطة الإصلاحات التي تجرى في إطار الشرعية البرجوازية - (المترجمة)
- (٣) الليفيثان Leviathan . هو وحش بحري عملاق ولكن يطلق اسمه على الدولة ذات البيروقراطيات العتيقة - (المترجمة)
- (٤) See the interview with Eduard Goldstücker in Antonín Liehm, *Trois générations . Entretiens sur le phénomène culturel tchécoslovaque* (Paris : Gallimard, 1980), p. 212.
- (٥) See the extensive passages of Ludvík Vaculík's speech in Harry Schwarz, *Prague's 200 Days : The Struggle for Democracy in Czechoslovakia* (New York : Praeger, 1969), pp. 47-48.
- (٦) For Dubcek's political background, see William Showcross, *Dubcek Revised and Updated Edition* (New York : Simon & Schuster/Touchstone, 1990).
- (٧) Vojtech Mastny, *Czechoslovakia : Crisis in World Communism* (New York : Facts on File, 1972), pp. 21-25.
- (٨) For thoughtful contributions to the discussion on Eurocommunism, see George Schwab, ed., *Eurocommunism : The Ideological and political - Theoretical Foundations* (Westport, Conn. : Greenwood Press, 1981).
- (٩) For the full text of the manifesto, see Mastny, *Czechoslovakia*, Ibid., p. 28-34.
- (١٠) Ibid., pp. 36.
- (١١) Ibid., p. 44.
- (١٢) Antonín J. Liehm, "It Was You Who Did It !" in Jiri Pehe, ed., *The Prague Spring : A Mixed Legacy* (New York : Freedom House, 1988), p. 172.

Jacques Rupnik, *The Other Europe : The Rise and Fall of Communism in East-Central Europe* (New York : Pantheon Books, 1989), pp. 256-57.

(١٤) يعد إيفان سيفتاك أحد الكتاب المعروفين بتوجيههم الراديكالي نحو الديمقراطية .
وقد ذاق القمع والاضطهاد من قبل القيادة الشيوعية التشيكوسلوفاكية في صيف ١٩٦٨ .
وبعد التدخل السوفيتي صنفته وسائل الاعلام كواحد من الأيديولوجيين للحركة المضادة للثورة
والتي نجح تدخل حلف وارسو في منعها ، وبعد عقدين من النفي في الولايات المتحدة ،
الأمريكية عاد إلى تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٩٠ بعد انهيار الأنظمة الشيوعية .

Ivan Siviak, "The Premature Prestoika," in Pehe, Prague, (١٥)
Spring, p. 179.

Masiny, Czechoslovakia, p. 59 (١٦)

Milan Kundera, *The Joke* (New York : Penguin Books, 1982), (١٧)
"Author's Preface," p. xiv.

Masiny, Czechoslovakia, pp. 144-45. (١٨)

Vaclav Havel, *Disturbing the Peace : A Conversation with Karel Hvizdala* (New York : Knopf, 1990), p. 95. (١٩)

Robert Conquest, *Russia After Khrushchev* (New York : Praeger, 1965), p. 6. (٢٠)

(٢١) لم يكن كونكويست Conquest الوحيد الذي أكد على الاستمرارية المؤسسية
بين الستالينية والبرجينية إلا أن الدارسين الآخرين الذين شاركوا كونكويست وجهة نظره
كانوا زيجنيوبريجسكي وليونارد شابيرو Leonard Shapiro ، وقد أشار إلى أن
الستالينية سوف تتقوض طالما أبقّت الأنظمة السوفيتية على احتقارها لحكم القانون .

على الستالينية :

See Leonard Shapiro, *The Communist Party of the Soviet Union* (New York : Vintage Books, 1981), pp. 628-29.

See Jakub Karpinski, *Countdown : The Polish Upheavals of 1956, 1968, 1970, 1976, 1980 ...* (New York : Karz-Cohl, 1982), pp. 105-55.

Jerzy Holzelr quoted in Tadeusz Szafar, "Anti-Semitism : A Trusty Weapon." in Abraham Brumberg, ed., *Poland : The Genesis of a Revolution* (New York : Vintage Books, 1983), p. 120. (٢٣)

Jan de Weydenthal, *The Communists of Poland : An Historical Outline* (Stanford, Calif. : Hoover Institution Press, 1986), p. 121; Ray Taras, *Poland : Socialist State, Rebellious Nation* (Boulder, Colo. : Westview, 1986), pp. 103-17. (٢٤)

- "The Kuron-Modzelewski Open Letter to the Party," in Gale (٢٥)
Stokes, ed., *From Stalinism to Pluralism : A Documentary History
of Eastern Europe Since 1945* (New York : Oxford University Press,
1991), pp. 108-14.
- Jan Josef Lipski, KOR : *Workers' Defense Committee in* (٢٦)
Poland 1976-1981 (Berkeley : University of California Press, 1985)..
- For the birth of Solidarity, see Neal Ascherson, *The Polish* (٢٧)
August (New York : Viking Press, 1982).

الفصل الرابع

البحث العظيم

صعود المجتمع المدني

« لقد كان بحثاً عظيماً من قبر العبودية لسماء الحرية . لقد انطلقت روحي من سجنها ، ومضى الجبن وحل محله التحدي ، والآن فأننى عقدت العزم . ومهما طال بقاى كعبد فلن اظل كذلك الى الأبد » .

فردريك دوجلاس

Frederik Douglass

بعد ربيع براغ ، عاد عدد قليل من المنشقين بأوروبا الشرقية لأوهامهم الخاصة بإمكانية تعديل الشيوعية من خلال ما يقوم به الجناح الليبرالى فى الحزب من مبادرات اصلاحية . لقد بات واضحاً أن الاتحاد السوفيتى لن يسمح بأية محاولة جديدة لتبنى الفكرة المشؤمة الخاصة بالاشتراكية ذات الوجه الانسانى . وظل الزعماء السوفيت على احتكارهم للماركسية اللينينية واقتلعوا - بحقد - جذور أى شكل جديد من أشكال « الانحراف » عن هذه العقيدة ، بينما أدرك المفكرون النقاد عبر بلدان أوروبا الشرقية أن المطالبة الحقيقية بمجتمع ، يتمتع أفراد به حياة مستقلة لا يمكن أن تقتصر على برنامج محدود يطرحه الليبراليون فى الحزب الشيوعى . وفى عام ١٩٧٨ حدد آدم ميتشك نقاط الضعف الأساسى فى الاصلاح داخل الحزب فى التوافق الذى تم بين المعارضة والأسس النظرية والميتافيزيقية للنظام القائم . لقد ظل المفكرون النقاد - رغم أشمئزازهم من البيروقراطية - على ولائهم لقيم الاشتراكية السامية ، ولم ينفصل نسقهم القيمى عن ذلك الذى بشرت به الأيديولوجيا الرسمية . ورأت الجماهير الساخطة أن الطبيعة الثورية للاشتراكية . قد زيفتها الممارسات الستالينية المقيته التى أثارت الشك والاحباط بين أفراد المجتمع . وقارن ميتشك تجربة أكتوبر البولندية بربيع براغ فقال :

« رغم أن ربيع براغ لم يكن بتحريض من موسكو مثل اكتوبر البولندي ، إلا أن هناك تشابها بينهما هو ما تبع كليهما من اندفاع حزبي في اتجاه « حركة التصديت » ، وهو ما أوضح تقاطع ضعف وقوة هذه الحركة . وترجع قوة الحركة لتفكك النظام من الداخل الذي تحول الى قنبلة موقوته — اذا جاز التعبير — توشك على الانفجار ، كما ترجع لعدم كفاءة وفاعلية الأجهزة الحزبية العليا أى الأجهزة الأمنية والجيش . وكمن ضعفها في عجزها عن ادراك هويتها التاريخية الحقيقية أو بالأحرى تحديد غاياتها .

واستخدم زعماءها المصطلح العام للديمقراطية في هذه الحركة الا ان دلالة هذا المصطلح كانت سلبية تماما ومن ثم فقد معناه لدى الجماهير . ان الزعماء أنفسهم — فى مطالبتهم الناس بالواقعية والتصديت — فشلوا فى تقدير الموقف الجيوبولتيكى (١) (فى حالة تشيكوسلوفاكيا) وفى تقدير الأمانى الحقيقية للشعب (فى حالة بولندا) واستعادوا نظام الحزب الواحد الذى لا يبتسم الا لوجهاء الحزب . وفى الحاليتين كانت النتيجة هى الاضطراب » (٢) .

ان ربيع براغ كان أحد روافد الخروتشوفية الشيوعية ومن ثم فقد ما له من قبول لدى الجماهير . وأصبحت الحاجة ملحة لاستراتيجية مختلفة وهى العودة للمحافظة السياسية الخروتشوفية والتي لا تعنى تماما العودة الى الستالينية بل تمثل مرحلة جديدة — الى حد ما — من فساد الأنظمة الشيوعية . ووضعت هذه الاستراتيجية فى اعتبارها أسطورة النظام الموجود الآيلة للسقوط ، وانتهاء الجيل الأول من الصليبيين الستالينيين وصعود الأحلاف السياسية التى لا تعنى الا بالحفاظ على امتيازاتهم وانحرف النظام عن مسيرته الأولى وأصبح الركود والجمود هما سمتيه الرئيسيتين وتفشتا فى الأيديولوجيا الآلية والروتينية وتصدع الحكم فأصبح يسيرا على المعارضة مقاومته ثم هدمه .

وفى السبعينيات لم يكن هناك فى دول أوروبا الشرقية الشيوعية زعماء يتمتعون بنفوذ متميز وغابت الأساليب الأيدلوجية المتسقة القادرة على تعبئة شرائح عريضة من الشعب . وافترقت الساحة السياسية للاتحادات الحقيقية اذ أن السلطة اعتبرتها أخطر من معارضيها الرأسمالين . لقد استبدل النظام الكلاسيكى الشمولى بخليط من السلطوية التكنوقراطية والبيروقراطية الجامدة ، ولم تعد سيكولوجيا الارهاب ، الذى جعل الستالينية هى الممكن الوحيد وهو ما سبب

الاحباط للشعب شيئا يخافه أحد . لقد لجأت هذه الأنظمة دائما
لوسائل وحشية لقمع المعارضة . ورغم أن المعارضون الذين طرحوا
رؤى خاصة بالتطوير وبتكوين أحزاب سياسية بديلة كانوا قلة إلا أن
الانشقاق عن الستالينية بدأ ممكنا ، ويمكن أن يكون له أثر اجتماعي
حقيقي . إن الأنظمة وقعت تحت وطأة عبء جمود الائتلاف وتجاسدات
الحتمية التاريخية وأظهرت دلائل التعصب مما أدى إلى صعود المجمع
المدني الذي طال قمعه فاستشعر هوبته وأطلق العنان لمعركة حامية
من أجل استعادة المناخ الشعبي .

إن المعركة التي خاضها المجمع المدني في السبعينيات والثمانينيات
دفعها الأمل في التغير الاجتماعي واقتناع الناس بأن اللعبة ليست أبدية
وأن الكرامة الإنسانية شيء يستحق التضحية . إن فرصة نجاح هذه
المعركة كانت كبيرة وحقيقية . وبزغت في بلدان قلب أوروبا - ألمانيا
الشرقية، بولندا ، المجر و تشيكوسلوفاكيا - وكذلك رومانيا الحركات
والجماعات الاجتماعية التي أعلنت تحديها للنظام وسعت لتكوين شبكة
من المبادرات غير الرسمية والتي تناسب في تطورها ودفاعها عن
مبدأ الفعالية من أجل تغيير اجتماعي مع تآكل الأجهزة الحاكمة ،
كما تعد نتاجا طبيعيا للطريقة المشينة التي استخدمتها الأنظمة في التعامل
مع المعارضة .

وشهدت الأقطار الخمسة محاولات عنيفة لسحق المبادرات
الاجتماعية التي تهدف لاحراز التغيير إلا أن ذلك أدى إلى نتائج عكسية .
ففي بولندا قوبلت جهود جيريك من أجل فك عرى المبادرات المدنية
بردود فعل راديكالية أخذت في التزايد من جانب المجتمع المدني الصاعد .
وفي ألمانيا الديمقراطية سحقت أجهزة البوليس الضخمة والحزب الحاكم
كل أشكال الانشقاق وسجن معظم النقاد أو أجبروا على الهجرة .

أما في المجر فقد رفض نظام كادار رفضا باتا الاستسلام لتصادمات
الحركات المعارضة ، كما مارست سياسات المهادنة الكادارية أنواعا
أخرى من المناورات لمواجهة المعارضين فلم تسمح لاعتقالهم فقط ، بل تجرعوا
أنواعا شتى من الاضطهاد . فحرم فلاسفة مدرسة بوداجست أمثال
فيرنز فيهر وآجنس هيلر وجورجي وماريا ماركس Maria Markus
وجنوس كسي وميهالي فاجدا Mihaly Vajda وجورجي بنس
(Gyorgy Bence) من حقهم في التدريس والنشر في بلادهم . وأجبر
بعضهم على الهجرة بينما بقي آخرون أمثال كيس في المجر حيث أسسوا

في الثمانينيات معارضة « النشر السرى » Samizdat (٣) ، وأصبح هذا المصطلح هو العلامة المميزة لكل المواد المنشورة سرا ، في الأنظمة الشيوعية ومنعت السلطة نشر أعمال منشقين مجريين آخرين ومعروفين جيدا أمثال ميلكلوس هراتسى والقصاص الشهير جورجي كوفراد .

لقد اختلف رد فعل جوستاف موسكا على الانشقاق في يوجوسلافيا ، عما اتخذته كادار في المجر . لقد خضع أعضاء حركة حقسورق الانسان السرية والتي صدر عنها ميثاق ٧٧ في يوجوسلافيا لاستجابات البوليسى السياسى وحرّم بعضهم من وظائفه وتم اعتقال البعض الآخر .

لقد لاقى النقاد الاجتماعيون أسوأ اضطهاد في رومانيا تحت قيادة نيكولاى شوشيسكو ، إذ جرم الطاغية أى نوع من أنواع المعارضة . واعتبروا النقد الموجه لشوشيسكو من قبل هؤلاء الذين يعيشون تحت النظام شبه الستالينى تقويضاً لدعائم النظام . واحتقر شوشيسكو المنشقين واصطدم بهم وهاجم المحاولات المتواضعة التى قام بها زعماء تابعون للحزب للمطالبة بقيادة جماعية . وفى مثل هذه الظروف كانت فكرة التحدى الجماعى للنظام تعد فكرة انتحارية .

ووقع أكثر الانشقاقات أهمية داخل الحزب في عام ١٩٧٩ عندما باغت الزعيم الحزبى المتمرس قنستونطين بيرفالشيسكو Constantin Pirvulescu المؤثر الحادى عشر للحزب الشيوعى الرومانى واتهم شوشيسكو بأنه بنى ديكتاتورية شخصية . واعتقل بيرفالشيسكو فوراً وحددت اقامته جبريا كما سحقت قبل ذلك بثلاث سنوات الحركة الديمقراطية التى بادر بها الكاتب بول جوما (السجين السياسى السابق فى المعتقلات الستالينية) الذى أيد ميثاق ٧٧ وأجبر جوما نفسه على الهجرة الى فرنسا . وفى صيف عام ١٩٧٧ نظم عمال المناجم فى وادى جيو Jiu Valley اضرابا مطالبين بعدة مطالب منها التحرر من النظام السياسى . وأجهض الاضراب واختفى زعماءه من عمال التعدين دون أى أثر يذكر .

واقترنت أشكال الأنشطة فى بلدان مثل رومانيا وبلغاريا على الاضرابات الفردية . وترى فى حالة الرياضى الرومانى والفاعل فى مجال حقوق الانسان ميهائى بوتس مثالا واضحا تماما على القمع إذ وجه فى عامى ١٩٧٧ و ١٩٨٧ نقداً صريحا لنظام شاوسيسكو كما أجرى مقابلات

مع وكالة صحيفة أجنبية وخاطب الحكومة فى بيانات لا حصر لها مؤكداً على أن هذا البلد فى طريقه لكارثة قومية . ولم يكن بوتس يتحدى النظام الاجتماعى القائم ولكن كان يؤكد على فشل القيادة فى ادراك مدى ديماجوجية نظامها . وفى عام ١٩٨٧ ترك بوتس رومانيا الى الولايات المتحدة الأمريكية بعد توجيه الحكومة تهديداتها له وحددت منفاه فى احدى القرى . وبعد رحيل بوتس بفترة ليست طويلة وقعت رومانيا تحت وطأة التغيرات التى تجرى فى الكتلة كلها ، والتسردى الملحوظ فى بنية النظام القائم الذى تمثله زمرة شوشيسكو ، مما أدى الى تزايد الانشقاق فى عامى ١٩٨٨ و ١٩٨٩ .

ورغم تزايد أشكال الانشقاق الفردى والجماعى فى رومانيا وفى كل بلدان حلف وارسو ، ورغم تفشى الفساد السياسى والأخلاقي واليهوس فقد أصرت قيادة الحزب على التمسك بالسلطة وعدم التخلي عنها مهما كان الثمن . وحاول زعماء بلدان حلف وارسو تجاهل الأشكال الوليدة للفعالية السياسية ووضعها على هامش العمل السياسى . وفى هذه الظروف كان ميلاد حركة تضامن فى بولندا بمثابة طوق النجاة الحقيقى . وبدأ بعد تشكيل حركة تضامن التى سبقتها أنشطة لجنة الدفاع عن العمال (KOR) أن النظام — حتى وهو تحت المظلة البرجنيقية — فى طريقه لأزمة طاحنة . ويتطلب فهم تطور المبادرات التى قام بها المجتمع المدنى ادراك حجم الدور الذى قامت به المؤسسات المستقلة فى بولندا بداية بالكنيسة الكاثوليكية وكذلك دور دوائر المفكرين الكاثوليك، بالإضافة الى عناصر أخرى مهمة منها تقوية أواصر الروابط بين المدنيين البولنديين المنادين بمبدأ الفعالية ومصادر الدعم والمعلومات فى أوروبا وأمريكا بما فى ذلك مجلة الثقافة « كولتورا Kultura » التى تصدر فى باريس والتى مدت قناة اتصال كانت جسراً يربط بين المفكرين النقاد داخل وخارج بولندا (٤) .

مقدمات صعود المجتمع المدنى :

ان منظمة تضامن فتحت فصلاً جديداً فى تاريخ أوروبا الشرقية باستخدامها لكل الوسائل والامكانيات ، لايقاظ الاتجاهات الاجتماعية التى طال سبباتها وبفضوحها للتصدعات التى أصابت الصرح التوتاليتارى ، وتبع انهيار هذه الأنظمة بعث المجتمع المدنى . ان بعث المجتمع المدنى فى بولندا جاء نتيجة طبيعية لمقدمات عدة منها فقدان الأحزاب الحاكمة لسلطتها وهيبتها وثقتها بنفسها ، إضافة الى بعض العوامل الدولية التى لعبت دوراً أثر فى تطور حركات المواطنين

فى قلب أوروبا الشرقية مثل : توقيع اتفاقات هلسنكى Helsinki Agreement فى عام ١٩٧٥ من قبل ممثلى حلف وارسو . وكذلك الاهتمام بميثاق حقوق الانسان .

ولم يكن برجنيف أو جيريك هوساك أو كادار مؤمنين إيماناً حقيقياً بحقوق الانسان ولم يكن لديهم أى استعداد للاستمرار والعمل وفق المواثيق الدولية ، الا أن هؤلاء الزعماء أدركوا أن مبادئ المدنيين المدافعين عن الفعالية السياسية تتفوق على عقائد الحزب الجامدة . لقد نجح المدنيون فى اجبار حكوماتهم على التصرف بما يتوافق مع المعاهدات الدولية واضعين فى الاعتبار حقوق الانسان والمواطنين . ومن تلك اللحظة أصبحت هذه الجماعات غير الرسمية قادرة على تشكيل لجان عديدة فى الدول الشيوعية للدفاع عن المناضلين الذين عانوا الاضطهاد . لقد منح الزعماء السوفييتيون النقاد المحليين فرصة غير مسبقة لتوجيه التساؤلات والمساءلات عن سياسات النظام وذلك رغبة منهم فى الظهور للعبان كشيوعيين صادقين . ان وضع الزعماء فى موقف دفاع لمخالفتهم الوعود التى أجزلوها والخاصة بتبنى انظمتهم لاستراتيجية جديدة تجاه جماعات المجتمع المدنى الصاعد فى أوروبا الشرقية والتضامن مع ضحايا الانتهاكات لحقوق الانسان يعد أحد النجاحات غير المسبوقة للمعارضة .

بولندا : بحث المجتمع المدنى :

لقد انهار المجتمع البولندى فى نهاية السبعينيات بسبب القلاقل السياسية ، وبدلاً من مواجهة فشل النظام فى مجال الاقتصاد الموجه وفى تبنى اصلاحات جريئة ، عادت البروقراطية الشيوعية لاستخدام الديماجوجية والارهاب للحفاظ على الوضع الراهن . ان الحاجة لحركة تضامن المستقلة - التى لا تخضع لسيطرة الحزب - كمنظمة بديلة قادرة على استيعاب المطالب الاجتماعية من أجل احداث تغيير سياسى واقتصادى عاجل أصبحت ملحة مما جعل اللعبة السياسية التى أصرت على أن التغيير لابد أن يبدأ من موسكو تفقد فاعليتها . ورفضت الثورة البولندية السلمية المستقلة عقيدة التفرد بالسلطة التى يعمل بها الحزب الشيوعى ، وطرح برنامجاً من أجل تحويل مجتمع الكتلة السوفيتية لنظام التعددية . ان تعطش منظمة تضامن لسبر غور التحديث حرر المواطنين من الأعباء التى أثقلت كاهلهم بسبب الأنظمة البروقراطية التى كانت تحط من شأن المجتمع المدنى . ان الجهود التى

بذلت من أجل حركة اجتماعية جديدة خلقت ندا لا يكل ينازع الحكومة في سلطتها وهي الحركة التي أدت - حسبما يرى ماكس فيبر Max Weber الى تقدم وتطور فئة المواطنين القوميين (٥) . ان تطور مثل هذه الحركة - مع تضافرها بمؤثرات تلقائية ومؤسسية كانت احتمالا لم يتصور الستالينيون تحققه . لقد قامت حركة تضامن - ميلادا وشهرة - بسبب ايمانها بأن النظام القائم فقد سلطانه . ولم يعد نظام جيريك - ايدلوجيا وسياسيا - هو النموذج التقليدي للتوتاليتارية . ورغم أن المؤسسات القمعية ظلت قائمة الا أن وظيفتها قد قلصت فعلا ، كما رفضت أغلبية الجماهير قبول ادعاء الحزب الشيوعي بالشرعية اذ شعروا بأن « خمسة وثلاثين عاما من الفوضى السياسية قد جاءت بالآمة لنقطة الافلاس الاقتصادي والسياسي الاجتماعي وأن أي حل حقيقي لمشكلة بولندا يتجاوز مجرد اجراء تغييرات في مجال السياسة الاقتصادية الى تغيير طبيعة العلاقة بين السلطة والمجتمع المدني » (٦) .

وكشفت حركة تضامن (١٩٨٠ - ١٩٨١) أن هيئة الحزب غير شرعية ونقضت غبار السنين عن العنصر الأصيل الذي تنطوى عليه الارادة الشعبية . لقد فكرت الحكومة البولندية مليا في اللجوء الكامل للقوة العسكرية لمعارضة حركة الاحتجاج الجديدة في أغسطس ١٩٨٠ الا أن الحزب الشيوعي وجد نفسه عاجزا في مواجهة الحركة الاجتماعية التي لا تقاوم . وأبرم ممثلو الحكومة ولجنة الاحزاب اتفاقا في ٣١ أغسطس ينص على أن الدور القيادي للحزب هو أقصى ما يمكن التفاوض حوله الا أن القيادة الشيوعية اتخذت موقفا دفاعيا . وفي نوفمبر أصبحت منظمة تضامن نقابة عمالية مستقلة شرعية - وهكذا أجبرت الحكومة الشيوعية على الاعتراف بحق النقابة المستقلة في الوجود مما جعل وجودها الأيديولوجي الكلي في الحكم يبدو كخدعة . وبعيدا عن التمسك بالتفويض التاريخي لحكم المجتمع ظل الشيوعيون في السلطة بفضل الجمود البحث واستخدام منطق القوة . ولم يستطع الحزب الشيوعي نفسه تجنب بعث المجتمع المدني ، وبدا ذلك واضحا في مؤتمر الحزب في يونيو ١٩٨١ حين بلغ الصراع بين الفلاحين والديمقراطيين والتقليديين ذروته بسبب الامتيازات والتنازلات التي منحت لتضامن .

ان المؤثرات الخارجية وبالتحديد الضغوط الخارجية وخاصة من الاتحاد السوفيتي وجمهورية المانيا الديمقراطية زادت هذه الدراما تعقيدا . وفي خريف عام ١٩٨٠ أصبحت حركة تضامن بالفعل حركة

اجتماعية قوية ، وانضم لصفوفها العمال المفكرون والطلاب والفلاحون . ولم يعد في المستطاع تأجيل الصراع بين البيروقراطية الحزبية والتحدى الشعبى على يد النقابة المستقلة . لقد دعمت الكنيسة الكاثوليكية - دون تدخل مباشر فى الصراع السياسى وبما لها من هيبة وتأثير - المطالب الاجتماعى للنقابة . وفى نفس الوقت حاولت الهيئة الكاثوليكية تهدئة المناضلين الفاعلين فى تضامن ، وسعت لايجاد جسر بين الحكومة والمعارضة . وفى الحقيقة لقد سيطرت ثلاثة اتجاهات رئيسية على الساحة السياسية البولندية طوال عام ١٩٨١ وهى : الحزب الشيوعى - الكنيسة الكاثوليكية - وحركة تضامن التى أخذت فى الانتشار والامتداد . واكتسبت تضامن فى غضون شهور طبيعة هجومية اذ تجاوز جدول اعمالها القضايا الاجتماعية المحدودة ، وهدفت الى التفاوض حول المبادئ الدستورية للأمة البولندية . وفى نفس الوقت وبينما أخذ السوفييتون فى جلد تضامن بسبب اهدافها التآمرية المزعومة ركز الاعلام الغربى على الاستراتيجية الطليعية للحركة بما فى ذلك استخدامها لوسائل سلمية بعيدة عن العنف من اجل تحقيق التعبير السياسى . ان الاهتمام الذى أبدته وسائل الاعلام الغربى بنضال تضامن لتحقيق العتق الاجتماعى والسياسى مد الحركة بدعم معنوى كانوا فى اشد الحاجة اليه أثناء هجومها العنيف على الشيوعيين الارثوذكسى فى بولندا والخارج . واصبحت المجابهة بين الحكومة وتضامن لا مفر منها ففى اكتوبر ١٩٨١ أصبح الجنرال ياروزلسكى الذى عين رئيسا للوزراء وذلك فى فيسراير من نفس العام أصبح سكرتيرا أول للحزب الشيوعى وكان ذلك الموقف فريداً من نوعه فى الكتلة السوفيتية وانذر بتوجيه ضربة عسكرية ضد بولندا .

لقد اثارت المطالب الجريئة التى نادت بها حركة تضامن دمر طبقة الحكام فى بولندا مما جعل الجيش يطالب فى ٣١ ديسمبر ١٩٨١ بتطبيق القانون العسكرى على البلاد ومنذ ذلك الحين تم حظر نشاط تضامن واعتقل زعمائها ، الا أن تطبيق القانون العسكرى لم ينفذ النظام من مصيره . وبينما حاول النظام العسكرى أن يحصل على أوراق اعتماد جديدة من الشعب وأن يسرح القاعدة الشعبية التى كونتها النقابة أعلن الاتحاد السوفيتى تحت قيادة ميخائيل جورباتشوف بعد عام ١٩٨٥ تأييده للاستالينية الجديدة ومن ثم لم يعد حظر منظمة تضامن منطقيا ، وفى عهد جورباتشوف أصبحت التهديدات السوفيتية بالتدخل العسكرى ، بسبب سياسات الزعيم التى تطلورت وانتشر اريجها امرا غير وارد بالمرة . ونظرا للتغييرات التى كانت تتم فى

الاتحاد السوفيتى وبسبب فشل خطته الاقتصادية والاجتماعية فان ياروزلسكى منح عفوا عاما عن المعتقلين السياسيين والمغى القانون العسكرى ووعد بانتهاء مسيره اصلاحية كما صدق على سياسة البروستروكا لجورباتشوف . وأصبح نصيرا مقربا للزعيم السوفيتى فى حلف وارسو حيث جابه جورباتشوف ائتلافا قآمريا من زعماء رومانيا والمانيا الشرقية وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا المعادية للإصلاح . ولم تكن جهود ياروزلسكى لاسترضاء الجماهير كافية لإقناع المجتمع البولندى بمصادقية سياساته .

ان رفض الحكومة البولندية منح الشرعية لتضامن وتشويه صورة الفاعلين المدنيين البارزين ، أقنع البولنديين بأن نظام ياروزلسكى لا ينوى حقا التخلّى عن الارث البغيض للقمع ، ومن ثم كان انفجار الأزمة الجديدة حتميا خاصة فى ضوء مشكلات الأزمة الاقتصادية المتزايدة واتساع هوة الخلاف بين السلطة الرسمية والمجتمع المدنى المتنامى . لقد فسر ج. اف براون J. F. Brown المراقب المتمرس للشئون الشرق أوروبية الاضطراب الذى ساد بولندا قبيل اجتياح ١٩٨٩ فقال :

« حقيقة ، ان صورة بولندا الآن تمثل مجتمعين — « الرسمى » و « البديل » . ويتكون « الرسمى » من كيان النظام وعدد كبير من الناس التى تتعاون بارادتها أو عدم ارادتها مع النظام . والمجتمع « البديل » الذى يلعب فيه الشباب — وهم يتخبطون — دورا عظيما ، مستخدمين وسائل اعلامهم الخاصة ، وهى الأنشطة الأدبية والثقافية والتربوية . ويتجنب المجتمع « البديل » الاصطدام بالمجتمع «الرسمى» كلما كان ذلك ممكنا . لقد وجد المجتمعان فى جميع بلدان أوروبا الشرقية الشيوعية ، إلا ان الهوة بينهما لم تكن بمثل عمق تلك التى وجدت فى بولندا اذ لم يكن المجتمع « البديل » قد نظم جيدا ، وبالتالى لم يستقل ذاتيا » (٧) .

ان قرب وقوع اية أزمة جديدة يتوقف على مدى السطحية التى سيديها النظام القائم نحو ما يجرى فى بولندا . ورغم الجهود المتواصلة التى تبذلها الاحلام الشيوعية لزراعة نظم على الطراز السوفيتى فى شرق أوروبا واضفاء الشرعية عليها الا أن النظام فى بولندا لم يظفر بموافقة شعبية حقيقية . وفى بولندا — أكثر من أى بلد شيوعى آخر — أصبح فقدان القيادة الشيوعية لشرعيتها جليا . لقد آمنت فئات معينة داخل الحزب الشيوعى فى عام ١٩٥٦ بأن التغيير يمكن أن يولد من رحم الحلفاء الشيوعى تحديدا من الجناح « المستنير » ولكن جعد سحق ربيع براغ ،

١٥٩

وقمّع ١٩٦٨ المعادى للمبدعين في بولندا وأصبحت هذه القناعة مجرد وهم يتعذر الدفاع عنه . لقد عانت الشيوعية منذ قيامها في أوريسا الشرقية من أزمات مستمرة ، أزمة السلطة والشرعية ، أزمة الأخلاق وبالطبع أزمة الفاعلية الاقتصادية . لقد عانت الانظمة من نوعين من الأزمات ظاهرة وكامنة ، وعندما فقد الحزب الحاكم ثقته بنفسه وظهر الممثلون السياسيون كبديل تحولت الأزمات الكامنة لمواقف ثورية . ولا بد — حسبما ترى اللينينية الكلاسيكية — لكى تقف الثورة أن يكف الحكام عن اللجوء للأساليب القديمة وأن يكف المحكومون عن الامتثال للأساليب البالية .

وتم التخلي عن الرمزية السياسية الزائفة للنظام القديم وألغى كل ما هو محظور سياسيا ، وتحطم فجأة الحاجز الذى يمنع التجريب السياسى ، وانقلب المبدأ الكلى للحقيقة السياسية رأسا على عقب تحت وطأة هذه الظروف ، وسطع نجم هؤلاء الذين شهرت بهم السلطة باعتبارهم « أعداء للشعب » كرموز حقيقية للأمل القومى لتحقيق « الخلاص » ويشمل الانتقال عادة تعديلا لنسيج السلطة . وصرح لجماعات اجتماعية وسياسية جديدة بالانضمام للكيان السياسى .

وأصبح خلق مناخ شعبى باستعادة الهوية المدنية أمرا له الأولوية بعد أن حققت الأصول الستالينية من شأن المجتمع المدنى وجعلت من أمراده وبالقوة مجرد صبغة يقومون بأعمال صبيانية ، ولكى يستعيد المجتمع المدنى لهيبته كان لا بد أن يصل لأقصى درجة من الوعى بذاته . لقد شملت الضغوط النفسية التى مارسها ستالين زرع الخوف من الكائنات الانسانية التى تتورط فى أنشطة سياسية توصف بأنها تخريبية . ان أى شكل من أشكال النقد والاستغلال يعنى — حسبما ترى التوتاليتارية — هجوما على ادعاء الأمة وتظاهرها بالمعرفة والقدرة الكليتين . وأشار جاسيك كورن الفاعل المدنى البولندى الى أن بزوغ الحركة الاجتماعية الجماهيرية فى بلد شيوعى سيعقبها نتائج ستكون أكثر قوة من أى محاولة يقوم بها النظام لاجهاضها ، ولا يمكن أن يتم هذا التطور دون نضوج المعارضة ودون النيل من استبدادية النظام الستالينى فقال :

« ان الأمر يرجع لعام ١٩٥٦ . اننا لم نتخل عن الشيوعية بعد ، ولكننا مع الراى القائل بأن الحركات الاجتماعية يجب أن تكون مستقلة عن الحزب والحكومة . لقد مرت العلاقة بين المفكرين والعمال بأوقات عصيبة خلال الفترة من ١٩٦٨ الى ١٩٧٠ وفى عام ١٩٦٨ أدرك المفكرون ضرورة التحالف مع العمال . وبعد عام ١٩٧٠ وصل العمال لنفس الاستنتاج . وأفرزت التجربة لجنة الدفاع عن العمال (KOR)

التي اثمرت محاولاتها لتعزيز قدرة الحركات الاجتماعية على تنظيم نفسها
ثمارة رائعة وذلك في عام ١٩٨٠ « (٨) » .

وأضاف كورن وهو واحد من مؤسسي المعارضة البولندية واكفا
واضحى استراتيجيتها قائلا :

« حقيقة . لقد قمعت تضامن وتحولت للعمل السري ، ولكن
هذا لا يمكن ان يغير حقيقة أن أسس النظام التوتاليتاري قد قوضت .
لقد خلقنا ودفعنا حرية التعبير حتى أن السلطويين كان لا بد لهم أن
يفتحوا نار الاعلام الرسمي علينا . وبسبب ما مارسه تضامن السرية
من ضغوط فإن كل تلك الحركات الاجتماعية التي طال صمتها لم تعد
مجرد دمي ، هناك طريق واحد : من التوتاليتارية الى الديمقراطية ،
ولقد قطعنا في سبيل ذلك شوطا كبيرا » (٩) .

ان بقاء تضامن في بولندا في ظل القانون العسكري وتدرتها على
خلق ثقافة مضادة عن طريق دور النشر ، وصناعة الافلام ، والجرائد
والمجلات التي لا تحصى ، واشكال أخرى من الفعالية الاجتماعية
المستقلة يكثف مدى ما خسره النظام وعجزه عن ممارسة طريقه
القمعية التقليدية . وكانت بولندا بلدا تحكمه دكتاتورية فظة تستخدم
القمع والجهود الاجتماعية والمناورة والتهديد بشبح التدخل السوفيتي
الذي لا يقهر الا أن ذلك لم يجعل قيام المعارضة بدورها مجرد فكرة
دونكشوتية بل لقد تمتع البولنديون حتى في أحلك ظروف القمع الذي
استخدمه النظام العسكري بمجال أرحب للعمل من أجل الحرية
ولممارسة أنشطة أكثر استقلالية من تلك التي أتاحت للرومانيين تحت
حكم الديكتاتور شوشيسكو . ويعود الاختلاف بين النظامين للضغوط
التي مارسها الحركات الاجتماعية البولندية على الجسد السياسي ، ان
أن تضامن خلقت - رغم هزيمتها المؤقتة - احساسا بالوحدة السياسية
والثقة المتبادلة وهما الصفتان اللتان لم تتمتع بهما الدولة التوتاليتارية
التقليدية أبدا . . وحقيقة فان جيل المعارضين بما قام به من تحد -
أثناء الحكم العسكري - قد أدى مهمته على أكمل وجه وقضى ديمومة
الصراع رغم غياب زعمائه التاريخيين في المعتقل . وظهرت صحيفة
تضامن السرية تيجودنيك مازوفسكي Tygodnik Mazowsze للوجود دون
انقطاع وبلغ توزيعها خمسين ألف نسخة . وتكونت اللجان غير الرسمية
لجمع التبرعات لعائلات المناضلين المعتقلين وغيرهم من ضحايا القمع .
وفي الوقت الذي بدأ النظام مسيطرأ تماما على مجريات الأحداث ،
استثمرت حركة المجتمع المستقلة بل وازدهرت .

تاريخ أوروبا في ١٦٦

« اذا كان القانون العسكرى عقبة فى طريق المجتمع المستقل ،
فان الوضع التوتاليترارى يعد كارثة » (١٠) .

هكذا قال آدم مثنىك بعد اطلاق سراحه من المعتقل ، مفسراً
التناقض الذى وقعت فيه السلطة الحاكمة بعد فشلها فى كسب أى دعم
شعبى وهو الدعم الذى يعد مهما لها كيما تستمر فى السلطة .

ان ظهور تضامن فى اغسطس ١٩٨٠ ومطالبتها بالتدخل السدائم
فى الشئون القومية أدى خلال وقت قصير الى حتية التغيير فى بولندا
خاصة بعد ظهور نواة جديدة على الصعيد السياسى التى حولها
المناضلون الانسانيون المدافعون عن الحقوق المدنية وقد تمتعوا دوماً
بصورة جميلة Bona fids فى عيون العمال الراديكاليين . لقد حققت
لجنة الدفاع عن العمال انجازاً عظيماً فكان مجال نشاطها الرئيسى المجال
الاجتماعى بجانب المجال السياسى .

ورصدت اللجنة انتهاكات الحقوق المدنية ، كما نوهت عن
أسماء هؤلاء الذين تورطوا فى مثل هذه الجرائم . ان روح لجنة الدفاع
عن العمال كما أسماها جان جوزيف ليبسكى هى اللقاح الطبيعى
لجنين المجتمع المدنى البولندى ، وقد ارتكزت على رُمُض مطلق
للاكاذيب الرسمية .

« الصدق هو اهم المبادئ الاخلاقية التى تتبناها لجنة الدفاع عن
العمال . وهذا المبدأ له — الى حد كبير — أسس ومبررات برجائية
عن ذلك الذى يشجب العنف والكره . لقد لجأت السلطات للمناورة
والمساومة عندما تحرت اللجنة الصدق وقالت الحقيقة . لقد كسان
الأفضل لها ان تشجب الزيف ليساعدها ذلك على كسب الثقة . عن
الاستسلام لاحتمال ان الحقيقة التى تخفيها السلطة سوف يكشفها
الاعلام » (١١) .

وعندما تكونت لجنة الدفاع عن العمال فى عام ١٩٧٦ بلغ عدد
أعضائها ٥٩ عضواً فقط . وبعد عام واحد غيرت الجماعة اسمها الى
اللجنة الاجتماعية للدفاع عن الذات Social Self-Defence Committee
وأدرك جاسيك كورن وآخرون ممن لهم الخبرة فى صراعات المعارضة
فى بولندا ان المجتمع المدنى — اذا لم ينظم حركته — سوف يجر بسهولة
لمعارك ضارية وستفترسه قوات البوليس المتروسة . وفى عام ١٩٧٠

عندما حاول المضربون فى جدانسك Gdansk ان يحرقوا المقر الرئيسى للحزب الشيوعى قال لهم كورن :

« لا تحرقوا لجنائهم ، اذهبوا واقيموا لجنائكم » (١٢) .

لقد ساهم عامل آخر فى جعل موقف بولندا هريدا من نوعه وهو تواجد الكنيسة الكاثوليكية على الساحة وحيث نجحت فى مقاومة المحاولات الستالينية لاختضاع النظام لمنظومة معينة ، وظلت — كما اشار ليتسك كولاكفسكى :

« المصدر المستقل الوحيد للسلطة المعنوية فى مجتمع عليل » (١٣) .

وتدرجيا وبحلول نهاية السبعينيات ولعجز النظام وقشله فى الاضطلاع بمسئوليات الاصلاحات بدأ تشكيل حلف قوى المعارضة فى بولندا ، ويفضل العمل المضنى الذى قامت به لجنة الدفاع عن العمال وكذلك جهود جماعات المفكرين الكاثوليك الذين وصفهم متشكك ذات مرة بأنهم « المعارضون الجدد » ، أصبح من الممكن خلق علاقة رمزية بين الانتلجنسيا الناقدة والكنيسة والعمال . وبذل المناضلون المدنيون فى لجنة الدفاع عن العمال وشبكة الاتصال الدولية جهودا فائقة لانجاح انفجار ١٩٨٠ . ولم يتمرد العمال فى بولندا على الصعوبات الاقتصادية ولكن على الهرم الكلى للاستبدادية الذى اتخذ اسم « الدكتاتورية » ولم يكن هناك أكثر من المفكرين المبدعين وعيا بأن تخلى النظام عن سلطته المعنوية شيء منطقي ، الا أن العمال أدركوا الفجوة الواسعة بين ما تدعيه الحكومة لتجسيد مصالح البوليتاريا وطبيعتها الأوليغاركية (١٤) البيروقراطية الحقيقية . وفى هذا الصدد قال كولاكفسكى :

« يمكن للمرء ان يرى منذ بدايات الاضرابات فى صيف ١٩٨٠ أن العمال كانوا على وعى تام بحقيقة ان الصراع من أجل الحصول على حريات ثقافية جزء أساسى من قضيتهم وأن هذه القضية ستخسر اذا لم يترجموا معاناتهم لعدد من المطالب السياسية المحددة منها حرية التعبير وحرية النشر ، وفى اطار وضع حد لانفراد السلطة بوسائل الاعلام ألغى العديد من القيود التى فرضت على الكنيسة كما اطلق سراح المعتقلين السياسيين . لقد كان واضحا منذ البداية أن تمرد العمال لم يكن ضد الفقر وظروف العمل المجحفة فقط بل كان — فى الأساس — تمردا ضد حكم البلاد بالاكاذيب » (١٥) .

ما هو الاطار الاستراتيجى الذى ضمن نجاح تمرد تضامن ؟
كيف أمكن للطريقة السياسية والابداعية التى انتهجها الفاعليون

المدينون البولنديون أن تتجاوز الاجراءات الصارمة التي تتخذها الحكومة؟ يمكننا أن نجد اجابات لهذه الأسئلة في ضوء المقالات السياسية المدوية لمتشكك والتي بين فيها مبادئ وغايات المجتمع المدني البولندي. وحلل متشكك في مقاله « الارتقاء الجديد » الذي نشر عام ١٩٧٦ التقاليد السياسية للصراع المعادي للتوتاليتارية في بولندا ، فرأى أن كل المحاولات التي استهدفت تغير النظام والتي جاءت بعد الادانة الشعبية للاستالينية عام ١٩٥٦ حملت نفس الأوهام وهي إمكانية تغير النظام من الداخل . واعتقد التعديليون بأن صعود الجماعات الليبرالية لقيادة الحزب سوف يجعل الاشتراكية ذات الوجه الانساني ممكنة . واعتقد « اليقينيون الجدد » الواحد تلو الآخر — اذ لم يكونوا سجناء « الرؤية الداخلية للحزب » — في إمكانية التأثير على الحكومة من خلال ما سمي « بالتعاون الناقد » . وعارض التعديليون خنوع الحزب للكرملين ووجدوا منبعا لمعارضتهم في الإنسانية الماركسية الأصلية ، ورأوا أن الاشتراكية على الطراز السوفيتي انحراف عن الوعود الأصلية للمادية التاريخية . ان اليقينيين الجدد واغلبهم من المفكرين الكاثوليك لم يثقوا في الرؤية الماركسية الا أنهم اعتبروا العلاقة الودية مع الاتحاد السوفيتي دعامة ضرورية لبقاء بولندا . ويقول متشكك :

« اذا اعتبر المرء تنظيم الدولة في الاتحاد السوفيتي كنيسة واعتبرنا العقائد الأيديولوجية الماركسية كانجيل ، فان التعديلية كانت مواءمة للانجيل وتطور تفسيراته الخاصة في حين ان اليقينية الجديدة شابت الكنيسة ولكن ايمانا منها بان الكنيسة ستتحلى — ان عاجلا أو آجلا » (١٦) .

ان افلاس التعديلية خاصة في الستينيات لا يخفى اهميتها كتجربة تستفيد منها الانتلجنسيا الناقدة في بولندا . ان هزيمة التعديلية تعنى في دول رومانيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر نهاية الأوهام الخاصة باعادة تشكيل النظام القائم وكان التحرر التراجيدي من هذه الأوهام شيئا لا مفر منه لتحقيق الصحة . ان تفكك السلطة في الدول التي غابت أو قمعت فيها التجارب التعديلية مثل بلغاريا ورومانيا وصعود تيارات فكرية بديلة فيها كان أكثر صعوبة عنه في بولندا وبلغاريا حيث وجد التعديليون الانسانيون نقدا عنيفا للأحلاف الحاكمة وساهموا في اعداد مناظليين شبان تخلوا فيما بعد عن العقيدة الماركسية كلية ، وفي ظرف تاريخي حاسم تحدوا النظام بما لديهم من طموح وآمال تقضح التناقض بين الأيديولوجية الرسمية وحقيقة الاشتراكية .

لقد روت التعديلية — رغم سذاجتها وتفككها — ظمناً الثقافية السياسية الشرق أوروبية وساهمت في تكوين الاحلاف السياسية والفكرية المعارضة كما ساعدت الممارك الأيديولوجية التي دارت من أجل محاولة إعادة الوجه الانساني للماركسية في تعميق فهم أعمال ميلان كونديرا وكازيميرتس براندى Kazimierz Brandy ولا يعني ذلك أن هؤلاء الكتاب لم يعبروا إلا عن الصراعات السياسية — لأنهم عبروا عن المبادئ العليا التي شملها الصراع بين الرجعيين الأيديولوجيين والموالين للتعديلية . وان التعديلية قامت — من بين أشياء أخرى — برد الاعتبار لمفهوم الانسان الذي تجاهلته عقائد الحزب كما أكدت على ضرورة المشاركة في نقد الوضع الراهن مشيرة الى أن الائتلاف الحاكم لم يكن حصينا كما يبدو — لقد تخطى التعديليون نطاق الفعلية الاجتماعية التي ازدهرت فيما بعد من خلال الحركات اللا ماركسية والمعادية للماركسية التي نشأت في السبعينيات والثمانينيات إلا أن موطن الضعف في هذه الحركات هو محاولتها اضعاف المثالية على السلطة القادمة واعتقادهم في امكانية اصلاح عيوب النظام ومن ثم لا يوجد أي سبيل للتخلص جذريا من النموذج الماركسي الاجتماعي . لقد فشل ممثلو التعديلية في طرح بدائل سياسية حقيقية للأنظمة القائمة وكان منتهى آمالهم هو رتق عيوب النظام لا التخلص منه وقال ميتشسك في هذا الصدد :

« اعتقد أن خطأ التعديليين الفادح لا يكمن في هزيمتهم في الصراع داخل الحزب من أجل السلطة (حيث يتعذر فوزهم بها) فقط ولكن في طبيعة هذه الهزيمة . . انها هزيمة أفراد طردوا من مواقع سلطاتهم ونفوذهم ولم تكن ارتدادا عن برنامج يساري ديمقراطي سياسي له قاعدة عريضة . ولم يطرح التعديليون أبداً مثل هذا البرنامج » (١٧) .

ان آخر العواصف التي هبت على الأوهام التعديلية جاءت مع أحداث مارس ١٩٦٨ في بولندا عندما أظهر الحزب الشيوعي طبيعته الشوفينية والفاشية الحقيقية بل أصابته صدمة التدخل العسكري في تشيكوسلوفاكيا وقمع حركة الاصلاح فيها في أغسطس ١٩٦٨ — ويمكن القول بأن أحداث عام ١٩٦٨ دقت المسمار الأخير في نعش التعديلية ، وبات واضحا لكل من أدرك مدى فداحة المأساة التي تمت هذا العام أن الخروج على السوفييتية لن يتم إلا بمخاضة قاطعة لكل الأوهام الماركسية . وكان ليتسك كولاكسكي الماركسي التعديلي السابق مثالا للرؤية الجديدة الخاصة بالصلة الوثيقة بين رؤية الامية الماركسية وممارسة الشيوعية في القرن العشرين حيث قال :

((لقد أصبح سخفا أن نقول إن الماركسية هي قضية الشيوعية القائمة اليوم ، ومن ناحية أخرى فإن الشيوعية ليست ((خطأ)) من شأن الماركسية ولكنها التفسير الممكن الذى يقام على أسس متينة رغم كونها بدائية وقاصرة في بعض الأمور . . . لقد انتهت عبادة الفرد - وهو الاسم الفلسفى الذى استخدمه ماركس بنفس الطريقة التى انتهت بها كل المحاولات السابقة وأسفرت الشيوعية عن وجهها الذى يهدف لاسترقاق الإنسان)) (١٨) *

ولكن كيف يمكن للمرء أن يتورط فى الصراع ضد الأجهزة القمعية العديدة التى تستخدم قطع وسائل للتعذيب ومستعدة للجوء لآية وسيلة للدفاع عن امتيازاتها ؟ . لقد أصاب الاحباط التعديليين لانهايار أحلامهم الا أن اليقينييين الجدد طالبوا بالتوسع فى عالم الحريات المدنية (١٩) التى قبلوا فى سبيلها اعلان تأييدهم للدور القيادى للحزب المهيمن . لقد اكتشف التعديليون واليقينيون الجدد - بعد تزايد حدة الموقف - أن رؤيتهما كانت بعيدة كل البعد عن استيعاب الحقائق السياسية البولندية التى وجدت فى السبعينيات :

((ان الصراعات بين الجماهير والسلطات كشفت خداع الآمال التى عقدها كل من التعديليين واليقينيين الجدد ووضعتهم فى موقف أجبرهم على القيام بخيار مأسوى . وعندما ينشب صراع ما لا بد أن يتخذ المرء موقفاً ويعلن مع أى جانب هو المهزومين أم المنتصرين . وعندما يكون الصراع علنياً فإن التعديليين المتحدين وكذلك اليقينييين المتحدين يختارون حتماً طريق الدمج بين السلطات القائمة والفروض التى تطرحها وجهات نظرهم . ان منح الدعم للعمال المضربين ، وللطلاب الذين عقدوا مؤتمراً جماهيرياً صاخبا ، وللمفكرين المعتمدين كان تحدياً للاستراتيجية الداخلية للحزب الخاصة بايجاد تسوية مع التعديليين واليقينيين الجدد)) (٢٠)

وقدم متشكك طرحاً ثورياً لتغيير قواعد اللعبة التى جعلت من النظام القائم فى الاتحاد السوفيتى - فى ذلك الوقت - عائقاً رئيسياً للممارسات الجريئة المعادية للنظام . وعلى أية حال فقد رأى متشكك ان الصراع من أجل توسيع هامش الحريات المدنية ممكن ، ومن ثم كانت - الارتقائية الجديدة « أقرب للنموذج الأسباني عنه للبرتغالى فى طريقة الانتقال من الديكتاتورية للديمقراطية . ويعنى آخر ، فقد أصر متشكك على الحاجة الى التغيير بشرط أن يكون تدريجياً لا عنيفاً مكتسماً أو سريعاً مفاجئاً . ان الاختلاف بين المحاولات السابقة من أجل التغيير

واستراتيجية منشك أن الأخيرة قدمت لمجتمع حر وليس للحكام ، ولم يكن ذلك رفضاً للمروماتيكية للحقائق الجيوبوليتيكية ولكنها — الى حد ما — كانت تقريباً للمسافة بين مطالب المعارضة والجانب المحافظ بل والرجعى الامبرالى . ان الارتقائية الجديدة قد استندت الى افتراض مؤداه أن المجتمع يمكن أن يقلع عن ادمان التوتاليتارية وأن أفرادها يمكن أن يتحولوا تدريجياً لمواطنين ودون الدخول فى صراع مع الحكام . وبدأ أن تغلغل البنى القائمة وخلق شبكات متسقة للعمل والاتصال مما أحسن الوسائل التى تؤدى لتقدم هذا النوع من جداول الأعمال . وعلى عكس التجارب السابقة فان الارتقائية الجديدة رأت فى طبقة العمال عاملاً جوهرياً لتحقيق مثل هذا الانتقال السياسى :

« ان « الارتقائية الجديدة » تركز على الايمان فى قدرة الطبقة العاملة التى — بمجابهتها الصاعدة التى لا ترضخ — أجبرت الحكومة فى مناسبات عديدة على تقديم تنازلات مدهشة . »

ومن الصعب التنبؤ بالتطورات التى تجرى فى الطبقة العاملة ، ولكن ليس هناك شك فى أن الائتلاف الحاكم يخشى — أكثر ما يخشى — هذه الجماعة الاجتماعية . وكان الضغط الذى مارسه طبقة الشفيلة ظرفاً ضرورياً من أجل ارتقاء الحياة العامة فى اتجاه الديمقراطية « (١٨) . ان فلسفة الارتقائية الجديدة أصبحت محوراً نظرياً لنشوء المعارضة الديمقراطية فى بولندا وغيرها من الدول التى تقع فى قلب أوروبا الشرقية . وكتب منشك ببصيرته الناقدة عن الأحداث التى مرت فى بولندا بعد ذلك بأربعة أعوام قائلاً :

« لا بد للمعارضة الديمقراطية أن تحدد أهدافها السياسية لتصل لتسويات سياسية كأن يتمرد العمال فتعلن الحكومة أنها « تريد أن تتشاور فى الأمر مع طبقة الشفيلة » بدلاً من التخطيط لمذبحة دموية . وعلى أفراد المعارضة الديمقراطية ألا يعتبروا رد فعل الحكومة « لأنها لم تطلق عليهم النار » تنازلاً كافياً بل على العكس ، يجب أن يظلوا على اتصال وثيق ومتواصل بعامة الشعب ويقدموا حقائق سياسية وينظموا أعمال الجماهير ويجب أن تطرح برامج بديلة وفيما عدا ذلك سيكون وهماً » (٢٢) .

ويرى منشك أن تضامناً قادرة على تجاوز هويتها كتنقابة عمالية لتصبح محوراً يلتف حوله المجتمع المدنى الصاعد . وساهمت طبيعة الحركة المعادية للبيروقراطية وكذلك اتباع برنامج اجتماعى شامل فى تحقيق الصحة للأمة :

« ان جوهر منظمة تضامن العمالية Labor Union Solidarity التي أخذت في تحقيق استقلالها يكمن في استعادة الروابط الاجتماعية ، وتطلب الانضمام للنقابة العمالية ضمان الدفاع عن العمال والحقوق المدنية والقومية . ولأول مرة في تاريخ الحكم الشيوعي في بولندا يبعث « المجتمع المدني » ويصل لتسوية مع الدولة » (٢٣) .

وارتكزت الاستراتيجية الكلية للارتقائية الجديدة على المفهوم السوفيتي للاشتراكية ، بمعنى أنها ارتكزت على ادراك المجتمعات المدنية بأن جهودهم القصوى تتوقف على الهامش الذي يمنحه السوفيتيون في أية دولة تابعة لاجراء تغييرات سياسية . ونشبت الصراعات الشرسة في الاتحاد السوفيتي الذي يحكمه عصبة من الحكام المسنين البرجنيين المتشككين في التغيير باعتباره خطرا يحيق بالمصالح السوفيتية . وقدم ليخ فاونسكا Lech Wilesca المتخصص في الكهرباء والذي تخرج من الترسانة اللينينية Lenin Shipyard في جدانسك والذي أصبح رئيسا لمنظمة تضامن ومن خلال سيرته الذاتية تبريرا لمسياسات « الثورة المقيدة » كما أسماها آدم متشك الذي لعب ولسنوات عديدة دور المستشار لقيادة المنظمة المستقلة . وقدمت سيرة حياة فاونسكا رؤى تفصيلية عن العضلات الاستراتيجية والفلسفية للمعارضة الشرق اوروبية في العهد الذي سبق مجيء جورباتشوف فقال :

« الحقيقة انه بدون اتفاق بين الحكومة والشعب ، ستصعب قيادة هذا البلد ، والحقيقة أيضا أنه رغم البيانات الرسمية عن المهام القومية ، فان هذا البلد لا يتمتع حقيقة بسيادته بل لا بد ان يعترف البولنديون بأن سيادتهم مشروطة بالمصالح القومية والايولوجية لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، وأخيراً فان الحكومة البولندية الوحيدة التي سيقبلها زعماء اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية هي الحكومة التي يسيطر عليها الشيوعيون ، وليس هناك ما يستدعي الاعتقاد في ان الأمور ستغير في يوم وليلة ، أبداً لن يحدث .

ما الذي يستتبع ذلك ؟ يستتبعه ان أية محاولة يقوم بها النظام ضد ارادة الشعب ستؤدي حتما لكارثة ، وستتبعه أيضا أن كل محاولة لاطاحة بحكومة الاضرابات البولندية هي ضربة مباشرة موجهة لمصالح اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية . هذه هي الحقيقة ويجب على كل فرد أن يدركها .

لقد وجه لى زملاء كثيرون اللوم ، واتهموني بالتخلي عن المطامح الخاصة بالاستقلال والديمقراطية — والآن أجيب عليهم بصراحة : فى وضعنا الجيوبولتيكى الحالى لا اعتقد بان الوصول للاستقلال والبرلمانية فى مقدورنا الا اننى اعتقد فى امكانية التخطيط للاستقلال من الداخل ، وبمعنى آخر عندما نصبح مجتمعا أفضل على مستوى التنظيم والفاعلية فاننا سنشرى أوربا وبقية العالم ويمكننا أن نقدم خياراً بديلاً معطين عن تسامحنا وإنسانيتنا . وعندما نقوم بذلك ستكون على درب الاستقلال والديمقراطية .

ان التعددية فى كل مواقع حياتنا ممكنة ، وإزالة الرقابة ممكنة ، والإصلاح الاقتصادى المنطقى ممكن ، والسياسة الاجتماعية العادلة ممكنة ، الصحافة والتلفزيون الخاضعان لقواعد المنافسة وبتت الحقائق ممكنان ، استقلال العلوم واستقلال الجامعات ممكنان . وسيصبح ذلك تحكم مجتمعى فى الاسعار وشبكة من مجالس المستهلكين يواكبهما محاكم قضائية مستقلة وأقسام للشرطة لا يعذب فيها الشعب .

سنحقق ذلك بالقوة لو لزم الأمر — بل سننتزعه من الحكومة فالحقوق لا تؤخذ أبداً كمنحة . لابد أن نكون حذرين اذا اضطررنا للضرورة لاستخدام العنف كى لا نمزق الدولة اليونانية اربا وكى لا نحرماها من سيادتها التى لها بالفعل (٢٤) .

ان كلام متشكك السابق دعوة لنبد السلبية ، وتضمنت مهمته التى بدأت أثناء حركة احتجاج الطلبة فى جامعة وارسو فى الستينيات ، تكوين منظمة الدفاع عن العمال ، والمشاركة فى فريق ليخ فاونسا من المستشارين ، ان فلسفة الارتقائية الجديدة كانت محاولة لاجاد مخرج من الورطة التى خلفها نظام ما بعد التوتاليتارية — أو فى ضوء النهاية التراجيدية لربيع براغ وعدم اجراء تغييرات أساسية فى مركز الامبراطورية واعتبار الكرملين بلدان أوربا الشرقية امتداداً طبيعياً لامبراطوريته الداخلية أدرك المناضلون أن أية محاولة لتحدى وتغيير شكل السلطة الحالى ستؤدى حتماً للتدخل السوفيتى . ورغم كل الظروف كان لدى المناضلين المدنيين الكثير ليحققوه فى البلدان الأوربية الشرقية المركزية وأهمها انشاء بنى متناسقة من المؤسسات ومن ثم أصبحت الحاجة ملحة لانشاء منظمة كتضامن . ولم تكن المنظمة الجديدة مجرد حركة يقتصر عملها على الدفاع عن مصالح العمال ، بل كانت — كما أشار فاونسا نفسه — صعوداً لشكل جديد من السياسات حيث عارضت الازدواجية التى يمارسها الحكام . وفيما بعد سيتحدث فيتسللاف هافيل

عن سياسة المصارحة وهو المعنى الأعمق الذي يكمن وراء انتصارها على مبادئ السياسة الواقعية Real politik ، لقد تحول الحكم لحركة جماهيرية وانتصار للعقيدة الانسانية على البرجماتية البيروقراطية . ويصف ليخ فاونس - فى سيرته الذاتية - تجربة تضامن على انها بداية لشكل جديد من السياسات ، وتجربة تضع فى الاعتبار المخاطر القضى التى تتحدى الانسانية وحقوق الانسان . ان السياسات الجديدة لا تصف المجتمع الشعبى بالعصبوية ، وتؤكد على حق كل فرد فى الاختلاف وحق العصيان المدنى . ان اهمية منظمة تضامن يرجع لتجاوزها حدود بولندا ، فكان ميلادها أحد التطورات التاريخية التى رفعت الستار عن فصل جديد فى تاريخ الأمة القومى بل وبشرت بنظام عالمى جديد . وقال فاونس فى هذا الصدد :

« ان تضامن هو إشارة أخرى تدل على بدء العهد الجديد . وان احمال الماضى قد زالت عن كاهلنا ، وهى تحثنا على البحث عن حلول جديدة ، وتحثنا على تحدى المشكلات المعقدة . اننا - البولنديين - تعرضنا لضغوط من كل الجوانب وكان لزاما علينا ان نختار ، ان نتحقق من التجربة من أجل أنفسنا ، وان نشد من أزر بعضنا البعض وأن نستخلص من أعماقنا القوة المعنوية الضرورية للتأثير والتغير . ورغم اننا كبنا بقيود النظام المتحجر وعواقب حقبة خارج العصر وخارج كوكبنا ، فأننا فى أغسطس ١٩٨٠ قد تجاوزنا كل المخاطر وعجلنا بفجر عهد جديد . ان الأمة البولندية قد حققت ذلك أمام أعين العالم وبمنتهى القوة ودون تهديدات ودون عنف ودون دماء ، واننا لم نطرح أيديولوجيات ، ولا نظريات اقتصادية أو مؤسسية ، اننا ننشد ببساطة الكرامة الانسانية . وفى كلا المعسكرين الحر وغير الحر ، فان هذا الحدث البطولى قد اعتبر عملا ثوريا . ولكننا لا نرى فيما حدث أى شئ ثورى . اننا شعرنا بالفوضى التى نعيش فيها منذ سنوات طويلة وبدانا نعرف أين نقف » (٢٥) .

ان النظرة الاستراتيجية التى قدمتها الارتقائية الجديدة تضمن ازدهار ثقافة سياسية بديلة فى بولندا دون حدوث صدام مباشر مع الائتلاف الحاكم .

لقد حاولت الحكومة البولندية القضاء على تضامن فى ١٩٨١ لاهتماماتها بمستقبل النظام السياسى وتحولها بقوة سياسية فتية بل ويسبب ضغوط الاتحاد السوفيتى . ويمكن للمرء أن يتصور رد فعل برجنيف وسيسلوف واللينينيين الأرثوذكس الآخرين على صعود نقابة مستقلة فى دولة تقع الى جوارهم .

لقد انتابهم الذعر خشية حول نضامن لعدوى يصيب باقي دول أوربا الشرقية وربما الاتحاد السوفيتي نفسه . أن اعلان ياروزلسكى للقانون العسكرى لم يرجع كلية لاحتمال التدخل السوفيتي المباشر في شئون الدولة . ان الدليل الواضح على طبيعة سقوط ١٩٨١ الذي خطط له منذ امد ظهر في وسائل الاعلام البولندية اثناء الحملة الرئاسية فى ديسمبر ١٩٩٠ عندما ترك ياروزلسكى الساحة السياسية وانتخب ليخ فاونسا رئيسا ، وطرح — على الفور — خيار التدخل العسكرى السوفيتي وتم حظر جميع أنشطة نضامن بعد أن وقعت اتفاقيات جدانسك فى أغسطس عام ١٩٨٠ وقبل ممارسة الاتحاد السوفيتي لضغوطه (٢٦) . وفيما بعد وبعد أن تغيرت رؤية الاتحاد السوفيتي للعلاقات التى تربطه ببلدان الكتلة قرر الكرملين ترك الحرية لكل بلد ليتبع مسارها السياسى الخاص بها ، وتم استبدال الحدود الجيوبولتيكية الصارمة والتى فرضت تاريخيا لاحداث العزل التام لتلك الدول بغرض افساح المجال للتجريب .

لقد فشل حكام بولندا فى اجراء اصلاح اقتصادى فعم السخط الاجتماعى وأضرّب العمال وأصيبت الصناعة بالشلل . ان تضامن استمرت سراً رغم محاولات السلطة لقمعها . ان شبكة الصحافة السرية المستقلة التى تمتلكها تضامن ساعدت فى عودتها للمسرح السياسى فجأة باعتبارها ممثلا سياسيا يحظى بمصداقية كبيرة .

وبحلول عام ١٩٨٨ أصبحت القضية تحدى النظام السياسى نفسه وتفرد النظام بالسلطة السياسية فى بولندا . وساعدت الارتقائية الجديدة فى تحويل الموقف لعمل ثورى خاصة بعد أن أثبتت الإصلاحات التى جربت فشلها وعدم جدواها . . ان تجاوز الوضع الراهن من خلال تنظيم انتخابات حرة كان البديل الوحيد لموقف هذه المعاناة . . وقد علق البريطانى تيموثى كارتون آش Timothy Carton Ash محرر المقالات السياسية المتمرس قائلاً : « ان ما حدث فى الشهور الأولى من عام ١٩٨٩ فى بولندا والمجر ليس مجرد رتق تقليدى للنظام أو مجرد تحكم المعارضة فى قواعد اللعبة البالية ولكنه كان — الى حد ما — دمجا للإصلاح والثورة معا فى خليط استراتيجى فريد انطوى على تبادل للثقة وقبول الحكومة لشريك — أى المعارضة الديمقراطية — وهو الشئ الذى كان يعد المستحيل عينه . ورأت المعارضة أنها للمرة الأولى تدخل فى صفقة تاريخية يمكن أن تصل بهم الى السلطة » .

ان انقسام الشعب لفريقين « اصلاح أو ثورة » أصبح شئيئاً مألوفاً فى بولندا والمجر فى بداية عام ١٩٨٩ :

« ان ما يحدث الآن هو خليط واحد من الاصلاح والثورة : ان « ثور اصلاح » او ربما « اصورة » . وفي الاثنين هناك مؤثر قوى وجوهري لاجراء اصلاح فدائى وحتمى تقوده الاقلية المستنيرة (اقول الاقلية فقط) في الاحزاب الشيوعية التى مازالت تحكم وتترفع — في بولندا على قمة القوة العسكرية والبوليس . ان تقدمهم يكمن في تفهقر للسلطة غير مسبوق ، وشرعوا في اقتسام السلطة والحديث عن الانسحاب منها في نفس الوقت اذا خسروا الانتخابات » (٢٧) .

هذا ما حدث في ثورة عام ١٩٨٩ حيث زالت كل الاعتبارات السابقة الخاصة بالبرجماتية التكتيكية كما رفعت كل الاعباء عن كاهل الشعوب وذلك على اثر هامش المرونة السوفيتى الجديد الذى منحته للدول التابعة .

ان جورباتشوف اقر فى السبعينيات والثمانينيات فلسفته الجديدة الخاصة بالعلاقات الدولية والتى ارتكزت على سيادة القيم الانسانية العالمية ، ولم يكن يخطر لأحد أن استمرار الهيمنة على كل بلد اوروبى شرقى يمكن أن يتحطم بمثل هذه الطريقة الراديكالية . واصبح حتميا على استراتيجية المعارضة ان تركز على تدشين حقيقة اجتماعية جديدة تختلف عن ذلك الاطار المؤسسى الرسمى الذى يتركز على الاكراه والاكاذيب .

✽ السياسات المضادة للسياسات : كيف بزغ المجتمع المدنى :

ان الكاتب التشيكي المدافع عن حقوق الانسان فيتسلاف هافيل كان افضل من عبر عن الالتزام بسياسة المصارحة . وانضم هافيل — اثناء ربيع براغ — للمفكرين الذين انتقدوا مصلحى الحزب لجنهم عن اختراق النظام السوفيتى التقليدى ، محرم الشاب الذى تنتمى اصوله لاحدى العائلات البرجوازية من حقه فى استكمال تعليمه الجامعى وعانى هافيل من سياسة التعصب والتمييز بين الافراد التى تنتهجها الحكومة، كما اكتشف عدم وجود علاقة تربط بين ديماجوجية النظام والحقيقة الاجتماعية لتشيكوسلوفاكيا ، وعبرت مسرحياته عن ورطة الانسان الذى يعيش تحت نظم معادية للحقيقة والكرامة . ورفض هافيل بعد الغزو السوفيتى لبلده الهجرة واستمر فى النضال من أجل الحصول على الحقوق المدنية فكان عضوا مؤسسا لميثاق ٧٧ ، وأحد المتحدثين الرسميين عنه ، واعتقل هافيل عدة مرات بسبب صراعه الذى لا هوادة فيه مع السلطة . وفى عام ١٩٧٩ قرر المنشقون التشيكوسلوفاكيون البولنديون أن يتعاونوا لنشر مجموعة من المقالات بعنوان : « الى الحرية

والسلطة » ، الا أن الطبعة التي صدرت تضمنت أسهامات تشييكوسلوفاكية فقط عن الموقف السياسي في كلا البلدين ولكن البولنديين اطلعوا عليها وقدروها حق التقدير . وأشار زيجنيو راجيك زعيم منظمة تضامن وارسو - Warsaw Solidarity للمقال الذي حرره هافيل في هذه الطبعة وكان بعنوان « قوة المتهورين » حيث قدم للمعارضة من خلاله « الخلفية تاريخية » والأساس النظري لأعمالنا » (٢) . لقد أبدع هافيل عندما دمج وبطريقة مؤثرة الأفكار والآمال والعواطف التي عبرت عنها الجماهير بعفوية وبشكل راق . وقدمت الحركات الجديدة في أوروبا الشرقية تفسيراً نظرياً يقنع الجماهير بشرعيتها السياسية . وتم إعادة طبع هذا الملف من المقالات التي حررها المفكرون المبدعون الا أن مقال هافيل قدم تحليلاً مركزاً وجامعاً لطبيعة السلطة ، والانشقاق ، والمعارضة في مجتمعات ما بعد التوتاليتارية .

ويتعرض مقال « قوة المتهورين » للأزمات المعنوية العميقة التي يعاني منها الفرد في المجتمع غداً فيه الإرهاب متفشياً ومتخفياً في آن واحد، بل انه لجأ لكل أنواع القمع بشكل غير مسبوق . وطرح مقال هافيل استراتيجية لتحرير الفرد كما طرح بديلاً لفلسفة الاستسلام والعجز التاريخيين .

وكان هافيل يؤمن بإمكانية سحق منطق الاندماج وأن الحرية مطلب لا يمكن قبحه أبداً .

ويصف المقال الموقف السياسي والمعنوي في تشييكوسلوفاكيا المحايدة في عهد هوكسا حيث أصبح التجاهل والتناسى سياسة قومية رسمية ، كما أكد المقال على إمكانية انهيار المجتمع التوتاليتاري الذي يعاني من الاضمحلال .

ان التزام النظام بحد أدنى من المصارحة يعطى الفرصة للأفكار الناقدة كي تأتي في الصدارة وتحدث الأثر الاجتماعي المرجو منها . ويتعامل مقال هافيل تحديداً مع المنطق الاجتماعي والمقدمات السيكلوجية للانشقاق ويحدد السمات التي تميز مجتمع ما بعد التوتاليتارية ، ان مجتمعات ما بعد التوتاليتارية سمحت بأشكال وليدة من التمردات اذا ما قورنت بالأوضاع الستالينية حيث خضعت كل أشكال النقد الحقيقي والبناء للقمع اللفظي . ان الجهود الجماعية التي تبذل من أجل التحرر القومي كانت مستحيلة في بلدان مثل ألمانيا ورومانيا ، ذلك لان انظمتهم جمعت كل خيوط السلطة في يدها - وصاحب التخلص

من السلطة الشيوعية في تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا السماح بهامش محدود من الأعمال النقدية . لقد تميز نظام ما بعد التوتاليتارية بسمتين : الأولى اعتماد النظام الفاشي على الأوتوماتيكية (٢٩) والآلية أكثر مما يعتمد على أشكال التعبئة التقليدية للتضامن والتعاون ، والثانية إيمان الفرد بأن أحداث التغيير في الظروف الراهنة لم يعد مستحيلا ، ولم يعد التعاون مع السلطة القائمة هو السبيل الوحيد للبقاء .

لقد أصبح كل فرد - القوى والضعيف - واعيا بالخدع والاساطير القديمة كما جرؤ البعض على التعبير عن رأيه علانية . ان الاقلية المحاصرة التي تغلغل عن رأيها دون خوف هي البديل لاقامة نظام على أسس متينة :

« إن الشبح يطارد أوروبا الشرقية ، شبح ما يسمى في الغرب « انشقاق » ، ألا أنه لم يظهر للعيان بعد ، إنه النتيجة الطبيعية والحتمية للحالة التاريخية القائمة لهذه الأنظمة . لقد ظهر في الوقت الذي عجز الحكام فيه - لآلاف أسباب - عن اقامة نظام شرعي دقيق وكفى بالتخلي عن كل العبارات التي تشجب اللا امثالية او الانشقاقية . وفوق ذلك لقد أصبح النظام متحجرا على المستوى السياسي فلم تعد هناك أية طريقة عملية كيما تنفذ الانشقاقية داخل بناء الرسمية » (٣٠) .

لقد تشربت الحياة - تحت وطأة الأيديولوجية الستالينية - بالأساليب الاحتكارية المستبدة وأجبر الفرد على المشاركة في طقوس جماعية من أجل «الاثارة الثورية» ، البطولية ، والتفاني والعنف الشديد ، ومن ثم بدت مؤسسات النظام التوتاليتاري منهارة تماما ، وأصيب أدباؤه بالاعياء التام .

وما تزال - بالطبع - الأيديولوجية قائمة ، في مجتمع ما بعد التوتاليتارية الا انها بقايا من آثار الماضي وعاجزة تماما عن اثاره مشاعر وردود أفعال العامة من الجماهير .

ودلل هافيل على الأيديولوجية التي تتصف بالاحتكارية والازدواجية بحكاية رمزية يصف فيها بائعا للخضر والفواكه وقد وضع في واجهة محله بين البصل والجزر شعرا يقول : « يا عمال العالم ، اتحدوا ! » . حقيقة ، ان الخضرى لا يعبر أى اهتمام لاتحاد بروليتارية العالم أو عدمه ، بالاضافة لذلك فهو يدرك تماما أن وضعه للشعار في الواجهة

لم يرفع من شأن قضية الدولية البروليتارية ، وليس هناك شيء أكثر بعداً عن اهتماماته اليومية من الشعار الماركسي الذي ينادى بوحدة عالمية للعمال . والسؤال الذي يجب أن نطرحه هو : إذا كان الخضرى لا يبالى بمحتوى الشعار فلماذا تصرف على هذا النحو ؟ ويجيب هافيل بأن الخضرى — بأدائه لهذه الشعيرة — يؤكد للسلطات التى أعطته هذا الملصق أنه يتصرف بمنتهى الانضباط ووفقاً لما تنتظره منه باعتباره جزءاً من الكيان الاجتماعى .

وإذا رفض التاجر أن يعرض الملصق فسوف يهدد تماسك هذا الكيان ويقوض قواعد الامتثالية ويتعرض للخطر . ورغم كل شيء فإن الخضرى سيسأل نفسه ماذا بشأن عهد الوحدة العالمية ؟ ولماذا يجب أن يضع هذا الملصق بين التفتح والجزر ؟

وقال هافيل إن المعنى الخفى وراء تلميح بائع الخضر والفواكه تعود مباشرة لامتثاليته للأيديولوجية : « إن الشعار إشارة تحتوى فى حد ذاتها على رسالة بصعب فهمها إلا أنها محددة . إن الخضرى يقول لنفسه :

« اننى الخضرى فلان أعيش هنا وأعرف ما ينبغى أن أقوم به . اننى أتصرف بالطريقة التى ينتظرونها منى . ويمكن أن يعتمد على وسأبقى بعيداً عن أى لوم . اننى مطيع ولذا فلى الحق فى أن أعيش فى سلام » (٣١) .

وإذا رفض الخضرى أن يذعن للشعار فإنه بذلك سيمزق السلوكيات السوية التى أقرت اجتماعياً .

إن الفرد فى مجتمع ما بعد التوتاليتارية لن يكون عابداً متحمساً للقائد الأعلى ، وكفى للمرء أن يصدق على قواعد الإتساق والاندماج باتباعه لها . إن التزام البائع بأداء هذه الشعارات يعينه على تحمل النظام ، أما إذا واجهنا الخضرى بأن سلوكه يعد سلوكاً ذليلاً وخاضعاً لأوامر السلطة ، فسوف يدافع عن نفسه قائلاً إن عرض هذا الشعار فى واجهة محله لن يضير أحداً . وعلى أية حال فإن هذا الشعار فقد — منذ أمد — كل معنى راق يحمله ، ولم يعد يلقى أدنى اهتمام . وأن وضع الشعار فى واجهة المحل يضمن للخضرى الاحترام فهو يلتزم بما تريده السلطة ولكن ، دون أن يعترف بأدغائه الأخلاقى كأنه يقول :

« اننى ضعيف ، وخائف ، ومرعوب ولذا فأننى أكذب » ويقول : « اننى فقط أشايح — ولو بطريقة تجريدية . قضية لا تضر ولا تنفع . اننى أفعل ما يجب أن يكون ؛ لأن تغيير العالم ليس من شأنى » .

ان كشف الزيف الايديولوجي للعبودية هو الدعاية الاساسية لنظام
ما بعد التوتاليتارية .

« وهكذا فان هذه اللافتة تساعد الخضرى على خداع نفسه كي
لا يعترف بأنه ذليل يخضع للسلطة . ان اللافتة تخفى خلف ظهرها
الخارع شيئا اكبر . هو الايديولوجيا . ان الايديولوجيا ليست طريقة موثوق
بها لزرع الانتماء . ان الايديولوجيا تقدم للفرد وهم الهوية ، والفرض ،
والاخلاق ولكنها فى نفس الوقت تجعل التخلي عنهم امرا يسيرا ،
وباعتبارها مستودع كل شيء موضوعى « يتجاوز الفرد » فانها تكسب
الناس قدرة على خداع انفسهم وتجميل الوضع الحقيقى والتواءم مع
انفسهم والعالم بطريقة التسويات المهينة . ونلقى الايدولوجيا كل
تشجيع لانها تضى الشرعية على كل شيء . انها موجهة نحو الشعب
ونحو الله . انها الستار الذى يمكن للبشر ان يخفوا وراءه « وجودهم
النساقط » وتفاهمهم وتكيفهم مع الوضع الراهن . ان كل فرد يستطيع
ان يجد عذرا يبرر به فعلة الخضرى الذى يخفى رعبه - خشية فقد
وظيفته - خلف مصلحته المزعومة فى اتحاد عمال العالم ، كما يبرر
الموظف الكبير مصلحته فى البقاء فى السلطة باستخدام عبارات مقنعة
عن خدمة الطبقة العاملة . ومن ثم فان طريقة التبريرات التى تستخدمها
الحكومة تجعل الناس سواء اكانوا ضحايا الانظمة التوتاليتارية ام من
دعائنها يعيشون فى وهم مفاده ان النظام السياسى فى اتساق مع
المنظومة الانسانية والنظام العالمى » (٣٢) .

ان الايديولوجية هى بديل للارهاب الصريح وبديل لغذاء العقل
ويستخدمها النظام للقضاء على اى شكوك قد تنتاب مواطنيه . ان
الايديولوجيا حقرت من القيم الانسانية فقدست الهزائم المعنوية وجرمت
البطولة الاخلاقية . ان انشاء المجتمع المدنى فى اوربا الشرقية يتطلب
التمرد ضد الدور الارهابى للايديولوجيا .

ان المجتمع المدنى كان محاولة لجعل المناخ الشعبى معاديا
للايديولوجيا وللخروج من الشكل السياسى الزائف الذى لجا للمناورة ليمنع
ممارسة حقوق الانسان . وحاول المجتمع المدنى ان يعيد - دفاعا عن
« الاهداف الحقيقية للحياة » - تكوين حس اصيل لتحقيق التضامن
الانسانى ، كما رفض ادعاء النظام السياسى العالمية واستمر الصراع
فى كل بلدان شرق اوربا - باسم حق الاختلاف - فى التفكير والعمل -
لتحقيق تحرير المجتمع وعنتقه . وفى الوقت الذى استخدم النظام الامتالية
والفرقة كدعامتين له ، نبع المجتمع المدنى من الابداع والاصالة
والتمرد .

ان فضح الزيف الذى يحمله جوهر نظام التوتاليتارى و « الآلية العمياء » التى تضمن تكاثر هذا النظام كان أحد أهداف المجتمع المدنى الصاعد . ولا بد ان نفهم — قبل طرح البديل — سمات النظام القائم ، فقد لجأ للمحاكمات الصورية والارهاب البشع لقهر الشعوب ، واقتصر لى دعم شعبى أصيل ، كما فشلت أيديولوجيته فى استثارة التوهج الجماهيرى ، وبدد النظام — بفساده وجموده — الطاقة البشرية . لقد شعرت الجماهير بحسها الشعبى — ان النظام أفسد ولم يعد بمقدوره تقديم أى شىء لهم الا أن الأقلية هى التى جاهرت بذلك . ورأى هافل أن سرمدية النظام تكمن فى قدرته على المناورة باستخدام الشعارات والرموز . واللجوء الى التمسك والاكراه أكثر من أى شىء آخر .

« ان النظام التوتاليتارى يطارد أفراد الشعب ، ولكنه يفهم ذلك وهو يرتدى قفازات أيديولوجية ، مما يؤدي الى تفشى النفاق والاكاذيب فى كل جسوانب الحياة : فالحكومة البيروقراطية تدعى أنها حكومة شعبية ، وتستعيد الطبقة العاملة باسم الطبقة العاملة ، واعتبرت تجريد الفرد التام من كل حقوقه هو أقصى تحرر يمكن أن يحصل عليه كما تعتبر حرمان الناس من معرفة الحقائق ، قسرا لها ، وتدعى ان المناورة طريقة للتحكم فى الجماهير ، ويسمى الاستخدام القسرى للسلطة باسم التطوير ، ويعد التوسع فى نشر النفوذ الامبريالى دعما للهيمنة ، وبعد كبت الآراء الحرة اسمى شكل من اشكال الحرية وتتحول هزيمة الانتخابات لاسمى اشكال الديمقراطية ، ويصبح حظر التفكير المستقل هو أكثر الرؤى العالمية علمية ، ويعتبر الاحتلال العسكرى مساعدة أخوية . لقد زيف النظام كل شىء ؛ لأنه كان اسيرا لأكاذيبه انه يزيف الماضى ، ويزيف الحاضر ، ويزيف المستقبل . انه يزور الاحصائيات ، وينكر ملكيته لأجهزة بوليس كلية النفوذ وغير مسئولة . انه يتظاهر باحترام حقوق الانسان وبعدم لجوئه للارهاب . انه يتظاهر بأنه لا يتظاهر بشىء » (٣٣)

لقد قدم هافل تحليلا بارعا وعميقا للحقبة التوتاليتارية وكشف الأسس التى عمل بها النظام البرجنىفى ورأى انه لم يستخدم الأساليب التقليدية الفظة لارهاب الجماهير ، انه جعل المعاناة أقل وضوحا للعيان وحاول أن يلغى الحاجز بين الضحايا ومعذبيهم ، فالفارق بين هاتين الطبقتين بتلاشى تماما فى ظل نظام يجبر كل شخص على المشاركة فى اكذوبته الكبرى . ان النظام تعلق بالعقيدة الرسمية لأنها مصدر حياته بغض النظر عما تحمله من اكاذيب واضحة للجميع . ان ثقة الائتلاف الحاكم بنفسه تزداد كلما كانت ادعاءاته الأيديولوجية أكثر حبكة وحيطة .

ان الأيديولوجية تنادى بالاقتصاد المخطط وتبرر وضع قيود على حقوق الفرد وتمجد « الدور المقدر » للحزب الشيوعي ، ودونها ينهار النظام تماما . ومع توقف الدعم والتشجيع .

وفى الحقيقة ، فانه فى الوقت الذى يتقدم الاتحاد السوفيتى للائتلافات الحاكمة باعتباره سندها فان الانظمة الشرق أوربية انهارت مثل يدوت من ورق . وأطلق هافيل على نظام المبادئ الأيديولوجية ، والحظر ، وفرض القيود على كل الحريات « النظام الميتافيزيقى » :

« ان النظام الميتافيزيقى كان أساسيا للينينية الكلية للسلطة ، وهو نظام يفرز شكلا للاتصال يجعل التغيير الداخلى وثقل المعلومات والتعليمات ممكنا ، كما يضمن الاتساق الداخلى لبنية السلطة التوتاليتارية . انه الصمغ الذى يلحم بناها بعضها ببعض ، انه العقيدة والأداة ، ودون هذا الصمغ فان البنية - كبنية توتاليتارية - ستسقط وتتحول الى جزئيات فردية متضاربة ومتناقضة مع بعضها البعض فى المصالح والسمات - ان الهرم الكامل للسلطة التوتاليتارية والتي تفتقر الى التماسك سوف ينهار ويتحول الى ركام كما لو كان الانفجار من الداخل » (٣٤) .

ان مثل هذه الفاشية الأيديولوجية ليس لها أى أساس منطقى مقنع ، ويجب على الأفراد - من خلال سلوكياتهم أن يصدقوا على شعاراتها رغم عدم ايمانهم بها لزيها . ان المفاتيح التى استخدمها النظام التوتاليتارى لفرض هيمنته هى : أن تؤمن ، أن تكذب ، واستخدم تعبير « كما لو » تعبيراً عن آلية الخداع التام للنفس .

« ان الأفراد ليسوا فى حاجة للايمان بكل هذه الألفاظ المحيرة ، ولكن لابد أن يؤمنوا بها أو على الأقل يجب ألا يرفضوها أو يلتزموا الصمت ولا بد أن يتواءموا مع من حولهم ، ومن ثم فرض عليهم العيش فى كذبة . انهم ليسوا فى حاجة لأن يقبلوا هذه الكذبة ، انما يكفى أن يتعايشوا معها وداخلها . ويقدر ما يصبح ذلك حقيقة واقعة ويقدر ما يعبر الأفراد عن رضاهم عن النظام يظل هذا النظام قائما » (٣٥) .

ان الارهاب المعنوى للجماهير هو أهم ما تركز عليه السلطة التوتاليتارية . ويكتسب النظام قاعدته طامنا قبل المواطنين أكاذيبه ، وكلما ظل المواطن العادى - الخضرى - مصدقا على هذا الهراء الأيديولوجى رغم وعيه بانها محض أكاذيب سيظل النظام على حاله .

ان القضية ليست نحديدا لمصدر القمع في الحكومة ولكنها نحدید الكيفية التي كبل بها الأفراد ببنية السلطة . ان الحکام مسئولون مسئولية مباشرة عن الاجراءات القمعية الا ان المواطنين كرسوا الوضع القائم بطاعتهم العمياء ورفضهم للمصارحة بالحقيقة . وراى هافيل أن قدرة النظام على تحويل ضحاياه الى شركاء جعل الأنظمة التوتاليتارية تبدو مختلفة عن الديكتاتوريات الكلاسيكية . وتلاشت فكرة التغيير الأصلية وحاول الأفراد ان يتوافقوا مع ما يبدو لهم أنه الشكل الممكن والوحيد للبقاء ، ويتقبلون ديماجوجية النظام وبرددوا شعاره ومن ثم يدعموها .

ولم يسفر هذا التعقيد عن تردى الروح المعنوية لدى الجماهير وتفشى اللامبالاة بينهم فقط بل عن يأس تام من التحرر من النظام . ان النظام التوتاليتارى الشزوفرينى لم ينفذ الى المستويات المؤسسية والسوسيولوجية فقط بل والى الجوانب السيكلوجية والعاطفية للأفراد ، ان الخضرى - عندما يرفع الشعار المضحك الذى نادى بوحدة البروليتارية - فإنه يقول للعالم انها الطريقة الوحيدة للبقاء ، ومن ثم فلا مفر من الامثال للأوامر الرسمية ، ولكننا نقول له الليبرالية تبدأ من الفرد ؛ لأنها عتق للذات وتحرر من امبراطورية الأكاذيب وتبدأ بقرار من الفرد أن يعيش الحقيقة . ان العتق والتحرر من الزيف المتفشى فى كل مكان لا يمنح من الآخرين ولكنه قرار من الفرد - الخضرى - بأن يضع نهاية لما يرى انه شكل شاذ من انكار الذات ، انه قرار من الفرد بأن يعيش وفقا لمعتقداته ، ومشاعره الحقيقية ، وان يرفض الأكاذيب ويعيش الحقيقة . وعندما يرفع الخضرى الشعار من واجهة محله ويرفع صوته بانتقاد مساوئ الحکام ، فإنه حتما سيساعد هؤلاء الذين لم يأخذوا قرارهم بعد وما زالوا رهائن للأكاذيب الرسمية وسوف يزدرونه ويهاجمونه لخرقه القواعد ، وسيحول المنشق تجراً ورفض أن يعيش عبدا الى الأبد . ان تمسك الفرد بانسانيته سمة آدمية حتى لو أدى ذلك للحط من قدره أو الى لفضله ونبذّه .

ان أهمية تمرد الخضرى لا تقتصر عليه كفرد فالنظام سوف يقتفى ما قد يتركه مثل هذا التمرد من أثر معد على بقية الأفراد ويقضى عليه .

((ان تمرد الخضرى لم يكن مجرد اهانة وجهها فرد للنظام ولكنه أكثر خطورة من ذلك ، لأن خرقه لقواعد اللعبة سوف يثير الفوضى

وسيفضح اللعبة • لقد كشف عالم الأكاذيب والمظاهر ، وحطم العماد الأساسي للنظام • لقد قلب السلطة رأسا على عقب بتمزيقه لما تم دمج وتوحيده • لقد أعلن أن هذه الحياة عيش في الأكاذيب ، وكشف عن وجه النظام القبيح وفضح ما يركن اليه النظام من دعائم واهية • أن ما قام به الخضرى يعد خطابا موجهًا للعالم • لقد جعل الآخرين ينظرون ويحدقون فيما يجرى وراء الستار ، واثبت للآخرين أن العيش في الحقيقة شيء ممكن • أن العيش في الأكاذيب يمكن أن يمنح الشرعية للنظام عندما يكون نظاما عالميا • أن النظام لا يمكن — تحت أى ظروف — أن يتعايش مع الحقيقة ، ولذا فإن أى شخص يتجاوز الخط المرسوم يعد تهديدا لسلامة النظام وكماله » (٣٦) •

أن تحدى الخضرى السافر للنظام تعبير عن صحوته ورفضه للنفاق الذى هو لب النظام التوتاليتارى • أن كل فرد يعرف تمام المعرفة أن النظام مجرد كذبة واضحة وروتينية إلا أن المكاشفة بذلك تعد جنونا محضا وانتهاكا لكل المحظورات — أن تمرد الخضرى يكرس شسكلا مختلفا من السلوك يسمح للفرد بالعيش في الحقيقة ، وهو ما يعنى — بكل المقاييس — الحق في الحياة وذلك لأن العيش في الأكاذيب يعنى تشويه الحياة وإجبار الإنسان باستمرار على أن يخالف ضميره • مستشعرا ازدراء النظام واستخفافه بذاته •

أن تمرد الخضرى يعد لكل هذه الأسباب عملا مشينا من وجهة نظر النظام لأنه تهديد لاستمراره وثقته في إجبار مشيعيه على الكذب الى الأبد :

« أن النظام لا يرى في عيش الحقيقة ورفض الرياء أى أبعاد إنسانية (أى عودة الإنسان لطبيعته الأصلية) أو أبعاد فكرية (الكشف عن الحقيقة كما هي) أو أبعاد أخلاقية (ظهور قدوة للآخرين) • ولكنه يرى أن لها أبعادا سياسية واضحة تماما • وإذا كان العماد الأساسي للنظام هو العيش في كذبة ، فليس من المدهش إذن أن يمثل له العيش في الحقيقة خطرا محققا • ومن ثم فقد لجأ للقمع العنيف لاختفاء الحقيقة » (٣٧) •

أن فرار الفرد بخرق الدائرة السحرية التى ضربت حوله فيتحدى السلطة القائمة ويعلم الحقيقة كان مقدمة منطقية لخروج المجتمع المدني للحياة ، وعندما يقوم كل فرد بذلك يقدم المساعدة للمجتمع كى يحيى حياة مستقلة ، ويستوعب أشكالا متعددة لبدائل ووسائل علاجية •

وسوف يحاول النظام بالطبع أن يمحى هؤلاء ، ويقنع الآخرين بأن هذا السلوك لا ينطوى على أى دوافع نبيلة ، ولكنه ينبع من عقل مشوش .

ان الصراع بين آلة القمع والفرد صراع غير متكافئ بالطبع والقادرون على تحمل المشاق المصاحبة لظروف الانشقاق قليلة . ان الموقعين على ميثاق ٧٧ ، كمثال ، والذين قضوا أعواما طويلة في المعتقل عملوا بوظائف وضيعة ولطخت سمعتهم وشوهت صورتهم في الاعلان الرسمي ، الا أن الفعالية السياسية ، والمشاركة في مبادرة مدنية غير رسمية يعد خطوة للأمام تساعد في بلورة خيار سياسى بديل .

ورغم أن ميثاق ٧٧ لم يشر الى طبيعته التعددية ورفض أن يقر فلسفة سياسية بعينها الا أنه يعتبر خطوة سياسية هي الأولى من نوعها . وفي ذات الوقت فإن معاشية الحقيقة - حسبما رأى هافيل - لا يعنى بالضرورة التزاما سياسيا مباشرا وان الأثر الاجتماعى لرفض الفرد التعاون مع النظام لا يجب أن نبالغ فيه . ان نقطة الانطلاق لهذا الانفصال عن منطق الدمج هي في الواقع قرار بالتوقف عن الكذب ، ان تعبر الفرد عن رايه الحقيقى ، ورفضه لقبول الوضع الراهن بأوهامه وأساطيره واضرارته على حريته الروحية كلها أشكال من العيش في الحقيقة تتعارض - في نهاية الأمر - مع اصرار النظام على احتكاره للسلطة . ان العيش في الحقيقة ليست بالضرورة شيئا خارقا ولا تتطلب - كى تتحقق - أعمالا فدائية أو استشهادا . وقد اشار هافيل الى ذلك قائلا :

« عندما اتحدث عن العيش في الحقيقة ، فمن الطبيعى الا يكون في ذهنى مفاهيم بعينها مثل الاحتجاج أو بيان يكتبه مجموعة من المفكرين . ويمثلك الفرد كما تمثلك الجماعات أدوات ووسائل للمتمرد ضد المناورات مثل المنشورات التى يكتبها المفكرون أو اضراب العمال ، أو حجر تلقىه مظاهرة طلابية ، الى مقاطعة الانتخابات المزورة ، أولقاء خطاب صريح في بعض المجالس الرسمية أو حتى الاعتصام . وإذا كان قمع أهداف الحياة عملية مؤقته تستخدم فيها المناورة المتعددة الوجوه ، إذن - وفي نفس الاطار - فإن كل تعبى هر حتى لو كان طبيعيا بالنسبة لأنظمة سياسية أخرى يعد تهديدا سياسيا مباشرا للأنظمة التوتاليتارية » (٣٨) .

ان رد فعل السلطويين على تحدى المجتمعات المدنية الصاعدة فى السبعينيات والثمانينيات اختلفت من بلد لآخر . ان فرص نمو وتزايد المبادرات المدنية كانت اعظم فى المجر (جانوس كادار وفى بولندا (ادوارد جيريك) عنها فى تشيكوسلوفاكيا (جوستاف هوساك) أو عن

رومانيا (نيكولاى شاوشيسكو) ، وبعد أن تبني جورباتشوف سياسات
الجلاسنوست Glasnost والبيروسترويك Perestroika اعتبر الفاعلون
المدنيون في بلدان حلف وارسو الحركة السوفيتية الحديثة فرصة عظيمة
للتقدم صوب اجراء تغييرات كبيرة . وعندما زار الزعيم السوفيتي
اتحاد الجمهوريات الالمانية الديمقراطية في عام ١٩٨٧ هتف له الشباب
الشرق أوروبى تغبراً عن اعجابهم بسياسته وسخطاً على الخط المحافظ
الذى ينفذه اريك هونكر Erich Honcher وتابعوه فى قيادة الحزب
الشيوعى . وفى رومانيا حيث تفاخر شاوشيسكو بخلافه مع الاتحاد
السوفيتي وجهت القيادة تقديراً رسمى الحاد لسياسات جورباتشوف ،
وأحكم الحزب الشيوعى قبضته على كل شرائح المجتمع ، ونحولت
المعارضة فى هذا البلد كجهود فردية بسبب وجود البوليس السياسى ،
وبسبب رد فعل شاوشيسكو المرنى نحو أى شكل من أشكال النقد
حتى لو فى أدنى مستوياته .

ولكن العيش فى الحقيقة لم يكن مستحيلاً حتى فى مثل هذا البلد ،
وكان المناضلون مثل رادوفيليسكو Radu Filipescu (المهندس الشاب
فى بوخارست والذى كان أول من أعلن معادته لشوشيسكو ، ودوانا
كورنيا Doina Cornea (المحاضرة الجامعية فى كالى Cluj التى
أرسلت لشوشيسكو عرائض لا حصر لها تحتج فيها على منساره
السياسى الذى سيؤدى الى كارثة قومية) ، مثلاً يحتذى على التمسك
بإنسانيتهم وحريرتهم حتى فى أحلك الظروف . وتعرض هؤلاء وغيرهم
ممن شاركوا فى أعمال المعارضة الجسورة فى رومانيا وبلغاريا لاضطهاد
أسوأ مما تعرض له أندادهم فى الأنظمة الأخرى التى كانت أكثر مرونة .
ان غياب الحركات الحزبية فى رومانيا مثل حركة تضامن أو حتى
المبادرات الفكرية مثل ميثاق ٧٧ لم تكن تعنى للجماهير أن الحياة
المستقلة للمجتمع قد قُمت للأبد إذ أن انهيار المعارضة التام كان - رغم
كل شيء - مستحبلاً ، واندلعت فى البانيا - الحصن الستالينى
المنيع - المظاهرات الطلابية وغيرها من مظاهر الفعالية السياسية
وذلك بمجرد أن خمد الارهاب التوتاليتارى فى عامى ١٩٨٩ ، ١٩٩٠ .

ان تناول ملحمة المجتمعات المدنية فى أوربا الشرقية بالدراسة
ينطلب دراسة الظروف السياسية التى بذلت فى ظلها الجهود المضنية
لخلق لجان مستقلة . وضمن هذه الظروف نجد «الاستبدادية المستترة»
كالتى لدى قادر الى بارانويا الديكتاتورية المركزية كالتى لدى
شاوشيسكو . وقتئذ أصاب هافيل عندما أشار الى أن تناول تطورات
المجتمع المدنى فى بلدان مختلفة يتطلب أخذ معيارين فى الاعتبار :

أولاً : عند تناول أثر الأنشطة المستقلة لابد ألا نتبع طريقة مقارنة جامدة (إذ كيف نقارن ظروف بلد بآخر) ولكن يجب أن نتناولها في ضوء ظروف كل بلد على حدة .

« أن ما يبدو في دولة ما على أنه استقلال متواضع ومحدود وحذر قد لا يظهر كذلك في دولة أخرى — فإذا أعرب المواطن الروماني مثلاً عن انتقاده للظروف القائمة في بلده ، فإن هذه المحاولة قد تبدو دون المستوى ومتواضعة من وجهة نظر المواطن المجري رغم أن الموقف في رومانيا كان منذراً ، ومن ثم فإن العمل الذي يجرى — في بلد ما وفي لحظة ما — دون أن يتوقف عنده أحد ، قد يبدو متطرفاً ومتأولاً في بلد آخر بل قد يهز المجتمع كله » (٣٩) .

ثانياً : أن المغزى الاجتماعي الحقيقي لمثل هذه الأعمال لا يعبر عنه — بالضرورة — عدد القائمين بها أو المشتركين فيها .

« القضية هي أن هذه الأعمال لها آثار غير ملموسة ، والمغزى الفعلي لا يمكن دائماً وبالضرورة أن ينبع من حجم الظاهرة التي أفرزته . أن الذين وقعوا ميثاق Charter 77 كانوا عدداً قليلاً إلا أن جزءاً كبيراً من المجتمع يعرفهم ويعرف حجم عملهم (أو على الأقل الشريحة المعرضة من المجتمع الذي ما زال يهتم بالأمور العامة والذي يمكن أن نقول إنها « تصنع التاريخ » وهم يسمعون عن هؤلاء الميثاقيين من الأذاعات الأجنبية » (٤٠) .

إن الالتزام بقضية إحياء الروح المعنوية للمجتمع لا يعنى بالضرورة تحقيق نتائج فورية ، بل على العكس فإن فكرة التنظيم الاجتماعي الذاتي تتضمن استراتيجية بعيدة المدى أو « المسيرة الطويلة » ضد البنى الرسمية ، ويكون ذلك باتساع مدى المبادرات التي تأتي من القاعدة منتحول في النهاية لحركات اجتماعية أصيلة .

إن ذلك هو ما حدث في بولندا حيث تكونت لجنة الدفاع عن العمال من مجموعة صغيرة من المناضلين ذوي التوجه المبدئي الذين عملوا على تحقيق توقعات وآمال والهوامات المجتمع بصورة عامة .

وعندما وقع الانفجار الاجتماعي في أغسطس عام ١٩٨٠ بما له من أثر معنوي استطاع أن يمد حركة تضامن بمفاهيم استراتيجية وبخبرات سياسية . ولا نستطيع أن نقلل من شأن القيمة التربوية

لمثل هذه الخواة الجماهيرية حيث قرر اعضاؤها أن يعيشوا الحقيقة. وذلك لا يعنى أنهم انفصلوا تماما عن المجتمع الرسمى . وطالما أن الدولة هى الوحيدة التى تملك وطالما أن كل أشكال السلوك الاجتماعى من عملية الشراء وحتى التعلم تقع تحت سيطرتها ، فإن من المستحيل أن يشعر الأفراد بالاستقلال التام ويصبح الشيء الوحيد الممكن هو النضال لتوسيع هامش الاستقلالية للفرد ، أو قل لتقليل خضوعه للدولة، ويقول هافيل فى هذا الصدد :

« لا يمكن أن يقع بلد صغير ذو شعب غير مستقل الى جوار بلدان ذات « شعوب مستقلة » دون أن يحدث بينهم تفاعل . هناك بلاد ذو مواطنين « غير مستقلين نسبيا » ويفسحون بالتدريج وبأصرار طريقا « لاستقلالهم النسبى » عبر التحرر الروحى والتحدى المعنوى ليحققوا استقلالهم التام ، لذا فإن توسيع الهامش الضيق من الاستقلال فى هذه البيئات ، هو الشيء الذى يجب تحقيقه والحفاظ عليه » (٤١) .

وعندما تفجر الموقف السياسى عام ١٩٨٩ فى تشيكوسلوفاكيا وبدأت الفوضى التى تتسم بها العلاقات التى تربط الائتلاف الحاكم بتنشئ ، أصبح ميثاق ٧٧ ، مغناطيسا يستقطب هؤلاء الذين كانوا قد أجلوا مقاطعتهم للنظام .

ان ميثاق ٧٧ يعد أكثر أهمية بالنسبة « لثورة تشيكوسلوفاكيا التى غاقت نتائجها كل التوقعات » عن الأحلام الاصلاحية للزعماء السابقين الذين خططوا لربيع براغ . ويكمن قصور الدوبتشيكية فى فشلها فى التخلص من النموذج اللينينى الرث وانتقال السلطة من ائتلاف الحزب الى المجتمع . وبعد أكثر من أربعين عاما من التعصب والاستبدادية والتشيع بالكاذب الأبدلوجية ، عم المنطقة كلها فقدان ثقة تام وذلك لتأصل عقيدة الاستعباد . وبات واضحا فى تشيكوسلوفاكيا فى عام ١٩٨٩ غياب الضغوط الاجتماعية التى تطالب بتحقيق استراتيجية ذات وجه انسانى وأن توجه الثورة يجب أن يعلى من شأن الأمل العميق فى التحرر ، وأسرع ميثاق ٧٧ — رغم طبيعته المتجاوزة للقوميات — يطرح صيغا سياسية جديدة ومميزة للنظام الذى سبلى الشيوعية ومنها صعود المجتمع المدنى .

لقد كان ميثاق ٧٧ تجسيدا لفكرة التسامح والدفاع عن الحوار المفتوح وبرز ذلك فى كتابات هافيل وفى الأنشطة العامة التى جعلت هذا الميثاق أداتيا واكسسته صداقة على طريق الانتقال السلمى

للتعددية . ان منظمتى مبادرة السلام Initiative for Peace و حقوق الانسان Human Right في جمهورية المانيا الديمقراطية (الحركة التي تمت في اواسط الثمانينات وجماعة موسكو المعتمدة Moscow Trust Group في الاتحاد السوفيتي والمعارضة الديمقراطية في المجر اعتبروا ان ميثاق ٧٧ يرمز لسياسات الثقة والامل والتضامن الانساني . لقد دب النشاط في حركة الدفاع عن حقوق الانسان فأصابت النظام في مقتل ، وأمكن للمحكومين أن يدينوا الحكام لسوء سلوكهم ، كما أثرت المراقبة التي فرضها الشعب على الحكومة على ممارساتها (ومن الأسباب الأخرى التي ساعدت في ذلك الضغوط الدولية) .

ويتحليل الأحداث وتقييم نتائجها نجد ان الأنشطة التي تقوم بها لجنة الدفاع عن العمال وميثاق ٧٧ بدت قوية مناسكة على نحو استراتيجي ومؤثرة على نحو تاريخي ، كما أسفرت عن تغيرات غير عادية في تلك المجتمعات وخلفت جنيئا لسلطة الأمة التي كانت على وشك ان تحل محل الانظمة الشيوعية المفككة خلال اجتياح ١٩٨٩ . ان استراتيجية المجتمع المدني هي رفض ادعاء الحزب الشيوعي بدوره القيادي ، وهدفه هو تشجيع التعددية الأصيلة . ورغم الأعمال البطولية التي قام بها المجتمع المدني في أوروبا الشرقية ونزاعها مع جهود أخرى قام بها كثيرون من أمثال هافيل ومتشك فان بلالات وتوقعات سقوط هذه الأنظمة في المستقبل المنظور كانت قليلة ، وبينما أعرب تيموش جارشون آش - المراقب للموقف في أوروبا الشرقية - عن رأيه في السيناريو المتوقع لمستقبل المنطقة وأكد على مزيد من التفكير والتحليل للأنظمة القائمة متخذة في ذلك أشكالا « تركمانية » تنبأ آخرون - مثل ميلان كونديرا - بأن الدور التاريخي لأوروبا الشرقية بالنسبة للعالم سوف يشطب . وعلاوة على ذلك فان المناضلين المدنيين في المنطقة أدركوا ان رفضهم وشجبهم للشكل الرسمي للممارسات السياسية سوف يثير السلطة وخاصة انهم كرسوا نوعا جديدا من السياسات ، اذ ان احتجاجهم المعنوي كان له مدلول سياسي مدو واستخدموا استراتيجية « اللاعنف » في مقاومتهم لمحاولات النظام للحد من الفردية وتحويل الشعب لكيان خاضع وخانع تماما .

واكد ميثاق ٧٧ أن مطالب الحركات الجديدة لم تكن بالضرورة سياسية وان السياسة لم تكن هدف التضامن غير الرسمي للشعب الذي قرر ان يعيش الحقيقة ويتحدى الديكتاتورية تصديا مباشرا . بل كانت معارضتهم - أولا وأخيرا - معارضة أخلاقية : انهم ينضحون لا أخلاقية الحكومة ويكشفون التناقض بين لفتها الطنانة وما تمارسه

في الواقع . ان البند الأول في ميثاق ٧٧ كان احتجاجاً على المحاكمة التي دبرت من جانب نظام هوساك ضد مجموعة من موسيقيي الروك يدعون « الشعب البلاستيكي The Plastic People of the Universe » ورأت السلطة في الدفاع عن الموسيقيين الشباب الذين رغبوا ببساطة أن يعيشوا الحقيقة الخاصة بهم — (والتي تعتبر بالطبع — مختلفة عن الحقيقة التي تملئها السلطة الرسمية عليهم) عملاً يعد — على المستوى السياسي — هجوماً يدين الحكومة إلا أن الوقوف الى جانب موسيقيي الروك لم يجد في الدفاع عن حق الابداع الفني . لقد كان رفضاً لما أعطاه النظام لنفسه من حق للحد من الحرية الانسانية، واعتقال المواطنين لجرد الابداع الفني ، والتدخل في حياتهم ، لقد كانت حرباً ضد الحد من الحرية الانسانية ، ومن ثم فان الدفاع عن عازفي موسيقا الروك يعنى الدفاع عن المعنى الاصيل للحزبية والكرامة الانسانية . ويمكن أن يقال نفس الشيء عند الدفاع عن أنصار السلام أو المناضلين الأيكولوجيين المضطهدين بسبب معارضتهم للنظام العسكري والتخريب اللا منطقي للبيئة . ان تمرد هؤلاء الضعفاء لم يكن — حسبما رأى هافيل — ذا أبعاد سياسية واضحة . ان السياسات المضادة للسياسات توجد تحديداً في هذه المعادلة الحكيمة الواضحة لاستعادة كرامة الفرد :

« في النظام التوتاليتاري نجد التاريخ الحقيقي للحركات التي اخذت على عاتقها تدريجياً تحقيق معنى سياسي لم يأخذ غالباً شكل مواجهات سياسية علنية بين قوى متناهرة ومفاهيم سياسية . لقد تعمقت هذه الحركات — في أغلب الأحيان — بشكل « سابق على السياسة » حيث « العيش في كذبة » يجابه « العيش في الحقيقة » ، أي حيث الصراع الخاص بالنظام التوتاليتاري مع الأهداف الحقيقية للحياة . . مثل هذا الصراع يتطلب شخصية سياسية وذلك ليس لأن الأهداف المطلوب تحقيقها ذات طبيعة سياسية في المقام الأول ولكن ببساطة لأن النظام التوتاليتاري المعقد المناور يعتبر كل تصرف أو تعبير إنساني حر وكل محاولة للحياة داخل الحقيقة تهديداً مسافراً » (٤٢) .

ان صيغ السياسات الرسمية بصيغة شعائرية وفقدتها لشرعيتها من خلال التزييف المستمر للحقائق وفرض أحلاف مخادعة مزعومة تصل للسلطة بمعايير تتغلق بالانقياد ، والمواظبة ، والتكيف ، والطاعة أكثر مما تنطق بالخيال والذكاء والشرف وهي الأشياء التي سقطت من قاموس الحزب السياسي .

وتعد السياسة فى النظم التوتاليتارية ، مهنة تناسب الخائعين ،
 اما هؤلاء الذين يقدررون الحريات الانسانية فسوف يلجئون لكل شيء من
 الموسيقى وحتى الايمان بالقوى الخفية ، ومن البؤذية وحتى التكبير
 ومن الجاز وحتى التأمل والالهام للحصول على حرياتهم . ان الأمر يبدو
 كأن السياسات قد أقرتها القوى الشريرة الى الأبد ولا يتوقع أحد من
 السياسيين المحترفين ان يقدموا شيئا أفضل بينما رأى زعماء الحركة
 المنشقة من كتاب وشعراء وفيزيائيين ، وفلاسفة ان اعادة خلق
 السياسات يجب أن تتم خارج حدود السياسات التى رسمتها السلطة .
 ورغم ان الاحياء الأخلاقى المعنوى الذى أسماه هافيل « المناخ الحقيقى
 للسياسات » أثر على النظم التوتاليتارية فان الممارسات السياسية
 التى تتطلب رموزا منفصلة ومتحررة من الضبابية الايدولوجية هو أمر
 يجب أن يتم خارج دائرة السلطة المحافظة الفاسدة .

ان السياسات المعادية للسياسات التى طالب بها منشقو شرق
 أوروبا ترفض النظر الى مبدأ الحقيقة الثابت على أنه مفروض بحت .
 وكتب الكاتب المجرى جورجى كونراد الذى ألف عددا من الروايات
 الرائعة منها « الخاسر The loser » قضية عامل « The case worker »
 ومقال مهم بعنوان « ضد الممارسات السياسية » وهو المقال الذى استفز
 السلطة الحاكمة .

« ان معاداة الممارسات السياسية نشاط سياسى يمارسه هؤلاء
 الذين لا يريدون ان يكونوا سياسيين ويرفضون ان يشاركوا فى السلطة .
 ان معاداة السياسات حالة طارئة لمتدنيات مستقلة توجه اتهاماتها
 للسلطة السياسية ، انها ضد السلطة ولكنها لا تستطيع ان تأخذ السلطة
 ولا ترغب . ان السلطة - هنا والآن - لها بالفعل ثقلها الأخلاقى
 والثقافى .

ان كلا من الأنشطة المعادية للسياسات والحكومة يعملان فى
 اتجاهين مختلفين وفى مجالين مختلفين . ان المعادين للسياسات
 والحكومة يعملان فى اتجاهين مختلفين وفى مجالين مختلفين . ان
 المعادين للسياسات لا يؤيدون الحكومة ولا يعارضونها ، انهم يكوئون
 شبكة تراقب السلطة السياسية ، ويمارسون ضغوطا انطلاقا من
 وضعهم الثقافى والأخلاقى بل ومن منطق الشرعية الانتخابية - انه
 حقهم وواجبهم ، ولكنه - فوق كل شيء - دفاع عن أنفسهم » (٤٣) .

ان كلمات كونراد تحمل فى طياتها الى حد ما روح السخط الذى
 يجتاح أوروبا الشرقية وفيه وصفت الممارسات السياسية بالامبريالية

أو بأنها محاولة لتسييس أجواء الحياة • ويرى كونراد أن ممارسة السياسات المضادة ، وفن المعارضة الديمقراطية يجب أن تجرى في ضوء مستوى تدخل الحكومة في الشؤون الخاصة للأفراد • أن المجتمع المدني هو استراتيجية من أجل استعادة أشكال التعاون والتواصل الانساني المتحررة من قهر وسيطرة الدولة •

« ولأن فيضان السياسة قد اجتاح كل زاوية وكل شق في حياتنا تقريبا ، فأننى أحب أن أرى هذا الفيضان يتراجع • اننا يجب الان نسيى حياتنا ونبتعد عن الممارسات السياسية مثلما نبتعد عن مرض معد • يجب علينا أن نحرر ممارساتنا اليومية البسيطة من الاعتبارات السياسية • واننى أطلب بأن تتولى الدولة الأمور التى من شأنها تجديد عملها ، الا انها لا يجب أن تتولى الأمور التى هى من شأن المجتمع وحده • ومن ثم فأننى لن أصف المعارضة الديمقراطية بأنها سياسية ولكن بأنها « ضد سياسية » طالما أن نشاطها الرئيسى هو العمل من أجل اللادولية » (٤٤) •

ان معاداة السياسة تصبح عاملا مساعدا للتفاعل وجهدا جماعيا للحد من قبضة الدولة على المجتمع واستعادة حقوق الفرد كقيمة عليا وهو شىء لا يقبل المساومة •

« ان أيديولوجية المعارضة الديمقراطية تؤمن - كالاديان - بأن كرامة الشخصية الفردية تعد قيمة أساسية لا تتطلب مزيدا من الايضاح • ان استقلالية البشر وتضامنهم هما قيمتان أساسيتان تكمل احدهما الأخرى ومنهما تتواصل الحركة الديمقراطية مع قيم أخرى ... ان التراث الثقافى للاحتجاجات المستقلة أهتم بعدم وضع أية مؤسسة فوق كرامة الانسان الفرد • وعندما تتحول الدولة أو بعض قوى الكتلة أو السوق العالمية لقيمة مطلقة، فإن ذلك يثير التقاليد الأوروبية التى تعتقد أن حقيقة القيمة العليا المزعومة أبعد ما يكون عن العالمية بل انها فى الحقيقة مجرد مصلحة خاصة ينفر من الحكام •

ان ذلك تحديدا هو النقد الموجه للأيديولوجية والذى يقدم للمعارضة الديمقراطية الشرق أوروبية طريقا للإسهام فى ثقافة حق الفرد وحق الأفراد والأمم والقارات ككل فى تقرير مصيره » (٤٥) •

✽ الانشقاق فى المجتمعات التوتاليتارية :

إذا كانت معارضة الدولة أصبحت قيمة مطلقة وحتمية فمن هؤلاء المنشقون الذين جرؤوا على تحدى النظام وطرحوا انساقا أخرى تعلى

مبادئ احترام الحقيقة والكرامة الإنسانية ؟ ان مصطلح المنشق قد ابتكره الصحفيون الغربيون ، الا أن كثيرين من النقاد في مجتمعات الكتلة السوفيتية قد أعربوا عن تحفظهم حول دلالة هذا اللفظ وصلاته بالموضوع . ولو اعتبرنا أن أناسا مثل فيتسلاف هافيل Vaclav Havel وجان باتوكا Jan Patoka في تشيكوسلوفاكيا ، وجورجي كونراد أو ميكولوس هارتسي في المجر وبول جوما أو دورين تيودوران Dorin Tudoran في رومانيا وروبرت هافمان Robert Havemann أو ولف بيرمان Walf Biermann في جمهورية المانيا الديمقراطية أو آخرين مثل ميلوفان دجيلاس في يوجوسلافيا نماذج تحتذى ؛ لأنهم شاركوا في الانشقاق باعتباره حركة دولية ذات توجه برجماتي فان المنشقين ، وأغلبهم مفكرون أدركوا أن الخضوع لممارسات النظام والسكرات على جرائمه هو اشتراك فيها . ويمكن تعريف المنشقين - حسبما رأى هافيل - وفقا للمعايير التالية :

« أولا هم هؤلاء الذين يعبرون عن وجهات نظرهم الناقدة بطريقة متكاملة ومنسقة ، « داخل الحدود الضيقة جداً المتاحة لهم ، ولذلك فإن الغرب يعرفهم جيداً » . ثانياً لقد تمتع المنشقون بسبب مواقفهم الأخلاقية وخاصة رفضهم لانكار الحقوق الأساسية للإنسان ، بإجلال خاص من العامة ورغم أن الشعب لم يظهر احتراماً لهم في مواقف عملهم الا نادرا ، فان السلطات كانت واعية تماما بمدى شعبية المنشقين وتجنبت التورط في قمع وحشي ضدهم اذ أن قيامهم بأى اجراء ضد المنشقين سوف يسفر عن مشاكل سياسية وتعقيدات على صعيد العلاقات الدولية » . وثالثا وكما رأينا فالمنشقون هم أناس يميلون للتعبير عن أفكارهم في شكل مكتوب أى أنهم ينحون منحى فكريا . انهم « يكتبون » وقائي الكلمة المكتوبة بالنسبة لهم في المقام الأول ان لم تكن اهتمامهم الوحيد - ويدعو المنشقون للوسطية السياسية وهو ما لفت اليهم الانتباه خاصة في الخارج » (٤٦) .

وفي كتابه السجن المخملي The Velvet Prison قام ميكولوس هراتسي وهو واحد من طليعة المفكرين المجريين المنشقين بشرح أسلوب تحويل المفكرين الى منشقين . ويعد كتابه هذا ذا أهمية كبيرة اذ أنه يتناول تجربة كادار الخاصة « بالديكتاتورية الناعمة » . ورأى هراتسي أن جوهر التسوية الكادارية كان معاهدة صامته بين كادار والمجتمع ، اذ منح الشعب مكاسب مادية وهامشا محدودا من الاستقلالية شريطة ألا يبدى المجتمع احتقاره للامتيازات الأبوية التي ورثها النظام بما في ذلك حقه في مصادرة ذاكرة الأمة ، وتشويه سمعة ثورة ١٩٥٦ ورفضه

لأية مناقشة حول طبيعة العلاقات المجرية السوفيتية . وليس محريه
الأقدار ، ، فان صدق وجهة نظر هراتسى عن الفنان المختار التى تناولها
فى كتابه كانت موضعاً للشكوك ، اذ يقول ان الرومانتيكيين العتاة هم
فقط الذين يستطيعون أن يشاركوا فى معارضة مباشرة للنظام وذلك
بسبب سياساته الخاصة بممارسة القمع الناعم وابادة كل مصدر
للمعالية الناقدة ولذا ، فان المنشقين يبدون كعناصر شاذة فى بيئة تهيمن
عليها الامتثالية والخضوع .

« هذه الطيور النادرة هى فى الواقع نتاج لفكرة حضارة منقرضة ،
وترك وعدها بالديمقراطية ، والفردية ، والافكار الناقدة أثراً كان
محسوساً رغم خفوته . انهم اهل هذه الثقافة الجديدة ولم يعرفوا عن
الثقافة القديمة الا صورها السيئة . ان ولاء السلطويين للقديم ووقوفهم
بعناد ضد الحديث يعد خيانه لأصولهم الحقيقية . . هؤلاء اللقطاء لم
يجنوا سوى زوالهم وانقراضهم ، انهم عمالت بطلت وعجزت عن تقديم
نفسها للعالم الجديد الذى اعتبرها منقرضة » (٤٧) .

لقد كان كتاب هراتسى — قبل ظهور منظمة تضامن — صوتاً
يعبر عن مشاعر الاغتراب ، واليأس ، والاحباط التى تعاني منها
الأقليات المنشقة المحاصرة فى أوروبا الشرقية .

ومن خلال السوداوية التى اتسم بها كتابه نستطيع أن نستشعر
خوف الكاتب الذى يحذر من الطاعة العمياء للأيديولوجيا الرسمية
بنفاقها وطمأننتها .

« ان امثاليتنا الأيديولوجية لا تمنعنا بالمطبع من الإيثار عندما
نصطدم بالمعقيدة وغالباً ما يضجك البيروقراطيون والفنانون معا . ولأننا
مستغيرون — فأننا نعتبر النظر الى الشعائر الدينية على أنها دليل على
ضيق الأفق ، وتطرف طفولى اذا ما قورن بما غرس
فيها من نسق أخلاقية تشربناها منذ الطفولة ، الا ان هذا التصور ليس
له أثر على سلوكياتنا . وما تزال الماركسية الأساس الأسطوري لأفكارنا
الخاصة بالمسؤولية المدنية . انها الأسطورة التى تهيب لنا ان
أفكارنا عن خدمة الشعب أفكار مشروعة ، ان لها وقعا مثل وقع قصة
طائر الرخ المشهورة على عقول الأطفال » (٤٨) .

ان كتاب « فنان الدولة » لهراتسى تجسيد للعالم المغلق الجامد
الذى لا حركية فيه ولا احساس بالانزعاج ، كل شئ يجرى كما لو ان
الحزب قد أرسى هيمنته الى الأبد وأية معارضة تعد نوعاً من أحلام
اليقظة والدونكشوتية (غير المسئولة) ، ولم تؤثر مرونة كادار

ومحاولته لتغيير حقيقته النظام من طبيعته ، فالسلطة ما زالت تكمن في أيدي الطبقة الحاكمة الشيوعية الذين تعلموا — في مثل هذه الحالة تحديداً — أن يتملقوا المفكرين ويزرعوا فيهم النرجسية ، وفي هذا الصدد قال الأيديولوجي جورجى اتزيل Gyorg Aczel :

« ان احكام قواعد اللعبة ، والأوضاع الجوهرية ، والقوة الاستثنائية الشرعية (استخدام حق الفيتو في أمور معينة) نظل دائما في مقدور الدولة الاشتراكية » (٤٩) .

ان المعارضة لا تبدو ذات قيمة تحت ظروف التوحيد العالمى المزعوم ، وهنا نتساءل : كيف يكون للفرد اذن اية استقلالية ؟ ووفقا للصورة الخيالية لفنان الدولة كما تخيلها هراتسى فقد كان الفنان مسنعداً لتبرير تسوياته الخاصة بانكار معنى الأشكال البديلة للتواصل :

« فى حضارتنا هناك نوعان فقط من المنشقين : أبطال سدج وفنادون شاردون . والنوعان حكم عليهم باللاعلاقية » (٥٠) .

وعلاوة على ذلك فان تعليقات هراتسى الحزبية لم تكن رفضا لسلوك المنشقين .

واعترف المؤلف بعد عدة سنوات من تأليف هذا الكتاب :

« آمل ألا اضطر للدفاع عن رأيى فى المنشق الذى دونته فى هذا الكتاب . اننى أنوى منذ البداية أن يكون الكتاب رفضا لمبالغات المنشق المعتمدة . وآمل أن يكون نشره دليلا يدفع اليأس الذى يضفى القسامة على كلماته ، ولهذا السبب اخترت أن استخدم فى اغلب الأحوال ضمير الغائب للتعبير عن فنان دولة ولم أحاول أن أضع الزملاء فى فريق يعانى من الفردية الرومانتيكية » (٥١) .

لقد حاول مفكرو الدولة الذين رضوا عن ذواتهم وتعايشوا تماما مع النظام القائم وتمتعوا بامتيازاته النيل من مكانة المنشقين .

ورأى الكيان المؤسساتى الذى تمثله ثقافة الدولة ان المنشقين اناس يثيرون المشكلات معتنقين الأفكار المنطوية على مفارقة تاريخية خاصة بالحريات الفردية ، ويجب أن يظلوا على هامش المجتمع ، لأن المدنية الحديثة لا تستطيع ولا تأمل فى التعاون معهم . ويمكن أن تستغل السلطة بعض أفكار هؤلاء المنشقين وتدمجها فى العقيدة الرسمية ،

ولكنها بالتأكيد ستسلبها كل معانيها ودلالاتها . ومثال على ذلك هو استيلاء أيديولوجية الحزب في الاتحاد السوفيتي على مصطلح الجلاسونست وهو شعار للحركة الديمقراطية . وبنفس الطريقة عرفت النظم التي تشبه نظام كادار الاصلاحى كيف تستولى على بعض المصطلحات ، مثل التعددية ، الحوار ، المصارحة وغيرها من المثل الشامخة التي أعلى المنشقون من شأنها وتستغلها لمصلحتها ومن ثم تضعف مدلولها .

« ويرى أحد المجرمين لو أن سولزينيتسين Solzhenitsyn قد عاش في المجر لكانت السلطة عينه رئيسا لاتحاد الكتائب » ومن ثم لن يكون هناك من يكتب « أرخبيل جولاج The Gulag Archipelago » وإذا فهل أحدهم ذلك فان سولزينيتسين كان سيصوت على طرده وترحيله . فهذا أذن هو المناخ الذي يسود ثقافة « الرقابة التقدمية » . ونحن نعتبر الدولة التي تعجز عن الاصلاح والفنان الذي يعجز عن التكيف كليهما تطرفا غير مقبول » (٥٢) .

ان هاراتسى يحول المفكر الى خدام للدولة ويرى في رفض المنشقين للاذعان للدولة — رغم نبذه — علامة على التشويه السيكولوجى الشديد . ان الصناعة الثقافية لاشتراكية الدولة قد وضعت المنشقين على الهامش ومن ثم انكرت عليهم حقهم في الاختلاف كلية مع النظام بينما تحفظ الدولة لنفسها حقا في اضطهادهم وعقابهم بل وحققا في « اعادة اعتبارهم » تغييرا واقعا في « خط الحزب » ويأتى الزعيم الجديد للسلطة بمجموعة مختلفة من الوعود . ويعتبر هاراتسى — الذى لا تعد أفكاره أفكار مؤلف — المنشقين « ضرورة » لتكملة النظرة الجديدة للشيوعية فى العهد التوتاليتارى :

ان عهدا جديدا من الكرم العظيم على وشك أن يبرز فجأة . وكما فى الامبراطوريات القيمة الصاعدة فان كبار موظفى الدولة القاندين يقيمون أذيرة طاوية . وبالمثل تعتبر الدولة الاشتراكية الحديثة المنشقين المبتدئين كأفراد فى قطيع وحش مشنوم ٠٠٠ وفيما بعد سوف « يسهل اكتشاف » بعضهم و « رد اعتبارهم » ومثل تلك القرارات كانت فى وسع السلطات المركزية ، وسوف يعلن العفو العام عندما يمين حاكم جديد . وغالبا ما يقول كل المنشقين على أن يصيحووا هراتسى من البرنامج الرسمى عندما يمين وقت التذيد باسقاطات السلالة الحاكمة السابقة » (٥٣) .

عندما كتب هراتسى هذا الكتاب فى أوائل الثمانينيات بدت المجر أكثر الدول تقدما فى الكتلة السوفيتية فيما يتعلق بهامس الليبرالية الداخلية . وبالمقارنة بالأوضاع فى رومانيا والمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا فان الدولة تعاملت مع المنشقين مرتدية قفزات ناعمة رغم أن آلة الدولة لم تال جهدا لتبديد محاولات المنشقين التى يبذلونها للانفصال عن الجيتو السياسى ولشق روافد اتصال مع المجتمع الكبير . ونقب البوليس عن الصحافة السرية وتم إستجواب المنشقين بل وتم القضاء عليهم ، وعلى أية حال ، فان النظام تجنب اتخاذ اجراءات صارمة ضد كثيرين منهم . ونظرا لتدهور الوضع الاقتصادى وتحقيق الاتحاد السوفيتى لأقصى آماله السياسية فى التعبير فان مجر كادار لم تعد أكثر ثكنات المعسكر الاشتراكى حصانة * . لقد غدا شيابها راديكاليين وأصبحت المعارضة الديمقراطية قوة سياسية قومية ضاربة . وأصبح المنشقون بما فيهم هراتسى المهندسين المخططين لعملية الانتقال لأنظمة تخلف الشيوعية . والحقيقة أن حاشية هذا الكتاب كتبت فى ١٩٨٧ واعترف هراتسى بأن التغييرات التى قام بها جورباتشوف فى توظيف النظام السوفيتى وكذلك الموجة الجديدة المعادية للستالينية جعلت بعض تنبؤاته السوداوية تبدو بلا مصداقية ، الا أنه أصر فى نفس الوقت ان الجورباتشوفية تمثل انتهاج ائتلاف الحزب لنفس التكنيكات التى ضمنت النجاح الجزئى لتجربة السجن الناعم والتى تقدمها المجر تحت قيادة كادار :

« لقد وصفت هذا النموذج بأنه ما بعد الستالينى أو « التحول الناعم » أو « المادنى » للحكم الشيوعى فى تناقضه مع النموذج « الستالينى » أو « الجاف » أو « العسكرى » * أن النموذج المجرى ربما يمثل جيداً تحولا أكثر منطقية وأكثر معيارية وأكثر صلبة للثقافة الموجهة * ولا بد أن يدرك جورباتشوف أن اقامة مجتمع ناجح حقيقة بنظام اقتصادى جديد يتطلب ضرورة رفع معنويات الانتاجنسيا الحكيمة باعتبارها الحق سى المحيط للمسبيل » (٥٢) *

هوامش الفصل الرابع :

(١) الجيودولتيكي : مجال دراسة تأثير البيئة الطبيعية والعوامل الجغرافية على الخصائص والظواهر والمؤثرات والتطورات السياسية للشعوب والدول وعلى تفاعلاتها وعلاقاتها بعضها ببعض - (المترجمة) •

Adam Michnik, *Letters from Prison and Other Essays* (٢)
(Berkeley and Los Angeles : University of California Press, 1985),
p. 157.

Samstvennoyeizdotelsivo. (٣) اختصار روسي لكلمة :
وتعني النشر والعري •

See Robert Kostrzewa, ed., *Between East and West* : (٤)
Writings from Kultura (New York : Hill & Wang, 1990).

In an illuminating essay on Gorbachev, Kenneth Jowitt (٥)
used this Weberian term to explain the rise of Solidarity as a
resurgence of Poland's long-repressed civic culture. See Daniel
Chirot, ed., *The Crisis of Leninism and the Decline of the Left* :
The Revolutions of 1989 (Seattle : University of Washington Press,
1991), pp. 74-99.

Abraham Brumberg, ed., *Poland : The Genesis of a Re- ..* (٦)
volution (New York : Vintage Books, 1983), p. 10.

J. F. Brown, *Eastern Europe and Communist Rule* (Durham. (٧)
N.C. : Duke University Press, 1988), p. 197.

For an excellent analysis of this organization, see Jan Josef (٨)
Lipski, *KOR : A History of the Workers' Defense Committee in
Poland, 1976-1981* (Berkeley : University of California Press,
1985).

Jacques Rupnik, *The Older Europe : The Rise and Fall of* (٩)
Communism in East-Central Europe (New York : Schochen Books,
1989), pp. 258-59.

William Echikson, *Lighting the Night : Revolution in Eas- (١٠)
tern Europe* (New York : Morrow, 1990), p. 161.

Lipski, *KOR*, p. 68 . (١١)

Echikson, *Lighting the Night*, p. 160. (١٢)

Ledzek Kolakowski, "The Intelligentsia" in Brumberg, (١٣)

(١٤) الأوليغاركية : حكم القلة وهو أحد أشكال إدارة الدولة الاستغلالية ، تعود في
ظله كل سلطة الدولة الى حفنة صغيرة من الأغنياء - (الترجمة) *

Ibid., p. 68. (١٥)

Michnik, *Letters from Prison* (note 1 above), p. 136. (١٦)

Ibid., p. 137. (١٧)

Leszek Kolakowski, *Main Currents of Marxism : Its Origins, (١٨)
Growth and Dissolution* , vol. 111, *The Breakdown*, (New York :
Oxford University Press, 1978), pp. 526, 530.

(١٩) الحريات المدنية : ذلك الجانب من الحقوق المدنية الذي يحدد القطاعات التي
لا تتدخل فيها الحكومات ولاسيما ما يتناول حرية الحديث والنشر والاجتماع والمعتقد.
الديني - (الترجمة) *

Michnik, *Letters from Prison*, p. 142. (٢٠)

Ibid., p. 144. (٢١)

Ibid., p. 147. (٢٢)

Michnik, "A Year Has Passed! — 1981", in *Letters From (٢٣)
Prison*, p. 124.

Adam Michnik quoted in Lech Walesa, *A Way of Hope : (٢٤)
An Autobiography* (New York : Henry Holt, 1987).

Ibid., p. 2. (٢٥)

See Stephen Engelberg, "As Jaruzelski Leaves Office : (٢٦)
A Traitor or Hero to Poles," *New York Times*, December 22,
1990.

Timothy Garton Ash, *The Uses of Adversity : Essays on (٢٧)
the Fate of Central Europe* (New York : Random House, 1989),
p. 309-10.

Steven Lukes, "Introduction," in Vaclav Havel et al. *The (٢٨)
Power of the Powerless* (Armonk, N.Y. : M. E. Sharp, 1990).
p. 12.

(٢٩٥) الأوتوماتيكية (أو الذاهركية) : مذهب يقول بأن جميع نشاطات الحيوان والانسان تتحكم فيها عوامل فسيولوجية والمقصود هنا أن الانظمة السلطوية تعتمد على السيطرة على شعوبها وتحريكهم بشكل الى وتسلبهم ارادتهم - (المترجمة)

Vaclav Havel, "The Power of the Powerless," in *ibid.*, (٣٠)
p. 23.

Ibid., p. 28. (٣١)

Ibid., pp. 28-29. (٣٢)

Ibid., pp. 30-31. (٣٣)

Ibid., p. 32. (٣٤)

Ibid., p. 31. (٣٥)

Ibid., p. 40. Emphasis in original. (٣٦)

Ibid. (٣٧)

Ibid., p. 43 (٣٨)

Havel's contribution in Vaclav Benda, Milan Simecka, Ivan (٣٩)

M. Jirous, Jiri Dienstbier Vaclav Havel, Ladislav Hejdanek, and
Jan Simsa, "Parallel Polis. or an Independent Society in Central
and Eastern Europe : An Inquiry," *Social Research*, 55. nos. 1-2
(Spring-Summer 1988) : 235.

Ibid., p. 236 (٤٠)

Ibid., p. 237. (٤١)

See Havel, "Power of the Powerless," p. 48. (٤٢)

George Konrad, *Antipolitic* (San Diego and (New York : (٤٣)

Harcourt Brace Jovanovich, 1984), pp. 230-31.

Ibid., p. 228. (٤٤)

Ibid., pp. 123-24. (٤٥)

Havel, "Power of the Powerles ," p. 57. (٤٦)

Miklos Haraszti, *The Velvet Prison : Artists Under State* (٤٧)

Socialism (New York : Basic Books, 1987). p. 10.

Ibid., pp. 142-43. (٤٨)

Ibid., p. 146. (٤٩)

Ibid., p. 150. (٥٠)

Ibid., p. 162. (٥١)

Ibid., p. 156. (٥٢)

Ibid., p. 158. (٥٣)

Ibid. p. 162 (٥٤)

الفصل الخامس

روح المجتمع المدني

« ان السياسات المعادية للسياسات ناضلت اوضع
الأمور في نصابها ، وجاهدت لتظل بعيدة لا تتجاوز أبدا
حدود عملها الخاص بالدفاع عن صقل المجتمع المدني .
والمجتمع المدني هو نقيض المجتمع العسكري » .

جورجى كونراد

ان تطوير المجتمعات المدنية في دول الكتلة ارتبط بوجود مزارات
الفكر المستقل — ان العيش في الحقيقة — رغم ان البعض اعتبرها
مثالية أخلاقية ذات مفزى اجتماعى محدود — قد أصبحت القوة الدافعة
التي تكمن وراء خلق طرق بديلة للتفكير والعمل . ان حجر الأساس
للمجتمع المدني المتمرد كان قرار الفرد بالمطالبة بحقه أو حقها في
الاستقلال ، وقال هافيل في هذا الصدد :

« ما هي الحياة المستقلة للمجتمع ؟ ان أشكالها وصيغها انتشرت
على نحو تلقائي وشمل أرجاء واسعة . انها تشمل كل شيء من التعليم
الذاتي والتفكير في كل ما يجرى مرورا بالنشاط الحي الخلاق واتصاله
بالآخرين الى أكثر المبادرات المدنية الحرة تنوعا بما فيها محاولة المجتمع
المستقل لتنظيم ذاته » (١) .

ان السياسات الجديدة تعتمد على مبادرات المواطنين غير
الرسمية كترياق يثمل حركة عمالقة البيروقراطية ، وتشجع التجارب
والمبادرات الحقيقية وتشكل براعم حركة الفعالية . ان الحفاظ على هذا
التغيير يعد ضروريا لأنه كان حركة دعوية نبعت من الجماهير وليس تغييرا
فرض من أعلى أى من السلطة وهو ما أسفر عن صعود المجتمعات
المدنية في بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا .

وبادئ ذي بدء لا توجد ضرورة للمطالبة بتحطيم الأصنام
الحاكمة أو إجبارها على التغيير ، لأن الموقف تطور وقام الشعب باستثمار

مثل هذه المبادرات المستقلة ، وأصبح المجتمع المدني الممثل الشرعى على المسرح السياسى ، ومما ادهش البيروقراطية الشيوعية أن المجتمعات وجدت من يمثلها ويتحدث عنها رسميا فى المنشقين الذين طال اضطهادهم ورفضوا العرض الذى قدمته لهم الحكومة بالتعاون معها . ان استراتيجية المجتمع المدني قد كرس الاعتقاد بأن عودة الحياة المستقلة للمجتمع هى الضمان الوحيد للانتقال السلمى الى النظام الديمقراطى ومثل هذه الاستراتيجية نذهب لابعدهن البرجماتية المبسطة التى ينادى بها هؤلاء المطالبون بسيادة السياسات التقليدية :

« هناك أوقات يتحتم فيها أن نمنع النظر فى ماسائنا لنفهم الحقيقة وبمجرد أن نغزل الى فراع البئر سنرى النجوم فى وضوح الشهاب . واليوم يشو لى أن هذا البرنامج « الاقلى » و « المصفر » و « السلبى » - أى برنامج الدفاع البسيط عن الناس - هو البرنامج الأمثل الأكثر ايجابية لأنه يجبر السياسات القائمة على العودة الى نقطة بدايتها وبمعنى أدق تجبرها على تجنب كل الأخطاء القديمة ومن ثم العودة لطبيعتهم كأفراد » (٢) .

ان نواة الانشقاق بدأت فى بلدان مثل المجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والمانيا الديمقراطية حيث كانت النظم أكثر قمعية فى شكل مجموعات صغيرة من الأفراد تفكر بنفس الطريقة حيث أعلنوا نمردهم وقرروا أن يقاوموا ما يرتكب من انتهاك حياة المواطن الشخصية . واحتجوا على أى شكل من أشكال خرق حقوق الانسان المتفق عليها عالميا وعبر هافيل عن ذلك قائلا :

« فى « الحركات الانشاقية » للكتلة السوفيتية عادة ما يتخذ الدفاع عن الشعوب شكل الدفاع عن الحقوق الانسانية والمدنية وهذه الحقوق قد تم التأكيد عليها فى كثير من الوثائق الرسمية منها الاعلان العالمى لحقوق الانسان الى العهد الدولى لحقوق الانسان وكذلك فى نصوص مؤتمر هلسنكى الخاصة بالشؤون الفردية . وقد انطلقت هذه الحركات من اجل الدفاع عن أى شخص يتعرض للاضطهاد اتينيه روح هذه الحقوق . لقد حملت هذه الحركات نفس الروح وذلك بالاصرار دوما على أن النظام لا بد أن يقدر هذه الحقوق الانسانية يحترمها ويتحديدها لمناخى الحياة التى لا تسود فيها هذه الروح » (٣) .

لقد أعلنت الحركات المنشقة موقفها المعارض للعنف والارهاب ورأت أن اعادة بناء حياة مستقلة لا يمكن أن يتم باسم السخط أو الانتقام ولكن باسم مبادئ التضامن الانسانى التى قمعت على نحو

مخزن وهو ما اشار اليه آدم متينك في مقال كتبه في المعتقل عام ١٩٨٢ :

« ان جوهر البرامج التي تطرحها الجماعات المعارضة .. يمكن في محاولة إعادة بناء المجتمع واستعادة الوشائج الاجتماعية بعيدا عن المؤسسات الرسمية » (٤) .

لقد رفضت الحركات المنشقة منطق العنف باعتباره معاديا للانتاجية ومتعارضا مع الأهداف المثالية لتلك المبادرات الآتية من القاعدة الشعبية .

وبينما اتسم النظام بالعنف في بنيته الخاصة وفي كل هياكله الوظيفية ، اعترفت المعارضة بأن سيادتها المعنوية انبثقت تحديدا من رفضها مشاركة الحكام في منطقهم العسكري . وشرح متشكك على نصر جلي مستنير هذا المفهوم في مقاله الذي كتبه في سجن جدانسك في عام ١٩٨٥ :

« ان هؤلاء الذين يدعون بأن استخدام القوة في الصراع من اجل الحرية شيء لا بد منه يجب عليهم أن يثبتوا ذلك . وعليهم أن يثبتوا أيضا أن استخدام القوة في موقف معين سيكون فعالا وأن يثقل كسرة الحرية السياسية لنفيسها ، لن يستطيع أحد في بولندا أن يثبت أن العنف سيساعد في اجلاء القنات السوفيتية عن بولندا وازاحة الشيوعيين من السلطة . ان مواجهة اتحاد الجمهوريات السوفيتية بمسألة من قوة عسكرية ضاربة يعد شيء مستحيلا لا يمكن تصوره وذلك لأننا لا نملك أسلحة ... وفي اعتقادنا أن البرجماتية لا تنفصل عن المثالية بل تقاوجها . لقد تعلمنا من دروس التاريخ لذلك فنحن نشك في أن استخدام القوة للعصف بسجون الباستيل يعنى أننا نبني — دون أن ندري — باستيل جديدا ، وليس حقيقيا أن التغيير الاجتماعي يتم باعتباره نتيجة لتناحر عنيف بين قوى عدة . وعلاوة على ذلك ، فإن التغييرات الاجتماعية تأتي بعد تحد ومجابهة لأخلاقيات متنافرة ولرؤى النظام الاجتماعي . وقبل أن يصطدم عنف الحكام بعنف المحكومين ستصطدم القيم ونسق الجمال داخل العقول الانسانية » (٥) .

ان المجتمع المدني يمارض أى اغراءات تقدمها له الديكتاتورية الحاكمة ويبدى تشككه بصدد هؤلاء الذين يدعون امتلاك حلول واجابات مثلى جاهزة لكل المصاعب والاسئلة التي تواجه بنى الانسان ، ويعتبر

الفروق الأيديولوجية التقليدية بين اليمين واليسار ليس لها صلة بالموضوع في الظروف القائمة .

وقال متشكك في كلمة له حول تلك القضية ، خاصة في ضوء تطورات ما بعد عام ١٩٨٩ في أوروبا الشرقية :

« ان المرء يستطيع أن يرى أن حماسة الحركات المنشقة المثالية تحمل أكثر من بذرة للتفكير الناهض » .

ان الديكتاتورية التوتاليتارية تجاوزت مجرد اثار الانقسامات الأيديولوجية الغثة ، ووجب على الليبراليين ، والمصافطين ، الانسانيين المدنيين والقوميين الراديكاليين ان يطرحوا خلافتهم جانباً لأن لديهم عدواً واحداً مشتركاً هو النظام الشيوعي ، وذلك لا يعنى أنهم تخلوا عن عقائدهم . وفى عام ١٩٨٥ ، عندما جدا ان النظام أكثر تصميماً من ذي قبل على التثبيت بسلطته ، فان طرح متشكك بدا مقنعاً تماماً اذ قال :

« اننى اعتقد أن الصراع في بولندا بين اليمين واليسار يرجع الى الماضى . لقد اعتاد هذا الصراع أن يقسم مجتمعا تتنافر فيه الصراعات من أجل الحريات البرجوازية ، والحقوقي المنفق عليها عالمياً ، واستصلاح الأراضي ، واللاعقائدية ، وساعات عمل ، والرفاهية ، ونظام مدرسى عالمي ، وديمقراطية الثقافة . ان التمايز يطفو على السطح في منطقة الديكتاتوريات التوتاليتارية فيما بين مؤيدى المجتمع المفتوح ومؤيدى المجتمع المغلق . وفي الماضى قام النظام الاجتماعى على الحكم الذاتى والاتفاقيات الجماعية ، ولاحقاً سيحكم النظام من خلال القمع والانضباط » (٦) .

ان ميثاق ٧٧ فى تشيكوسلوفاكيا كان محاولة للتغلب على الانعزالية الأيديولوجية من خلال طريقة جديدة تحترم حقوق الانسان وهى أهم الأسس لبناء مجتمع حر . وأعلن الخبراء فى وثيقة اعلان ميثاق ٧٧ أن مسئولية حفظ الحقوق المدنية لا تقع فقط على الحكومات ولكن « على أى وكل فرد » . وبسبب ايمانهم باقتسام المسئولية اتحدوا وتوحدوا فى جمعة مفتوحة تكون ملتزمة بالدفاع عن حقوق الانسان ومتجاوزة لأى فوارق أيديولوجية ودينية أساسية قد يحملها الموقعون على هذا الميثاق :

«ان ميثاق ٧٧ حر ، غير رسمى ، وهو كميونة مفتوحة تضم العديد من القناعات والديانات وفيها تعايش بين كل التمايزات . ان

أعضاءها جمعتهم الرغبة في العمل جماعة وأفرادا من أجل الحقوق الإنسانية والمدنية في تشيكوسلوفاكيا والعالم أجمع وهو ما تبنته الاتفاقيات الأخيرة لمؤتمر هلسنكي ١٩٧٥ وغيرها من المعاهدات الدولية المعادية للحرب والعنف والقهر . ومن ثم فإن ميثاق ٧٧ يرتكز على التضامن والصداقة بين الشعوب ويؤكد في بعض نصوصه على مثل بعينها» . (٧) .

إن صياغة الميثاق الفضفاضة أشارت لمعاداتها للبناء الهرمي والسلوى ، وأكدت وثيقة الاعلان على أن الميثاق ليس منظمة : « وليس له تشريعات ولا جرائد ثابتة فائقة باسمه ، ولا عضوية مسجلة . كل شخص يوافق على الأفكار ويعمل من أجلها يجني ثمارها » (٨) .

وأوضح الميثاق أنه لا يعتبر نفسه بديلا للسلطة القائمة أو ضربا سياسيا يسعى للحصول على السلطة ويتبع استراتيجيات خاصة به . إن إنكار الشخصية السياسية للميثاق يتعلق بالطبع بقلق السلطة من أي شكل من أشكال النقد . ويعد أي شكل من الفعالية السياسية في ظل « الاشتراكية النظامية » في تشيكوسلوفاكيا عملا « هداما » ، ويتم اعتقال كل من يمارسها . وعبر الميثاق عن فهم للممارسات السياسية باعتبارها مجالا يعمل فيه المواطنون معا ، من أجل المصلحة العامة . وبهذه الطريقة أدرك السلطويون أن الحركة الجديدة لن تتدخل في الممارسات السياسية الرسمية الفاسدة والمشوهة ، إلا أنها لن تألو جهدا لاستعادة كرامة المبادرات المستقلة ، وتعد هذه المقولة رمزا للفلسفة المعادية للممارسات السياسية والتي تعد تأكيدا جديدا على أهمية الحقوق المدنية وشكلا من أشكال مقاومة فساد الممارسات السياسية في دولة ما بعد القوتاليتارية .

« إن ميثاق ٧٧ لا يعد معارضة سياسية منظمة . إنه يدافع فقط عن المصلحة العامة كما تفعل منظمات أخرى مشابهة فتناصر المبادرة المدنية في كل من الشرق والغرب . ولم يكن في نية الميثاق تحديد برامج راديكالية معينة تهدف للإصلاح السياسي والاجتماعي وبدلا من ذلك حاول تحديدا لفت الأنظار للانتهاكات التي ترتكبها السلطات ضد الحقوق الإنسانية والمدنية وطرح حلول ونقد أقدام عامة لضمان احترام مثل هذه الحقوق في المستقبل كما عملت كوسيط في النزاعات بين المدنيين والدولة » (٩) .

إن ميثاق ٧٧ — مثله مثل لجنة الدفاع عن العمال أو المعارضة الجرية المنشورة — رأى أن المعارضة العنيفة للنظام الشيوعي هي

الخط الذى لا يجب تجاوزه • وحاولت هذه الحركات استغلال أنظمة ما بعد
التوتاليتارية المزعومة ، للدفاع عن قضية حقوق الانسان وتعميقها لابتعد
مدى : وصعد المجتمع المدنى مرة أخرى باستخدام الثغرات الموجودة
فى بنية النظام ، وتحدوا الحكام وطالبوهم بتحمل نتائج وعودهم
وتعهداتهم • وأفرض هذا الصراع أشكالا جديدة من الوحدة واشكالا
جديدة من الجماعات بما فيها جماعات السلام المستقلة والجماعات
الايكولوجية ودور النشر السرية والجماعات الطائرة وكل أشكال التعبير
الأخرى - وهو ما أسماه المنادون بحقوق الانسان التشيكيكسرلرافاكيون
« الثقافة الثانية » . ولم يكن غريبا أن يقابل النظام هذه الحركات
بردود أفعال عنيفة ولجئوا لاستخدام القمع • وفى نفس الوقت أدرك كل
المشاركين فى هذه الأنشطة أن جهودهم لن يكون لها أى مردود اجتماعى
الا اذا تواصلت البنى المتوازية واخترقت وأثرت على مثيلاتها « الرسمية »
وقال هافيل فى هذا الصدد :

« سنكون مضطرين تماما اذا فهمنا أن البنى المتوازية والممارسات
الشكلية المتوازية نوع من الارتداد أو العزلة ولا تليق الا بهؤلاء الذين
يعيشون فى رفاهية وفضلوا عن مثل هذا المسار ولا يبالون بالآخرين •
ولا يستطيع أكثر أشكال السياسات المتوازية تصحجا ورقيا ان تبقى
- على الأقل فى ظروف ما بعد التوتاليتارية - الا عندما يتخلى الفرد
- فى نفس الوقت - عن البنية الرسمية (السابقة) اذ تربطه بها
الف علاقة فهو يشترى ما يحتاجه من متاجرهم ويستخدم نفوذهم
ويطيع قوانينهم » (١٠) •

ان المنشق سواء أكان رجلا ام امرأة يتحدى ما هو سائد من
العقائد والعادات والمحظورات وشتى أنواع الاجحاف ويطالب بأن
يتغلب الاحساس بالكبان الانسانى فى مفهوم المسؤولية ، واذا كان
هدف النظام هو اقناع الفرد بأن ما هو قائم هو الحقيقة الوحيدة الممكنة
فان الحركات الجديدة رفضت ذلك قائلة بأنه لا يوجد شيء يقرر مصير
الانسان ، كما لا توجد أية حتمية آلية تستطيع ان تجبر الفرد على
قبول الوضع الحالى ولا أن تجعله يسلك مسلكا عبوديا . وفى أحد
خطاباته التى أرسلها لزوجته أولجا Olga كتب فيتسلاف هافيل :

« ان مشكلة الكيان الانسانى ظلت دائما فى بؤرة تفكيرى عندما
تشغلنى شؤون الانسان ، ولا أستخدم كلمة « الكيان » لأننى أؤمن بأنفسنا
تفسر أى شيء عن سر الوجود الانسانى بل استخدمتها عندما كنت
أطور مسرحياتى أو عندما كنت أفكر فيهم فيما بعد لأنها ساعدتني فى
تجديد موضوعاتهم ونتائجها • وأجد أن « أزمة الكيان الانسانى »

هي أهم ما نشد انتباهي ، وتتناول كل مسرحياتي هذا الموضوع أي الخط من أحادية الفرد والتخلص من كل شيء يعوق إعطاء الوجود الانساني معنى واستمرارية وحلولا فريدة . وفي نفس الوقت ... نما في تأملاتي أهمية مفهوم المسؤولية الانسانية . لقد بدأ يظهر بوضوح متزايد كقضية جوهرية تنسحق منها كل الكينونات وبها تصمد أو تسقط ، انها اساس ، وجذر ، ومركز الجاذبية أنها ابدا البنائي أو محور الكينونة ، و « الفكرة » من الأشياء التي تقرر مستوياتها وشكلها . انها جسر الرجي الذي يربطهما معا وعندما تجف تبدأ الكينونة أيضا على نحو انقلابي في التفتت وتجهول الى اشلاء » .

واستطاع هافيل باعادة اكتشاف العلاقة بين الاتساق الخاص بالشخصية وروح الواجب المدني أن يصل لهذا الاستنتاج الجديد :
« ان سر الانسان هو سر مسئولياته » (١١) .

وهكذا كانت الحركات الجديدة نقيضا للرؤية الرسمية للممارسات السياسية ، فبينما كانت الأحلاف الشيوعية منفردة بالحكم ، متزمنة فان المجتمع المدني كرس مفاهيم الصراحة ، والحوار والسماحة . وفي عام ١٩٨٦ قدم هافيل ردا على الاستفسارات التي أرسلت له من الصحفى التشيكي المنفى كارل هافزدالا Karel Hvizdala اجابات عميقة كانت خلاصة تجاربه الفنية والسياسية .

واسفر هذا التبادل للآراء عن مذكرات رائعة ، وكتاب القى الضوء على مخزى الانشقاق كخطوة أولى في اعادة بناء مناخ شعبى يرتكن الى الثقة والتضامن . وكتب هافيل مشيراً الى الطبيعة الأيدلوجية لميثاق ٧٧ :

« ربما يتهتم على أن اضيف شيئاً آخر عن التعددية في الميثاق ، فالميثاق لم يكن شيئاً يسيراً على الجميع ، فكان لابد أن يتجاوز كثيرون خلافاتهم الدأشاية القديمة الا أن الجميع استطاعوا أن يفعلوا ذلك لأننا شعرنا بأن تاريخنا أصبح شيئاً جديداً تماماً : أن جنين السماحة الاجتماعية الأصيلة (وليس مجرد الاتفاق بين البعض للاطاحة بالآخرين ، كما كان الحال مع حكومة الجبهة القومية National Front بعد الحرب العالمية الثانية) - سوف ينبه الذاكرة القوية ، وسيتبقى في الذاكرة كتحد استطاع أن يكسب الدعم فى أى وقت وإى موقف ويجذب اليه الاهتمام » (١٢) .

ان دور الحركات الجديدة هو اقناع المواطن العادى (الخضرى) الذى يدعم النظام بطريقة جامدة ، لأنه لا يتصور وجود بديل له . ان التحذير

ممكّن حتى فى ظل هذه الظروف السيئة التى يعيشها الجميع فى دولة ما بعد التوتاليتارية .

« لا يجب أن تتخلى عن الأمل » تلك هى الرسالة التى تنقلها هذه الحركات لهؤلاء الذين شاركوا فى إعادة بناء المجتمعات المدنية فى أوروبا الشرقية .

« ان الأمل ، بهذا المعنى العميق الفعال ، ليس هو نفس البهجة التى نتقائنا عندما تكون الأشياء على ما يرام ، أو عندما تستثمر مشروعات ستشق طريقها الى النجاح ، ولكن الى حد ما ، القدرة على العمل من أجل شيء ما لأن هذا الشيء جيد وليس لأن لديه فرصة للنجاح . وكلما كان الموقف لا يشير بالخير كان الأمل أعمق . ان الأمل لا يعنى التفاؤل ، انه ليس قناعة بأن شيئا ما سوف يقلب الأمور ، ولكنه احساس مؤكد بأن شيئا ما سوف يحدث ويكون له وقع كبير دون الأخذ فى الاعتبار كيف سيظهر . وباختصار فأننى اعتقد بأنه أكثر أشكال الأمل عمقا وأكثرها أهمية وهو الشكل الوحيد الذى يحافظ على بقائنا فوق سطح الماء دون أن نغرق ويلج علينا ويحثنا كى نؤدى عملا جيدا ، والمصدر الحقيقى والوحيد لايجاد متنفس للروح الانسانية وجهودها . انه الأمل الذى يمدنا قبل كل شيء بالقوة لنبقى ونستمر ونجرب الأشياء الجديدة باستمرار حتى ولو بدت الظروف من حولنا لا أمل فيها ، هنا والآن » (١٣) .

يجب على المرء أن يسترجع الظروف التى جرت فى أوروبا الشرقية فى العام الأول من تولى جورباتشوف السلطة ، حيث لم يكن هناك أى امارات تدل على أن الزعيم السوفيتى يمكن أن يتورط فى أى شيء سوى عمله على أن يجعل النظام الجديد فعالا ومتدفقا . ولم يستطع معظم المحللين للشئون السوفيتية التنبؤ بالتغيرات الدراماتيكية التى ستحدث لفهم الاتحاد السوفيتى عن التضامن فيما بين دول الكتلة . وأشارت الدلائل التى جاءت من موسكو الى اهتمام الكرملين باستبدال الزعماء الأوربيين القدامى بأخرين جدد لتجديد وضخ دماء جديدة فى الأحلاف الشيوعية . واستنتج معظم الناس أن التوجه السوفيتى الجديد كان يقدم الدعم والتشجيع للمصلحين الشيوعيين (١٤) .

واعترف كثيرون مثل آدم متهنك فى بولندا وجانوس كسى فى المجر وهافيل فى تشيكوسلوفاكيا بأن التغيرات التى تجرى فى الاتحاد السوفيتى وتأثيرها على الموقف المحلى فى كل بلد شرق أوربي كانت

شديدة الأهمية والخطورة . وما زال المفكرون يرفضون تعليق كل آمالهم على النوايا الطيبة لإمبراطور مستنير . أن النعيرات لابد أن تتجاوز — إذا كانت جوهرية وصادقة — الوضع القائم للسلطة ، ومن ثم يجب أن تعاد الصحو للمجتمع من جديد وذلك بممارسة الضغط الجماعي الذي تقوم به الجماعات والحركات المستقلة وكذلك بما تقوم به أجنحة معينة داخل الائتلاف الحاكم ، وبالتخلص من هؤلاء الذين يقبضون على السلطة المطلقة وبإطلاق العنان للتحديث الاجتماعي . وأصر هافيل ردا على هؤلاء الذين بنوا آمالهم على نية جورباتشوف في تحديث النظام والسماح بإجراء إصلاحات عميقة، على أن هذه التغيرات لن تكون أصيلة وصحيحة ولن تسفر عن مجتمع لا شمولي إلا إذا شارك المجتمع نفسه في المسؤولية . وبدأ واضحا للجميع أن الصراع بين الحمامة والصقر أو بين الليبراليين والمحافظين في المكتب السياسي سيسفر عن التعددية السياسية ، وعارض هافيل ومفكرون شرق أوروبيين آخرون عاقبة رؤية المجتمع المدني وعرقلة حركته التي لم يعد في الامكان احتواؤها . أن النية الحسنة لأفضل سكرتير عام لا تكفي لبتغير النظام ، أنها تجمله وتجعله محتملا .

لقد اكتشف هؤلاء الذين يعتقدون بأنهم قد خولوا من قبل التاريخ لحكم وقمع الآخرين، أو لاستخدامهم كأدوات لهم دون أن يتعرضوا لأي محاسبة مدى جدية وصدق الممارسات السياسية الجديدة ، ومن ثم أصبحت الأرض ممهدة كي يبرز مجتمع مدني ناضج وواع يشترك الحكومة مهام الحكم .

« اننى اترك لمن هم اكثر قدرة ومسئولية تقرير ما يمكن ان نتوقعه من جورباتشوف و « من القمة » أى ما يمكن أن يحدث في أجواء السلطة الا اننى لا اعلق على ذلك أى آمال ، واهتم أكثر بما يحدث في « القاعدة » وما يمكن توقعه من « القاعدة » . وما يمكن تحقيقه من مكاسب لما تدافع عنه . أن السلطة في يد شخص ما وهو يستجيب لحكم العقل والسلوك هؤلاء الذين يحكمهم وذلك غالبا ما يحدث دون قصد ، بل أن سلوك السلطة يعد انعكاسا لما يحدث في « القاعدة » إذ لا يمكن لأحد أن يحكم من فراغ » (١٥) .

أن المجتمع المدني ملأ هذا الفراغ بفهم جديد للممارسات السياسية وذلك بتحديثه ومقاومته للأجهزة القمعية السلطوية . فنجد هوساك وجاكسى في تشيكوسلوفاكيا — كمثال — قد خرجا عن سياستيهما المتبعة لحو ذكرى ربيع براغ ولزراع الاحساس بالقصور التام في نفوس الجماهير ، كما ساهمت مبادرات مثل ميثاق ٧٧ والأعمال المدنية في صحو

المجتمع مرة أخرى . ولم يكن المنشقون — بما لهم من « دراية بالنفس والتحرر الذاتى » هم وحدهم الذين عارضوا النظام القسائم بشكل مباشر بل شاركهم الجماعات والاتحادات ، كما عارضوا « المنطقة الرمادية » بين الحكومة والمعارضة معبرين عن صعود الفعالية الاجتماعية التى لم يتنبه اليها الا القليلون رغم دلالتها .

((ومرة بعد مرة تصيبنا الدهشة الشديدة والعجب مما يحدث كل يوم ومن المخاطر العظيمة التى خاضها الشعب بشجاعة ، كما أصابنا الذهول لمقدار الحرية التى تصرفوا بها ، ومقدار تعطشهم العظيم والكامن لمعرفة الحقيقة ، وتعطشهم لسماع كلمة حق وللقيم الأصيلة)) (١٦) .

لقد تحررت عشرات الآلاف من الجماهير من قيودها ، وتكونت فرق الجاز رغم وجود الفرق الرسمية ، وانطلقت المظاهرات الضخمة للدفاع عن حرية العقائد الدينية . لقد كشفت الأحداث التى جرت فى النصف الثانى من الثمانينيات ، مدى عجز دولة ما بعد التوتاليتارية عن احتواء الضغط المتزايد من القاعدة الجماهيرية . وعندما تكونت مجموعة غير رسمية تدعى فينز Vons (لجنة الدفاع عن المضطهدين) صنفها الحكومة ضمن « المنظمات المعادية للدولة » واعتقلت زعماءها بما فيهاهم هافيل . ان الانشطة المتنامية على نحو مفاجئ والتى تميزت بالاستقلالية كشفت عن الرأى العام الذى زيف وكمن وراءه الخوف واليأس .

ان هذه الانشطة تدل على السخط الاجتماعى العميق والكامن تحت السطح الخارجى لدولة ما بعد التوتاليتارية :

« قد لا تبدو هذه التغيرات للمراقب الخارجى شيئا ذا دلالة .

ابن الدهشات والملايين من نقابك القوية ؟ لماذا لم يتفاوض معك هوساك ؟ لماذا لا تهتم الحكومة بعروضك وتصرفاتك الطيبة ؟ الا ان هذه التغيرات تعنى كل شيء بالنسبة لاي شخص هنا ، انها الوعد الحقيقى للمستقبل اذ انه قد تعلم — منذ زمن بعيد — الا يقبلها من اى مكان آخر » (١٧) .

وتقدم المجتمع المدنى على نحو أسرع وأقوى فى المجر وبولندا عنه فى بلدان أخرى مثل جمهورية المانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا . وتستحق حالة المانيا الشرقية بساساتها البروقراطية وأرثوذكسيته الجامدة أن نغيرها اهتماما خاصا ، الا أننا لا يمكن أن نفهم بسهولة أسباب انهيار نظام هونكر فى سقوط ١٩٨٩ دون الرجوع لتاريخ الانشقاق

الديمقراطى ودون الرجوع لتاريخ المعارضة فى ذلك البلد . لقد طالبت
 جمهوريه المانيا الديمقراطية بعد قيامها بمبارحه من ستالين ودللك فى
 أكتوبر ١٩٤٩ أن نخون الدولة الالمانية الاوى للعمال والفلاحين . لقد
 كانت البلد الاوربى الوحيد الذى اعتمد وجوده على افتراض ايدلوجى
 مفاده ان الطبسيه يمنح ان تبرر فصل امه الى دوسين . وفى أغسطس
 عام ١٩٦١ قرر والتر برخت - خليفه هونكر - الستالينى المتشدد أن
 يشيد سور برلين للفصل بين الالمانيين ولمس النزيف الديجرافى الذى
 قد يسفر عن كارثة . ويعد هذا القرار اتبع الحزب الاشتراكى
 الديمقراطى الحاكم SED سياسة وضع الحدود والفواصل
 Abgrenzung لحفظ وتعزيز سياسة العزل بين البلدين . وسعت
 الدولة الشيوعية كى تؤكد شرعيتها الى الاستيلاء على التقاليد الانسانية
 « التقدمية » للثقافة الالمانية . واصرت الدعاية الرسمية على أن
 جمهورية المانيا الديمقراطية التزمت بالدفاع عن السلام الا أن هذه
 الطنانه التى تخدم مصالح السلطة فشلت فى اقناع شعب المانيا
 الديمقراطية . لقد تأكد الشعب بما لا شك فيه أن النظام متورط حقا
 فى مسار عسكرى . وفى نفس الوقت فان الأوضاع الايديولوجية الجامدة
 التى يفضلها زعماء الحزب أدت الى اضطهاد مستمر ومنظم لهؤلاء
 النقاد الذين حاولوا أن يقدموا بديلا للخط الرسمى . وتفرد زعماء المانيا
 الشرقية بانتهاج سياسة متعنتة فيما يتعلق بالاصلاحات التى لا مثيل لها
 فى أية دولة شيوعية أخرى باستثناء رومانيا ، شوشيسكو . وبدا أن
 هونكر فى سنوات حكمه الأولى . يتبنى منهجا جديد أكثر مرونة فيما
 يتعلق بالشئون الاجتماعية الدولية ، بل انه عبر عن اهتمامه بالحوار
 مع مبدعى الحزب وأخذ فى التمرد - تدريجيا - على دوجماتية النظام .
 وفيما بعد وخاصة بعد ١٩٨٠ رفض هونكر ابداء أى تساهل مع
 المعارضة ، الا أن زعماء الحزب الالمانى لم ينسوا ثورة يونيو ١٩٥٣
 التى قامت بها الطبقة العاملة .

ولمجابهة ازدياد وتكاثر الأفكار الاصلاحية الديمقراطية اكد النظام
 على التزامه برؤية محافظة تماما للاستراكية . وعندما جاء جورباتشوف
 للسلطة واطلق حملته المعادية للستالينية فان زعماء جمهورية المانيا
 الديمقراطية لم يخفوا استيائهم نحو ما اعتبروه نهج (مغامر) خطر .
 ولسخرية الاقدار فان القطر الذى سمح بوجود قواعد عسكرية على
 ارضية تحتلها قوات سوفيتية تبلغ ٤٠٠.٠٠٠ جندي تقوم حكومته
 بحظر توزيع أى منشورات سيفيتية تطالب باصلاح المسار الاشتراكى
 وساءت العلاقات بين الزعماء السوفيتيين والالمان الشرقيين وخاصة

بعد أن أعرب السوفيتيون علانية عن نيتهم في التخلي عن المنهج الطبقي في العلاقات الدولية . وقيل السناسينيون الموسميون في المكتب السياسي الألماني الشرقي مذهب ياكوفليف شيفرنادزة . Yakovlev . Shevardnadze الذي يؤكد على تفوق القيم العالمية مثل السلام وحقوق الإنسان في العلاقات الدولية بالاستياء والامتناع وكان أهم حدث جرى في الاحتفال بالذكرى السبعين لتأسيس الحزب الشيوعي الألماني KPD في ديسمبر ١٩٨٨ هو رفض أريك هونكر الاقتراحات الخاصة بتعديل سياسات الحزب الاشتراكي الديمقراطي الحاكم بما يتناسب مع رياح التغيير التي تهب من موسكو :

(ليس لدينا سبب لتقليد الممارسة السياسية لهذا البلد أو ذاك من البلدان الشيوعية رغم أن ذلك يعد ، حقيقة ، بمثابة انكار سافر للتعاليم الأساسية للماركسية . السلام تحفظه سياستنا الخارجية ، وتصونه السياسة العسكرية ، ویدعمه تلقين الأجيال الصغرة ، وحمية الدعم الشامل من الأرض الأم للاشتراكية) « (١٨) » . وفي محاولة لدعم تواجده في الحياة القومية أكد النظام - يائسا - على الكينونة القومية الألمانية الشرقية ، فحاول - أولا - أن يحقق لنفسه هبة وجماهيرية من خلال التوحد مع الأيدلوجية الرسمية لرموز وأفكار بعينها والتي ترتبط باللحظات المهمة في تاريخ الأمة الألمانية ، كما أصر ثانيا - على أن جمهورية ألمانيا الديمقراطية تمثل الدعامة الرئيسية للنظام الشيوعي والمعنى السامي « للدولة الاشتراكية » . وهذا الزعم الثاني أوشك أن يفقد معناه بعد حلول عام ١٩٨٧ عندما تساءل هونكر وزملاؤه عن جدوى سياسات جورباتشوف الجديدة . ولسنوات طويلة خطط الحزب الاشتراكي الديمقراطي لاستئصال الشظايا التي تطلتها الحركة المنشقة على الجسد الاجتماعي وبعد عام ١٩٨٠ واجه الحزب جهودا متنامية لتحقيق الاستقلالية كما شهد بداية حركة جماعية لمعارضة المسار العسكري . وعلى الصعيد السياسي أدركت حركة السلام المستقلة الألمانية الشرقية أن الدولة التوتاليتارية - وهي ما يطلق عليها اسم الكتلة الشرقية - لن تدخل في حوار مع قوى بديلة . ووجدت الجماعات الجديدة في الكنيسة الانجيلية مصدرا للدعم والتشجيع ، وذلك بسبب وضعها الخاص والمتجاوز للمستوى السياسي ومن ثم قدرتها على دعم الحركة المستقلة الصاعدة بدرع قوى يحميها . ورغم أن العلاقات بين موظفي الكنيسة وممثلي الجماعات المستقلة وحقوق الإنسان لم تكن تتسم دائما بالإنسجام ، فإن المؤسسات الدينية تحولت لحلف مهم جدا بالنسبة للمناضلين المضطهدين .

وحاولت الجماعات الجديدة ان تشق قناة تصب فيها جهود هؤلاء الذين يؤمنون بإمكانية دمج الألمانيّتين وهو ما أدى الى اخفاق هذه الجماعات فى جذب مزيد من الجماهير من بين هؤلاء الذين ظلوا على اعتقادهم بأن الحزب مجرد دخيل شاذ وغير شرعى . وفيما بعد اتضح ان التعهد بإقامة كيان دولة ألمانية شرقية سوف يصبح عبقة كؤودا فى سبيل الجماعات المعادية للسلطة والتي ستقود الصراع ضد نظام هونكر فى سقوط عام ١٩٨٩ . لقد رفض السلطويون تقبل الحقائق الواقعة وفهم الاشارات التى تبعث بها الجماهير كما هاجموا الجيل الأصغر اذى وجد فى الصرح الأيديولوجى للاشتراكية الألمانية الشرقية كذبة سمجة . ان الشاعر ومؤلف الأغاني ساشا اندرسون Sascha Anderson هاجر الى الجمهورية الفيدرالية فى أغسطس ١٩٨٦ ، وقد ولد لعائلة مبدعة عام ١٩٥٣ ومن ثم كان ينتمى للجيل الذى رفض ان يعتبر الجمهورية الألمانية الديمقراطية « الأرض الأم » ، كما رفض الايمان بأى أوهاى تتعلق بالفضائل الانسانية للشبوعية . وفى هذا الاطار فان وجهات نظره اختلفت راديكاليا عن تلك التى تبناها الماركسيون المثاليون مثل البرفسور الفيزيائى روبرت هافمان Robert Hvermarin المحارب السابق المعادى للنازية والذى أصيب بالتدريج بالاحباط الشديد اثر الطفيلان البروقراطى الذى يمارسه الحزب الاشتراكى الديمقراطى بسبب هؤلاء الذين تغفوا بالقصائد المعادية للوحدة ، ومنزل ولف بيرمان Wolf-Biermann الذى نفاه النظام فى أواخر السبعينيات . وينتمى اندرسون لجيل من النقضاد اللاراديكاليين المتحررين من الأوهام والافتتان ، واعتبروا النظام حزبا من الدجالين وفرصة للأوغاد السياسيين للحصول على الامتيازات وفرض سلطة لا حدود لها على رعاياهم الخائعين . ورأى اندرسون وانداده أن محاولة تحسين النظام تبدو مضيعة للوقت ، وانتم سلوكهم بالرفض التام للسلطة الا انه لم يكن رفضا حاسما :

((اننى لم أهتم أبداً بالنظام . . ولم اهتم بتقويض هذا النظام من الداخل . بل اننى لم أرغب فى أن أعمل وفقا لمطالب النظام)) (١٩) .

ان معظم المنشقين ، على أية حال ، لم يرفضوا النظام الاجتماعى القائم قدر ما رفضوا تشويه الحزب الاشتراكى الديمقراطى للمبادئ الماركسية . وفى هذا الاطار كانت المعارضة الألمانية الشرقية بالتأكيد تتأذى خلف حركات مشابهة فى بولندا والحر والتى تخلت عن آمالها التعديلية الخاصة باحداث التغير داخل النظام . ان حاملة هافمان ترمز لما هو قائم من اوضاع فهو معارض مطلق للديكتاتورية

السياسية وكان مقتنعا بأن النقد الماركسي يمكنه ان يؤثر بشكل قاطع على الممارسات السياسية للنظام التوتاليتارى . ورأى هافمان ومؤيدوه فى المعارضة الديمقراطية الصاعدة ، ان الحل هو اعادة التأكيد على الانسانية الفاعلة للاشتراكية ، ورأى ان اليوتوبيا الشيوعية التى ترتكز على مساواة حقيقية بين المواطنين هى المهمة الأولى لهذا العهد الجديد :

« لا بد من القضاء على هؤلاء الناس الذين يتمتعون بكل الامتيازات سواء أكانوا طبقات ام جماعات ، اذ لابد لكل واحد ، وكل شخص ان ينال نفس الفرصة ونفس الامتياز ، ونفس الامكانات ، ويجب ان تربطهم جميعا علاقات تقوم على المساواة والتدية » (٢٠) .

ان النظام تصرف مرة أخرى بطريقة دراكولية فيما يتعلق بالتحدى الانسانى الذى اعلى من شأنه المفكرون أمثال هافمان ولقى الكتاب فى حركة الانشقاق معاملة فظة من السلطة فمنعتهم من نشر كتبهم ووضعتهم تحت مراقبة البوليس الدائمة ، وغالبا ما أجبرتهم على الهجرة .

وفى مثل هذه الظروف كان لا بد من انتهاز استراتيجية جديدة دخيلة . وكانت اعادة بناء المسيرة النقدية واعادة التفكير فى الامكانات المتاحة من أجل حركات اجتماعية مستقلة ضد تيار سلطوى قوى لفرض الهيمنة على تلك المناطق التى لم تجتجها كلية أفكار او مبادئ ضرورة ملحة . ان الحل الوحيد أمام هؤلاء الذين يرغبون فى عمل أى شئ داخل جمهورية ألمانيا الديمقراطية بدا انه يتجاوز مجرد المعارضة الفكرية التى كانت تعتبر بطولية رغم أنها بدت هامشية ومعزولة . ومن ثم طرق قضايا جماهيرية ملحة بما يتوافق مع الالهامات والتوقعات والحاجات الشعبية وبما يتوافق مع وجهة نظر المفكرين النقاد فى ألمانيا الشرقية . وكانت القضايا الحسوبة التى طرحت هى المناورة التى تلجأ اليها الدولة فى مواجهة فكرة السلام وعدم اهتمامها بالتدهور البيئى .

وفى يناير ١٩٨٢ أعلن روبرت هافمان « عريضة برلين » الوثيقة التى ميزت ميلاد حركة السلام الألمانية الشرقية ووقع العريضة التى كتب أصلها راينر ايلمان Reiner Eppelmann الوزير اللوثرى ببرلين الشرقية والمشارك فى العمل الشبابى وآلاف من الجماهير (٢١) . وكانت القضية الرئيسية لعريضة برلين هى تحدى دعاية النظام العسكرى . وأعيد رفع الشعار القائل «كلما كانت الاشتراكية اقوى ، كان السلام مضمونا» فى المصقات الألمانية الشرقية الرسمية ورد الموقعون على « عريضة برلين » على ذلك قائلين :

« اننا نقترح اقامة مناظرة كبيرة حول قضية السلام في جو من التسامح و اقرار حق حرية الحوار واطلاق وتشجيع كل تعبير شعبي نلتقائي يعبر عن الأمل في السلام » .

واقترح الكتاب العديد من القضايا التي يمكن أن تكون موضعاً للمناقشة والحوار . وبانكار ما قد يكون للحكم العسكري من فضائل طرحوا الاسئلة الآتية :

(أ) أيجب أن نوقف الانتاج ، والبيع والتصدير لما يسمى بلعب الحرب ؟

(ب) أيجب أن نقدم فى مدارسنا دراسات عن السلام بدلا من التعليم العسكري ؟ .

(ج) أيجب أن نسمح بالعمل الاجتماعى من أجل السلام بدلا من الخدمة العسكرية لهؤلاء الذين يرفضون حمل السلاح لأسباب أخلاقية ودينية ؟ .

(د) أيجب أن نوقف كل العروض العامة للقدرة العسكرية وبدلا منها نقدم الاحتفالات الجماهيرية التي تعبر عن أمل الأمة في السلام ؟
(و) أيجب أن نوقف ما يسمى بالتدريبات الدفاعية المدنية ؟ ولأنه لا يمكن تحقيق أى عمل مدنى عظيم فى الحرب النووية فان هذه التدريبات تجعل الحرب النووية تبدو أكثر جدية . افلا يعد ذلك نوعا من الاعداد النفسى للحرب ؟ (٢٢) .

ومن الواضح أن جمهورية ألمانيا الديمقراطية كانت حصنا للدولة كى تواجه التحديات القادمة من القاعدة : ان الروح المعنوية للجماهير لم تكن عالية ، ومن ثم فان السخط تفشى بين الطلاب والمفكرين أكثر من العمال اذ أنهم لم يميلوا الى الانشقاق وفضلوا ان يقبلوا عرض الحكومة برفع مستوياتهم المعيشية عوضا عن السلام الاجتماعى . ومن ناحية أخرى كانت معلومات مواطنى جمهورية ألمانيا الديمقراطية عن حجم الفساد المتفشى فى الحزب الحاكم ضئيلة جدا رغم قرب وقوع الانهيار . ب عامى ١٩٨٩ و ١٩٩٠ . وأيا كانت نظرة الشعب الى هؤلاء الزعماء من أمثال السكرتير العام للحزب اريك هونكر فان رئيس النقابة العمالية هارى ترش Harry Trisch ورئيس البوليس السرى ايريك مليك Erich Mielke فلم يشك أحد فى أن الشيوعيين فى ألمانيا الشرقية ذوى المظهر الاسبرطى الشجاع ، والواعظين المتقشفين ، ورواد سجون هتلر ومعسكرات الاعتقال كانوا يمتلكون

العربات الفارحة واكواخ الصيد الفخمة وحمامات السباحة ، وهم فى ذلك يختلفون عن نظرائهم من القادة السوفيت تحت قيادة برجنيف . وفى أوائل الثمانينيات كان هؤلاء الذين جرءوا على انتقاد الحزب الاشتراكى الحاكم لعدم اهتمامه بالمواطنين الحقيقيين أقلية تم عزلها تماما وكان من اليسير فصم عراهم وأعاقه حركة الانشقاق لولا دعم الكنيسة لهم بسبب ايمانها الشديد بأن الحركة الاجتماعية من القاعدة قد بزغت لتعبر عن اهتمامات وآمال شرائح عريضة من الجماهير وظهر ذلك فى فوران تلقائى من العنف والغضب ، وشاركت الكنيسة حركة السلام فى الهموم الخاصة بالتدخل السافر للدولة فى الشؤون الشخصية . ورأى أنصار السلام فى ألمانيا الشرقية أن فكرة تحويل « السيوف لشفرة محراث Schwerlez Zufugshoren كانت أكثر من مجرد تشبيه بلاغى إذ كانت رمزا لقرارهم بالتمرد ضد العسكرية ، والرقابة ، والمناورة العسكرية والقمع الذى تمارسه السلطة - لقد كانت الطريقة الوحيدة لمقاومة محاولة النظام للاتجار بكل أشكال العمل الرافى ونشويها . ان حركة السلام المستقلة فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية كانت أولا وأخيرا مؤشرا للالتزامات الأخلاقية المتفشية التى أثرت على شرائح عريضة من شباب ألمانيا الشرقية فى بحثهم عن قيم ثابتة وفى سخطهم على الديماغوجية الثورية التى تتبناها الحكومة .

ان التفجرات السياسية التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى وفى اقطار أوربا الشرقية بعد وصول جورباتشوف للسلطة فى ١٩٨٥ جعلت المناضلين من أجل السلام وحقوق الانسان أكثر راديكالية ، وأدرك أنصار السلام بعد أن تعرضوا للقمع الرسمى بأنهم فى حاجة لجدول أعمال أكثر توسعا وقرروا منذ بداية عام ١٩٨٥ أن يحددوا العلاقات بين السلام وحقوق الانسان فى منظومة . واطلقت مجموعة من قيادات المناضلين بما فيهم المتمرسون المحنكون فى حركات السلام غير الرسمية من أمثال راينر إبلمان Reiner Eppelmann ورالف هرتش Ralf Hirsh وولفجانج تيمبلين Wolfgang Templin مبادرات لاقرار حقوق الإنسان ، ووقع أكثر من ثلثائة شخص عريضة موجهة لهونكر مطالبين بتنفيذ اعلان الأمم المتحدة العالمى لحقوق الانسان ، كما طالبت العريضة بالتخلي عن الحياة الاجتماعية العسكرية وخلق خدمة مدنية بديلة لتحقيق أهداف واعية وأدانت أيضا القيود المفروضة على السفر وطالبت بحرية التعبير والغاء الرقابة إلا أن الحكومة تظاهرت بتجاهل المذكرة . وفى يوليو ١٩٨٥ أرسلت عريضة أخرى لمنظمة الشباب الرسمية مغلنة الهدف الرئيسى لحركة السلام المستقلة وهو احياء المجتمع المدنى .

ونصت العريضة على أن الجمعيات السلمية والمبادرات والمنظمات والنوادي والأحزاب السياسية لا يجب أن تعمل على الأحزاب السياسية الحاكمة . وأن قيام المجموعات المستقلة بمباشرة عملها دون قيود سوف يحى المجتمع من :

«الانفلاق فى نظام ادارى جامد يكبت الابداع بين مواطنيها» (٢٣) .

وفى هذا الاطار يدرك المرء فلسفة الارتقاء الجديد التى حركت صراعات المعارضة البولندية وأنشأت الأيديولوجية العامة للمناضلين الديمقراطيين فى دول قلب أوروبا الشرقية . وفى نفس الوقت فإن التصميم على العلاقات الحيوية بين السلام وحقوق الانسان كان جزءاً من رصيد الحركات المعادية للدولة التى كانت قد نمت فى بلدان الكتلة السوفيتية . وهنا يجب أن نذكر مقال هافيل المشهور « اختراق الصمت » الذى كتبه فى ابريل عام ١٩٨٥ وفيه ناقش المنشق التشيكى الاتفاقيات الرئيسية بين المناضلين المنادين بحقوق الانسان الأوروبى الشرقى وممثلى الحركات المعادية للنووية فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة . ويرى هافيل أن قضية سباق التسلح والحرب لا تكمن فى الحصول على الأسلحة ولكن فى اسخدامها من أجل أغراض توسعية . ان الأوربيين الشرقيين لا يتعاملون مع السلام وحقوق الانسان كقضيتين مختلفتين أو منفصلتين ، لأنهم تعلموا من تجربتهم الخاصة أن الحكومات التى تحط من قدر حقوق مواطنيها لا يمكن أن تكون محل ثقة عندما تقدم على التزامات دولية .

« بدون مواطنين أحرار ، يحترمون أنفسهم ، ومستقلين لن يكون هناك أمن حرة أو مستقلة . وبدون السلام الدولى بين المواطنين وبين المواطنين والدولة ، لن يكون هناك ضمان للسلام بين الدول : ان الدولة التى تتجاهل رغبة وحقوق مواطنيها لن تستطيع أن تقدم أى ضمان على أنها تحترم رغبة وحقوق الشعوب والأمم والدول الأخرى . ان الدولة التى ترفض مواطنيها وترفض حقهم فى الرقابة العامة على ممارسة السلطة لن تقبل الرقابة الدولية . ان الدولة التى تنكر على مواطنيها حقوقهم الاساسية تصبح خطراً داهماً على جيرانها أيضاً : ان الحكم الجبرى الداخلى سوف ينعكس حتماً فى علاقات خارجية جبرية عدم المصادقية فى بعض المناطق يثير خوفاً له مبرر من عدم المصادقية فى كل المناحى وكل الأمكنة . ان الدولة التى لا تتردد فى الكذب على شعبها لن تتردد فى الكذب على الدول الأخرى . كل ذلك يقودنا لاستنتاج وفاده ان احترام حقوق الانسان هو الوضع الأمثل والضمان الأوحد والأصيل لسلام حقيقى .

أن قمع الحقوق الطبيعية للمواطنين والتشعوب لن يضمن السلام بل على العكس سيكون خطراً عليه « (٢٤) » .

أن وجهة نظر هافيل كانت في الواقع رداً على النقد وسوء الفهم الصامت الذي تفشى بين السلميين الغربيين فيما يتعلق باتجاهات المنشقين التي يشوبها الشك نحو الحملات الدولية المعادية للحرب .

أن الفلسفة الجديدة الخاصة بعدم انفصال السلام عن حقوق الإنسان كان لها أثر قوي على الجماعات الغربية المعادية للأسلحة النووية ، والتي شاركت تدريجياً في الأنشطة الخاصة بتدعيم قضية الحركات المعادية للتوتاليتارية في الكتلة السوفيتية . وكان هافيل محقاً عندما قال :

« لقد أصبح جلياً أن هذا الانعكاس على التجارب اليومية المرة للمواطنين في الدولة التوتاليتارية يؤدي منطقياً إلى نفس النقطة وهي مزيد من التقدير لأهمية حقوق الإنسان والكرامة الإنسانية والحرية المدنية . أن ذلك هو جوهر ملاحظاتي وجوهر كل الانعكاسات الخاصة بالسلام . أن المتطلبات الأساسية للسلام والتي تحققت بعد أن دفعت الجماهير ثمنها غالياً وتميزت بالحماس الشديد والجديد ، هي أكثر الإسهامات أهمية لأنها جعلت الناس في هذا البلد يفكرون باستقلالية، ويصلون لما وصلنا إليه اليوم من وعى عام (٢٥) » .

أن العلاقة الوثيقة بين السلام وحقوق الإنسان أصبحت فكرة مهيمنة على منشورات حركات السلام المستقلة الصاعدة في ألمانيا الغربية ، وأدرك المتحدثون الرسميون عنها ضرورة تجاوز جدول أعمال السلام المحدود ومعالجة قضية التغيير السياسي . وهذا لا يعني أن السلميين الشرق أوروبيين قد تخلوا عن مشروعهم الأصلي ولكنهم - إلى حد ما - أدركوا أن السلام الداخلي لن يتحقق دون حوار أصيل بين الحكام والمواطنين من مختلف التوجهات السياسية ، ولا بد أن يكفل الدستور والقانون الحريات السياسية وخاصة الحق في حرية التعبير والتوحد . وقرر المعارضون في ألمانيا الشرقية بسبب التغييرات التي تجرى في الاتحاد السوفيتي والأبعاد الجديدة للفعالية السياسية التي خلفتها سياسة الجلاسونست الانضمام للانشغالات الشرق أوروبية ووقعوا في أكتوبر « الاعلام المشترك لأوروبا الشرقية » احتفالاً بالذكرى السنوية الثالثة عشرة للثورة المجرية .

وقد وقع الوثيقة مائة وثلاثة وعشرون من المناضلين السياسيين في أربعة من بلدان الكتلة السوفيتية هي : تشيكوسلوفاكيا ، ألمانيا

الشرقية ، المجر وبولندا مطالبين باستمادة تقاليد وتجارب الثورة المجرية التى قامت فى عام ١٩٥٦ لتكون ارثا شعبيا والهاما لجهودهم الحالية :

« اننا نستنفر العزيمة الشعبية لتناضل من أجل الديمقراطية السياسية فى بلداننا ، من أجل الاستقلالية والتعددية التى تقوم على مبادئ الحكم الذاتى ، ومن أجل وحدة سلمية لأوروبا المتحدة ومن أجل التكامل الديمقراطى ومن أجل حقوق الاقليات » (٢٦) .

ان المعنى العظيم للاعلان المشترك — كمستجمع للامطار تهطل فيه أشكال التعاون بين المثقفين فى كل البلدان — لم يخف على القيادات الالمانية الشرقية ، فعادوا للتهديد وتوعدوا الموقعين على الاعلان وحقروا من شأنهم ووصف وكلاء الدعاية الرسمية الثورة المجرية بأنها « تمرد فاشستى » ، ورغم ذلك لم تأفل جهود السلميين والمدافعين عن حقوق الانسان ، واستمروا فى جمع زحمهم . وفى نوفمبر ١٩٨٧ نظمت الحكومة حملة بوليسية على كنيسة زيون zion فى برلين الشرقية ، فخرجت للوجود « الحدود » Grenzfall كنشرة اخبارية تتحدث باسم حركة السلام وحركة حقوق الانسان .

وفى يناير ١٩٨٨ اتخذت السلطة اجراءات انتقامية جديدة ضد هؤلاء الذين طالبوا باصلاحات فورية ، وتم نفي نقاد كثيرين بما فيهم الرسام باربيل بولى Barbel Bohley ، وستيفان كروسكى Stefan Krawczyk الا ان الدولة سمحت لكروسكى بالعودة بعد ستة أشهر .

وبرز بوهلى Bohley أثناء اجتياح ١٩٨٩ الذى اطاح بحكم هونكر كواحد من زعماء المنبر الجديد New Forum وهو جمعية سياسية تدافع عن المجتمع المدني فى ألمانيا الشرقية . وساهمت السلطة بما أبدوه من عنت تجاه الجماعات ذات التوجه الاصلاحى ، فى تقطيع اوصال أية قوة فاعلة على الصعيد السياسى وذلك للحفاظ على كيان دولة ألمانيا الشرقية فى حالة الانفتاح السياسى الاصيل — وبدا الأمر وكأن هونكر يريد أن يتأكد من أن جمهورية المانيا الديمقراطية لا يمكن أن تظل قائمة دونه ودون مساعديه الستالينيين المفرورين . ان الأعضاء البارزين فى حركة السلام وحقوق الانسان سلموا بالأثر المحبط للاعتداء الرسمى على بناهم الوليدة . ومع حلول نهاية ١٩٨٨ أدرك معظم الألمان أن توقع اجراء القيادة المسرفة فى المحافظة التى يرأسها هونكر لاي تغيرات لم يعد ممكنا — ان خنق الانشقاق بشكل وحشى والافتقار الى القدرة على التنبؤ بنمو حركة حبوية مثل تضامن

في بولندا عمقت الاحساس بالاحباط السياسى خاصة فيما بين الشباب وهو ما يفسر افئقار الجماعات والاحزاب التى اصرت على الاحتفاظ بكيان المانى شرقى منفصل الى الجماهيرية وذلك بعد نوفمبر ١٩٨٩ . وعلى أية حال نستطيع أن نقول أن المجتمع المدنى فى ألمانيا الديمقراطية ساهم — رغم هشاشته — فى فضح الرأى العام الزائف الذى يرتكن الى الاجراءات السلطوية . ولم يكن فى مقدور دولة المانيا الديمقراطية — استنادا لرؤيتها الأيديولوجية — التخلّى عن التعذيب الجسدى السافر . ووضعت السلطة فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية الموالمين أمام خيارين : إما أن يبقوا فى منازلهم مع تقديم أدنى حماية اجتماعية لهم أو الرحيل ، وآثر أغلبهم الخيار الثانى . وكانت الجماعات الألمانية الديمقراطية السلمية وجماعات حقوق الانسان افرارزا لمرحلة معينة من اضمحلال النظام الألمانى الشرقى .

وقد ساهمت هذه الجماعات فى افول نجم سلطة النظام المزيفة وغدت متحدثة باسم الهموم القومية والسياسية التى طال كبثها . ورغم أن جدول أعمال هذه المجموعات كان محدودا ، فإن النظام بدأ فى اسقاط تلك الجماعات التى وسعت من نطاق أهدافها القومية للالمانين .

✱ من مجتمع مدنى الى تعددية سياسية :

لا يمكن انهاء هذا الفصل دون تحديد دور المجتمع المدنى فى التدمير الذاتى للمجتمعات الشيوعية . لقد بزغ المجتمع المدنى أثناء مرحلة معينة من اضمحلال النظام البيروقراطى السلطوى فى دول الكتلة السوفيتية بما فيهم الاتحاد السوفيتى نفسه .

ونظراً لغياب التقاليد السياسية واقتدار الائتلافات الحاكمة لعنصرى المرونة والتسامح فإن نمو المجتمع المدنى فى بعض البلدان تقدم بخطى وثيدة عن بعضها الآخر ، وعلى أية حال ، فقد ساهمت عملية التمايز الاجتماعى وتكوين جماعات ذات مصالح متعددة — لحد كبير — فى خلق جو عام من الاستقلالية أو شبه الاستقلالية فى علاقة هذه البلدان مع الحكومة السوفيتية . ولم ترحب الأنظمة البيروقراطية بهذه التطورات وحاولت وادها الا أن محاولاتهم قد منيت بالفشل . أن ما كتبه المؤرخ موسى ليفين Moshe Lewin فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتى يعد نبراسا لبلدان أوروبا الشرقية حيث قال :

« لم يعد أحد يهتم بهذا الفريق السياسى المسألة الوحدوية الكلية . أن الشبكات الحضرية المعقدة تشكل الأفراد وتدهض وجهات

النظر الرسمية . وتخلق خضما واسعا من الأعمال العفوية . وتخلي الزعماء المحافظون الذين أصابهم الاضطراب عن محاولة السيطرة على ما لا يمكن السيطرة عليه وعم سوء الادارة والتخطيط ولم يسفر تحويل المسار عن تحسين حالة الانكماش الذى أصاب النشاط التجارى ووضع النظام الدولة كله تحت ضغط أصابها بالشلل . ان التنام جروح المجتمع المدنى القادر على العمل وعلى صنع القرار هو أهم ما يميز بدايسة المرحلة الجديدة ولم يعد هناك أى احتمال للتراجع » (٢٧) .

ويمكن اعتبار المجتمع المدنى نوعا من المبادرات المتسقة والتلقائية والملا حكومية (رغم أنه لم يكن - بالضرورة - معاديا للحكومة) . وتتحدد معاملة في المبادرات التى تأتى من القاعدة في النظام ما يعد التوتاليتارية نتيجة لارتضاء سيطرة الدولة وتدهور القيود الأيديولوجية التى تفرضها الأحزاب الحاكمة . ان منظمة الدفاع عن حقوق العمال في بولندا أو ما سُمى في الآونة الأخيرة « بالبدل البرتقالى » ، وكذلك ميثاق ٧٧ في تشيكوسلوفاكيا وغيرهما من أشكال الأنشطة المنشقة في الاتحاد السوفينى ، « ومبادرة السلام وحقوق الانسان » في جمهورية المانيا الديمقراطية وكل الأنشطة المستقلة الخاصة بالسلام وبحقوق الانسان بما في ذلك الصحافة السرية ، والمنشورات ، والجامعات الطائفة ، كما وجدت في الثمانينيات وخاصة في المجر وتشيكوسلوفاكيا . كل هذه المنظمات يمكن اعتبارها عناصر المجتمع المدنى النامى الذى قوض احتكار حزب الدولة للسلطة وذلك بتمجيده للالهامات الاجتماعية واستمر المجتمع المدنى في بولندا حيث تمثل الكنيسة الكاثوليكية بدىلا قابلا للتطبيق لزيف الدولة الأيديولوجى وظل قائما حتى في أوج الحقبة الستالينية القمعية الا أن ذلك ظل في حدود ضيقة . وفيما بعد وبعد موت ستالين وبداية التحررية ، انتشرت دوائر ونوادى المناقشة في بولندا والمجر وأدت الى اخنار سياسى وثقافى في عام ١٩٥٦ . وكانت الجماعات التى قاومت التدهور الايكولوجى وطالبت بحماية التراث التاريخى جزءا من الظاهرة الصاعدة التى نسميها المجتمع المدنى . .

ولا يجب أن نعتبر المجتمع المدنى نقضا لسلطة الدولة ولكنه جهد يبذل للسيطرة عليها وللحد من مسارها التوسعى . وقد أصاب موشى لبون عندما وصف المجتمع المدنى بأنه :

« حاصل الشبكات والمؤسسات التى لا هى منعزلة ففتصرف على نحو مستقل عن الدولة ولا هى تنظيمات رسمية قادرة على تدوير

وجهات نظرها التلقائية فيما يتعلق بالقضايا القومية والمحلية فتفترضها على أعضائها وعلى الجماعات الصغيرة وأخيراً على السلطات (((٢٨) .

ان مرونة المؤسسات الرسمية واستعدادهم لاحتضان وتبني المطالب الشعبية واستعدادهم لتوجيه الانتقادات الى قرارات الحكومة ، تتوقف — بلا شك — على درجة ما تبديه السلطات من تسامح ومرونة . وظهرت في رومانيا — المفرطة في الستالينية تحت حكم نيكولا شاوشيسكو — تيارات معارضة داخل المؤسسات الموجودة ، فنجد — كمثال — اتحاد الكتاب الذى انشأته السلطة ليكون أداة تسهل سيطرة الحزب على المجتمع الثقافى قد أخذ في النحول فوجه النقد لتدخل القيادة الحاكمة فى الحياة الثقافية واحتج على الشوفينية الرسمية ، الا أن الكتاب الرومانيين عجزوا — لوجود القلاقل بينهم — عن تنظيم أى مؤتمر قومى بعد الشغب الذى حدث فى ربيع ١٩٨١ . وحدثت تغيرات مشابهة فى عام ١٩٨٩ داخل الاتحاد الرسمى التشيكوسلوفاكى حيث قرر أعضاؤه — ممثلين وكتاب دراما — أن يشجعوا النقد الموجه لنظام جاكس Jakes وظهر ذلك فى ميثاق ٧٧ وفى تكوين جماعات أخرى منشقة .

واستمر تصاعد المجتمع المدنى فى مراحل شتى ، ورغم أن الفكرة الأولى للمبادرات المستقلة — تحت الحكم الستالينى — كانت شيئاً لا يمكن التفكير فيه حيث حقرت الستالينية من شأن هذه النواة اللارسمية للمقاومة والمعارضة . وعملت كل نظم الدعاية والبوليس السرى بأقصى طاقة لها لخلق وحدة تسمح للحزب ببناء ما أسماه كل من الفلاسفة السياسيين الجريين أمثال أجنسى هيلر ، وفرتز فير ، وجورجى ماركوز Gyorgy Markus « بالديكتاتورية المفروضة على الحاجات » (٢٩) . ان غشل الأنظمة الشيوعية فى كسب الدعم الشعبى منذ أن بدأ الارهاب فى الانحسار ومنذ تآكل الأسس الأيديولوجية أظهر قصور النموذج البرجمائى ، وأصبح واضحاً أن أشكال المقاومة لما أسماه كارل فريدريش Carl Friedrich وزيجنيو برزسنسكى « ادعاء التوتاليتارية بالشمولية التامة » (٣٠) ظلت موجودة حتى فى أسوأ ظروف القمع والارهاب . ولا بد أن نقول لهؤلاء الذين رغبوا فى إقامة نواة تعمل من أجل الاستقلال كنوع من المقاومة المضادة للسمات الجوهرية للنموذج التوليتارى أن النموذج يتعامل مع ما يحاول الحكام أن يحققوه أكثر مما يتعامل مع أدائهم فى الواقع . ورأى روبرت س توكر Robert-C-Tucker ان الجماعات التابعة للنظام هدفت الى هدم تام للطبيعة الانسانية باسم الأيديولوجية العالمية . وأصبح من المستحيل على النظم القائمة أن تحتفظ

بحماستها التبشيرية بمجرد أن بدأت في التشكك في بعض العقائد الأيديولوجية - وساهمت الكوارث الأيديولوجية فيما أسماه توكر بدكاء « معاداة تحويل النظم الماركسية للراдикаلية » وفي تشبعها التدريجي بالنزعة الدنيوية (٣١) . علاوة على ذلك لم تستبعد أكثر التفسيرات التوتاليتارية تفاؤلا احتمال القضاء على ما سمي بالخضوع الأبدى ، إلا أن مصادر الثورة المضادة للتوتاليتارية - وفقا لهانا آرندت - تزامنت تحديدا مع تلك البوادر التي تشير لاحتمالية صعود التوتاليتارية في المجتمع الحديث أى صعود الحزب ، ومن ثم الاغتراب واليأس . ولا تستطيع المناورة الأيديولوجية تحقيق الانتصار الأبدى على الطلب الانساني من أجل كرامة فردية ، وفي هذا الصدد قالت هانا :

« الهيمنة التوتاليتارية ، مثل الاستبداد ، تحمل داخلها الجرائم التي نبيدها ذاتيا ، ولأن الشوف والصحن الذين يتبعان من الارهاب هما ميدان معاديان للسياسة ، ويلقيان بالرجال داخل موقف منافي للعمل السياسي ، فان الاغتراب والوحدة والاستدلال الأيديولوجي المنطقي - وهو الأسوأ - يمثلون موقفا مضادا للاستقراطية ويكرسون مبدءا هداما لكل الحياة الإنسانية » (٣٢) .

وفي الواقع فان الدرس المستفاد من اعادة بناء المجتمع المدني في الدول الشرق اوروبية الشيوعية ينلخص في أن دولة البوليس والعالية الأيديولوجية لا تستطيعان الحط من شأن الحاجة الانسانية للاستقلال وتأكيد الذات الى الابد .

ولا يمكن فصل المجتمع المدني عن أفول نجم الدولة السلطوية الأيديولوجية ، فمعد ارتكان الأنظمة الشيوعية على أكلوبة احتكار الحزب الحاكم للسلطة باعتباره العالم بكل شيء ، فان النسق القمعي الذي تبنيه حطمتها وجعلها تمر بسلسلة من الكوارث الجسام . انهم يحاولون أن يجعلوا عقائدهم متسقة مع الواقع ولكنهم يرفضون تجاوز التغييرات المحدودة في النظام السلطوي ، فكانت الاصلاحات التي اجروها تعوزها الحماسة وينقصها الاتساق . ونرى مثل هذه التجارب في نموذج الخروتشوفية في الاتحاد السوفيتي نموذج الكادارية في المجر ، باعتبارهما أكثر التراجم الأوروبية الشرقية وضوحا (٣٣) . وقام الكاتب المجرى ميكلوس هراتسي الذي يعد واحدا من زعماء ائتلاف الديمقراطيين الأحرار Alliance of Free Democrats وعضو البرلمان المجرى بتصنيف مثير لراحل ثورة المجتمع المدني :

المرحلة الأولى تتزامن مع تحررية دولة الحزب وبداية ظهور أشكال من الأنشطة الانشقاقية المتفرقة . وفى هذه المرحلة ظلت المعارضة بدائية ولم تطرح برنامجا بديلا يعبر عن مطالب المجتمع . ويدعو هراتسى هذه المرحلة بمرحلة ما بعد الستالينية ويرى أن جوهرها يكمن فى الصراع ضد الخوف وتصاعد المبادرات المستقلة ووجهات النظر المستقلة والنشاط الاجتماعى متحررين من دولة الحزب . وفى المرحلة النائية التى يسميها هراتسى بمرحلة ما بعد التوتاليتارية صعد المجتمع المدنى بأكمله معانيه كجهد جماعى للحد من القيود المفروضة والامتيازات التى تمنح فيها الدولة السلطوية . وقد تناول هافيل ومنشك هذه المرحلة بالتحليل فى كتاباتهم عن خلق البنى المتوازية و « الارتقائية الجديدة » . ان النظام فقد ثقته بنفسه وفسدت أخلاقياته ولم يعد قادراً على مواجهة السخط الشعبى المتنامى كما تقدم الاقتصاد - تحت رايته - بخطى متساوية . ان النظام السياسى القديم أخذ فى الانهيار والنحول لأشلاء وبدأ البحث عن آخر بديل يكون فى مستوى المبادرة الاجتماعية .

ان الأيديولوجية - الدعامة الرئيسية للتوتاليتارية الشيوعية لم تعد سوى طقوس فقدت معناها ولم تعد الرموز السائدة تنال ثقة الحكوميين :

« ان الديمقراطية تصل محل الليبرالية كقضية أساسية للممارسات السياسية ، وبينما تضع الأخيرة ارادة وجدول أعمال دولة الحزب الواحدة ، فإن الديمقراطية تعبر عن الراى العام المتصاعد . ان النظام هو موقف دفاع ، وتوجد محاولة لاقامة الاقتصاد على أساس برجمائى ومن ثم نشب صراع ضد الليبينية القديمة داخل المنشأة التجارية الحكومية . . . ان المجتمع يخوض معركة الشرعية ومعارك أخرى فى صراعه من أجل ديمقراطية الحياة اليومية والفردية والتعددية ، ومبادئ التمثيل الشعبى وحقوق الأقليات . ان الخوف من الاشتراك فى انشطتنا تزداد واكتسبت جماهير عريضة القدرة على اعلان معارضتها وكذلك القدرة على اكتشاف امكاناتها الخاصة آخذين فى الاعتبار ما يجرى من صراعات » (٣٤) .

والمرحلة الثالثة التى دعاها هراتسى بمرحلة ما بعد الشيوعية حيث سقطت دولة الحزب تماماً وأقيم نظام متعدد الاحزاب . ان ما طرحت الكاتب الجرى فى مقاله عام ١٩٨٨ كان - فى وقتها - مجرد فروض الا انه كان عاملاً مؤثراً فى التطورات التى جرت فى تلك الدول حيث هب المجتمع المدنى ووصل لدرجة عالية من النضج :

« لقد فقدت معفوليتها ، فلا بد لدولة الحزب الواحد أن تنهار ومعها بناها الضخمة . حقيقة أن الديمقراطية نيزغ ونقام على ركائز من طاقات وتجارب التعددية التي تشكلت بالفعل في المجتمع المدني .
 أما القضية الثانوية فهي التساؤل عما إذا كانت هذه العملية تتم فيها لنهج خوان كارلوس Juan Carlos في إسبانيا كانتقال سلمى أم من خلال صدامات ثورية أصفر أو أكبر . ولم يعد مهما إذا وقع هذا الانتقال في إطار إعادة تنظيم أوروبا أو كان سابقا عليه . ويدرس بمساعد ثورة المجتمع المدني في المرحلتين السابقتين لا يمكن أن يكتب لهذا الإنشغال النجاح » (٣٥) .

« ان انهيار الدولة الشيوعية في بلدان مثل بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا حيث بلغ المجتمع المدني أقصى تطور له ، حيث تم على نحو سريع غنه في بلغاريا ورومانيا ، وذلك بسبب تفجر العنف فيهما حتى بعد التخلص من دكتاتورى النظام السابق أمثال جيفكوف وشوشيسكو في نهاية ١٩٨٩ » .

وقد تفاقم الصراع في بلدان « الصف الشرقى » ، من أجل دولة القانون التي يكون لها حق مناعة الحكومة ومفضل السلطات وذلك بسبب فقر التقاليد السياسية الخاصة بالفعاليات المستقلة خلال مرحلة المجتمع المدني . وبعد ثورة ديسمبر ١٩٨٩ كانت رومانيا قد فقدت معظم رموزها التاريخية المهمة التي تمثل الرأى العام القسوى أمثال فينسلاف هافيل .

الا أن القضية الحقيقية لم تكن في غياب دور الأفراد الاستثنائي ولكن في غياب البنى السياسية ، بالمقارنة بتلك التي أنهارت في ختو ميثاق ٧٧ . وبمعنى آخر ، فإن رومانيا تحت قيادة شوشيسكو لم تمر بتجربة الانتقال لمرحلة ما بعد التوتاليتارية ولكنها شرعت بعد عام ١٩٧١ في تقوية سيطرة دولة الحزب الواحد وعودة التفسير التقليدى للتوتاليتارية التي تشمل — لحد ما — الحفاظ على طائفة الحكام والثار من أى شكل من أشكال النقد والمعارضة . ولم يمر الرومانيون بتجربة الرخاء تحت راية السلطوية الكادارية المستنيرة ولاحق من خلال تجربة نظام ياروزلسكي العسكري ، رغم اصلاحاته الاقتصادية . ان استراتيجية المجتمع المدني اقترت على أساس التدريجية واللاعنف والتربية الاجتماعية من خلال المشاركة في أنشطة تلقائية وعفوية .

هوامش الفصل الخامس

- Vaclav Havel. "The Power of the Powerless", in Vaclav Havel et al., *The Power of the Powerless* (Armonk, N.Y. : M. E. Sharpe, 1990), p. 65. (١)
- Ibidem*, p. 69. (٢)
- Adam Michnik, *Letters from Prison and Older Essays* (Berkeley and Los Angeles : University of California Press, 1985), p. 28. (٣)
- Ibid.*, pp. 86-87. (٤)
- Ibid.*, p. 91. (٥)
- Hans-Peter Riese, *Since the Prague Spring : Charter 77 and the Struggle for Human Rights in Czechoslovakia* (New York : Vintage Books, 1979), pp. 13-14 ; for one of the most informative and authoritative analyses of the rise of democratic movements from below in Czechoslovakia, see H. Gordon Skilling, *Charter 77 and Human Rights in Czechoslovakia* (London : George Allen & Unwin, 1981). (٦)
- Riese, *Since the Prague Spring*, p. 14. (٧)
- Ibid.* (٨)
- Havel, "Power of the Powerless," p. 80. (٩)
- Vaclav Havel, *Letters to Olga* (New York : Knopf, 1988), p 145. (١٠)
- Vaclav Havel, *Disturbing the Peace : A Conversation with Karel Hvizdala* (New York : Knopf, 1990), p. 139. (١١)
- Ibid.*, p. 182. (١٢)
- (١٤) لقد ناقش سيورين بيلار Sweweryn Bialer وتشارلز جاتي Charles Gati وكارسين دويتشا Karin Dawisha على نحو متميز استراتيجية جورباتشوف للتخلص من الأحلاف البرجنيفية المستبدة ، وتشجيع الفرق الابداعية والاصلاحية التوجه والبرجماتية أو حتى التكنوقراطية . لقد انقلب الوضع وأعيد النظر في رؤية القيادة السوفيتية وتم تشجيع المحلية أو التراث القديم كما أدانت موسكو - خاصة بعد عام ١٩٨٨ - (المعتد البرجنيفي الخاص « بالهيمنة المحدودة » ودحضت المفهوم الذي طال اعتناقه عن الامبراطورية الخارجية . وفي هذا الصدد ، بدأ أن جورباتشوف أدرك الوضع في الدول الشيوعية السابقة - انظر :

(١٥)

(١٦)

(١٧)

(١٨)

(١٩)

(٢٠)

Eppelmann (٢١) بعد انهيار النظام الشيوعي في عام ١٩٨٩ أصبح ألمان
عضوا نشطا في المجموعة السياسية الحديثة الناشئة والتي تسمى : الصحوة الديمقراطية
"Democratic Awakening"

(٢٢)

A. Wynton Jackson, "Introduction" to "GDR : Appeal on (٢٣)
the Occasion UN Peace Year," *East European Reporter* 2, no. 1
(Spring 1986), p. 61.

Vaclav Havel, "An Anatomy of Reticence," in *Crosscur- (٢٤)
rents : A Yearbook of Central European Culture* (Ann Arbor :
University of Michigan Press, 1986), p. 18.

Ibid. (٢٥)

For the full text of the statement, see Vladimir Tisma- (٢٦)
neanu, "Dissent in the Gorbachev Era — A Documentation,"
ORBIS, Summer 1987, pp. 243-43.

Moshe Lewin, *The Gorbachev Phenomenon : A Historical (٢٧)
Interpretation* (Berkeley : University of California Press, 1988),
p. 147.

Ibid, p. 80. (٢٨)

See Ferenc Feher, Agnes Heller, and György Markus, *Dic- (٢٩)
tatorship Over Needs* (New York : St. Martin's Press, 1983).

Karl Friedrich and Zbigniew Brezinski, *Totalitarian Dicta- (٣٠)
torship and Autocracy* (Cambridge, Mass. : Harvard University
Press, 1965), p. 27.

Robert C. Tucker, *The Marxian Revolutionary Idea* (New (٣١)
York : Norton, 1969), pp. 172-214.

Hannah Arendt, *The Origins of Totalitarianism* (San Diego : (٣٢)
Harcourt Brace Jovanovich, 1973), p. 478.

"Kararism as the Modern State of" Khrushchevism", in (٣٣)
Agnes Heller and Ferenc Feher, *From Yalta to Glasnost : The
Dismantling of Stalin's Empire* (New York : Basil Blackwell,
1990), pp. 129-45.

Miklos Harszti, "The Beginnings of Civil Society : The (٣٤)
Independent Peace Movements and the Danube Movement in
Hungary," in Vladimir Tismaneanu, ed., *In Search of Civil So- ty :*
Independent Peace Movements in the Soviet Bloc (New : :
Routledge, 1990), pp. 85-86.

Ibid, p. 86. (٣٥)

الفصل السادس

انتصار المقيهورين :

أصول وديناميات الاحتياج الشرق أوروبى

« ربما يبدو شيئاً دراماتيكياً أن أصل لهذا الاستنفاج واضعه على هذا النحو ولكن أقسم أنني أعنيه — وهو أنه من الأفضل ألا تحيا على الإطلاق من أن تحيا بلا شرف »
فيتسلاف هافيل

ان العوامل التى أدت الى الاحتياج الشرق أوروبى والى انهيار الكتلة السوفيتية لا يمكن أن نحصرها فى عامل واحد فريد من نوعه ، فهذا الاحتياج أثر على تاريخ العالم وأقرن العديد من القضايا التى تفاعلت خالقة مجموعة من الظروف جعلت من التغيير شيئاً ملحاً وحتمياً أول هذه العوامل هو اختفاء خيال المائة السوفيتى اذ مثل الخطر الواضح للتدخل العسكرى السوفيتى لقمع القلاقل الداخلية فى البلدان التابعة بقبة خطيرة فى طريق ظهور الحركات الجماهيرية الفاعلة . ان عدم التخلّى عن ما سمي بـ « يارث يالطا » ، وما قامت به القوى العظمى من اتفاقيات دولية عام ١٩٤٥ جعلت اية حركة مقاومة فى الكتلة السوفيتية ضرباً من الدنكشوتية محكوماً عليه بالفشل الذريع ، وهو ما أعاق نمو الحركات الجماهيرية والمعارضة وما ظهر منها كان ضعيفاً هشاً . أن إدراك السوفيتيين لمجزؤهم التام عن الهيمنة على أوربا الشرقية باستخدام الصياغات الستالينية العتيقة أدى بهم الى اعادة النظر — خلال حقبة جورباتشوف — فى النظام السياسى داخل الكتلة واعادة تقييم شرعية الأنظمة الشيوعية المفروضة من الخارج فيما يسمى بالامبراطورية الخارجية .

وفى مناسبات عديدة أوضح مؤيدو الجلاسونست بها فيهم الأعضاء المفضلين لدى جورباتشوف مثل جورجى شاخنزروف Georgy Shakhnazarov رئيس القسم الدولى فى الحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى CPSU والذي أصبح أحد المستشارين المقربين للزعيم

السوفيتي أن المفهوم القديم للاشتراكية والذي بنى على الإكراه وجسك الفرد واحتكار قلة بيروقراطية للسلطة لم يعد لوجوده أي تبرير أخلاقي أو سياسي . لقد كان ذلك هو المقدمة النظرية للتخلي عن النموذج البرجيني وانتهاج مسار جديد في العلاقات السوفيتية مع الأقطار التابعة سابقا . وعندما أدانت أعلى سلطة في الكرملين استخدام القوة والقهر لم يعد هناك ما يدعو السوفيتيين للتصاق بأساطير الثورات الشعبية والتي زعم بأنها أتت بأحزاب أوروبا الشرقية إلى السلطة في الفترة التي توسطت الحرب العالمية الثانية . وبمجرد أن أعلن السوفيتيون قرأهم بإعادة النظر وتفحص مسلماتهم الاستراتيجية وإعادة التفكير في الدعائم الأيديولوجية لما سمي بالنظام الاشتراكي العالمي ، بدأ الخوف المتفشى بين مواطني الكتلة يتبدد وينقشع .

ويعد إعلان الفهم السوفيتي الجديد للاشتراكية الذي طرحه جورباتشوف وحلفاؤه المقربون بما فيهم الكسندر ياكوفليف Alexander Yakovlev عضو المكتب السياسي والمنظر الرئيسي للبيروسترويكا لم يعد هناك مجال للشك في أن ما قامت به دبابات حلف وارسو نحو ربيع براغ كان قمعا . وحقيقة ، لقد أدرك كثيرون في بلدان أوروبا الشرقية أن مصالح براغ قد دفعوا ثمن البحث عن الاشتراكية الإنسانية التي يطالب بها الآن مؤيدو البيروسترويكا في موسكو . أن ديناميات الإصلاح في الاتحاد السوفيتي وضعت الزعماء الشيوعيين بأوروبا الشرقية في وضع لا يحسدون عليه فأخذت نماذجهم السوفيتية التي يقعون خلفها في الانهيار تدريجيا . وكانت الأرثوذكسية الأيديولوجية تعتبر في ذلك الوقت مجرد أثر للماضي الستاليني :

« في الماضي كان هناك دائما من يسمى « بالاشتراكي » وهو ينفى كل فرد فعال ، والآن يقول السوفيتيون أن الفاعلية العملية ، أي كيفية تفسير الأمور ستكون هي المعيار للاشتراكية التي يمكن تطبيقها في الواقع وهذا بدوره يفند النقطة المرجعية السوفيتية الثابتة والتي كانت موضعا للجدل في الداخل من طبيعة الفاعلية وعن الأشخاص التي يجب الإبقاء عليها . والحقيقة أن الاتحاد السوفيتي الذي كان نموذجا للاشتراكية أصبح وبخس القدر نموذجا للإصلاح السياسي يمتدّ به لقد أصبح نموذجا لتحقيق الإصلاح الاقتصادي من أجل الجلاسونست ، ومن أجل الديمقراطية ، ومن أجل الدور الشعبي الشرعي للمفكرين ومن أجل الجماعات التي قمعت حتى الآن بما فيها الجماعات القومية ومن أجل تجريب صيغ جديدة للمناظرة السياسية والعمل السياسي . وكما لم تعد الستالينية نموذجا فقد أصبح فشلها وعدم فاعليتها وطفيلاتها

شيئاً من الصعب تبريره بل ويجب النظر اليهم في ضوء المحسّنات
القومية « (١) » .

ان الانتقال السوفيتي المتنوع من التدهور الى التغير كان كافياً
للتأكيد على التفكك السريع للانظمة الشيوعية في دول الكتلة .

ان الانتقال لما بعد الشيوعية ارتبط بتدهور ثقة الاحلاف الشيوعية
بنفسها وهو ما كان انعكاساً للأزمات الأخلاقية والأيدولوجية التي تعاني
منها هذه الانظمة . ان وجود مجموعات وحركات سياسية كان له اثر
كبير في نجاح الانتقال ، اذ شاركوا في الهموم الاجتماعية وطرحوا بدائل
اقتصادية وسياسية للممارسات السياسية الشائعة التي تبتز الجماهير .
وقد أثرت المعارضة في بولندا وتشيكوسلوفاكيا وبقيدر أقل في
جمهورية المانيا الديمقراطية - على الظروف والتحديات التي أدت الى
تقطيع اوصال الانظمة الشيوعية ، كما ظهرت المجموعات الاصلاحية
التوجه في المجر وبولندا داخل قيادات القمة واعلوا من شأن الرؤى
المشابهة لتلك التي احتفى بها جورباتشوف وجماعته في الاتحاد
السوفيتي .

ودفعت التغيرات التي تجرى في الاتحاد السوفيتي ودول شرق
أوروبا بالقوى الديمقراطية في كرواتيا Croatia وسلوفينيا Slovenia
لاطلاق حملات شعواء من أجل الاصلاح ومن أجل التأكيد على هويتها
القومية ، ذلك بالرغم من أن يوجوسلافيا هي البلد الوحيد الذي لم
يتوحد رسمياً مع الكتلة السوفيتية .

وكان القمع في رومانيا وبulgaria أكثر تخطيطاً بينما كانت المعارضة
أقل تنظيماً ، الا أنها توحّدت في مرحلة مبكرة مع وجود المجتمع المدني
الصاعد . ووقعت المجتمعات المدنية في تلك البلدان فريسة لحملات
السلطة فأصبحت لفترة طويلة بالشلل والذعر . وتعهد البانيا أكثر
الدول الشرق أوروبية انعزالاً وبدت متمسكة وبصلف بستانينية أنور
خوجة الراديكالية ، وظل خليفة خوجة ، رامزي عليا ، سكرتيراً عاماً
وقضى فترة خدمته كشيوعي مخلص ، كما أبقى على نكسمجي ، أرملة
الزعيم السابق ، كرئيس للمنبر القومي National front وظلت طائفة
الزعيم الراحل كما هي كاملة لا تمس . وأثناء أحداث ١٩٩٠ عندما
تكرّنت أحزاب المعارضة بالبانيا بموافقة الشيوعيين الحكام بدا أن
هذا القطر لن يستطيع الانفلات مما بجتاح أوروبا الشرقية الشيوعية كلها
من حركات اصلاحية .

ان المجتمعات الأوروبية الشرقية تأثرت بالتغيير الذى طرأ على علاقات الاتحاد السوفيتى باسطار الكتلة ، وتخلص الاوربيون الشرقيون من خوفهم من الأزمات اللينينية التى عانت منها هذه البلدان ، خاصة بعد تزايد ادراك المؤيدين للنظام والموالين له بأن أى اصلاحات فى اطار النظام القائم لم تعد قادرة على التخفيف من حدة التوترات المتنامية ، وان الاشتراكية على الطراز السوفيتى استهلكت كل مصادرها الداخلية لتحقيق التكاثر وبدأت مبتذلة تماما ، وبدأت أى جهود تبذل لحفظ النظام مجرد وصفة أطالت عذابات المجتمع المدنى . ان المجتمع لا يرقى فى غياب اجماع الراى حول الأهداف الرئيسية والقيم المرجوة ، وفى أوروبا الشرقية كان هذا الاجماع غائبا تماما خاصة بعد عام ١٩٨٨ ، وينطبق نفس الشيء على يوجوسلافيا - البلد الذى لم يندمج مباشرة فى بنية الكتلة . ان السرعة التى تمت بها الاصلاحات السوفيتية كان لها اثر معد فى أوروبا الشرقية ، مما عجل بالاندفاع فى اتجاه الاصلاحات التى اجتاحتها ، كما استفحلت الصراعات بين المحافظين والليبراليين وهى الصراعات التى غالبا ما تخفت تحت اسم التوترات بين الاحلاف الكرواتية السلافينية الأكثر تعددية والزعماء الصربيين الأكثر سلطوية .

أما العامل الرئيسى الذى أدى لهذا الاجتياح فهو الضغوط التى مارستها الدول الأوروبية الغربية على الأنظمة الحكومية وغير الحكومية . كى تنفى بتعهداتها الدولية خاصة فى مجال حقوق الانسان ، ولعبت هذه الضغوط دورا مهما فى شد أزر المعارضة الداخلية ، خاصة بعد عام ١٩٧٥ عندما وقعت اتفاقيات هلسنكى الا أن الغرب زاد من تلك الضغوط بعد عام ١٩٨٠ فطالب الاتحاد السوفيتى بالتخلى عن استراتيجيته الامبريالية . كما لعب التحرك الرأسمالى وازدياد حاجة الاتحاد السوفيتى للمساعدة الغربية أدوارا مهمة فى قلقلة الأسس التى تقام عليها الأنظمة الشيوعية . ان سياسات العزلة الثقافية والسياسية التى تمارس عادة من جانب الحكومات الشيوعية والرقابة المنظمة على المراسلات والتشويش على محطات الاذاعة الغربية ، هدفت جميعا لقطع الروابط بين جماعات حقوق الانسان الصاعدة فى الكتلة السوفيتية ومؤيديهم فى الغرب ، اذ أن شعور هؤلاء الذين يناضلون من أجل حقوق الانسان داخل الكتلة بأن هناك من يساندتهم وبمد لهم يد المساعدة خارج بلادهم وبأن الغرب لابس صامتا عن الانتهاكات التى ترتكبها هذه الأنظمة ، كان عاملا مهما فى تطوير المجتمعات المدنية . ان فهم أسباب سقوط هذه الأنظمة المناسبة فى أوروبا الشرقية يستدعى فهم الدور الذى لعبه الغرب فى الاجتياح الشرقى

أوربي وهو ما لا يمكن تجاهله ، وبمعنى آخر فإن أثر الغرب على مدى وسرعة التغيرات في أوروبا الشرقية لم تكن أقل أهمية عن ذلك الأثر الذي تركه أسلوب جورباتشوف في قيادة الدفة السوفيتية ، فقد تعاونوا في خلق بيئة دولية فضحت جمود البيروقراطيات الشيوعية في أوروبا الشرقية باعتبارها بقايا لماض مشين ومخز . وبينما شجع الغرب صعود القوى التعددية والديمقراطية التي تهتم بالتغيير المنظم وعلى نطاق واسع فإن الكرملين علق آماله على إجراء اصلاحات محلية تشمل تجديدا للآليات الاقتصادية والسياسية القائمة دون التدخل منها .

✽ جورباتشوف التعدبلى :

عندما تولى جورباتشوف السلطة في مارس ١٩٨٥ كان نموذجا للحزبى الملتزم . اذ لم يكن في تاريخه الوظيفى ما ينبىء عن نزعات ليبرالية جادة بل لقد أيد السكرتير العام السابق يورى اندريوف Uri Andropov ولم يرفض الشيوعية بسبب ليبراليته ولكن لاعتقاده بأن الاشتراكية لا بد أن تجدد من خلال العودة للقيم البلاشفية الحقبة التى لطختها محاباة الأقارب والفساد المفرط المتفشى فى الأجهزة الحكومية خلال السبعينيات وأواخر الثمانينيات . لقد نبعت بيسانات وتصرفات جورباتشوف من عقل شيوعى حزبى برجماتى منظم . وأعلن الزعيم الجديدة فى الستين الأوليين من حكمه تحديه السافر للعقائد الأيديولوجية الحصينة ، وتقدمت حملته المعادية للستالينية ببطء شديد ، يصاحبها العديد من الارتدادات ، الا أنه تجنب — مبدئيا منح دعمه المباشر لمناصرى الليبرالية الحقبة ، وظل أندرى سخاروف Andri Sakharov الفيزيائى المشهور المناصر لحقوق الانسان معتقلا فى منفاه الداخلى بمدينة جوركى Gorky ، الا أن المراقبين استطاعوا — فى سنوات حكم جورباتشوف الأولى — استبيان بعض المرونة فى طريقة معالجته للقضايا النظرية والثقافية ، كما أشارت الدلائل على أن كثيرين فى بطانة السكرتير العام قد عادوا مرة أخرى الى محاولات خروتشوف لاعداء الستالينية وهى المحاولات التى أخفقت فى الماضى .

وادر ك فريق جورباتشوف الحاكم — بتحديثهم الجمود البيروقراطى — أن الاصلاحات البنائية التى تؤثر على دعائم النظام الكائن هى الطريقة الوحيدة للقضاء على الفساد السائد واطلاق الطاقات الاجتماعية التى طال قمعها : أن الهجوم على المؤسسات القائمة بدءا

بمعادة البرجنيفية • وهاجم جورباتشوف في مؤتمر الحزب السابع والعشرين والذي تم في فبراير ١٩٨٦ (بعد ثلاثين سنة كاملة من المؤتمر العشرين التاريخي عندما اُدان خروتشوف تأليه شخص سستالين) سياسة « النظام التنفيذي الموجه » وطالب باصلاحات جريئة في كلا المجالين الاجتماعى والاقتصادى • وكشف جورباتشوف - بعد ان أطلق حملته - عن المصالح السياسية للبيروقراطية السوفيتية من الجيل الأوسط وعن مصالح مجموعة بعينها من المفكرين الحزبيين وعبر عن استيائه من الفساد وعدم الكفاءة والعجز التى اتسمت بها حقبة برجنيف • وقد أشاد جورباتشوف بالقيم التى تبناها جيل من القادة السوفيت الذين اعتنقوا قيم المؤتمر العشرين بما فيه من أفكار تنادى بالاصلاحات السياسية والاقتصادية والتعايش السلمى مع الغرب والتخلص من راديكالية البرنامج الماركسى اليوتوبى • وفى المرحلة الأولى وجه جورباتشوف نقده للفساد الروتينى والافتقار الى الابداع على الصعيد السياسى فيما يتعلق بسياسة صنع القرار • وفى ذات الوقت أصر جورباتشوف على دور الجماهير كمنبع للابتكار السياسى وسمح بقيام الآلاف من المنظمات غير الرسمية فى الاتحاد السوفيتى •

ان محاولة القيادة الجديدة للتحديث قد استلهمت من آخر كتابات لينين السياسية والاقتصادية • ونادى جورباتشوف - فى ضوء وجهات نظره عن السياسة الاقتصادية الجديدة - باللامركزية وبتخفيف سيطرة الحزب وقبضته الحديدية على المجتمع الا ان الاصلاح كان لا بد ان يهبط من القمة ولا بد ان يحتفظ الحزب الشيوعى بدوره القيادى فى المجتمع • وقد وجه المفكرون السوفيتيون ، الذين طالبوا بانفصام راديكالى عن الماضى النقد لهذه الاستراتيجية ، واعتبروا الليبرالية مجرد استمرار للنظام القديم بكل عيوبه وأوصلوا بدمقرطة كل المؤسسات بما يسمح للأفراد بالتعبير عن وجهات نظرهم السياسية كاملة • ونظروا لاستيائه من سيطرة الحزب أعلن الكاتب المسرحى المعروف الكسندر جيلمان Alexander Gelman المناصر الصلب للديمقراطية فى أحد اجتماعاته باتحاد السينمائيين Cinematographer Union عن رأيه فيما يجرى قائلا :

« ان الديمقراطية تعطى فرصة لاعادة توزيع السلطة واستعادة الحقوق والحريات ، وخاق عدد من الأبنية المستقلة للادارة والمعلومات • والليبرالية هى التى تحافظ على كل دعائم النظام الادارى ولتسكن فى شكواه المعتدل ، وهى أيضا قبضة حرة الا انها يمكن ان تطبق على المجتمع مرة أخرى وفى أية لحظة • وأحيانا تذكرنا الليبرالية - فى

**الظاهر فقط — بالديمقراطية ولكنها في الحقيقة الواقعة اغتصاب
سياسي لا يحتمل « (٢) » .**

لقد استغرق جورباتشوف بعض الوقت ليدرك استحالة التخلي التام من تراث الستالينية واعتقد الفريق الحاكم — في البداية — انه سيتمكن من اصلاح النظام بالتخلي فقط عن بعض سماته ورتق الباقي منها . ان الحقبة التي كانت سمتها التعجيل والدفع بالاصلاح — لم تستمر طويلا . وأدرك جورباتشوف ومؤيدوه ان المشاكل لن تحل دون زج الجماعات الاجتماعية العريضة داخل الصراع السياسي ودون مراجعة العقائد الحزبية الجامدة . وأكد الجورباتشوفيون ومن بينهم هؤلاء الاقتصاديون المؤثرون والعلمانيون السياسيون والاجتماعيون على ان اجراء تغييرات حقيقية على الصعيد الاقتصادي لن يحدث دون اجراء اصلاحات سياسية تكون مواكبة لها ، وان المصالح الراسخة للنظام العسكري الصناعي المعقد ومصالح اللوبي ومنها وكالة المخابرات السوفيتية KGB والبيروقراطيات الحزبية تعد عوائق رئيسية ، لاي محاولات لتحديث النظام الاقتصادي ، وكننتاج لتنامي الوعي بمدى صعوبة حل التناقضات الكائنة داخل النظام القديم تولدت سياسة البيروسترويك .

ان السماح للجماهير بالمشاركة في التغييرات وتحصيل سياسة الجلاسوتست (المكاشفة والعلانية) لحقيقة واقعة هو ما سيضمن النجاح للبروستريكا . وما يضاف لرصيد جورباتشوف انه سرعان ما سلم بضرورة اجراء تغيير دراماتيكي كامل للنظرة السوفيتية للاشتراكية وأدرك ضرورة اعادة تخطيط النظام السياسي كله والحد من الامتيازات المخولة للحزب ومن السلطات المخولة لأجهزته القمعية . ان البحث عن دور للقانون وخلق نظام محاسبة وتحقيق التوازن في الاتحاد السوفيتي أصبح له الأولوية في جدول أعمال القيادة وكان الاختبار الحقيقي والتحدى الصعب للجورباتشوفيين هو التخلي عن انفراد الحزب بالسلطة ، والاقرار بالحاجة الملحة للمبادرات الاجتماعية وضرورة اقامة حوار مع المعارضين للنظام القائم وهو ما يتجاوز بالفعل حدود الليبرالية .

وبينما أبدى الجورباتشوفيون استعدادهم للتخلي عن ارث الستالينية ، فانهم عزفوا عن الخوض في نقد مغامر للينينية .

لقد انعكست الأوهام الخروتشوفية الخاصة بإمكانية اصلاح النظام من الداخل دون حدوث اصابات جوهرية في مجالات شتى رغم

أن الهدف كان اجراء تغييرات ثورية ، الا أن جورباتشوف وفريقه فضلوا
مع وجود جهات تعارض التغييرات الدراماتيكية - الوقوف في
منتصف الطريق .

ان خطابات السكرتير العام تأرجحت بين الالتزام بالصيغة
الراديكالية والخوف من أن تسفر هذه الاصلاحات عن بلبلة النظام ،
وما يعني هنا أن جورباتشوف كان لديه الرغبة في اعادة النظر في
العقائد الأساسية وفي القيام باعادة تعريف المفاهيم الأولية للاشتراكية،
واعتنق - رغم تردده وتخوفه - المفهوم التعديلي للاشتراكية ذات
الوجه الانساني . ومثل أسلافه امرى ناجى بالمجر والكسندر دويتشيك
بتشيكوسلوفاكيا أكد جورباتشوف على العلاقة الحميمة التي لا تنفصم
بين الاشتراكية والديمقراطية .

وقد توجه جورباتشوف خاصة بعد المؤتمر القومي التاسع
عشر للحزب الشيوعي في يونيو ١٩٨٨ صوب اعادة النظر في التراث
التاريخي للاشتراكية في هذا العقد ، كما أكد على أن القيم الانسانية
العالمية تتجاوز المصالح الطبقية المحددة والمحدودة ، كما
وافق أيضا على أن الأمر (الدكتات) الامبريالي يمكن ادانته أخلاقيا
وأن السياسة الخارجية السوفيتية يجب أن تعاد صياغتها مرة أخرى،
ورغم أن استراتيجية جورباتشوف تنم عن يأسسه من تحقيق أهدافه ،
الا أنه لم يتجاهل أن النظام السوفيتي تجاوبه تناقضات عويصة وحاول
مواجهة المحن دون تخل تام عن العقائد الرسمية . وحاول الزعيم
السوفيتي أن يحصر - مثلما حدث في ربيع براغ - الكوارث في نطاق
ضيق ، وأن يتخلى عن خطه الخاص بارجاء التفكير للساليانية .

وفي نفس الوقت ساهمت اصلاحاته في صحوه كل من القوى
الاجتماعية والعرقية التي أمكن التحكم فيها بصعوبة دون استخدام
العنف ، الا أن سياسة البيروستريكا بكاملها قد تعرضت لاضطهاد
دكتاتوري حين طالبت باستخدام وسائل شرعية لحل الأزمات السياسية
والقومية . ان أزمة نظام جورباتشوف - كما لخصها زيجنيو بريجنسكي
على نحو واف - هي فشل القيادة السوفيتية في التخلص من الأسطورة
اللينينية الأيديولوجية كلية وهو ما يعد عقبة كؤودا في طريق الديمقراطية:

((ان العقبات السياسية في طريق البيروستريكا كبيرة بل من
المصعب تذليلها إذ يتطلب التخلص من الارث اللينيني اعادة تعريف
جوهرى لطبيعة الحزب الحاكم ولدوره التاريخي ولشريعته ، كما
يتطلب الانفصام الحقيقي للخاص من التبسيط الكلى المخل أى التخلص

تحديدا من مقولة أن النظام الاجتماعي بكامله يمكن أن يتكون من خلال قرار سياسي يجيز خضوع المجتمع لسلطة الدولة العليا ويتصرف كعميل للتاريخ عالم بكل شيء . وسوف يتطلب الأمر قبول مقولة أن معظم التغيرات الاجتماعية تتم على نحو غير متوقع وغالبا بشكل تلقائي مع أخذنا في الاعتبار أن التعقد الاجتماعي لا يمكن أن ينسجم مع العبادة الأيديولوجية « (٣) » .

ان الجهود الأولى التي بذلها جورباتشوف لانقاذ النظام من خلال القضاء على رذائله قد تناولها آدم متشنك ، في عام ١٩٨٧ في رؤيته « للإصلاح المضاد » ومشيرا لتطبيق ليتسك كولاكفسكي لمفهوم « الإصلاح المضاد » كحركة سياسية وأيديولوجية ترفض النقد الاصلاحى (المضاد) ، بل ولا تشجع ولا تهضم بعض النظريات الاصلاحية الخاصة بضمان تكيف البنى القائمة مع الظروف المتغيرة . وبمعنى آخر ، ان وجهة نظر الإصلاح المضاد هي محاولة لتغيير القيم والمؤسسات من داخل النظام ، انها جهد مبذول لتوحيد الأفكار الناقدة داخل آلية وظيفية للنظام القائم كى يكف عن العدائية والتدمير فقال :

« لو قبلنا هذه المنظمة ، «تضامن Solidarity» كحركة اصلاحية عظيمة داخل حدود العالم الشيوعى فان جورباتشوف يستحق اذن اسم « المصلح المضاد الأعظم Great-Counter Reformer » وهذا معنى « الإصلاح القادم من اعلى » . ان الإصلاح المضاد هو اصلح الهدف منه انقاذ النظام الشيوعى « (٤) » .

ان فهم رغبة جورباتشوف في اصلاح النظام دون التخلّى عن اسسه الايدولوجية بدءاً من المبادئ اللينينية الخاصة بدور الحزب الشيوعى المهيمن لم يكن معناه القول بأن البروسترويكا كانت مجرد واجهة دعائية ، بل على العكس فان فهم المعنى الحقيقى للتغييرات السوفيتية التى بادر بها جورباتشوف تتطلب أخذ كل المحددات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والاستراتيجية فى الاعتبار وهى المحددات التى سببت هذا الانهيار الدراماتيكي الحتمى :

« ان سياسة ميخائيل جورباتشوف كانت افرازا لصراع الأجيال داخل الهرم الحزبى السوفيتى ، أنها نتاج للتخلف التكنولوجى وستوات الحرب الطويلة فى افغانستان Afghanistan ، وهى أخيراً حصيلة الخوف من المجابهة العسكرية والموقف الذى اتخذته الرئيس الأمريكى ريجان وهو موقف حاسم لا يقبل المساومة . ان جورباتشوف لم يكن ممثلاً فى مسرحية انه اصلاحى مضاد « (٥) » .

وعندما يجابه المركز مثل هذه التغيرات الضخمة المفاجئة ، وعندما تصبح لغة المنشقين لغة مقبولة لدى الأجهزة الأيديولوجية لتتحول الى عقيدة الحزب الرسمية ، وعندما تعرف الاشتراكية في ضوء قدرتها على خلق دولة القانون ، فان هامش الفعالية السياسية للحركات الشرق اوروبية المستقلة يتسع على نحو كبير :

« ان الاصلاح المضاد في موسكو يمكن أن يفسح الطريق للتفكير جديد في فلسفة خاصة بتسوية سياسية . انها تعلمنا ان نستخدم التسوية لضبط الصراعات الدولية أو الصراعات الاجتماعية داخل البلدان التي تحكمها الشيوعية بالفعل . واليوم فان الأمر يستحق الاعتماد على هذا الشكل من التسوية ، ويجب ألا ننسى أن الدعاية الثوتالينارية للمؤسسات السوفيتية ظلت على ما هي عليه » (٦) .

وبعد عام ١٩٨٨ فقدت القيود التي تفرضها الحركات الديمقراطية على نفسها في اوربا الشرقية كل مبرر لوجودها فتحررت وانطلقت . ولان الاتحاد السوفيتي أصبح أكثر مرونة فيما يتعلق بالفعالية السياسية الداخلية وغير الرسمية المستقلة فان دواعي الاعتقاد بأن جورباتشوف سيأخذ - آليا - جانب الأحلاف الشيوعية التي ضرب عليها الحصار في اوربا الشرقية وذلك في وقت الاضطراب السياسي والاجتماعي الخطير قليلة . ان الاصلاح السوفيتي المضاد فتح الطريق لثورة حقيقية في اوربا الشرقية .

ان الانفصال عن الستالينية في موسكو كان بمثابة الضوء الأخضر للخلل عن اللينينية التي تتبناها وارسو وبودابست وبرلين الشرقية وأدرك جورباتشوف تدريجيا أن مجرد التحرر سوف يؤدي به وبمؤيديه الى نفس الورطة التي وقع فيها خروتشوف : ولم يكن لدى جورباتشوف قاعدة شعبية يحتمى بها عندما أبدى أعضاء الحزب كرههم نحوه ، وهذا يفسر قراره بجعل النظام السياسي نظاما مفتوحا لخلق برلمان حقيقي والحد من سلطة الحزب على نحو دراماتيكي وذلك بعد عام ١٩٨٨ . وبمواجهته بمنطق الصراع السياسي والتحدى المضاد والعلنى من الفئة البيروقراطية التي تقف حجر عثرة في طريق التقدم ، اعترف السكرتين العام بأن الديمقراطية هي الضمان الوحيد لبقائه السياسي . وفى عام ١٩٨٩ أيقن جورباتشوف رغم ترددده وشكوكه - أن دور المجتمع المدني كشكل مضاد للنظام السياسي الجامد في حاجة شديدة للتغيير ، وهو ما أكد عليه بوريس يلتسن Boris Yeltsin أحد النقاد الرئيسيين لجورباتشوف داخل الحزب (وحتى استقالته من الحزب الشيوعى السوفيتي في المؤتمر الثامن والعشرين في عام ١٩٩٠) .

ونظرا لتفاقم الصراع السياسى فى قمة البيروقراطية السياسية ،
 بدا جورباتشوف متفهما لضرورة تمزيق العباءة الحديدية للأيديولوجيا ،
 وتحرّك نفس الرجل الذى أبدى - حتى نوفمبر ١٩٨٧ - استعداد لهذح
 فضائل العقيدة الماركسية اللينينية بجرأة تجاه إعادة صياغة السيم
 الأساسية للثقافة السياسية السوفيتية • لقد تطورت المناظرات التاريخية
 والنظرية الى درجة غير مسبوقة • إن نداءات البيروستريكيين امثال
 الكسندر تسبكي Alexander Isipko ويورى أفانازيف Youry Afanasyev
 كانت كلها تساؤلات عن الارث الذى خلفته الاشتراكية التى على الطراز
 السوفيتى • وبعد عام ١٩٨٨ تغير مفهوم العداوة فى العقيدة السوفيتية
 الرسمية فلم تعد تتسبب الغرب بالتميطان الذى يحيك المؤامرات
 باستمرار ضد السوفيت ، ولم تعد الاشتراكية تساوى هيمنة
 البيروقراطيات الحقاء على الجماهير المسلحة الارادة ، وأعيد النظر
 فى المصالح السوفيتية الدولية فى ضوء « البيت الأوربى المشترك » .
 إن الفلسفة الشمولية للشيوعية - كما وجدت لأكثر من سبعة عقود -
 تعانى من أفول سريع نظرا لادراك الاتحاد السوفيتى للفشل التاريخى
 للنظام ، ولم يؤثر انتصار فلسفة التعديلية فى الكرملين على
 الامبراطورية الداخلية فحسب بل على الامبراطورية الخارجية أى كل
 الدول التى عرفت لأمد طويل بالكتلة السوفيتية واتسع صدر السوفيت
 للتجريب السياسى فى أوربا الشرقية على نحو له دلالة • وما استخدم
 ليكون لعبة من وجهة نظر السوفيتيين تحت قيادة برجنيف - وأعنى فكرة
 الاشتراكية ذات الوجه الانسانى - قد أصبحت خاصة بعد عام ١٩٨٨
 الخط السوفيتى الرسمى وقال بريجنسكى فى هذا الصدد :
 أن ما تضمنته تعديلية السكرتين العام فى الكرملين كانت شديدة
 الخطورة ، اذ أشعلت جدلا عنيفا مس كل مجالات الحياة داخل الاتحاد
 السوفيتى وأحيت التعديلية الشرق أوروبية ، بينما أكدت الأيديولوجية
 الكاندرائية التى حرمت الانشقاقات العقائدية على الخطر الداهم الناتج
 عن التخلّى عن الجوهر العام للعقيدة الماركسية واللينية والشيوعية
 العالمية • وباختصار ، فإنه لابد للتعديليين فى موسكو - حتى انقراضهم
 منهم - أن يجعلوا بالانفصال السياسى والخسوف العقائدى للشيوعية
 مما يجعلها ظاهرة تاريخية فريدة « (٧) •

أتذكر كيف حاول جورباتشوف منذ البداية أن يحافظ على كل من
 الامبراطوريتين الداخلية والخارجية ؟ لقد فضل فى سنوات حكمه الأولى

ان ينظم علاقاته مع بلدان أوروبا الشرقية وجعلها أكثر فاعلية ، كما
بفضل إقامة علاقات أكثر قرباً مع مركز المساعدات الاقتصادية المتبادلة
CMEA وتنسيق الأعمال الدولية . ورمى جورباتشوف بانسفالته
بالمسيرة الجديدة داخل الاتحاد السوفيتي الى الإبقاء على أوروبا
الشرقية بعيدة عن الاضطرابات واهتم بالحوار مع الزعماء الشباب ذوي
التوجه الاصلاحى فى تلك البلدان ومن ثم لم يشجع القيام بتغييرات
فورية . ووصف سيورين بيلار Seweryn Bialer توجه جورباتشوف
الأول نحو أوروبا الشرقية على أنها سياسة متشددة شاملة تضمنت
« مزيداً من الاصرار على الارثوذكسية السياسية خاصة فى بولندا
والمجر وعلى الإجراءات الصارمة التى تتخذ ضد المنشقين والفساد
الحصان الفكرى وتشجيع حملات الدعاية الشرسة المعادية للبريب ،
والقائمة العنيدة ضد التجريب الاقتصادى ، واتخاذ اجراء سريع ضد
الاضطراب الاجتماعى والسياسى أو ضد أية اشعارات تبديها الدول
التابعة للحصول على استقلالها » (٨) .

الا ان هذا الاتجاه التدميرى والامبريالى لم يستمر لمدة طويلة .
ولم يستطع جورباتشوف أن يفصل التطورات فى الاتحاد السوفيتي عن
تلك التى تتم فى الأقطار التابعة .

ان موجات الجلاسونسست كانت بمثابة قوة دافعة لفلول المعارضين
السياسيين فى كل البلدان الشرق أوروبية . وكمثال على ذلك نجد
المناضلين من أجل السلام وحقوق الانسان فى ألمانيا الديمقراطية قد
اتخذوا من الجلاسونسست شعاراً لهم تحدوا به القيادة المحافظة تحت
قيادة اريك هونكر . وفى بولندا كانت حركة تضامن قوة دافعة ، وفى
المجر بدأت المعارضة الديمقراطية فى تنظيم نفسها فى صورة حزب
سياسى خاصة خلال عام ١٩٨٨ . لقد أدرك كل من السسلطويين
والمعارضين فى أوروبا الشرقية ان جورباتشوف بتعريفه الجديد للاشتراكية
قد بدأ مرحلة جديدة من العلاقات الدولية ، وتغيرت صورة الاتحاد
السوفيتي كشرطى دولي يحرس ارثوذكسية القيادة المحلية حال مطالبة
الزعيم السوفيتي فى المؤتمر التاسع عشر للحزب فى يونيو ١٩٨٨ بأن
يشجب بلده « كل شيء شوه الاشتراكية فى الثلاثينيات وأسفر عن
الركود فى السبعينيات » (٩) .

وفيما بعد وفى ديسمبر ١٩٨٨ توسع جورباتشوف أكثر فى
فلسفته الجديدة الخاصة بالعلاقات الدولية . وفى خطابه فى دورة الأمم
المتحدة أقر السكرتير العام بحقوق الأمم فى الدخول فى الصراعات من
أجل الديمقراطية .

ان صراحته في شجب الادعاءات السوفيتية الدولية عن ضرورة المنافسة الايديولوجية مع الغرب تشير الى أن حديثه لم ينزلق الى الرطانة . ورغم أنه لم يتخل عن مفردات اللينينية في لغته ، فإن جورباتشوف فهم النظريات اللا لينينية على أنها لا تحبذ اقامة علاقات بين الدول التي تخضع للاعتبارات الايديولوجية :

« اليوم ، يعد الإبقاء على أى نوع من المجتمعات « المغلقة » شيئا مستحيلا . وهذه دعوة لاعادة نظر راديكالية في الأساليب الخاصة بمشاكل التعاون الدولي كعامل أساسي في الأمن الدولي إذ أن العهد الجديد يتطلب أيضا علاقات لا أيديولوجية بين الدول . اننا لم نتخل عن معتقداتنا أو فلسفتنا أو تقاليدنا ولا نطالب الآخرين بالتخلي عنها » (١٠) .

ان هذه العبارة — رغم أنها تعد تملقا من وجهة نظر اللينينيين المعقائديين — كانت قاطعة في اصرارها على ادانة ودحض منطق الحرب الباردة

ان فكرة تقسيم العالم وفقا لفواصل أيديولوجية ووفقا لطريقة ستالين بل ولينين في التعامل مع الشئون الدولية ، خضعت لمفهوم جديد يسمح لكل دولة ان تقرر مصيرها . وما يضاف لرصيد جورباتشوف هو ادراكه ان الوجود السوفيتي في أوروبا الشرقية أصبح على المستوى الاستراتيجي أقل أهمية في زمن الوحدة الأوروبية European Integration ان دول شرق أوروبا التي اتحدت — بالفعل — عسكريا ضد الاتحاد السوفيتي كانت تتحرك بخطى ثابتة لتجاوز خلافاتها السياسية ولخلق كتلة لها قوة اقتصادية لم تشهدها أوروبا من قبل . ومع تفوق المستويات المعيشية في أوروبا الشرقية على مثيلاتها في الاتحاد السوفيتي الذي كان في طريقه للتحديث متجنباً مزيداً من العزلة ومنافسا لأوروبا الموحدة اضطر السوفيتيون الى التخفيف من أعبائهم الامبريالية . ولم يعد هناك مبرر للاستمرار في حماية البيروقراطية الشيوعية المحلية من الحركات الاجتماعية المتنامية القادمة من القاعدة ، بل على العكس فقد كان من مصلحة موسكو أن تبدو كمناصر للتغير والتقدم من أن تتصرف « كأخ أكبر ، (استنادا الى التاريخ) يكون دائما على اهبة الاستعداد لاستخدام قواه لاعادة الامتيازات للطغاة المحليين .

لقد انبثقت الرغبة الجديدة في التغيير السياسي في أوروبا الشرقية لان الاتحاد السوفيتي أدرك أن ثمن الحفاظ على الامبراطورية الخارجية كان باهظا — بما في ذلك العبء السيكيولوجي — اذا ما قسورن

بفوائده ، فقد أدى هاجس لينين حول الحدود الغربية الى قيام الروس بالتوسع البعيد المدى في أوربا وهو ما غرس بذور الثورات الشعبية . وفى نوفمبر ١٩٨٨ لاحظ بوانر انفجار هذه السلسلة من الثورات :

« ان معظم الشعوب فى هذه البلدان الثماني فى أوربا الشرقية والتي صيغت بالصيغة الشيوعية لم ترغب فى أن تحكمها هذه الحكومات الشيوعية ، ولم ترغب فى أن يحدد لها السوفييتيون ما يجب أن تكون عليه . وادت أربعون عاما من الحفرة المزدوجة التي أبدتها موسكو — لأن ماركس يعلم أفضل ، وروسيا تعلم ماذا يعنى ماركس حقيقة — الى شق قنوات للتمرد الشرق أوروبى » (١١) .

ان المنهج الجديد الذى اتبعته روسيا فى أوربا الشرقية كان حقيقة نتاجا لمناقشات طويلة داخل مطابخ الفكر السوفيتي . ويجب أن نذكر أيضا أن جورباتشوف اختار عددا من المحررين السابقين لنشر الماركسية العالمية ومقرها براغ ليكونوا من بين مستشاريه الذين أبدوا تعاطفهم مع حركة دويتشيك التجديدية فى عام ١٩٦٨ ، وشجبوا التدخل السوفيتي الذى قضى على هذه الحركة الاصلاحية .

ان وزير الخارجية السوفيتي ادوارد شيفرنادزه Edward Shevardnadze وهو واحد من أقرب المقربين لجورباتشوف فى المكتب السياسى كان له عظيم الأثر على عملية صنع القرار الذى أدى الى التخلي عن منطق الكتلة ، وقد أدانه النقاد المحافظون بعد استقالته من منصب وزير للخارجية فى عام ١٩٩٠ لدوره « المشين » فى انهيار القوة السوفيتية الدولية .

وفى يونيو ١٩٨٨ قدم السوفييتيون فى المؤتمر التعليمي السوفيتي الأمريكى الذى أقيم فى الاسكندرية Alexandria وفرجينيا Virginia ورقة عمل هى خلاصة عمل جماعى لفريق من الاقتصاديين العاملين فى احدى أكبر المؤسسات فى النظام الاشتراكى العالمى World Socialistic System برئاسة الأكاديمي أوليج باجوميلوف Oleg Bagomilov ورغم أنها ورقة شبه رسمية الا انها أشارت وبوضوح الى وجود تغيرات جوهرية فى المنهج السوفيتي تجاه أوربا الشرقية ، وأوضحت الورقة — بعيداً عن مسألة ازالة الخلاف الخاص بالمبادئ الثقافية والعرقية والسياسية والاقتصادية فى أوربا الشرقية — أن النموذج الاشتراكى السوفيتي الذى مريض على بقية دولة الكتلة : « لم يصمد لاختبار الزمن ، ومن ثم فقد فشل اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا » .

واقترت الورقة ان الحاجة لاجراء اصلاحات راديكالية تؤدى لخلق نموذج اشتراكى جديد يكون انسانى الطبيعة باتت ملحة . وقدمت الورقة تحليلا للبسات الرئيسية للسوفيتية كنظام بيروقراطى عسكرى قسام على دعامتين هما الدمج والاكراه :

((لقد بدأ نظام القوة السياسية في أوروبا الشرقية يتخذ البروسترويكيا مرسدا له . ان النموذج القائم هي الاتحاد السوفيتى ضد تشكل خلال الثلاثينيات والأربعينيات ، وقد تأثر هذا النموذج على نحو عميق بمعقّدات ستالين الصمحاء عن طبيعة الآليات السياسية للاشتراكية وتأثر كذلك بحالة المجتمع السوفيتى الرثة الذى افتقر الى التراث الديمقراطي والثقافة السياسية وفرض النظام الادارى الموجه الذى بدأ في الاتحاد السوفيتى على بقية الدول الاشتراكية واتسم هذا النظام بالمركزية المفرطة ، والاحتكار المطلق لصنع القرار والتفكير المنفرد ، والتحقير من شأن الجماهير (التى اعتبرها النظام مجرد « جماعات نافهة ») وأدوات في يد السلطة) ، والعزلة عن العالم الخارجى . وهدفت المؤسسات السياسية الى تأمين الاستقرار السياسى بالقمع والارهاب والحد من النزاعات . لقد قوض هذا النظام الذى طالب شعوبه بالطاعة العمياء دعائم الديناميات المجتمعية وقابلتها للحياة)) (١٢) .

ولن يخطئ القارئ لأعمال امرى ناجى التى كتبت فيما بين عامى ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ عن برنامج عمل الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى الذى انتهج فى عام ١٩٦٨ نزوعه الى التوجه الاصلاحى . لقد اعتنق الدارسون السوفيتيون نفس الأوهام التعديلية بأن التغير فى أوروبا الشرقية يمكن أن يتحقق داخل حدود النظام ودون الخروج عليه ، واقتصرت قضيتهم على بناء نموذج جديد للاشتراكية .

ولم يجدوا اجابة شافية للسؤال المطروح وهو : هل كانت الدول فى تلك المنطقة مهتمة بتجريب نظام جديد أم لا ؟

وخلال عام ١٩٨٨ ، شارك السوفيتيون جزئيا فى الزيف التعديلى التقليدى وهو ان الاشتراكية سيكون لها مستقبل فى أوروبا الشرقية اذا استطاعت التخلص من بيروقراطيتها الأخذة فى التزايد وأطلقت الطاقات الاجتماعية والابداع اللذين قمعوا أثناء الحقبة الستالينية ، ورأى التخليدون فى عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٨ ان حل هذه الأزمة يكمن فى العودة الى العقيدة الماركسية الأصلية . لقد تم التشويش على الاشتراكية من انحرافات وذلك بالاعتقاد الزائف والمطلق فى إمكانية استرجاع مزايا الاشتراكية :

« يمكن تعريف جوهر النموذج الجديد للسلطة بأنه منح السلطة المحلية والعمال والجماعات تفويضا للاضطلاع بالمسئولية ، وتوسيع هامش التعددية في الحياة العامة ، ودمقرطة المؤسسات بما في ذلك الحزب الطليعي بهدف خلق ضمانات أكثر فاعلية ضد احتكار طائفة المديرين والسياسيين المحترفين للسلطة أي ضد الهيمنة البروقراطية » (١٣) .

وفي صيف عام ١٩٨٩ وجه جورباتشوف خطابا للجلسة البرلمانية للمجلس الأوربي بستراسبورج Strasbourg وفيه تجاوز المألوف فيما يتعلق بتأييده ودعمه للنموذج البرجنيفي للهيمنة المحدودة ، واعترف بأنه لا يوجد نظام اجتماعي لا يقبل التغيير، وألح إلى أن مثل هذه الانقادات يمكن أن تتم في أوروبا الشرقية أيضا . ان كلمة جورباتشوف في ستراسبورج قد حللها المراقبون على نطاق واسع واعتبروها الضوء الأخضر للمصلحين في أوروبا الشرقية ليبذلوا جهودهم للتحرّك تجاه نظام تعددي وتجاه اقتصاد السوق . ورأى جورباتشوف :

« ان الادعاء بأن دول أوروبا تنتمي إلى نظم اشتراكية مثبّنة هي حقيقة واقعة ، وادراك هذه الحقيقة التاريخية وإبداء الاحترام نحو حق السيادة لكل شعب وحقه في اختيار نظامه الاجتماعي جعل مبدأ حق الاختيار من أهم المحددات اللازمة لمسيرة أوربية طبيعية . ان النظام الاجتماعي السياسي في بعض البلدان تفرّ في الماضي ويمكن تغييره في المستقبل أيضا واعتبر ذلك شأنا من شؤون الشعب نفسه يتوقف على رغبته . . . وای تدخل في الشؤون الداخلية واية محاولات للحد من سيادة الدول — سواء اكانوا اصدقاء أم حلفاء أم أي شيء آخر — لا يمكن الاعتراف بها أو ايجازها » (١٤) .

ان معنى خطاب ستراسبورج لا يمكن أن يخطئه الممثلون السياسيون الشرق أوروبيين سواء اكانوا حكاما أم معارضين . وفقد السبب الذي اعتادت الحكومة الشرعية أن تقدمه لتبرير التخطيط لاتخاذ اجراءات صارمة ضد المنشقين لتجنب التدخل السوفيتي كل معنى له .

لقد تم بالفعل اجراء تغييرات كبيرة في أوروبا الشرقية في الشهر التي تلت هذا الخطاب . ففي فبراير وافق الشيوعيون المجريون على التحرك تجاه النظام المتعدد الأحزاب وهو القرار الذي لم يجرؤ أحد — منذ عام واحد فقط — أن يشارك فيه ، وفي بولندا نظمت الحكومة والمعارضة اجتماعا مشتركا في أبريل أسفر عن توقيع اتفاقية تعترف

يشريعية المنظمة التي حلت وبموجب الاتفاقية منح الشيوعيون ثلث مقاعد المجالس الشعبية كما وافقت الحكومة على اجراء انتخابات حرة لمجلس النواب . ان الاتفاقية البولندية كفلت أيضا سيطرة الحكومة الشيوعية على الأجهزة العسكرية والأمنية وظلت الرئاسة الفعلية للجمهورية في يد الجنرال ياروزلسكى .

ان الحركات الاصلاحية في أوروبا الشرقية لم يكن في الامكان احتواؤها ، وكان منطق التغيير داخل الأنظمة السلطوية يطرح كلما قدم السلطويون تنازلات أكثر وكلما ظهرت مطالب جديدة للمعارضة تعبر عن آمال الجماهير المرجوة ، وأدركت الحكومة انها ان لم تستجب لهذه المطالب ، فسوف يزداد الاضطراب الاجتماعي ويصل الى أقصى مدى له فتضطر الى تقديم مزيد من التنازلات . وراقب جورباتشوف تلك التغييرات ولم يبد أي رفض تجاهها .

وفي أبريل عام ١٩٨٩ استقبل جورباتشوف الزعيم الشيوعي المجري كارول جروتز ، وبعد مناقشة تجارب عامي ١٩٥٦ ، ١٩٦٥ عندما سحق السوفييت المحاولات التي بذلت من اجل الديمقراطية في المجر وتشيكوسلوفاكيا قال لضيفه :

« يجب توفير كل الضمانات الممكنة التي تكفل عدم تدخل أي قوى خارجية في الشؤون الداخلية للأقطار الاشتراكية » (١٥) .

ان المنهج السوفيتي الجديد كان له أثر كبير في أوروبا الشرقية ، ونال من قوة المحافظين بدءا ببرومانيا والمانيا الغربية وانتهاء بتشيكوسلوفاكيا والمجر ، الا أن المحافظين المتشددين في موسكو رفضوا التصديق على السياسات السبائينية الجديدة . وفي يوليو ١٩٨٩ عقدت قمة حلف وارسو في بوخارست ، وفي هذه المناسبة بشدى جورباتشوف الائتلاف المتشدد داخل الكتلة عندما طالب بتحويل الحلف من حلف عسكري سياسي الى حزب سياسي عسكري ، ورفضت الورقة الختامية للاجتماع فكرة وجود نموذج اشتراكي كوني ، وبعد القمة أعلن وزير خارجية المجر جولا هورن Gyula Horn ان الوقت قد حان من أجل ممارسة اشتراكية ملائمة للعصر ومواكبة للتغيرات في العالم الحديث . وقد عبر عن موقفه من المذبح الاصلاحى داخل الكتلة قائلا :

« اننا أيضا نسير في هذا الاتجاه وأرى أن ذلك أمر شديد الأهمية وان الزمن الذى تدخلت فيه كثير من الدول والأحلاف تحت أي مسمى

وباية وسيلة فى الشئون الداخلية لعضو آخر قد فات ، وأن الحقيقة التى تؤكد على ما سمى بالنموذج البرجنىفى قد ولت الآن والى الأبد » (١٦) .

والخلاصة أن المحاولات التى بذلت فى البدء لبناء تلاحم جديد داخل الكتلة قد تبعها تحرك راديكالى من جورباتشوف لتبنى منهج متسامح لتحقيق الوحدة داخل الكتلة وإقرار حق الاختلاف فى الرأى وتشجيعه عمليا .

لقد ارتبط التعديل فى سياسة الاتحاد السوفيتى تجاه أوروبا الشرقية تحديدا بالصراعات الداخلية فى موسكو . ولا بد أن نذكر هنا ما حدث أثناء المؤتمر التاسع عشر للحزب فى مارس ١٩٨٨ عندما نشر خطاب نينا أندريفا Nina Andrey Jevo المشهور وعندما انتقد المحافظون السوفيتون ما اعتقدوا أنه سياسة التنازلات غير المبررة للغرب . لقد كانت هناك علاقة مباشرة بين التصميم المتبادل على الديمقراطية الداخلية وعدم التورط فى مغامرات خارجية (وهو ما ينظر إليه عادة على أنه دفاع عن الغزاة « البروليتاريين » كما فى حالة غزو المجر وتشيكوسلوفاكيا) . فقد وجهت أندريفا الأستاذ المحاضر من ليننجراد اتهاماتها للبروسترويكما وهو ما أثار سخط وحنق الائتلافات الصاعدة من القوميين الستالينيين والقوميين الروس كما عنفت بشدة الجورباتشوفيين بسبب اعلانهم من شأن ما رآته مسارا خطرا جدا فى العلاقات الدولية فقالت :

« لقد أصابتنى الحيرة فى الفترة الأخيرة تجاه المفاجأة التى ألمت بها احدى الطالبات بأن الصراع الطبقي من المفترض أنه مجرد مصطلح مثله مثل الدور القيادى « للبروليتاريا » وكان الأمر سيهون لو أنها الوحيدة التى ادعت ذلك فقد اندلع جدال عنيف حيث أكد أحد الأكاديميين المحترمين بأن العلاقات الحالية بين الدول التى تنتمى لنظامين اجتماعيين اقتصاديين تفتقر بوضوح لآى محتوى طبقي ، واعتقد أن الأكاديمى لم يهتم بشرح لم هى كذلك ؟ — رغم أنه ظل لعقود طويلة يكتب العكس — وقد قال تحديدا أن التعايش السلمى ليس الا شكلا من أشكال الصراع الطبقي الذى يحدث على المسرح الدولى . والآن يبدو أن الفيلسوف قد نبذ وجهة النظر هذه — ولكن لا عليك فكل الناس معرضة لأن تغير رأيها ولكن يبدو لى أنه ممن الواجب على هذا الفيلسوف على الأقل أن يشرح لهؤلاء الذين درسوا وما زالوا يدرسون كنبه : ماذا يجرى اليوم ؟ هل طبقة العمال الدواية لم تعد تعارض

الراسمالية العالمية بوضعها الحال وبما لديها من أدوات سياسية ؟ « (١٧) »

والحقيقة أن أندريفا لم تكن الوحيدة التي رثت نهاية الحقبة الأيديولوجية والتوحد والتعصب والنظامية العمياء ، بل أن بعض الزملاء العاملين في مكتب جورباتشوف السياسى — خاصة خصمه القديم يوجور ليغاتشيف Yegor Ligachev — بدأ لهم أن التفكير الجديد فى السياسة الخارجية هو « اذعان » للضغط الغربى .

ولم يذعن جورباتشوف لتحذيرات ناقديه واستمر فى الدفع لاجراء مزيد من التغييرات فى بنية الكتلة ، بهدف مساعدة الاصلاحيين داخل الأحزاب الشيوعية الحاكمة لتولى السلطة والتخلص من المأجورين الستالينيين ، وبنى جورباتشوف حساباته الاستراتيجية على ايمان عميق بأن الزعماء التعديليين فى أوربا الشرقية سوف يصلون للسلطة وسوف يتبنون رؤيته السياسية عن الاشتراكية التى تحترم القانون وحرية الأفراد ٠٠ وأصر وزير الخارجية ادوارد شيفرنادزه فى خطابه الذى القاه فى مجلس النواب فى ٢٣ أكتوبر أن « التغييرات التاريخية الكيفية التى تجرى فى أوربا الشرقية تتطلب انفصالا تاما عن الوصفات القديمة الجاهزة :

« ان قوى جديدة بديلة تدخل الساحة السياسية فى بعض هذه البلدان » (١٨) »

وأصبح واضحا — كما قال المتحدث السوفيتى الرسمى جينادى جيراسيموف Gennady Gerasimov — أن العقيدة البرجنيقية قد تم استبدالها بحق كل قطر فى أن يكون له « طريق خاص » (١٩) ، ومن ثم فإن البعض قال ان ذلك يعد ايذانا بميلاد « عقيدة سينترا » « Sinatra Doctrinel » . هو الاسم الذى أطلق على قرار الاتحاد السوفيتى بالسماح لكل دولة شرق أوربية بأن تقوم بما يناسبها من اصلاحات

وساهم التغيير فى الموقف السوفيتى فى الاسراع باجراء تغييرات فى النظام السياسى والاقتصادى وتشجيع الاصلاحات فى بلدان حان وارسو واحياء الاتجاهات التعديلية التى طال قمعها داخل الأحلاف الحاكمة فى تلك البلدان ، كما ساهم فى جعل الحركات الاجتماعية فى القاعدة حركات راديكالية وهو ما كان واضحا تماما فى بولندا والمجر ، وهما البلدان اللذان قدما الى أبعد مدى فى تجريب السياسات

الليبرالية • ان ما يادربه جورباتشوف من استراتيجيات جديدة شجعت فيما بين عامى ١٩٨٦ ، ١٩٨٨ العصب الليبرالية داخل الأحزاب الحاكمة على أن يكون لها الغلبة فتبادر باصلاحات اقتصادية سريعة وتجعل النظام السياسى مفتوحا وتسمح بالمزيد من الفعالية الاجتماعية ، بما فى ذلك تكوين جمعيات وجماعات مستقلة . ان الأرض التى ستولد عليها الاستراتيجية الجديدة المختلفة رادكاليا عن رفض برجنىف العنيد لأى تحريرة فى الكتلة السوفيتية هى بولندا .

صعود تضامن وسقوط الشيوعية البولندية :

ان الخروج — بدون عنف — عن النظام السلطوى الذى بنى على أساس الديكتاتورية الأيديولوجية للحزب الشيوعى كان ممكنا فى بولندا نظرا لأن البعض داخل الحلف الحاكم وكذلك المعارضة أدركوا مدى الحاجة الى الوصول لتسوية ما ، وأدى نضج مثل هذا الاتجاه خاصة بين هؤلاء الذين غادروا البلد دون أى تفسير وظلوا بعيدا عن وطنهم لعقود طويلة وأدركوا مدى تأزم المشكلات الاجتماعية والاقتصادية الى ضرورة الوصول بالمجتمع الى مشروع محكم والا سيزداد الموقف سوءا • ورغم ان نظام ياروزلسكى حاول منذ أمد أن يكتسب شرعية قومية ، فقد اعتبرته شرائح عريضة فى المجتمع حكما عسكريا • وفى عام ١٩٨٨ وكإشارة تنم عن الرغبة فى المصالحة والنية الحسنة ، قان ياروزلسكى عين ماتزسلو راكوفسكى الصحفى والسياسى المتمرد رئيسا للوزراء • وفى عام ١٩٨٩ خفف ياروزلسكى من سطوته كزعيم للحزب وأكد أن جورباتشوفية راكوفسكى تسمو فوق أى شك وأنه سيكون خليفته الا ان الوقت كان متأخرا جداً على اجراء مثل هذه الاصلاحات فى بولندا .

وأتت موجتان من الاضطراب فى أبريل واغسطس ١٩٨٨ الى اجبار ياروزلسكى على ادراك صعوبة احتفاظه بالحكم رغمًا عن المجتمع ، وعجز النظام عن قمع الاضطراب الاجتماعى المتزايد دون الاستعانة بأداة جديدة للقمع رغم أن الجورباتشوفيين حرصوا على اجتذاب العنف ، فجرب الحل العسكرى فى أوائل الثمانينيات الا أنه فشل فشلا ذريعا • وقوبلت كل محاولات النظام لاستقطاب المفكرين البارزين داخل بنية السلطة للتخلص من خطر احياء حركة تضامن بالرفض التام •

وبدأ ان الدخول فى حوار مع ممثلى حركة تضامن والاعتراف بضرورة مشاركتهم فى السلطة فى أوقات الازمات الاجتماعية الدراماتيكية

والإزمات الاقتصادية هو البديل الوحيد للمد في عمر الهوى الحاكم ،
الا أن التوصل لتسوية مع هؤلاء الذين اعتبرتهم السلطة أعداء للأبد
اعتبره المتشددون الشيوعيون « أذعانا » ، وقاوم الدجماتيون من
قيادات الحزب مسألة شرعية الاتحاد المستقل الجديد مقاومة عنيفة
وكان ذلك في يناير ١٩٨٩ ، مما جعل ياروزلسكى وثلاثة من مستشاريه
المقربين يهددون بتقديم استقالتهم اذا رفض الحزب قبول الحوار مع
تضامن (٢٠) .

وفي نهاية الأمر اعترف كلا الجانبين — الحكومة وتضامن بأن
الاجتماع حول المائد المستديرة والتفارض هو البديل الوحيد للخروج
بالأمة من تلك الأزمة .

وبدأت المحادثات في فبراير من عام ١٩٨٩ وأسفرت عن اتفاقية
سياسية وقعت في الخامس من أبريل حيث اعتبرت كل من منظمة
تضامن وكذلك تضامن فلاحى القرى The Farmer's Rural Solidarity
ولجنة الطلاب المستقلة Independent Student's Association
وعناصر أخرى من المجتمع المدنى البولندى منظمات شرعية ، وحدد الاتفاق
اطارا مؤسسيا للحكومة يضمن أن يكون لرئيس الدولة سلطات محدودة ،
كما نص الاتفاق على انتخاب مجلس للشيوخ انتخابا حرا وكذلك انتخاب
هيئة تشريعية (Sejm) يكون لها الحق في الغاء نيتو مجلس
الشيوخ ضد القوانين التى تشعرها الهيئة بثلى عدد الأصوات ، وحصل
الائتلاف الشيوعى (حزب العمال البولندى المتحد وأحلافه) في الجولة
الأولى من الانتخابات على ٦٥٪ على الأقل من مقاعد الهيئة التشريعية
وظل الشيوعيون قايضين على وزارتى الدفاع والشئون الداخلية ،
وحصلت المعارضة على حق اصدار صحف ناطقة باسمها كما تم الحد
من البرامج الإذاعية والتليفزيونية التى توجهها الحكومة .

وقد دخلت بولندا — اذا ما قورنت ببلدان أخرى في أوروبا
الشرقية — مرحلة جديدة من تاريخها وخارج المناضلون السياسيون
المضطهدون من مخابئهم وتهللوا للعودة للقومية . وفيما يتعلق
بالاصلاحات الاقتصادية فقد نهض الاتفاق بأعباء الانتقال الى اقتصاد
السوق دون تقديم تنويه واضح للاستراتيجيات التى ستتبع . واستمر
الصراع بين الحكومة والفتابات المستقلة حول المؤثرات المبدئية للأجور
في الشهور التى تلت هذه الاتفاقية .

وامتدح ليخ فاونسا Lech Walesa رئيس منظمة تضامن
الانسانية على انها بداية الطريق الى بولندا حرة وديمقراطية ، وأصر

على أن التسوية، هي الحل الوحيد لضمان انتقال الأمة الى النظام الديمقراطي دون عنف :

« ان ممثلينا في مجلس الشيوخ والهيئة التشريعية يمكن أن يكونوا قاعدة نفق منها الى الحرية والاستقلال » (٢١) .

وفي الجولة الأولى من الانتخابات في يونيو ١٩٨٩ ، دعم البولنديون بقوة مرشحي تضامن ورفضوا حتى مجرد الالتزام بموقف الحياد من فوز المرشحين الشيوعيين . ان الانتخابات باعتبارها أول انتخابات حرة في تاريخ الكتلة الشرقية ، جاءت بأول هزيمة تاريخية للشيوعيين البولنديين وأصبحت تضامن قوة سياسية ضاربة وكان الموقف في بولندا الأول من نوعه في تاريخ الشيوعية فهناك برلمان حصلت فيه المعارضة اللاشيوعية على ٩٩ مقعدا من مائة في المجلس التشريعي ودبت حركة سياسية نشطة على نحو متزايد ضمت تضامن والشيوعيين كما ضمت الأحلاف السابقة على الحزب الشيوعي والتي عادت الحياة فجأة وناضلت المعارضة لاقرار استقلاليتها وكف الجميع عن تقديم العون الآلى للشيوعيين . وبناء على هذه الترتيبات البرلمانية ضمنت تضامن هيمنتها كعضو له شرعية كاملة وهو ما كان أمرا مستحيلا منذ عدة سنوات .

وبسبب الأحداث التي اندلعت تدريجيا في أوروبا الشرقية أثناء اجتياح ١٩٨٩ استمر تقهقر وتراجع الشيوعيين البولنديين ، وكان جوهر التسوية هو الوعي بأن الشيوعية البولندية تلقت حتفها السياسي ولم تعد قادرة على الاحتفاظ بأي دعم اجتماعي جاد .

وفي أغسطس ١٩٨٩ أحرزت بولندا خطوة جديدة عندما قرر ياروزلسكي الذي أعيد انتخابه كرئيس للدولة بدعم من تضامن أن يعين تادوتز مازوليسكي المفكر الكاثوليكي البارز والمستشار الأول لتضامن رئيسا جديدا للوزراء ، ومن المعروف أن هذا القرار قد سبقته محادثة تليفونية من ميخائيل جورباتشوف للزعيم الشيوعي ماتزلسو راكوفسكي عبر فيها عن استعداد موسكو (وقل رغبتها) لقبول حكومة تضامن الحالية مع أقلية شيوعية (٢٢) .

ولم يكن أمام الشيوعيين خيار آخر غير قبول هذه الصفقة ، والا سيكون هناك عودة للأزمات السابقة مع مزيد من الغضب الاجتماعي، والاضرابات وانسداد العنف في الشوارع . ويرى الشيوعيون أن الحكومة الائتلافية حيث كان ممثلو تضامن مسئولين عن التخطيط الاقتصادي والشئون الاجتماعية كان مكسبا سياسيا ، حيث القوا بعبء

العلاج والشفاء الاقتصادي ، والقرارات الخاصة بالاصلاحات الجريئة على كاهل تضامن بينما ظلوا هم صمامات للسيطرة على المجتمع من خلال وزارتي الدفاع والداخلية وأصبح تادوتز مازوليسكى في ١٢ سبتمبر أول رئيس وزراء غير شيوعي لبلد من بلدان حلف وارسو .

لقد امتدت الثورة البولندية لمدة عشرة أعوام طوال من النضالات البطولية ، والأحلام الرومانسية والقمع اللفظ والبزوغ الفذ لمجتمع مبدع وثاب . ومنذ عام مضى لم يجرؤ أى مراقب على الإشارة الى سرعة وعمق التغيرات التي كانت على وشك الحدوث في هذا البلد حتى اجتاحت السلطة بعد مفاوضات مضمّنية مع هؤلاء الذين أسماهم ياروزلسكى بأعداء الشعب واعتقلهم بعد إصداره للقانون العسكري ، وأصبح أعداء الشعب فيها بعد المهينين على اقتصاد البلد وأخذوا يستعدون للجولة القادمة من الصراع لاحتراز الانتصار التام على الصعيد السياسي . ان التسوية البولندية بدت محدودة ومقبولة بل وعادية اذا ما قورنت بما حدث في الشهور التالية في بلدان أخرى بالكتلة الشرقية الا انها كانت آنذاك أى في خريف ١٩٨٩ تعد — من وجهة نظر السلطة — تغييرا ثوريا . ولا بد أن نذكر أن اللينينية كعقيدة رفضت اقتسام السلطة ورأت أن الدور القيادي للحزب الشيوعي أى احتكاره للسلطة مبدأ مقدس . ان ما حدث في بولندا نتج عن ادراك تام وغير مسبوق من قبل الشيوعيين بأنهم خسروا معركتهم مع المجتمع ، وفيما بعد استتعالى بعض الأصوات بالنقد لموافقة تضامن على تولى رئيس شيوعي حكم بولندا وسمّاهم للشيوعيين باحتلال مواقع حساسة في الحكومة ولكن هذه الادانة لتضامن ، لم تأخذ في اعتبارها تعقد الموقف البولندي والدولي في صيف ١٩٨٩ حيث كان السوفييتيون أول من أعاد النظر في التزامهم تجاه وجود جمهورية المانيا الديمقراطية ، بينما كان الشيوعيون البولنديون على أتم الاستعداد لخوض صراع حياة أو موت للاحتفاظ بمواقعهم في الجيش والشرطة . وقد أشار تومش كارتون آش في كتاباته الى أن بلدان مثل بولندا والمجر عانت من مصاعب خاصة بالانتقال السلمي وتنبع هذه المصاعب من ضرورة قبول الحكام بالهزيمة السياسية .

« ان التكهّن أصبح أصعب من أى وقت مضى ، وانشفل أفضل . والمع الناس في كلا الجانبين في بولندا بالخوض في مغامرة عظيمة وخطرة . » (انعلم) ان واحداً من أكثر زعماء الحزب البولندي تالفا قال لواحد من أكثر زعماء المعارضة البولندية ايداعاً أثناء فترة الراحة فيما بين جولات المائدة المستديرة Roundtable بأن « كل الكتب وصفت لنا مسدى

صعوبة الحصول على السلطة ولكنها لم تصف لنا مدى صعوبة التخلي عن السلطة « (٢٣) »

ان التخلي عن السلطة لا يمكن ان ينفصل عن الازمات المعنوية والأيدولوجية للأحلاف الشيوعية حيث اصطدم الشيوعيون البولنديون بالفشل التاريخي للنموذج السياسي والاجتماعي الذي فرضوه على المجتمع . ان اللينينيين خسروا اللعبة ، وحاول الاصلاحيون ان ينفذوا ما يمكن انقاذه من التراث اليساري . وفي يناير ١٩٩٠ وفي المؤتمر الذي عقده حزب العمال البولندي المتحد قسّر الأعضاء استبدال هذا الاسم بحزب الديمقراطية الاجتماعية Party of Social Democracy وتولى قيادته زعيم جديد هو الكسندر كوفاسنسكى Alexander Kwasneski ، وصعد نجم إحدى العصب داخل الحزب الجديد تحمل اسم الاتحاد الديمقراطي الاجتماعي Social Democratic Union بزعامة شيوعي اصلاحي وعضو سابق في المكتب السياسي وزعيم حزب جدانسك Gdansk . وهو تادوتز فيتزيباخ Tadeusz Fiszbach . ان فهم سقوط الشيوعية في بولندا يتطلب مقارنة عضوية حزب العمال المتحد في ١٩٨٦ عندما بلغت نحو ٢ مليون عضو بعضويتها التي لم تتعد ٦٧٠٠٠ (٢٤) في مارس ١٩٩٠ .

واعترف الحزب الذي أعيد تشكيله بمسئوليته عن الجرائم التي ارتكبت خلال سنوات الحكم الستاليني ، وعن مأساة بولندا الاقتصادية، الا ان انتقاد الذات لم يكن كافيا لاستعادة الحزب لهيبته .

ويمكن أن نقول ان نهاية الشيوعية البولندية حدثت بسبب افتقارها لرصيد أخلاقي وسياسي محسوس ، أما هؤلاء الذين استمروا في منح الوعود للقيام بتجارب ذات رؤى مفتعلة عن الاشتراكية ، فان الغالبية العظمى من البولنديين ردت عليهم بأن الاشتراكية في نظرهم هي الخط من شأن الفرد ، واهدار البيئة ، واضطهاد الفكر الحر والسلب المعنوي لقوة المجتمع وعطاءاته . ولم يكن في بولندا أية رغبة شعبية لاعادة بناء الحزب الشيوعي ، ولم يرغب البولنديون في عودة الاشتراكية بل أرادوا التخلص منها بلا رجعة . ولعب وعى الجماهير بعد استنفاد الحكام السلطويين لكل أسلحة الحفاظ على النظام واستمراره بما في ذلك اصدارهم للقانون العسكري ، دورا مؤثرا في انهيار الشيوعية في بولندا .

وفي اللحظة التي قدم فيها الشيوعيون البولنديون تنازلاتهم وقبلوا الحوار مع المجتمع حتى لو كانا من المحققين ذلك بمدفأة لا لخدمة

أنفسهم وبطريقة ميكانيكالية ، حطموا الدعامة الأساسية لديكتاتوريتهم
وهى احساس الجماهير بأن النظام لا يمكن تغييره ، وأن أى شكل من
أشكال المعارضة سوف يسفر آليا عن تهميش واضطهاد المنشقين .

ان ادانة القانون العسكرى فى بولندا هى بداية التفكك التام
للمشيوعية فى أوروبا الشرقية ، وبينما أدرك الشيوعيون ضرورة
استخدام العنف السافر ضد عشرة ملايين من الجماهير
التي نظمت نفسها فى اتحاد مستقل ، اكتشفوا أن طبيعة سلطتهم
لن تفيدها اقامة حكومة من الطبقة العاملة . لقد تم فضح النظام
باعتباره ديكتاتورية بيروقراطية ومعادية للبروليتاريا . وبسبب توالى
الازمات فى الكرملين والموقف السوفينى السلبي تجاه الأحداث التي
تجرى فى أوروبا الشرقية لم يعد هناك أى أمل فى التدخل الخارجى الذى
يمكن على أثره انقاذ النظام . وتعلق ياروزليسكى ومعاونوه بأهداف
السلطة عندما عبروا عن شجبهم للزيف الأيديولوجى واعترفوا حينئذ بأن
الأيديولوجية لم تكن سوى وهم ومرطقة ، وأن التشدد بالالفاظ استخدم
لاضفاء الشرعية على السيطرة التي تفرضها اقلية صغيرة متعصبة على
المجتمع كله . ان العقد الطويل الذى بدأ بتدشين منظمة تضامن فى أغسطس
١٩٨٠ توج بانهياء الاحتكار الشيوعى للسلطة فى بولندا فى صيف
١٩٨٩ . وتطلبت استراتيجية « الارتقاء الجديد » تقويضاً بطيئاً
ومستمرًا لسلطة الحكومة وصعود القوى المضادة فى شكل جماعات
وحركات لا رسمية تكاثرت فى الثمانينيات رغم اجراءات النظام
القمعية .

ان توتاليتارية بولندا الفاشلة أصبحت نظاما سلطويا زائلا ، رغم
ان حكامه رأوا أن الأزمة لن تستمر للأبد . وفى نفس الوقت تطبقت
استراتيجية المائدة المستديرة أن يكون لدى كل من دعاة الوسطية داخل
المعارضة ، والمصلحين داخل الحكومة الرغبة لقبول الصفقة التي وصفها
آدم ميشنك - المؤرخ المنشق - أفضل وصف حين قال : « رئيسك ،
ورئيس وزرائنا » . ومنذ هذه اللحظة فصاعدا كان الانتقال لنظام ما بعد
الشيوعية ممكنا رغم أن المواعع الرئيسية فى الحكومة ما زالت تحت
سيطرة هؤلاء الذى أقرؤا القانون العسكرى . ويمكن أن نلاحظ أن
الانظمة العسكرية التي فرضت فى ديسمبر ١٩٨١ قد حققت من شأن
الحزب الشيوعى كمركز لصنع القرار ونقلت السلطة الى زمرة
تكنوقراطية لا تلتزم علنيا بالأيديولوجية . وبالطبع استمر الحزب فى الوجود
وفى أدائه لوظائفه الشعائرية الا أنه فقد قدرته على الاحتفاظ بهيمته
على المجتمع لأمد طويل . وفسر ميهالى فاجيدا الفيلسوف الاجتماعى

المجرى انهيار الشيوعية على أنه أقول الأسطورة القائلة بمعصومية النظام من الخطأ واحتكاره العلم :

« ان قوة النظام ارتكزت على تفرد العلم ورصده لأي شكل من أشكال العصيان ليقابل بالمثل وعندما أدرك النظام عجزه عن تطبيق هذا المبدأ ، بدأ يستجيب بدرجة ضئيلة لمطالب المجتمع ، ومن ثم انتهى سلطانه السحري وانهار بالفعل - رغم ما تظاهر به من قوة - في عام ١٩٨٩ . ان القانون العسكري في بولندا كان حقيقة نوعا من التسوية غير المعترف بها . وكان الحل « المعتاد » لأي تمرد هو التدخل السوفيتي والحل الأمثل هو تدخل جيوش الحلفاء في حلف وارسو ، الا أن الاتحاد السوفيتي أدرك عجزه عن المخاطرة بالخوض في حرب أهلية في وسط أوروبا فقبل القانون العسكري كحل رغم ادراكه التام بأن الجيش البولندي سوف يقمع المجتمع بالعتف وهو ما كانت السلطة تعتبره البرهان على قوة نظامها . ومن ثم كان القانون المدني - من وجهة نظر النظام - فشلا وضربة أصابته في مقتل » (٢٥) .

ولتوضيح هذه النقطة قال فاجيدا عن ٣١ ديسمبر من عام ١٩٨١ انه اليوم الذي أذانت فيه المعارضة الديمقراطية المجرية القانون العسكري وأصدرت جريدتها بتسليو Bszelo :

« في ذلك اليوم أصبح جليا أن النظام كان عرضة للانهار ولم يعد مخلصا . وبعد ٣١ ديسمبر ١٩٨١ ، لم يكن هناك سبيل آخر أمام النظام سوى اتباع سياسة تكون مقبولة على الأقل من جانب العقلية الأوروبية - لذا فان النظام تغير ولم يعد كما كان » (٢٦) .

ان الانفتاح البولندي في ١٩٨٨ و ١٩٨٩ كان له أثر جوهري على المنطقة كلها ، إذ نهضت الشعوب في المجر ، فبدأ النظام في التراجع في السنوات الأخيرة ، وفي تشيكوسلوفاكيا حيث بدأ الناس ينظمون احتجاجات شعبية ضد القمع الذي مارسه السلطة على المناضلين المعارضين . ولم تفقد التغيرات التي وقعت في المجر معناها الثوري بل أثرت على رومانيا / شوشيسكو الذي حاول يائسا أن يقنع زعماء حلف وارسو الآخرين بمنع تشكيل حكومة بقيادة تضامن بأية وسيلة حتى لو كانت التدخل العسكري ، ويبدو ذلك مثيرا للسخرية إذ أن الرجل الذي اعترض في أغسطس عام ١٩٦٨ على سحق حركة براغ الإصلاحية هو نفسه الذي يطالب عام ١٩٨٩ بقمع فوري لتجربة بولندا نحو الديمقراطية ، ولكن محاولات شوشيسكو المسعورة للحفاظ على الستالينية الجديدة لم تمنع أي أحد . ان أي

تحرك تجاه الاصلاحات فى أوروبا الشرقية قد تطلب شروطا خاصة ، منها كف السوفيتيين عن تدخلهم المباشر ومن ثم أصبحت هذه الاصلاحات حتمية ولا سبيل لمنعها . وبرزت تضامن فى أوائل الثمانينيات كحركة قومية حقيقية أخذت على عاتقها بناء مجتمع متعدد الاحزاب واطلقت العنان لاصلاحات دراماتيكية بأمل حل أزمة بولندا الاقتصادية على وجه السرعة .

ومنذ اللحظة التى تشكلت فيها حكومة بقيادة تضامن أصبح واضحا أن الحركة لن تستطيع الاستمرار فى انكار طبيعتها السياسية وأصبح حتميا عليها أن تبني نفسها كحزب سياسى منظم وربما تبني احزابا سياسية متعددة يمكنها أن تظهر على الساحة السياسية بعد الانهيار الحتمى للشيوعية لأسباب ايدولوجية . أن منظمة تضامن قد تصرف كجسد واحد فى تحديها للعدو المشترك المتمثل فى دولة الحزب الشيوعى بكل أجهزتها القمعية العديدة . والآن وبعد أن أدركت هذه الدولة فشلها واضطلعت تضامن بعبء الشفاء الاجتماعى والاقتصادى للدولة ، فإن التمايزات والعصبية التى كانت بين مجموعات عديدة داخل الحركة والتى طال تجنبها لمواجهة العدو المشترك طفت على السطح ، وولى زمن التأخر وتخطى الخلافات .

ان المقاومة البطولية المضادة للشيوعية نجحت من خلال اعادة بناء رؤى سياسية متسقة ، ومتنوعة - لقد أصبح لينخ فارونسا الذى لم يكن معروفا فى البداية وظل بعيدا عن مجريات الأحداث الخاصة بالممارسات السياسية الجديدة العلامة البارزة لحركة تضامن . ومنذ أن شارك العديد من المستشارين السابقين والمناضلين البارزين بتضامن فى الأعمال المدنية وفى الحكومة عرفوا بالطبقة السياسية الجديدة .

اختراق المجر لحصون العدو :

وكما ذكرنا آنفا ان الاتفاقية الكادارية ارتكزت على الزام المعارضة السياسية بموقف الحياد والحفاظ على النظام القائم مع مزيد من المرونة وقبول النقد وهو ما يعد أفضل ما تم من صفقات فى ظل الظروف القائمة - وتعتبر الكادارية أزمة سياسية وستظل كذلك حتى تنتعش الأوضاع الاقتصادية المتردية أو تقترب على الأقل من المستوى المعيشى فى الدول الشيوعية الأخرى .

وفى عام ١٩٦٨ بادرت المجر بتجربة اقتصادية جريئة فى مجال التجارة اللامركزية ووضعت حدودا على الدور الاجبارى للتخطيط

المركزي وازدادت استقلالية المشاريع ويكونت طبقة ادارية متحررة من الأوهام الأيديولوجية ، وتم تشجيع المبادرات الخاصة . واذا اتسع الاصلاحيون أسلوبا ثابتا ، فان قوى السوق ستحرر ، وربما وإنتها الظروف لاستقطاب الاستثمار الغربى . الا أن العناصر الجامدة في القيادة المجرية الشيوعية والنمى تدعمها موسكو هيمنت في آخر الأمر على الاصلاحيين وتم التخلي عن الآليات الاقتصادية الجديدة . وكان جانوس كادار نفسه - أحد الحزبيين ذوي الخيال السياسى المحدود - معارضا للتورط في اصلاحات يمكن أن تقوض أسس النظام الذى اعتبره الأفضل من وجهة نظر طبقة العمال . ورأى اللينينيون الذين أرقهم شبح البطالة بأن الاصلاحات السياسية سوف تخلق توترات اقتصادية متفجرة ، وفضلوا أن يبقى النظام على ما هو عليه واتهموا الليبراليين بعدم المسؤولية .

وهناك شئ واحد لا يسد من توضيحه وهو : ان الدوجماتيين المجرين يختلفون في الطراز عن نظرائهم الرومانيين والالمانيين الشرقيين والتشيكيوسلوفاكيين ، لأنهم رأوا أن أساس اية حكومة هو اجماع الرأى المبني على تسوية تكتيكية بين الحكام والمحكومين . ولمس يكن كادار أو رئيس وزرائه جينوفوك Jenő Fock أو الأيديولوجى الرئيسى جورجى اتزيل Gyorgy Aczel يؤمنون بالاشتراكية على طريقة شاوليسكو . . أو هونكر أو هوساك ، لأنها طريقة جامدة متصلبة الا أنهم لم يبدوا فى الوقت ذاته أى استعداد لتبنى تخاصم راديكالى مع القواعد التقليدية للعبة ، ونظروا للحزب الشيوعى باعتباره مركزا للحياة السياسية وتجسيدا للفهم السامى للمعقولة التاريخية ، ومن ثم كان طبيعيا أن يحقروا من شأن المحاولات التى قام بها الليبراليون لجعل النظام انفتاحيا ولتشجيع تواجد قوى تعددية في الحياة الاقتصادية . وقد استبعد الزعيمان الحزبيان رتزوناييرز وبيللا بيتزكو Bela Biszku من المكتب السياسى في أوائل السبعينيات لما عرف عنهما من تبنى وجهات نظر اصلاحية .

ان الاستعانة بالعقائد اللينينية في المجال الاقتصادى لا يعنى على أى حال اللجوء الى الارهاب السياسى . وقد ظلت المجر حتى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينات أقل بلدان حلف وارسو ممارسة للقمع ، وارتكزت هذه المرونة أساسا على الارتباط الهش بالمصالح الاجتماعية المتضاربة وهو ما ظهر بقوة في الثمانينات وكان التردى الاقتصادى ، والسخط الواسع الانتشار بسبب عجز الحكومة وفشلها قد ترك البلد فى حالة من الاضطراب العام . لقد فقد كادار الزعيم الذى وضع ثقته

فى نظام سياسى حكم المجر فى ظروف سيئة لولا أنه استطاع أن يجعل منها أكثر ثكنات المعسكر الشيوعى حيوية وهيبة بمجرد أن ثبتت ادانته واعتبره الشعب - وعلى نطاق واسع - نموذجاً للفساد والبيروقراطية الشاذة بل وعقبة رئيسية فى طريق تجديد الحزب رغم ما حققه للبلد من تقدم .

وسامت الأحوال السياسية والاجتماعية فى الثمانينيات عندما بدأت مجموعات اجتماعية كبيرة فى استجواب الحكومة عن مدى فعالية سياسات كادار . ولم تعد مناورات الزعيم العجوز تفى بالدين وبمجرد أن أعطى جورباتشوف اشارة انبدء للبرالية الجديدة وشجع البحث عن مزيد من الاصلاحات فى بلدان الكتلة وجد كادار نفسه بعيداً عن الاتجاهات الجديدة فواجه تحدياً من المعارضة بل ومن داخل الائتلاف الشيوعى نفسه . ان غرائزه السياسية والتي أثبتت صدقها فى حقبة برجنيف لم تساعده فى عهد جورباتشوف . وبدأ واضحاً أن المجر تتحرك سريعاً نحو الديمقراطية السياسية ، ولم يكن كادار هو الرجل الذى يسمح لمثل هذه المسيرة بالتقدم . ولأن الرجل هو الذى دبر وأشرف على قمع ما بعد عام ١٩٥٦ ولأن الوضع الاقتصادى كان آخذاً فى التدهور بدأ الشعب يسترجع دوره فى قمع ثورة بودابست .

وفى وثيقة سياسية نشرتها المعارضة الديمقراطية عام ١٩٨٧ بعنوان رمزى هو « العقد الاجتماعى The Social Contract » ، تم شرح فشل الكادارية فى ضوء الأفلول الاقتصادى للنظام السياسى . ورفضت القيادة القديمة ادراك مدى قوة الأزمة الاجتماعية التى هزت بالفعل كيان النظام المجرى . ورأى كنان هذا البرنامج السياسى الذى نشر فى جريدة بئسلو Beszelo أن ارتقاء المجتمع فى الثلاثين عاماً الأخيرة والذى تبعه قمع للاجتياح الثورى لعام ١٩٥٦ جعل الاستمرار فى اجراء تسوية جوهزها أنصاف الحقائق والأخيلة الذاتية شيئاً مستحيلًا ، ان اجماع الرأى الذى جسده الكادارية كف عن ضخ الثقة والدعم بين الشعب . وتقول الوثيقة ان :

« جانوس كادار كان رمزاً للوسطية الذهبية فى المجر ، وهو فى تضاده مع راكوسى لم يحاول أن يفرض على الشعب برامج مبالغا فيها من أجل الاصلاح الاجتماعى ولم يرغب - على عكس امرى ناجى - فى قبول فرض قيود على حكم الحزب الشيوعى . وباحكام قبضته على السلطة واحتكارها تجذب ناجى أى انتهاكات لمصالحه قد تقوم بها أى جماعة قادرة على التعبير عن استيائها ، وقد عوض كل فرد عن خسارته أينما كان ذلك ممكناً . ان البلد . . الذى استحسن سياسة

التعزية التي انتهجها كادار كان متشوقا لحياة آمنة وسالمة . وقبلت الدولة أن يحكم الحزب الحاكم باسم الشعب وأن تحكم الأجهزة الحزبية باسم جمهور الحزب . وهذا ما يسمى باجماع الراى » (٢٧) .

لقد قاد كادار البلاد الى حقه السياسى والاجتماعى ، وبدأت المعارضة الديمقراطية فى المطالبة بالمرحيل الفورى لرجل ارتبط اسمه على نحو لا ينفصم بهذا النظام ، الا أن التخلص السياسى من كادار لم يكن كافيا . وبدلا من تكرار السياسات التي مارسها كادار ومعاونوه . أعاد الحزب بناء علاقات جديدة مع المجتمع .

ان سياسة اجماع الراى الزائف كان لا بد أن تنقل من جذورها من خلال استراتيجية التسوية القومية ، وتحقق هذه التسوية يتطلب صحة المجتمع الفورية من سباته الطويل ليبدأ فى تنظيم نفسه وكانت حفنة من المبدعين المغامرين تكفى لتحدى هيمنة الحزب الشيوعى كما شاركت شرائح اجتماعية عريضة بما فى ذلك بعض ممن فى داخل الجناح الاصلاحى فى الحزب الذين يقع عليهم ضغط من جانب الأعضاء الآخرين فى النقد الموجه من القاعدة ، مما دفع بهم لاتخاذ مواقف راديكالية فى مقاومتهم للدمج البيروقراطى . وترى المعارضة الديمقراطية أن السلطة لا تدخل حوارا . الا اذا وجدت أن المعارضين ليسوا وحدهم أطراف المفاوضات . لقد كان لزاما على المفكرين أن يتخلوا عن نرجسيتهم لصالح البناء المنظم لبوادر الفعالية المدنية ، وتعد هذه البوادر النسوة والعمود الفقري للمجتمع المدنى الصاعد لأنها ستطالب بانتقال النظام الى الراديكالية وبطرح جدول أعمال بعيد المدى وآخر قصير .

وعلى المدى البعيد فانهم سيستعيدون ارث أكتوبر ١٩٥٦ وذلك بالمطالبة بالتعددية السياسية والديمقراطية ، وحكم الذات فى مواقع العمل ، والحكومة المحلية المستقرة ، وتقرير المصير القومى والتزام الحياد فى السياسة الخارجية . ولأن هذه المطالب قد بدت راديكالية جداً بالنسبة لظروف عام ١٩٨٧ فقد أقدمت المعارضة الديمقراطية على تسوية حددت العلاقة بين بنية السلطة والمجتمع . ورفعت صحيفة بتسلو شعارات المرحلة القادمة الرئيسية بما فيها من نهوض سياسى وهى :

« رقابة دائبة على حكم الحزب ، هيئة قومية لها سيادة ، حكومة تراقب وتحاسب ، حرية الصحافة التي يكفلها القانون ، وقانون لحماية الموظفين ، تمثيل المصالح ، تحرير الجمعيات ، الأمن الاجتماعى وسياسة رخاء اجتماعى منصف ، وأخيراً المطلب الذى تم الاجماع عليه وهو الحقوق المدنية » (٢٨) .

وفى المرحلة الأولى من الجورباتشوفية لم يعلن الكرملين عن موقفه من الحقائق السياسية الشرقية أوربية ومن ثم أكد « العقد الاجتماعى » مثله فى ذلك مثل الارتقاء الجديد لمشذك على اعتبار أى تحد للدور القيادى للحزب الشيوعى محاولة ستحرز النجاح ، ومن ثم أصبح الهدف هو الحد من ذلك الدور ، ووضعه تحت رقابة شعبية والحصول على ضمانات تشريعية تمنع البيروقراطيات الشيوعية من الاستمرار فى بذائها . الا أن الأحداث استمرت فى جمع زخما ، وبعد عدة شهور من نشر هذه الوثيقة المدوية قدمت جماعات مؤثرة داخل الحلف الشيوعى رؤيتها لاعادة تعريف دور الحزب فى المجتمع . ان الصراع العصبوى داخل القيادة والصعود الشهابى لأمرى ناجى كرمز لرؤية مجرية للجورباتشوفية عجل بسقوط الكادارية .

لقد أتت الحقبة الكادارية لنهايتها فى مايو ١٩٨٨ عندما استبدل مؤتمر الحزب القومى بالسكرتير العام قيادة رباعية مكونة من رتزوناييرز القوة المحركة التى تكمن وراء الاصلاح الاقتصادى الذى تم اجهاضه فى أواخر الستينيات وكورولى جروتز الذى أصبح السكرتير العام الجديد المسئول عن المتابعة اليومية للعمل الحزبى وكان عضوا حزبيا لا لون له وعينه كادار خليفة له ، والعضوان الآخران للرعاية كان أحدهما المصلح المتوهج أمرى بوتزجائ والأيدىولوجى الجامد جانوس برمز Janos Berecz الذى تبنى فجأة مبدا التعددية .

وفى البداية أظهر جروتز ميلا نحو فرض هيمنته على الأجهزة الحزبية وحاول أن يضع الموقف تحت سيطرته التامة ، ولكنه لم يستطع أن يفرض هيمنته فى الواقع ، ومثلما فعل كادار فقد دعم جروتز القمع المضاد للثورة بعد عام ١٩٥٦ ، كما تسلى السلم الوظيفى كبيروقراطى حزبى مطيع . وقد تحدى جروتز بالتدريج أعضاء الجناح الاصلاحى الراديكالى داخل الحزب الشيوعى المجرى برئاسة روتزوناييرز وأمرى بروتز جاي . وانتقد بروتز جاي قيادة الحزب بسبب رفضها اماطة اللثام عن حقيقة ثورة ١٩٥٦ وتحثيرها لناجى وكل ضحايا الارهاب الكادارى ، وأصر على ضرورة وضع الشيوعيين حدا لما يقومون به من ممارسات قمعية اذا أرادوا الاستمرار فى المشاركة فى النظام السياسى المتعدد الاحزاب . واستمر فى الدفاع عن مثل الاشتراكية التى رأى أن الممارسات الستالينية قد شوهتها .

وظل بوتز جاي — مثل جورباتشوف — متمسكا بمعتقداته الماركسية بينما رسم خطا قاطعا للتمييز بين الاشتراكية والتوتاليتارية

الستالينية ، الا أن هذا الاتهام للنظام القائم كان أكثر راديكالية عن كل ما قاله الزعيم السوفيتي من قبل عن التغيرات النظامية :

« تلك هي أزمة الستالينية • لقد أصبحت ستارا داكنا ، ولا يمكن لهذا النظام أن يعيد تشكيلها لأنها فشلت وأثبتت عدم ملائمتها للاضطلاع بالتجربة ودعم مشاعر الحرية لدى الشعب • لقد فشل هذا النظام في خلق قوى داخلية محركة من الأفراد والمواطنين وقضى على مبدأ التضامن بين أفراد شعبه وحطم التعاون بين المنتجين • وتحت هذه الظروف فإن القرار الوحيد الذي يمكن أن نتخذه هو حل هذا النظام الستاليني الشامل والتخلص من أيديولوجيته • ولا أعتقد أن جوهر هذه الأيديولوجية في الماركسية أو في الماركسية المحرفة لأنه ليس هناك شيء يمكن أن نقوم به حيال الماركسية » (٢٩) •

وبعد أقل من عام واحد طرد كادان نايرز ، الديمقراطي الاجتماعي السابق ، الذي وصف على نطاق واسع بأنه رجل الكياسة وبعد النظر واستبدل به جروتز زعيما للحزب • وفي أكتوبر ١٩٨٩ عقد مؤتمر الحزب الشيوعي المجرى (واسمه الرسمي حزب العمال الاشتراكيين) وتقرر فيه تغيير هذا الاسم الى الحزب الاشتراكي المجرى وشجب الأيديولوجية البلشفية بما في ذلك الادعاء بدور الحزب القيادي المضمون بشكل ثابت في المجتمع • ورفضت جماعة منشقة على رأسها جروتز وبروتر قبول هذا التغيير ، وتمسكوا باسم الحزب القديم بينما تخلى بوتز جاي ونايرز ورئيس الوزراء ميكوبس نيمث Mikbs Nemeth عن طريقته في اقناع الرأي العام بأنهم أخذوا — حقيقة — بمبادئ التعددية الحزبية (٣٠) •

وفي نفس الوقت نظمت المعارضة نفسها ، وبزغ العديد من الأحزاب الرئيسية في المجر خلال عامي ١٩٨٨ ، ١٩٨٩ • ووضع المنبر الديمقراطي Democratic Forum — الجماعة الشعبية المحافظة — في اعتباره التدهور التراجيدي الذي أصاب الريف المجرى تحت الحكم الشيوعي أولا ، ثم أقول القيم الأخلاقية وتجاهل الشيوعيين لمصير الأقليات المجرية في الخارج ثانيا •

إن الديمقراطيين الأحرار Free Democrats كانوا أساسا منظرين للحزب وقد أشادوا بآليات الاقتصاد الحر والمجتمع الليبرالي ، كما انخرطوا في المعارضة الديمقراطية في نهاية السبعينيات والثمانينيات التي نظم زعمائها المفكرون حملة معادية للثقافة الشيوعية خلال عقود السبعينات الاجتماعية واللامبالاة السياسية تحت حكم الكادارية • ومن بين زعمائهم كان لاسلو راجيك المهندس المعماري المناضل في سبيل حقوق

الانسان الذى شفق والده فى محاكمة بودابست الصورية فى عام ١٩٤٩ ، وجانوس كسى الذى كتب عددا من المقالات هى الأولى من نوعها عن استراتيجيات المعارضة فى المجتمعات التى على الطراز السوفيتى ، وميكولوس هراتسى الذى ألف العديد من الأعمال كان أشهرها عامل فى مدينة العمال Velvet prison Aworker in a Workers' State والسجن الناعم Gaspar Miklos Tamas الفيلسوف الذى ولد فى ترانسلفانيا Transylvania 'والذى هاجر للمجر فى ١٩٧٨ والتحق بالمعارضة ، وقد أصدر هؤلاء جميعا صحيفة مستقلة متواضعة هى بتسلو .

وفى صيف ١٩٨٩ نظمت المعارضة المجرية اجتماعا لاجراء محادثات مع الحكومة التى يسيطر عليها الاصلاحيون من الشيوعيين ، حيث تم الاتفاق على اجراء انتخابات حرة فى ١٩٩٠ . ان الانتقال للنظام المتعدد الاحزاب أصبح أمرا حتميا لابد أن يقبله كلا الجانبين أى أحزاب المعارضة ، والحزب الاشتراكى المهيمن ، الا أن العلاقة بين أحزاب المعارضة لم تكن دائما علاقة منسجمة . وفى الحقيقة لقد عبر الديمقراطيون الأحرار عن استيائهم من ممثلى المنبر الديمقراطى لأنهم أجروا مفاوضات مبكرة ويأسى مع بوتز جاي ومعاونيه دون دعوة المجموعات السياسية الأخرى ، وتم عقد اجتماع فى مونور Monor حيث طرح بوتز جاي وزعماء حركة المنبر الديمقراطى الصاعد الامكانات المتاحة لاقامة حوار فى المستقبل .

وفى صيف ١٩٨٩ فان الساحة السياسية فى المجر كانت فى حالة من التناحر والتأرجح بين الشيوعيين البرجماتيين الذين التفوا حول كارولى جروتز والاصلاحيين الذين أقروا الحوار وأيديولوجية الديمقراطية الاجتماعية (نايرز وبوتز جاي) والديمقراطيين الأحرار والمنبر الديمقراطى . ان الحزب السياسى المجرى الفريد من نوعه — وهو اتحاد الديمقراطيين الشباب FIDESZ كان التشكيل السياسى الوحيد الذى ظهر للوجود فى ربيع ١٩٨٨ وأقام مؤتمره فى خريف ذلك العام بعد رفض الاستبدادية للوضع القائم ونبذها المتعجرف لآى تسويات مع الجيل الجديد . واثناء مؤتمره الأول حدد اتحاد الديمقراطيين الشباب السن المطلوبة للعضوية ، وأجاز لهؤلاء الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والعشرين والخامسة والثلاثين فقط الانضمام للحزب . وأعلن الاتحاد فى برنامجه السياسى عام ١٩٨٨ ضرورة انضمام المجر للكميونة الأوروبية . ولأنه اضطلع على نحو متزايد بدور نشط فى المجتمع المدنى المجرى ، فان اتحاد الديمقراطيين الشباب تحسب لأية مؤامرة تستهدف

حله ، ومن ثم كانت الحركة جزءاً من موجة شرق أوروبية صاعدة تناضل في سبيل الحقوق المدنية وترفض أن تختزل الصراع الى مجرد صراع سياسى بحت :

« ان اتحاد الديمقراطيين الشباب يناهض بنفسه عن مقولة ان الذوبية المرضية التي انتابت السلطة كافية لخلق الديمقراطية • اننا لا نعتقد بأن أى تنظيم جديد يرغب في الفوز بالسلطة سوف يضمن احترام المبادئ الانسانية وحقوق الانسان • ان حماية الديمقراطية ، واقصى ضمان لها بل وضماؤها الوحيد بعيدا عن سيطرة الدولة يتمثل في مجتمع ذى ثقافة ديمقراطية سياسية ، ونعتقد ان وجود الأحزاب التي تتنافس من أجل الهيمنة على حياة الأمة ضرورة ولكنها ليست ضمانا كافيا • لا يجب أن نتمسك بالسلطة ولكن لابد أن يكون لنا هدف من وراء التنظيم المبشر لأنفسنا بأمل أن يكون المجتمع الذى ولد من جديد والذى يتكون من كوميونات قادراً على انتخاب حكومته » •

وأعلن الاتحاد ، تأكيداً على التزامه بفكرة البنى الجديدة ، رفضه لأى شكل من أشكال العنف أو الطرق الديكتاتورية الارهابية :

« لقد وصلنا لنقطة لا بد أن ننظم فيها دفاعاتنا وبسرعة ودون تغيير موقفنا من الممارسات السياسية للسلطات التي هي عدو للمجتمع • ونحن نعتقد بأن أكثر الأدوات فعالية ضد السياسات الظالمة التي تخدم مصالح السلطة هي الطريق الديمقراطي في التفكير والتنظيم وفي عملنا من أجل مجتمع قادر على بقاء نفسه وخلق سلطته الحاكمة التي ستقف خلف خطوط دفاعية وهي الاستقلال الخارجى والمعتقدات الأخلاقية وكذلك التضامن - الذى لا يمكن قصمه - مع بعضنا البعض وهو شىء أصبح فى متناول أيدينا » •

وانعكاساً للفلسفة الأخلاقية لحركات المعارضة البولندية عبر اتحاد الديمقراطيين الشباب عن اعتقاده بأنه :

« لدى هناك هدف اجتماعى ذو قيمة أعظم من هدف ضمان حياة سلمية وحرية ومستقلة للمواطنين » (٣١) •

وأثناء الاحتفال باعادة تأبين امرى ناجى فى بودابست ، برز ممثلو اتحاد الديمقراطيين الشباب عن كل الرموز السياسية الأخرى بموقفهم الثابت المعادى للشيوعية ورأى فرنك كوتزج Frenc Kötzig المتخصص فى علم الاجتماع والذى كان محرراً فى جريدة بتسلو وأصبح أحد الأعضاء التسعة فى قيادة ائتلاف الديمقراطيين الأحرار أنه لا يجب

اعتبار الحزب مجرد ناد يلتقى فيه المفكرون وقال كوتزج فى أحد حواراته الذى أجرى فى يناير ١٩٨٩ :

« صحيح أن بعض المفكرين المشهورين أعضاء مؤسسون للاتحاد ولكننا قادرون دائما على استقطاب أناس آخرين ، وعمال مؤهلين وعلى سبيل المثال ... فان عضويتنا بلغت ثلاثة آلاف الا انها أخذت فى التزايد خلال الشهور القليلة الماضية منذ أن بدأنا فى طرح برنامجنا السياسى على الجماهير - ان الديمقراطيين الأحرار هم الممثلون الرئيسيون للمعارضة الديمقراطية التى حظيت باحترام الناس لأنهم وجهوا النقد للنظام القائم . وارىد أن أقول أن الديمقراطيين الأحرار هو حزب للمفكرين الراديكاليين كما انه حزب للجماهير الفاضلة ، وحزب لهؤلاء الذين ياملون حقيقة فى التمتع بانجاز التغييرات الراديكالية التى تبدو بعيدة المثال » (٣٢) .

ويعتقد كوتزج أن قوة المنبر الديمقراطى أخذت فى التزايد بين الطبقة الوسطى العريضة فى المدن الاقليمية ، خاصة بين هؤلاء الذين أنكرت عليهم الدولة ترقياتهم الاجتماعية بسبب رفضهم للاتحاق بالحزب الشيوعى ، الا انهم كانوا بلا شك جزءا من البناء الاجتماعى .

✽ انهيار جمهورية المانيا الديمقراطية : مرحلة انهيار الشيوعية
التشيكوسلوفاكية :

لقد اتخذت الحكومة المجرية فى سقوط ١٩٨٩ خطوة غير مسبوقة عندما سمحت للسياح الألمان الشرقيين بالمرور عبر النمسا Austria وهم فى طريقهم لوطنهم ، ومن ثم نكث النظام المجرى بوعده ونقض معاهدته مع المانيا الشرقية بعدم السماح للمواطنين من جمهورية المانيا الديمقراطية بمغادرة المجر لبلد غربى وبالتالى فتح الطريق لتنزيف ديموجرافى سوف يحطم الاقتصاد الألمانى الشرقى ، ومع تواجد مائة ألف سائح المانى شرقى على أرض المجر اعتبر قرار حكومة نييتم بإزالة حواجز الاسلاك الشائكة فى نقطة العبور مع النمسا ضربة قاضية لسياسة النظام الألمانى الشرقى فى إنكاره حق شعبه فى الهجرة .

لقد أصبح الموقف أكثر تعقيدا عندما تجنهر معظم السائحين من الشباب الألمان الشرقيين أمام سفارة المانيا الغربية فى براغ ، ولأن تشيكوسلوفاكيا كانت واحدة من البلدان القليلة التى يمكن للألمان الشرقيين عبور حدودها دون جواز سفر ، أصبحت براغ مدينة تستقطب الشباب الألمانى الشرقى الساخطين ، وأبدى نظام جاكسى - على

عكس المجريين — تعاطفا مع الحكومة الألمانية الشرقية وهى تواجهه هذا المازق ولكن لم يكن بيده عمل شئ لوقف هذه الموجة المعاتية من الجناهير الألمان الشرقيين الذين اندفعوا أفواجا لسفارة المانيا الغربية فى براغ ، ونظمت مواعيد خاصة للقطارات التى ستقل الألمان الشرقيين عبر المانيا الديمقراطية لالمانيا الفيدرالية التى واجهت فيضاً غير متوقع من النازحين الجدد الذين يمدون — وفقاً للدستور الالمانى الغربى ـ مواطنين المانيا لهم حقوق وامتيازات المواطن الالمانى الغربى .

ولسخرية الأقدار ، فإن هذه الأزمة تزامنت مع الاستعدادات التى اتخذها نظام هونكر للاحتفال بالذكرى السنوية الرابعة عشرة لقيام جمهورية المانيا الديمقراطية ، فكان واضحاً أن النظام يمر بأزمة حقيقية وعميقة . ولقد قوضت النزاعات مع الاتحاد السوفيتى ومعارضة التورط فى اصلاحات محدودة دعائم السلطة الشيوعية . ورأى هونكر ومعاونوه أن التعامل مع التغييرات التى تتم فى موسكو كانت أكثر صعوبة من التعامل مع ما يجرى من أحداث فى بقية بلدان أوروبا الشرقية بسبب اعتماد المانيا المباشرة على الدعم السوفيتى العسكرى والاقتصادى .

وقد واجه فريق هوكسا وجاكس فى تشيكوسلوفاكيا مأزقا شبيها بمأزق هونكر ؛ لأنهم وصلوا للسلطة كنتيجة مباشرة للتدخل السوفيتى فى هذا البلد فى أغسطس ١٩٦٨ .

ومنذ أن تغيرت نظرة السوفيتيين لربيع براغ فإن الشيوعيين التشيكوسلوفاكيين وجدوا أنفسهم معزولين سياسياً ، ومحرومين من الدعم الداخلى والخارجى ، ومن ثم تمكن زعماء الحركة الاصلاحية الذين تم استبعادهم من العودة للمسرح السياسى ثانية كأبطال لاستراتيجية الاشتراكية ذات الوجه الانسانى وكان الكسندر دوبتشيك واحداً من الذين قضوا سنوات النفى خارج البلاد ، ورفض الالتحاق بحركات الحقوق المدنية السرية ، وقد أكد فى حديث له أجرته الصحفية الايطالية الشيوعية اليومية ليونيتا L'Unita فى يناير ١٩٨٨ على المبادئ الأساسية لحركة الاصلاح التى قمعها السوفيتيون وامتدح علانية سياسية الجلاسوفست التى يتبنها جورباتشوف كما أكد على وجود تشابه بين المصادر الأساسية للإلهام فى حركتى الاصلاح وقال : « لو أن جورباتشوف كان فى السلطة فى عام ١٩٦٨ لما فكر فى اللجوء للتدخل السوفيتى » (٣٣) .

وفى أبريل عام ١٩٨٩ وقع حدث عرضى إذ بث التلفزيون المجرى الذى تسيطر عليه الحكومة على الهواء مباشرة حديثاً لدوبتشيك الذى

لا يعتبر رسميا شخصية مهمة في وطنه حيث ناقش مرة أخرى حقائق أزمة ١٩٦٨ التي تكمن في جمود برجينف ومعاونيه في بلدان حلف وارسو الأخرى .

ان مغزى المقابلة التي أجريت مع دويتشيك عبر شاشة تليفزيون بودابست تكمن في حقيقة أن المجر قد مارست عملا عسكريا ضد حكومة تشيكوسلوفاكيا الشرعية في أغسطس ١٩٦٨ وهي الآن بصدد إعادة النظر فيه .

وتحدى دويتشيك الخط الرسمي لنظام هوساك وجانوس الذي ادعى ان التدخل الأجنبي كان لا بد منه بسبب تصاعد القوى المعادية للثورة تحت قيادة دويتشيك :

« لم يكن هناك أي مضادة للثورة بل لم يكن هناك أية قوى يمكن ان تمثل خطرا حقيقيا على الاشتراكية مهما كانت ، وإذا وجدت فأننا نعلم أن أسوأها هي دوجماتية برجينف . إنها الخطر الوحيد على الاشتراكية والتي تضعف مواقف الحزب والحركة والدولية الشيوعية والديمقراطية الاجتماعية والأحزاب الاشتراكية اليسارية . ولماذا ؟ كي تخدم الخط الحزبي الذي لم يكن منسجما مع مصالح الديمقراطية والاشتراكية والشعب » (٣٤) .

ان رد فعل الحكومة تجاه اصلاحى ربيع براغ اعتبره المستفيدون من الاحتلال العسكري لتشيكوسلوفاكيا ١٩٦٨ فالأسيئا ، وقد كان كذلك كما سفهت وسائل الاعلام التشيكوسلوفاكية الرسمية محاولة عودة دويتشيك للساحة السياسية ، حيث وصفته بأنه سياسى مبتز ومغامر ومرتد .

لقد هاجم الدوجماتيون في براغ دويتشيك هجوما شديدا بسبب الرعب الذي أصابهم ، لأنهم توقعوا أن يعيد الاتحاد السوفيتى النظر في قرار ١٩٦٨ الخاص باستخدام القوة العسكرية ضد حركات الإصلاح التي تشبه — جوهريا — ما قام به جورباتشوف نفسه ، وقد اعتبرت رود براغو Rude Pravo صحيفة الحزب اليومية ظهور دويتشيك على المسرح السياسى وهما وجنون عظمة لسياسى فاشل ولم ترد فيها أية اشارة بأن الزمن يتغير وأن السوفيتيين انفسهم تخلوا عن الوهم الدولى الذى برروا به النهاية المروعة لربيع براغ :

وما زال دويتشيك يعتقد بأنه يستحق ان يوصف فى كتب تاريخ بلدنا كاصلاحى مبتغى للاشتراكية وان طرده من الحزب كان خطأ فادحا ويرى أن الوقت قد حان لتصحيح هذا الخطأ . وعلى أية حال فان تزييف

التاريخ يعد شيئا محتملا ولكن تغييره شيء مستحيل • ان عهده الذى يسجله التاريخ سيظل يوصف على أنه نظام رأسه رجل شجب المبادئ العامة للماركسية اللينينية وضرب بالمبادئ والاشتراكية عرض الحائط وخان مصالح شعبه • وسيظل والى الأبد مجرد رجل قاد حزبا وامتنا لحافة الهاوية » (٣٥) •

ورغم نبرة الصلف التى اتسمت بها هذه التحذيرات فان المحافظين فى براغ أدركوا أن زمنهم قد ولى ، وتبخر اجباع الرأى فى حلف القمة التشيكوسلوفاكى نظر لتداخل وغموض الاشارات التى قدمت من موسكو ، بل ان رئيس الوزراء السابق ليوبومير ستروجال Lubomir Strougal الذى كان واحدا من واضعى سياسات ما قبل ١٩٦٨ الخاصة بالحيادية طالب بإجراء اصلاحات عاجلة ، وأشار خليفته ليديسلاف ادامك Lydislav Adamec الى الحاجة لتجديد قيادة الحزب واستيعاب دروس الماضى والاستفادة من أخطائه .

وفى أكتوبر ١٩٨٩ كان اعتماد نظام المانيا الشرقية الوحيد على الدعم التام الذى قدمه الزعيم الشيوعى نيكولا شاوشيسكو الذى شارك فى الاحتفالات التى نظمت فى برلين الشرقية لتجديد انجازات نظام هونكر الا ان الزعماء التشيكوسلوفاكيين واجهوا معارضة علنية متزايدة • وفى بلغاريا حاول تيودور جيفكوف يائسا أن يبقى على السلطة ، بينما كان زملاؤه يدبرون بالفعل مؤامرة بيزنطية لازاحته بشكل مشين فى غضون شهر واحد ، أما جورباتشوف فقد ذهب الى برلين الشرقية ليخبر هؤلاء الذين يتكاثرون فى تحقيق الاصلاحات بأنهم سوف يدفعون ثمن محافظتهم غالبا •

وبدا واضحا أن اللجنة المركزية تواجه - رغم المسيرات والمواكب المبالغ فيها تحديا من حركة الغضب والسخط المتزايدة التى استمدت قوتها من جماعات غير رسمية ، سلمية ، إيكولوجية ، ومدافعين عن حقوق الانسان كانت الحكومة قد اضطهدتهم الا أنهم احتموا بدرع واق ممثلا فى الكنيسة اللوثرية الألمانية الشرقية Lutheran Church وكان النظام ما زال قادرا على استخدام القوة ضد المسيرات التى تتزايد فى الشوارع ، وفى يونيو ١٩٨٩ كان اريك هونكر ونيكولاى شوشيسكو هما فقط الزعيمين الشرق أوريبيين اللذين قدما التهنئة للشيوعيين الصينيين لردعهم مظاهرة الميدان السماوى Tienanmen Square ، وبما عرف عن هونكر من عنت وصلف فقد تم التحذير من خطر اراقة الدماء فى جمهورية المانيا الديمقراطية • وفى برلين الشرقية

اصطدم المتظاهرون في مدينتي ديبسك ودرسدن بقوات البوليس .
 واستخدم البوليس الهراوات لتفريق المتظاهرين وهددهم بخزاطيم
 المياه . ورغم الرعب الذى حاول النظام بثه فى قلوب المتظاهرين ، فقد
 استمروا فى اعلان احتجاجهم ضد الديكتاتورية الشيوعية . وقد عمت
 الفوضى بين الجماهير لوجود جورباتشوف فى الاحتفالات الرسمية
 واختلطت شعاراتهم التى رددوها عن الحرية بندائهم « جوربى
 جوربى ! » ونظمت العديد من المظاهرات ووقف البوليس لدهشته
 مكتوف الأيدي ازاء تصاعد الغضب الشعبى . لقد تكون المنبر الجديد
 New Forum — الحركة التى رأسها منشقون سابقون — لتعبر عن
 المطالب الرئيسية للشعب ، ولأن الاتحاد السوفيتى لم يشجع استخدام
 العنف لردع الاضطراب فقد كان واضحا أن الحزب الحاكم لم يكن أمامه
 أى بديل سوى التضحية بالمتشددين وجزل الوعود باطلاق العنان
 لاصلاحات فورية .

واستمرت الحركة الشعبية المطالبة بحقوق الانسان والقضاء
 التام على النظام السياسى فى جمع زخمها ، وبلغت حقبة تاريخية
 بأكملها نهايتها وذلك فى ١٨ أكتوبر عندما عزلت اللجنة المركزية الستالينية
 أريك هونكر وانتخبت ايجون فرنز Egon Frenz الذى كان بيروقراطيا
 حزبيا لواحد وعشرين عاما متتالية ، وكان الساعد الأيمن السابق لهونكر
 ليحل محله . لقد كان اختيار اللجنة لفرنز اختيارا أحمق وغير مقنع ؛ لأن
 الجميع كانوا يعرفون أن فرنز كان مسئولا مسئولة مباشرة عن الحملات
 المضادة للانشقاق فى الأعوام السابقة. كما قام أيضا بتزوير الانتخابات
 المحلية التى أجريت فى مايو ١٩٨٩ . وفى البدء حاول فرنز أن يسكن
 الغضب الشعبى بالقاء اللوم على الأزمات الجارية وعلى فشل القيادة
 السابقة فى القيام باصلاحات شافية . وفى أول خطاب جماهيرى له
 كسكرتير للجنة المركزية أعلن فرنز :

« لقد اتضح اننا لم تكن واقعيين عندما أسانا تقدير التطورات
 الاجتماعية التى حدثت فى بلدنا فى الشهور الأخيرة ، ولم نتوصل
 للاستنتاجات الصحيحة وبسرعة كافية . اننا نعلم خطورة الموقف .
 ولكننا أيضا نشعر وندرك الفرصة الأساسية التى أعطيناها لأنفسنا
 لتحديد سياسات الحوار مع مواطنينا ، السياسات التى سوف تحملنا
 الى اعتاب مرحلة جديدة » (٣٦) .

ولكن كلمات فرنز المسكنة جاءت متأخرة وكان لها صدى
 هيبوثراطى وذلك لأن صحوة المجتمع أخذت فى التزايد على نحو أكثر
 سرعة وأكثر راديكالية من أى اصلاحات شيوعية يمكن توقعها .

ونظراً لما أصابهم من رعب وارتيابك فإن زعماء اللجنة المركزية لم يستطيعوا مواكبة راديكالية الجماهير المستنيرة .

ان ما حدث في جمهورية ألمانيا الديمقراطية أثار دهشة حقيقية اذ بدت الأمة منذ شهور قليلة فقط وكأنها أصيبت — سياسياً — بالشلل ، مع قليل من المعارضة التي حاولت تحدى جهاز البوليس الضخم ، ونشرت جريدة غربية في أغسطس ١٩٨٩ مع بداية الهجرة الجماعية التي أدت الى تأزم الموقف فى ألمانيا الديمقراطية هذه المقالة :

« نستطيع أن نقول ان وجود ألمانيا الغربية يساعد في تدعيم وتقوية الأنظمة البالية . لقد كان من السهل دائماً على الألمان الشرقيين أن يبعثوا بالمتشككين ومثيرى المشاكل الى الغرب للتخلص من معارضتهم لأنظمة بلادهم ، لذا لم توجد معارضة داخلية نشطة فى ألمانيا الشرقية ، ان النقد الشعبى الوحيد للنظام — وان كان حذراً — قامت به الكنيسة البروتستانتية Protestant Church والتي قدمت المأوى لحفنة ضئيلة من الجماعات الصغيرة فى المدن الكبرى ، الا انها لم تكن تحلم بتحدي النظام » (٣٧) .

لقد بنى الوجود الفعلى للبلد ، على اسطورة أيديولوجية وأى محاولة لتغيير هذا الأساس سوف يدمر مستقبلها . واذا كانت المجر وبولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا أصلحوا من انفسهم لدرجة التخلي عن الاشتراكية ، الا ان ذلك لم يكن يعنى فناءهم التام . اما جمهورية ألمانيا الديمقراطية فقد رأت أن احتضان مثل هذه الاصلاحات سيفنى دولتها لانها استمدت كيانها من تقسيم العالم لكتلتين متناحرتين .

وعندما تحولت الحرب الباردة لعمل بال فقدت جمهورية ألمانيا الديمقراطية كل مبرر لوجودها . ان هذا الموقف الفريد لم يختصره أحد الأيديولوجيين الأفاض ، وهو أوتا رينهولد Otta Reinhold مجرد مصطلحات سياسية ، ففى عام ١٩٨٩ أجرى أوتا حديثاً مع احدى محطات ألمانيا الشرقية أوضح فيه أن قضية الكيان الاشتراكى كانت قضية جوهرية بالنسبة للوجود الأول لجمهورية ألمانيا الديمقراطية كدولة منفصلة تقع فى قلب أوروبا ، ورأى — مثل اللجنة المركزية — ان جمهورية ألمانيا الديمقراطية « مجرد بديسل للجمهورية الفيدرالية Federal Republio وهو البديل العادى للفاشية والاشتراكية » (٣٨) .

وقد أبدت اللجنة المركزية معارضتها للوصايا السوفيتية الخاصة باتباع نهج اصلاحى حتى بدأت أزمة اكتوبر ورفض هونكر فى ديسمبر ١٩٨٨ كل الاقتراحات الخاصة ، بمحاكاة حزبه سياسية الجلاسونست

السوفيتية ورأى انه لا يحتاج لأى بروسسترويك في جمهورية المانيا الديمقراطية كما رفض مجدداً الدعوة « للانحراف عن نهجنا ومسيرنا الى الاستبدادية » (٣٩) . وفى خطابه الى الجماهير ، نبذ الأيديولوجى الرئيسى للجنة المركزية كيرت هاجر Kurt Hager فكرة اتخاذ الاصلاحات السوفيتية كنموذج يحتذى « لان تعليق جيرانك لورق حائط جديد لا يعنى انه يجب عليك تقليدهم » (٤٠) . وفى أبريل ١٩٨٩ بذل هاجر الذى خدم النظام عقوداً طويلة ككاتب حراسة للأرثوذكسية اللبينية أقصى جهده لاقتناع جمع من مؤرخى الحزب والعلماء الاجتماعيين بضرورة التاكيد على خصوصية نموذج الاشتراكية الذى تتبناه المانيا الشرقية وكانت كلمته التى انتقد فيها « التفكير الجديد » السوفيتى بصدد السياسة الخارجية التماساً عاطفياً مؤثراً للحفاظ على استقرار النظام الألمانى الشرقى مقال :

« ان تاريخ الاشتراكية في جمهورية المانيا الديمقراطية يؤكد على ان النظام الاشتراكى الاجتماعى يتمتع بمزايا مهمة ، واذا تحدثنا عن « الاشتراكية فى جمهورية المانيا الديمقراطية » فان هذا يعنى أننا نتبع طريقاً فريداً خاصاً بنا او يبنى تطبيقاً للماركسية اللينينية وفقاً لمقروفنا ، وان الاشتراكية فى المانيا الديمقراطية قد اكتسبت سمات متسقة مع عاداتنا ومقدماتنا وتجاربنا وامكاناتنا . واذا تحولنا لعصا فى يد اشتراكية تستخدم لتحقيق سياسة امبريالية واذا تحدثنا الوضع الامبريالى لالمانيا ، فسند انفسنا نخوض صراعاً فريداً من نوعه » (٤١) .

وفى نفس الفترة ، فان مارجوت هونكر Margot Honecker زوجة السكرتير العام ووزيرة التعليم الشعبى لم تخف استياءها من نهج جورباتشوف الجديد الذى اعتبرته تهديداً مباشراً لمستقبل الاشتراكية . ورأى ائتلاف اللجنة المركزية ضرورة الإبقاء على الاحساس بالخطر القومى القادم من الشرق والغرب حتى لا يتزعزع استقرار الوضع القائم . وعبرت مارجوت عن القلق المتزايد المتفشى بين شريحة عريضة من الأعضاء الحزبيين فى جمهورية المانيا الديمقراطية فى خطاب مشتمل (وتحذيرى) فى الكونجرس البيداجوجى فى المانيا الشرقية فى يونيو ١٩٨٩ :

« حقيقة ان كل القوى المعادية للاشتراكية قد برزت ثانية — وسوف يفعلون ذلك مرة تلو الأخرى لعرقلة مسيرة الاشتراكية بل ولتخطيها وهذا ما يجب ان يفهمه شبابنا . لا بد أن نبصرهم بذلك حتى يفهموا ان الوقت لم يحن لانهاى جيوشنا ، وان زمننا هو زمن ملء

بالصراع وأنه بحاجة للشباب يقاتلون في سبيل الاشتراكية ويعملون من أجلها ويدافعون عنها بالقول والفعل وإذا لزم الأمر بالسلاح « (٤٢) » .

ولقد تورط كرنز نفسه في كل الحملات السابقة المعادية للإصلاح وحاول أن يحول دون صعود الحركات الجماهيرية التي تطالب بالديمقراطية ولكنه يبدو الآن كاصلاحي جديد وعدو لسدود الفساد ومحافظة القيادة السابقة ، كما وعد بتحرير ليبرالى فورى ولكنه أعلن مؤكداً أن الاشتراكية « لا تفاوض عليها » ولا مساومة .

وكان واضحا بالنسبة لكرنز وكل قيادة اللجنة المركزية أن التنازلات الجوهرية التي ستسمح بإجراء مفاوضات حرة ستودى بالنظام وبجمهورية المانيا الديمقراطية . وعبر أحد الصحفيين من المانيا الغربية عن رأيه في هذا الصدد قائلا :

« ان الاشتراكية البروسية Prusso هي فقط التي تستطيع دعم مطالبة برلين الشرقية بدولة منفصلة . دعها تمر ، ولن يكون هناك أى مبرر لبقاء المانيا الشرقية . اسمح بإجراء انتخابات حرة اليوم لتحتمل بالوحدة مع المانيا الغربية غدا » (٤٣) » .

وظلت كل القوى في حركة دائبة تستلهمها من اصلاحات جورباتشوف والتغيرات التي تتم في الاستراتيجية السوفيتية الدولية ومن التخلي عن عقيدة برجنيف ، مما وضع زعماء المانيا الديمقراطية أمام خيار وحيد لابد أن يتبعوه وهو تخفيف الضغط على الجماهير وادراك حق المجتمع في المشاركة في الحكومة ، وكلما استجابت الحكومة لمطالب المحتجين ، أصبحت المظاهرات أكثر جرأة وراديكالية .

وفي ٢٣ أكتوبر ١٩٨٩ خرج مئات الآلاف الى شوارع لبيتزج Leipzig مطالبين بإجراء تغييرات ديمقراطية ، بما في ذلك جعل الحركات المعارضة واتحادات العمال المستقلة جماعات رسمية ، ومطالبين كذلك بفصل السلطات بما فيها فصل الحزب الشيوعي عن سلطة الدولة . وفي نوفمبر خرج نصف مليون برليني شرقي في مظاهرة سلمية نظمها اتحاد الممثلين Union of Actors تطالب بحرية الرأي وبناتخابات حرة ، ووضع نهاية « للدور القيادي » للحزب الشيوعي والتخلي عن البوليس السري البغيض Stasi حيث أطلق المتظاهرون الصفيير والنكات الساخرة عندما حاول جونشر شابوفسكى Gunther Schebowski عضو المكتب السياسى ورئيس اللجنة المركزية في برلين الغربية أن يلقي عليهم خطبا ، وما بدأ في أكتوبر

كتمرد جماهيرى تلقائى ضد الطغيان والظلم تحول الى ثورة سياسية
أعربت بوضوح عن رغبتها فى التخلص التام من النظام القائم .

ان انفجار الغضب واليأس بألمانيا الشرقية لم يكن فى الامكان
احتواؤه فقدم المكتب السياسى فى ٧ نوفمبر استقيلته ، وفى ٩ نوفمبر
وقع حدث هائل عندما حطمت الجماهير سور برلين ، واحتفلت العامة
بإنهاء عهد الخوف والشك والرعب وغمرت الجماهير فرحة ونشوة
عندما وجه المستشار هيلموت كول Helmut Kohl خطابه لجمع غفير من
مواطنى برلين الشرقية وبرلين الغربية الذين تجمعوا خارج ساحة مدينة
برلين الغربية حاملين أعظم المشاعر فقال لهم :

« أريد أن أصرح فى كل جمهورية ألمانيا الديمقراطية بأننا نقف فى
جانبيكم لقد كنا وما زلنا أمة واحدة ، اننا ننتمى لبعضنا البعض » (٤٤) .

وحاول كرنز بعد فتح الصدود وازالة الحرس القديم فى اللجنة
المركزية تغيير جلده والتلون بما يناسب رياح التغيير فأعلن عن عزمه
اجراء اصلاحات جوهرية وأعلنت اللجنة المركزية فى احدى جلساتها
الكاملة الأعضاء برنامج الحزب الجديد الذى تضمن انتخابات حرة
ديمقراطية وباقتراع سرى ، وتوجه الاقتصاد نحو آليات السوق ،
وفصل الحزب عن الدولة ، ومراقبة برلمانية على أمن الدولة ، وحرية
الاجتماع ، وقانون جديد للصحافة والاعلام (٤٥) . وأخذت جمعيات
وجماعات جديدة فى التشكل ودخلت الحياة السياسية فى ألمانيا الشرقية
مرحلة جديدة من الاختمار الرائع وتخلصت الأحزاب الديمقراطية
والديمقراطية الليبرالية التى لم تستقل بذاتها أبداً — من زعمائها
المتعاونين مع العدو ، كما أكدت على استقلالها عن اللجنة المركزية .
وفى نفس الوقت التف عدد قليل من الاصلاحيين داخل اللجنة المركزية
حول زعيم حزب درسدن Dresden Party هانز مودرو Hans Modrow
ودفعوا فى اتجاه تعديل كل من زعامتى الحزب والحكومة مرة أخرى .

وفى ١٣ نوفمبر أصبح مودرو رئيس الوزراء الجديد . وفى محاولة
يائسة من اللجنة المركزية لاستعادة مصداقيتها أطلقت العنان لبرنامج
اصلاحى شامل . الا أن المظاهرات استمرت هذه المرة ، اثر الكشف
عن المستويات المعيشية العالية والبدخ التى تمتع بهما فريق هونكر واثر
فضح فساد الطبقة السياسية التى طالما وعظت الجماهير بفضائل
التقشف الاشتراكى ، وكشفت الصحافة الألمانية الشرقية الليبرالية فجأة
طبيعة الحياة المترفة التى عاشها هونكر والزعماء السابقون ، وكان
هذا الاكتشاف من أشد الصدمات التى تلقاها الألمان الشرقيون قسوة

لأنهم اعتقدوا بأن وسائل دعاية النظام السابق التى تخدم مصالحه قد التزمت — رغم كل شيء — بقيم التعاونية والتكافؤ الاجتماعى . ورغم علم الجماهير بعداء زعماء اللجنة المركزية للحرية والديمقراطية الا أنهم كانوا على جهل تام بالامتيازات الهائلة التى تراكمت لصالح الاعضاء الحزبيين فى اللجنة المركزية . وتم الكشف عن ما يسمى وندلتز Wandlitz وهى مجموعة تتكون من ٢٣ منزلا تحت الحراسة المكثفة يتمتع فيها الزعماء السابقون بحمامات السباحة ويستهلكون سلعاً ليست متاحة لعامة الشعب وغيرها من وسائل الترفيه المبالغى فيها ولم يكن فى مقدور رعاياهم الا أن يحملوا بها فقط . ونشرت معلومات عن كهف الصيد الذى يملكه رئيس النقابة السابق هارى تتشه Harry Tisch وعن تورط عضو المكتب السياسى السابق جوثر ميتساج Guther Mittag فى مخالفات مالية سرية وهو ما استنزف أرباح العملة الصعبة من شركات ألمانيا الشرقية وعن تصدير آثار قيمة للغرب (٤٦) .

لقد أميط اللثام عن الصورة الحقيقية للقيادة الشيوعية التى أرهبت الألمان الشرقيين لعقود طويلة ، واكتشفت الجماهير مدى استهانتها وهو ما أثار الكرب والرعب والاحتقار بينهم .

وفى ٣ ديسمبر وتحت وطأة هذه الفضائح المخزية قدم فرنز ومكتب اللجنة المركزية استقالة جماعية . وبعد أسبوعين تم فضح الكوارث الاخلاقية والسياسية للجنة المركزية فى المؤتمر الطارئ الذى انخرط فيه المفاوضون بتجريم القيادة التى فرضت عليهم . وفى هذه المناسبة اتهم البروفسير ميخائيل تشومان Michael Schumann المؤيد للاصلاح وعضو اكاديمية العلوم الزعماء السابقين بخيانة ثقة الحزب قائلاً :

« أن بيروقراطى المكتب السياسى اذانوا ثورة الشعب على انهاء مضادة للثورة وارادوا أن يقمعوها بالعنف والحقيقة أن البيروقراطيين هم الذين كانوا معادين للثورة » (٤٧) .

ولأن المناخ العام فى جمهورية المانيا الديمقراطية عزز من شأن إعادة الوحدة بين الالمانيتين ، فإن الشيوعيين وجدوا أنفسهم فى مأزق حرج ولم تكن لديهم اية نية رغم تبنيهم لاكثر الاصلاحات دراماتيكية فى الاستمرار فى هذه الاستراتيجية . وبعد أن افتضح أمر القيادة السابقة وافشيت أسرار فسادها شوهدت صورة الاشتراكية المثالية حتى فى عيون هؤلاء الذين آمنوا بالماركسية اللينينية وناضلوا من أجل الحفاظ على جمهورية المانيا الديمقراطية . وكان الحل الوحيد بالنسبة للحزب هو تغيير اسمه والقيام بتطهير كامل لأجهزته . فأصبح اسم الحزب

الجديد هو حزب الوحدة الاشتراكية للحزب الألماني الاشتراكي الديمقراطي *Socialist Union Party of German-Party of Democratic Socialism* وهو ما يشير بوضوح الى أن قيم الاشتراكية ذات الوجه الانساني هي ما سوف يقبناه الشيوعيون في ألمانيا الشرقية في نهاية الأمر . ان الاسم الجديد كان انتصارا أخيرا وحاسما للتعددية داخل التشكيل السياسي الذي كان يعارض أي شكل من أشكال الديمقراطية . وانتخب مؤتمر الحزب جريجور جياسى *Gregor Gysi* المحامى الذى يبلغ من العمر واحدا وأربعين عاما كرئيس جديد للحزب ، وبدأ جياسى فى ممارسة مهام منصبه فى بداية شهر ديسمبر ، عندما اختير لرئاسة لجنة أقامها الاصلاحيون فى اللجنة المركزية السابقة ؛ لتقصى حقائق الجرائم التى ارتكبها الزعماء السابقون . لقد أهله تاريخه النزيه لموقع قيادى فى الاحزاب الديمقراطية الصاعدة فى هذا البلد ان كان جياسى الابن الأكبر لأحد المتمرسين الحزبيين والذى خدم فى الستينيات كوزير للثقافة وعرف جيدا بدعمه الصامد دائما للمعارضة ، كما شارك - باخلاص - فى هيئة الدفاع اثناء محاكمة المنشقين والمعارضين ذوى الضمائر الحية ومثل المنبر الجديد *New Forum* لجماعة المعارضة عندما كانت الجماعة تنشد اعترافا رسميا بها فى شهرى سبتمبر وأكتوبر بعد أن اعتبرت السلطة « عدوا للدولة » وأتى جياسى بكل مكانته وهيبته ، مطالبا بالتعددية وحقوق الانسان فتحمل عبء تحسين صورة الحزب التى شوهت . ولكن لماذا قبل جياسى هذه المهمة الانتصارية ككاتبين لسفينة الاشتراكية الألمانية الشرقية التى توشك على الغرق ؟ الا أن الاجابة ظلت لغزا ، والتفسير الوحيد هو أن جياسى نفسه كان منتهى أمله كيسارى مخلص انتقاذ ما يمكن انتقاذه من الأخلاقيات التى تحولت لنفايات مع حكم الحزب الشيوعى .

وفى الشهر التالى على تصدع سور برلين تقلصت عضوية اللجنة المركزية من ٢٣٠.٠٠٠ الى ١٨٠.٠٠٠ وظهر اتجاه عام يرمى الى حلها . ورأى جياسى أن اللجنة المركزية لا بد لها حقيقة أن تتخلى تماما عن الارث الستالينى وتلزم نفسها بمبادئ التعددية والديمقراطية كما نادى باجراء تغيير حقيقى فى كيان الحزب كى يصبح « البيت الطبيعى للاشتراكيين الديمقراطيين وليس حزب الطبقة أو حزب الجماهير » . أن هذه الفلسفة كانت النقيض تماما للمفهوم البلاشفي عن الحزب الشيوعى، الحارس الأمين الذى يملأ على الجماهير خياراته الأيديولوجية الخاصة دون أى اعتبار لحاجات الجماهير وعذاباتهم الحقيقية ، وقبل جياسى أيضا مبدأ المنافسة مع الأحزاب السياسية الأخرى كأحد

المكونات الطبيعية لمجتمع مفتوح . وكنتيجة لهذه التنازلات الجوهرية حدا الأمل بالحزب الاشتراكي كى يحسن صورته ، ويبقى قوة سياسية مؤثرة حتى فى الفترة التى تلت الانتخابات الحرة .

ان السخط الجماهيرى ، على أية حال ، كان فعلا فتحوّلت الدعوة لاعادة الوحدة بين الالمانيتين فى غضون أشهر لدعوة قومية ، وطالبت أحزاب المعارضة بالاسراع نحو التغيير . وأجرى هانز مودرو رئيس الوزراء الشيوعى الذى افتقر لأية رؤية سياسية اصلاحات فى النظام ولكن دون حماس ، ومن ثم فشل فى اقناع الالمان الشرقيين بأن الدولة الالمانية الاشتراكية المنفصلة ما زالت لديها المبررات الكافية لتبقى على ما هى عليه بل ان المجموعات البديلة مثل المنير الجديد والتى فضلت التقارب التدريجى بين الالمانيتين عن وحدة سريعة فقدوا ثقة الجماهير الالمانية بهم . ان غضب الجماهير نما فى شكل يتناسب مباشرة مع التسويف والمماطلة التى قامت بها حكومة مودرو بصدد التخلص من البوليس السياسى السرى . لقد ادى تفجير الغضب الشعبى الى المصفاء برؤساء البوليس السرى Stasi . وانهارت الشيوعية فى المانيا الشرقية غير مأسوف عليها ، وحددت اقامة هونكر ومعاونيه انتظارا لمحاكمتهم بتهمة التورط فى جرائم سياسية واقتصادية .

ثورة تشيكوسلوفاكيا البيضاء التى فاقت بنجاحاتها كل التوقعات :

لقد ابتهجت الجماعات والحركات غير الرسمية فى تشيكوسلوفاكيا لسقوط الدولة البوليسية فى المانيا الشرقية ، واصطبغت المعارضة بالصبغة الراديكالية حتى يناير ١٩٨٩ عندما نظمت مظاهرات للاحتفال بذكرى زعيم الطلاب جان بالاخ Jan Palach الذى ضحى بنفسه منذ عشرين عاما سابقة وبتذكرى اعتقال فيتسلاف هافيل وعشرات المدافعين عن حقوق الانسان فى محاولة من النظام لسحق الانشقاق الصاعد . وفى يونيو ١٩٨٩ نشر هافيل ورموز أخرى من المعارضة عريضة بعنوان « قليل من الكلمات » طالبوا فيها بالانتقال الفورى الى الديمقراطية . ونظرا لتزايد نفور الجماهير وعد نظام هوساك — وجاكسى باصلاحات اقتصادية محدودة ولكنهم رفضوا الدخول فى حوار مع جماعات المعارضة التى تنتشر انتشار النار فى الهشيم . ان الموقف فى تشيكوسلوفاكيا كان فريدا من نوعه ، ونظرا لخلو الطبقة الحاكمة من الاصلاحيين الذين يمكنهم الدخول فى مفاوضات قوزية مع المعارضة ونظرا لتفتت سلطة الحزب ، فان التوقعات باندلاع الاضطرابات كانت كبيرة . وفى نوفمبر

استخدمت الحكومة العنف لردع مظاهرة الطلاب وتحول رد السلطة العنيف على شكل من أشكال الاحتجاج المدني السلمى لشرارة أشملت الغضب الشعبى . وعمت الاضطرابات والاحتجاجات أرجاء الوطن .

ونظرا لغياب دعم الاتحاد السوفيتى - بل انه لم يبد حتى مجرد التعاطف تراجع الزعماء الشيوعيون فى تشيكوسلوفاكيا وتخلوا عن خيارهم الوحيد - أى الشروع فى اصدار أوامر عسكرية عليا بالتدخل والقمع للبقاء على السلطة وذلك لما عرف عنهم من قصر نظر وعجرفة الا ان البيروقراطيين أدركوا ان استخدام القمع سيسفر عن ارقاة يحور من الدماء قد تثير السخط على الصعيد الدولى ، ولم يحذ زعماء تشيكوسلوفاكيا حذو شوشيسكو فى رومانيا عندما استخدم منذ شهر مضى الجيش والبوليس لقمع المتظاهرين المجريين من السلاح فى تيميشوارا وبوخارست Timisoara and Bucharest ولم يلجأ زعماء تشيكوسلوفاكيا الى العنف لأنهم يدينونه ، ولكن لأنهم أدركوا انه يتناقض مع الرؤية السوفيتية الجديدة .

لقد خسر فريق موساك وجاكس ومعاونوهم السلطة التى وصلوا اليها باسم العقيدة البرجنيقية وانتهوا باعتبارهم اثرا من آثار « عقيدة سيناترا » ، وقرر الاتحاد السوفيتى السماح لكل دولة فى أوروبا الشرقية أن تتبع طريقها الخاص فى الإصلاح . ونظرا لما واجهوه من تحقير قدمت القيادة الشيوعية استقالتها علنية فى ٢٥ ديسمبر ، واستبدل المتشدد ميلوس جاكس بكارل أربانيك Karel Urbanek رئيس الحزب السابق فى بوهيميا Bohemia الذى يبلغ من العمر ٤٨ عاما . وفى الحال أعرب رئيس الوزراء لاديسلاف أدامز ، الذى شارك فى المفاوضات مع زعماء المعارضة عن نيته لتقديم استقالته . ولأن التغييرات التى أجراها حلف وارسو لم تقنع أحدا لأنها كانت مجرد تجميل ، تجمع مئات الآلاف مرة أخرى فى ميدان ونسناس Wenceslas Square ليسمعوا خطاب هافيل ودسك حيث شجبا محاولات الستالينيين الحد للحفاظ على السلطة « ان القيادة الجديدة كانت حيلة لاحداث الارتباك » (٤٩) . وكتعبير آخر عن نضج فى المجتمع المدني رغم القمع الفظ الذى واجهته مظاہرات الطلاب قامت المعارضة بتكوين ائتلافين هما : المنبر المدني Sivic Forum فى براغ والشعب السلوفاكى ضد العنف Slovakian Public Against Violence فى براتسلافا Bratislava . لقد قام زعماء ميثاق ٧٧ المحتفى بهم أمثال فيشنلاف هافيل وجيرى دينستبير Jiri Dienstbier وكذلك المفكرون الذين ينتمون للثقافة الرسمية بدور بارز فى انشاء المنبر المدني ، وأعلنوا فى وثيقة برنامجهم الذى صدر فى ٢٦ نوفمبر عن رغبة المنبر المدني فى

اعادة بناء النظام السياسى والاقتصادى التشيكوسلوفاكى ، وفى فصل السلطات وتطوير اقتصاد السوق وتحريره من التدخل البيروقراطى ، وحماية البيئة ، وتعديل السياسة الخارجية مما يسمح لتشيكوسلوفاكيا باستعادة موقعها المهيبة داخل أوروبا والعالم :

« اننا نطالب بتغييرات جوهرية ودائمة فى النظام السياسى فى مجتمعنا . لابد لنا أن نعيد تقييم ، أو تجديد المؤسسات ونستخدم آليات ديمقراطية تسمح بمشاركة حقيقية للمواطنين فى الشؤون العامة وفى نفس الوقت تصبح روادع فعالة ، تمنع السلطة السياسية والاقتصادية من ارتكاب أية حماقة . ان كل الأحزاب السياسية القائمة والأحزاب الحديثة التأسيس وأية جمعيات سياسية واجتماعية أخرى لابد أن يكون لها الحق فى المشاركة على قدم المساواة فى الانتخابات الحرة للحصول على مقاعد فى الحكومة وهذا يتطلب ، على أية حال ، تخلى الحزب الشيوعى عن دوره القيادى الذى يكفله الدستور داخل مجتمعنا وكذلك التخلّى عن احتكاره وسيطرته على وسائل الاعلام . وغدا لن يكون هناك ما يمنع حدوث ذلك » (٥٠) .

وفى ٢٧ نوفمبر وقع اضراب عام اصاب البلد بالشلل التام ولم يكن أمام الحكومة خيار آخر سوى قبول مطالب المعارضة . ولم يعد فى مقدور الزعماء المحاصرين تحمل الضغط الشعبى فى تشيكوسلوفاكيا . وكاشارة الى تفكك تلاحم المجموعة الحاكمة اعربت رود برافسو Rude Pravo الصحيفة اليومية عن أسفها لما اصاب اللجنة المركزية من عجز كما رثت « المياوات السياسية » التى كانت تعوق انفتاح النظام السياسى ولقتت الجريدة الانتباه للحوطة جورباتشوف والحث على الحزب للأخذ بمبادئ التعددية والاستعداد لاجراء « انتخابات ديمقراطية حرة » .

وفى ٢٩ نوفمبر ألغت الجمعية الفيدرالية Federal Assembly النص الدستورى الذى يكفل الدور القيادى للحزب الشيوعى . اذن فقد انفتح الطريق أمام التخلّى التام عن البنية الهشة للسلطة التى فرضتها الدبابات السوفيتية فى عام ١٩٦٨ . وأصبح فيتسلاف هافيل بما عرف عنه من فطنة سياسية واضحة بطلا قوميا ، لقد وجدت الأمة بغيتها فى كاتب مسرحى بعيد عن الأضواء وسجين سابق اتى به المد التاريخى الى مقدمة الاجتياح الثورى ، انه نفس الرجل الذى اعتقل لمطالبته باجتراح حقوق الانسان ولدفاعه عن هؤلاء المضطهدين ظلما وعدوانا ، وأصبح الآن الشريك الرئيسى فى المفاوضات مع هؤلاء الذين

زجوا به في السجون . وبعد اجراء تعديلين وزاريين تشكلت في ١٠ ديسمبر حكومة ائتلافية غالبية أعضائها غير شيوعيين . وفي ٢٩ ديسمبر انتخب فيتسلاف هافيل مؤسس المنبر المدني ومهندس « الثورة الناعمة » رئيسا لتشيكوسلوفاكيا .

وفي ذات الوقت عقدت قمة حلف وارسو في ٤ ديسمبر بموسكو ، واعترف الكرملين وحلفاؤه رسميا بأن التدخل السوفيتي في تشيكوسلوفاكيا في أغسطس ١٩٦٨ كان عملا غير شرعي . وكانت الوثيقة الختامية للقمة تحمل معنى التخلي النهائي والجاد عن عقيدة برجنيف واعطاء الضوء الأخضر للقوى الثورية في الأقطار التابعة السابقة ؛ لتنتقل في طريق الإصلاحات وأصبحت قضية تشيكوسلوفاكيا والمجتمعات السوفيتية الأخرى هي التخلص من آثار النظام السياسي والاقتصادي الذي فرض على الفرد اتاوة كبيرة دفعها من حريره . وأكد هافيل في خطابه الذي ألقاه بمناسبة العام الجديد على ضرورة إعادة بناء الديمقراطية ، على أسس اجتماعية تنبذ الفساد والجمود ، كما شجب الخطاب الفساد الاقتصادي وتحطيم مشاعر الثقة الانسانية والتضامن والحد من قدر البناء الأخلاقي للمجتمع واعتبرها عللا سببتها الشيوعية وتراثها المشؤم .

« لقد بننا مرضى على المستوى الأخلاقي فقد اعتدنا على قول شيء والتفكير في شيء آخر . ان مفاهيم مثل الحب ، والصداقة ، والعاطفة ، والتواضع والعفو قد فقدت كل معنى لها ، ان اعتبارها كنيرون منا دون مستوى الطبائع السيكولوجية لأنها فقدت منذ زمن طويل ما كانت تلاقيه من استحسان وهو شيء يثير الضحك في عصر المركبات الفضائية والكمبيوتر . ان اقلية ضئيلة منا هي التي استطاعت التمسك ولم تصرخ باكية عندما ترى من لا يستحق يصل الى السلطة وعندما ترى المزارع الخاصة التي تزرع محاصيل خالية من الأمراض من أجل الحكام فقط ولا ترسل بانتاجها للمدارس ، وملاجئ الأطفال والمستشفيات ، ولأن الحال كان كذلك ، فان مزارعنا لم تكن قادرة على مد أفراد الشعب بمنتجاتها الجيدة . ان النظام السابق - السلاح بالأيديولوجيا المتعجرفة والمتشدة، اختزل الانسان الى طاقة تنتج، واختصر العالم الى فائض من الانتاج . كما اختزل الموهوبين الذين يتمتعون بالارادة الحرة التي تمكنهم من حكم بلادهم ، الى تروس في آلة كبيرة صاخبة ذات رائحة بغيضة ، تهدف الى حرمان الجميع من التمتع بأي نوع من الخصوصية ، وكانت هذه الآلة قادر : على أن تدور بسرعة فائقة بلا رحمة ودون بطء حتى يليت تروسها » (٥١) .

وبسبب الارث النظرى والسياسى الذى خلفته التجربة فيما يتعلق بالديمقراطية ، فقد رأى هافيل أن بلده يمكن أن يكون مكانا مثاليا لتجريب ممارسات سياسية مختلفة . وأشار هافيل لأفكار توماس مزاريك عن الحياة السياسية المبنية على الاحترام المتبادل ، وعلى الحب لا على الصراعات الثقافية والتشاحن الذى لا نهاية له :

((أن مزاريك بنى سياساته على الاخلاقيات . دعنا نحاول التأكيد على هذا النوع من الممارسات السياسية الجديدة في هذه المنطقة المثالية . دعنا نعلم أنفسنا ونعلم الآخرين أن السياسات لا بد أن تكون تعبيرا عن الأمل في الإسهام في خير الكميونة أكثر مما هي تعبيري عن ضرورة خرق هذه الكميونة . دعنا نعلم أنفسنا والآخرين أن السياسات يمكن أن تكون أكثر من مجرد فن الممكن ، خاصة إذا كان ذلك يعنى فن الثقة والحسابات ، والخديعة والصفقات السرية ، والفساد . دعنا نعلم أنفسنا والآخرين أن هذه السياسات يمكن أن تكون فنانا لاصلاح أنفسنا والعالم)) (٥٢) .

ان هذه النصيحة التى تستنهض الهمم من فيلسوف ومؤلف للمسرحيات أصبح رئيسا للجمهورية برسم خريطة لمسار جديد يسمح بابتكار سياسات جديدة لأوروبا الشرقية ، وتنصح الشعب باعادة بناء طبيعة انسانية متوافقة مع وصايا التضامن والثقة والأمل ، وتشير لضرورة تجاوز الأزمات الاقتصادية والأحلاف للنظام والثقة وتجاوز ارث الشك وعدم الثقة المتفشى في الممارسات السياسية وأشار الى ضرورة زرع الساحة الاجتماعية بالمبادئ الأخلاقية .

ان الثورة ضد السوفييتيين قد استعرت لهيبتها باسم المفهوم العالمى لحقوق الانسان ومن ثم افترض هافيل أن السياسات الجديدة فى تشيكوسلوفاكيا ستختلف عن الممارسات السياسية التقليدية بما تنتم به من مكائد وتناحرات . ان آداب السياسة ذات معنى يحمل قليلا من المثالية ، ولكن من المهم أن نذكر ان الاجتياح الشرق اوروبى قد بدأ باسم حقوق الانسان المقدسة والتى تتجاوز المستوى السياسى الا أن الأمل في اذابة نهر الجليد الستالينى في يوم واحد كان بعد المنال ، يكتب تشيسلوميلوتز متنبئا :

« ان هذه البلدان تبدو وكأنها أهم جزء فى العالم كله وليس في أوروبا فقط . واذا ادعيتنا ان الامان الجديد New Faith (الماركسيستة اللينينية) سوف ينتشر في كل أرجاء الأرض فإن هذه المناطق تعد من

أكثر التجارب اثارة خارج الاتحاد السوفيتي بل وتعد الأولى من نوعها .
وإذا افترضنا أن المركز سوف يخسر ، فإن النماذج الاقتصادية والاندماجية
التي ستبرز تداعا في هذه البلدان ستكون بالتأكيد حديثة أن هذه
التجربة وهذا الاعطاف نحو الوضع الحالي ليس له مثيل في
التاريخ (٥٣) .

حقيقة ، وكما سناقش في الفصل السابع ، فإن الانفصام عن
الشيوعية واستعادة القاعدة الشعبية الحرة لم يكن ناتجا عن مجرد
الاحياء للعادات السابقة على الشيوعية بل ان الأشكال الجديدة كانت
توليفة من التوق الى الماضي والتجارب الجريئة الجديدة التي تهدف
لبناء المجتمع . ان المرء لا يستطيع ان يمحو - ببساطة - أربعة
عقود من الهيمنة الشيوعية بما في ذلك تلقين الجماهير وغرس مشاعر
الخوف ، وعدم الأمان لدى الأفراد وقمع الاستقلالية الشخصية ، ومن
الصعب - ولكنه ضروري - أن تقام الدولة على أساس القانون بعد
أن قضى معظم السكان حياتهم خاضعين تحت وطأة أنظمة غير
شرعية . وليس معنى ذلك أن السياسات الجديدة ستكون تصفية
لحسابات مسنمة وغير مجدية ولكنها ستعبد توليد قاعدة اجتماعية
من خلال رد الاعتبار للطبائع الاخلاقية للمواطنين ، وهذا يمكن أن
يتحقق داخل اتحادات وجماعات وأحزاب حديثة النشأة ، تضمن وضع
قيود على سلطة الحكومة وتخلق بيئة جديدة ، تؤدي الى التأكيد على
حقوق المواطنين . وعبر هافيل عن الحلم الكبير الخاص بالعتق
الأخلاقي والسياسي للأمم أوربا الشرقية التي ظلت لأمد طويل ضائعة
حين قال :

((ربما تتساءل : ما هو نوع الجمهورية التي أحلم بها ؟ وأجيبك :
انني أحلم بجمهورية مستقلة ، حرة ، ديمقراطية ، ومنتعشة اقتصاديا ،
ومنظمة اجتماعيا ، باختصار ، أحلم بجمهورية انسانية تخدم الفرد
وبالتالي اتوقع من الفرد أن يخدمها)) .

ولاستنبات هذه الروح في الضمير المدني أعلن رئيس جمهورية
تشيكوسلوفاكيا جديا :

((انها الشعب ان حكومتكم عادت اليكم)) (٥٤) .
وبينما كان هافيل يتحدث في يناير ١٩٨٩ عن عودة الحكومة
الشرعية في تشيكوسلوفاكيا ، كانت حكومة المجر تلقي القبض على
ثلاثة من زعماء حركات الحقوق الانسانية الصاعدة ، في الوقت الذي
ادعى النظام - شفويا - تبنيه لاصلاحات كتلك التي تجرى في الاتحاد

السوفيتي ، استغلت المعارضة ما أبداه النظام من دعم رسمي للبروسترويك ، لتكوين اتحاد يتفانى في الاستعانة بالجلاسنريست الا ان القمع في رومانيا قد بلغ أقصى مدى له وفاق أية دولة أخرى في حلف وارسو . وسواء أكان في بلغاريا أم رومانيا أم خارج حلف وارسو في البانيا ويوجوسلافيا ، فان الجهود التي بذلها المتشددون لنوحيد مقاومتهم لم يكن من المستطاع — على المدى البعيد — ان يكتب لها النجاح . لقد كانوا جميعا يدافعون عن زمن سياسى عتيق ، انهم الدينوصورات الستالينية التي فشلت في منع تقدم التيارات الناقدة داخل مجتمعاتهم ، وكلما رفضوا ضرورة التغيير ، ازداد رد فعل الجماهير المثورة قوة ، وتضاءلت قدرة الأحلاف الشيوعية على الاحتفاظ بأقل قدر من المصادقية في لحظة الانفجار الثوري .

القناع البلشاري : الضربة المعادية لجيفكوف Zhivkov

لقد ظل الزعيم البلشاري تيودور جيفكوف لعتود طويلة من أكثر الزعماء طاعة لأحلاف موسكو وموضع ثقته ، وقد حاول يأسا أن يتجنب انفتاح النظام السياسي ليحفظ باحتكاره للسلطة . وفي مناسبات عدة ، وخاصة بعد عام ١٩٨٦ ، تورط في هجمات هوجاء ضد الدوجماطيقية ، والمحافظة ووعد بأن يقتفي أثر البروسترويك السوفيتية . والحقيقة أن جيفكوف استغل هذ المقولات الجامدة : ليبقى قابضا على أجهزة الحزب وللتخلص من المصلحين ذوي التأثير داخل القيادة .

وقد تمت السلطة — أمام ضغط موسكو المتزايد من أجل الليبرالية — تنازلا مهما : فصدق المكتب السياسي البلشاري في أغسطس ١٩٨٧ على حل رموز الدولة الذي يتطلب من بين أشياء أخرى التخلص من صورة جيفكوف وإزالة تمثاله من بزافيتس Praveis مسقط رأسه . وفي مارس ١٩٨٨ استعادت معظم المؤسسات (مثل قصر الشعب الثقافية ، ومسرح الشباب ، ومؤسسة الدراسات البلقانية) التي سُميت على اسم آخر بنات جيفكوف ليودمبلا Lyudmila وزيرة الثقافة السابقة وعضو المكتب السياسي أسماءها الأصلية (٥٥) . وفي ديسمبر ١٩٨٨ وفي إشارة هيبوقراطية أخرى كان الهدف من ورائها استرضاء الاتحاد السوفيتي وعرقلة جهود معارضيه في الداخل ، أعلن جيفكوف أمام اللجنة المركزية بأن الوقت قد حان ، للقيام بثورة تنبع من القاعدة والقمة معا ولأجراء إصلاحات سياسية شاملة .

وفي ١ فبراير ١٩٨٩ أجبر رئيس الوزراء الاصلاح، جورجي اتناسوف Georgi Atanasov على تقديم استقالته ، وخطط جيفكوف لسحق

المعارضة داخل الحزب . وفى نفس الوقت ، جابه نظام جيفكوف المتعددت عددا من المبادرات المدنية التى جاءت من القاعدة وسميت بحلقات المناقشة ، وكانت الجمعيات ضرورية لتحدى السلطة تحديا سافرا وهو ما ميز نهاية السلبية السياسية فى بداية تنظيم المعارضة السياسية لنفسها ، ومن بين هؤلاء الذين تورطوا مباشرة فى الأنشطة المبكرة للفعالية السياسية تزنيو زيليف Zhelyu Zhelev الفيلسوف الذى طرد من الحزب الشيوعى فى الستينيات بسبب أفكاره التحررية ونقده العلنى للمثولية . وفى عام ١٩٨٨ أصبح زيليف عضوا مؤسسا « لنادى مناصرى الجلاسفوسست والبيروستريكا » وهى جمعية غير رسمية ، كما كرس زيليف جهوده من أجل الديمقراطية . ورغم جهود المناضلين المدنيين ، فقد كان لدى الجماهير فى بلغاريا شعور عام بأن نظام جيفكوف ما زال لديه القوة ، على تجريد المعارضة من أسلحتها وكبح جماح أى جهود اصلاحية أصيلة فتفتش الفزع بين البلغاريين ، كما عم « شعور بأن أيا من التغيرات التى تحتاح أرجاء الكتلة الشرقية لن تطولهم فى القريب » (٥٦) .

ان الاحساس بجمود النظام البلغارى لم يكن - على أية حال - محددا ، اذ كان من الواضح أن هناك تحت السطح الخارجى لقيادة الحزب الذى يبدو مناسكا تكمن توترات شديدة . وبحلول شهر نوفمبر خرج خمسة آلاف فى مسيرة الى مبنى مجلس النواب National Assembly فى صوفيا Sofia للاحتجاج على التلوث البيئى . الا أن التعطش من أجل التظاهر كان سياسيا فأعلنوا استيادهم من عجز الحكومة عن ادارة اقتصاد البلد . وفجأة ، وفى نفس الشهر ، قام تحالف بين الحزبين ذوى العقول الاصلاحية بقيادة بيتر ميلادينوف Peter Mladenov وجنرالات الجيش برئاسة عضو المكتب السياسى المتمرس ووزير الدفاع دوبرى دزروف Dobri Dzhurov ، وأجبروا تيودور جيفكوف الرجل الذى ساس الحزب الشيوعى البلغارى من أبريل ١٩٥٤ على الاستقالة . وما حدث فى بلغاريا كان مختلفا عن التغيرات الثورية فى المجر وبولندا وألمانيا الشرقية ، حيث كان لابد للأحلاف الشيوعية من أن ترخى قبضتها على السلطة بعد مجابهات مع المعارضة تراوحت من حيث الشدة من بلد الى آخر . وحاول الشيوعيون البلغاريون أن يكسبوا شفقة الشعب بادانتهم لجيفكوف والتخلص منه ، كما حاول كسب رصيد جماهيرى باطلاق العنان لاصلاحات راديكالية . ونظرا لما كان يربط الجنرال دزروف من علاقات بموسكو ، فاذنا نفترض

أن دوره المهم في المؤامرة كان له أثر كبير على الاستياء الذي إبداه
الكرملين نحو بلاده وضمن جيفكوف .

وخلف جيفكوف في زعامة الحزب بيتر ميلادينوف البالغ من العمر
ثلاثة وخمسين عاما ، والذي خدم خلال الثمانية عشر عاما الأخيرة
كوزير للخارجية . ولأن ميلادينوف لم يصل للسلطة بفضل الصفوة
العليا من البيروقراطيين الحزبيين ، فقد بدا أن نهوض الخلافة التقليدي
قد كسر . وأعلن ميلادينوف أن الإصلاحات الجريئة لن تعاق بعد الآن
ونعهد ، بأن يصبح بلغاريا تحت القيادة الجديدة ((بلداً حديئاً ، ديمقراطياً ،
وفاثونياً)) (٥٧) وألغت الحكومة القانون الذي يدين الأنشطة السياسية
السلطوية وخضعت الرقابة على وسائل الاعلام . أما جيفكوف فقد
خضع لقرار المكتب السياسي وأملا في انقاذ ماء وجهه (أو على الأقل
لانتقاذ جزء من امتيازاته) اعترف رسميا بمسئولته عن الفشل في إعادة
الحياة للنظام .

وتبع التخلص من جيفكوف اندلاع مظاهرات كبيرة في شوارع
صوفيا والمدن البلغارية الأخرى ، ونظمت اللجان الأهلية للاحتجاج
التي رفضت الاحتفاظ بديكتاتورية الشبوعيين وطالبت بإنشاء فورى
لنظام متعدد الأحزاب . وفي ١٣ ديسمبر قررت اللجنة المركزية للحزب
الشيوعي أن تجرد جيفكوف من رتبته . ورأى أندريه لوكانوف
Andrei Lukanov ، عضو المكتب السياسي الذي رأس لجنة التحقيق
في جرائم السلطة ، التي ارتكبها جيفكوف ورفاقه أن طرد جيفكوف من
الحزب يعنى انفصالا مطلقا عن الممارسات الفاسدة التي ارتكبت في
الماضي . ((اننا لا نقول وداعا لشخص اننا نقول وداعا لسياسة)) .
هكذا أعلن لوكانوف . وكما حدث في جمهورية المانيا الديمقراطية فقد
أدى الكشف عن الحياة المترفة التي عاشها جيفكوف الى اندلاع غضب
الجماهير المكبوت وطالبت الجماهير على نحو متزايد بالقضاء القبض عليه ،
لانتهاكاته السافرة للشرائع والقوانين ولحماقاته في إدارة
السلطة (٥٨) .

وفي نفس الاجتماع ، استسلمت اللجنة المركزية لضغط الجماهير
وأيدت دعوة ميلادينوف التي وجهها للحزب الشيوعي ، كي يتخلى عن
احتكاره للسلطة السياسية المكفولة له دستوريا . وفي أوائل شهر
ديسمبر اجتمعت المعارضة تحت مظلة واحدة سميت اتحاد القوى
الديمقراطية Union (UDF) of Democratic Forces . وانتخب زليو

زليف رئيسا للجنة الائتلافية . وفى ٢٩ ديسمبر ١٩٨٩ وبعد المظاهرات الجماهيرية التى قام بها الاتراك Turks العرقيون تعهدت الحكومة الجديدة واللجنة المركزية للحزب الشيوعى البلغارى بشجب الممارسات السياسية المشابهة لممارسات جيفكوف ، الا أن بذور القومية كانت قد اقتلعت تماما على مر عقود سابقة، وبعد مظاهرات الاتراك خرج الآلاف من البلغاريين العرقيين سُوارع المدينة الشمالية كردجالى Kurdjali مطالبين باستفتاء شعبى حول القضايا الشائكة المطروحة . وبعد اقرار مجموعة من القوانين التشريعية التى تسمح لأعضاء الأقلية التركية باستعادة أسمائهم الأصلية وإعادة فتح المساجد ، شكّل القوميون البلغارىون « لجنة الدفاع عن المصالح القومية » Committee For Defence of National Interests عززت التمثيل التركى المعارض فى البرلمان .

وتبع طرد جيفكوف وتجريده من رتبته أن سيطر على الحزب الشيوعى ثالث مكون من بيتر ميلانوف السكرتير العام واندرية لوكانوف ، والكسندر ليلوف Alexander Lilov الأعضاء فى المكتب السياسى . وفى يناير ١٩٩٠ حددت إقامة جيفكوف بتهمة « إثارة عداوات عرقية بين البلغاريين والأقلية التركية وبتهمة سوء استخدام الممتلكات والأموال العامة » (٥٩) .

وعقد الحزب الشيوعى مؤتمرا طارئا عاصفا استمر من ٣٠ نوفمبر وحتى ٢ فبراير ١٩٩٠ ، وفى هذه المناسبة خلف الكسندر ليلوف بيتر ميلانوف كزعيم للحزب . وكان انتخاب ليلوف على قمة الهرم الحزبى الشيوعى ، يعنى أن أعضاء الهرم الحزبى القديم لن يقبلوا الهزيمة ولن يقفوا مكتوفى الأيدي .

ورغم تهميشه من قبل جيفكوف بعد عام ١٩٨٣ ، فقد ظل ليلوف الأيديولوجى المخلص للحزب وتمتع بعلاقة وطيدة مع ابنة جيفكوف لبودميلا (٦٠) .

وفيما يتعلق بمصير جيفكوف ، فقد وجه فى يوليو خطابا للبرلمان رفض فيه مواجهة الهيئة التشريعية ، مجادلا بأنه لم يكن يرغب فى أن يستغل كأداة لتحقيق الطموحات السياسية لمجموعات وشخصيات بعينها ، ورفض التهم التى وجهت له لأنها لا تستند لأى أساس قانونى : « اننى قد ارتكبت العديد من الأخطاء ولكنى لم ارتكب أية جرائم ضد الأمة . لذا ، فإن مسئوليتى السياسية تقتصر على تلك الأخطاء » (٦١) .

وحاول الشبوعيون بعد أن أصابهم الارتباك والفوضى أن يفصلوا أنفسهم عن تجاوزات نظام جيفكوف وإعادة التأكيد على تقاليد الحزب

السابقة على الشيوعية . وفى عام ١٩٩٠ غير الحزب اسمه الى الحزب الاشتراكى البلغارى Bulgarian Socialist Party ، تجسيدا لانفصاله عن العقائد اللينينية .

حصار القلعة الرومانية :

وفى رومانيا ، بلغ الموقف أقصى درجات الدراماتيكية والغموض ، وذلك لان سياسة نيكولا شوشيسكو بلغت حداً كبيراً من الاحتكارية غير المقيدة للسلطة السياسية التى تجمعت فى يده . وعندما انسحب سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعى الرومانى فى مارس ١٩٦٥ ، أجزل شوشيسكو وعوداً بتبنى الليبرالية ، وبارخاء سيطرة الحزب على الحياه الثقافية واتباع السياسة الخارجية المستقلة التى بدأها سلفه جورج جورجيو دجى . وفى المرحلة الأولى من توليه الحكم فيما بين عامى ١٩٦٥ ، ١٩٧١ طالب شوشيسكو بقيادة جماعية وانتقد سنوات القمع الستالينى وعارض السياسة السوفيتية التى تسعى لنوحيد الكتلة داخل مجلس الاتحاد الاقتصادى المتبادل CMEA . وبدأ انه يؤيد الخط القومى الذى بداه تيتوفى يوجوسلافيا . وكعضو فى حلف وارسو ، ناوم شوشيسكو المطالب السوفيتية الخاصة بالانضمام لمانورات عسكرية وأصر على أن كل جيش قومى لا بد أن يخضع للقيادة الداخلية ، ونحدى التفسير السوفيتى للأمة الاشتراكية ورفض أن يقنفسى أثر خطوات موسكو فيما يتعلق بأزمة ١٩٦٧ فى الشرق الأوسط ، ان كانت رومانيا البلد الوحيد من حلف وارسو الذى أقام علاقات دبلوماسية مع دولة اسرائيل . وفى عامى ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ انتقد شوشيسكو على الملا الحماقات التى ارتكبتها البوليس السرى Securitate فى عهد ستالين وتعهد بأن مثل هذه الفظاعات لن تتكرر أبداً . وفى أبريل ١٩٦٨ قامت جلسة اللجنة المركزية الكاملة الأعضاء برد اعتبار لوكريتو بترسكانيو وزير العدل الأسبق وعضو المكتب السياسى والذى نفى بتهم ملفقة . وفى نفس الوقت ، استمرت رومانيا فى الإبقاء على موقفها الحيادى فيما يتعلق بالصراع القائم بين الصين وموسكو .

وفى أغسطس ١٩٦٨ وصل شوشيسكو لذرورة جماهيريته الداخلية عندما أذان علانية وبعنف التدخل السوفيتى فى تشيكوسلوفاكيا ، الا أنه قام بذلك - تحديداً - لأنه أراد أن يستغل الدعم الشعبى الذى يتلقاه من أجل اطلاق العنان لنهج مستقل ، بهدف الكسب الشخصى ومن أجل توسيع نطاق سلطته الشخصية ، وبناء حكم استبدادى لا يعلى عليه أى حكم آخر فى الكتلة .

ولم يكن الدافع وراء استيلاء شوشيسكو من سياسة برجنيف ،
التي تهدف للتدخل في الشئون الداخلية لأوروبا الشرقية ، ميوله الايديولوجية
بل على العكس ، فان الزعيم الروماني أدرك أن التسامح الداخلي
ساهم في صحة محدودة : ولكن متزايدة - للثيارات النقدية عليه ،
فقرر أن يضع حدا لهذه الفترة الليبرالية . وفي يونيو ١٩٧١ فقام
شوشيسكو بزيارة الصين وكوريا الشمالية North Korea وأخذ بما
يمارس من شعائر لتأليه الحاكم والتي رآها تحيط بماوتسى تونج وكيم
السونج Kim Il Sung . وأثناء تلك الرحلة صحبته زوجته الينا
Elena التي كان تأثيرها على زوجها وعلى الحياة السياسية في
رومانيا ، يتناسب تناسبا طرديا مع تدهور المناخ الاجتماعي ، وتزايد
الافراط في عبادة الفرد الشاذة . وأصبحت الينا في ١٩٧٤ عضوا كامل
العضوية في الجسد الحاكم للحزب الشيوعي وهي الأمانة السياسية
التنفيذية .

واستمرت رومانيا في السبعينيات في اتباع سياسة خارجية مختلفة
عن تلك التي تتبعها موسكو ، تلك السياسة التي جعلت شوشيسكو
يبدو وكأنه معارض للامبريالية السوفيتية وهو ما استحسنه وسائل
الاعلام والسفارات الغربية . وفي نفس الوقت ، استعاد شوشيسكو
سلطة البوليس السري ، وحول بيروقراطية الحزب الشيوعي لآباء
لتنفيذ قراراته التي كانت تتزايد غرابة ، وخروجا عن المألوف ، كما قطع
اتصاله بالمجموعة السياسية التي ساعدته في دعم سلطته أثناء
السنوات الأولى من توليه السلطة . وكان أي شكل من أشكال النقد
داخل حلف القمة يعد عملا تحريضيًا ، أما إذا جرؤ أحد على المساءلة عن
حدود سلطة شوشيسكو فإنه يتم التخلص منه فورًا واستبعاده من القيادة
الحاكمة . وأحد هؤلاء الذين عبروا عن تحفظاته فيما يتعلق باطلاق
شوشيسكو العنان للستالينية الجديدة وذلك في صيف ١٩٧١ عندما
عاد من رحلته الآسيوية ، كان ايون اليشكو Ion Iliescu
الذي كان آنذاك سكرتيرا للجنة المركزية ، والمسؤول الأول عن
الأيديولوجية ، الذي اعتبر على نطاق واسع ممينا من الرئيس وب
ووريثه الشرعي . وفي أثناء جلسة اللجنة المركزية التي
اليشكو اللوم من شوشيسكو بسبب الليبرالية والعقلانية
المزعومتين . وبعد ذلك خدم اليشكو كسكرتير مسئول عن الدعاية في
لجنة الحزب في مقاطعة Timis County party Committee ، وفي
الثمانينيات أصبح رئيسا للجنة الدولة للاشغال العامة For water

State Party ، وفيما بعد وحتى نورة ديسمبر ١٩٨٩ قام بإدارة مؤسسة النشر التقني Technical Publishing house في بوخارست .

ومنذ السبعينيات تطور دور الينا ونما لحد غير معقول اذ أصبحت،
 شرعيا الشخص الثاني في الهرم الحزبي . وكرئيس لأمانة اللجنة
 المركزية المسؤولة عن التعيينات وكنايب لرئيس الوزراء هيمنت الينا على
 الساحة السياسية الرومانية ، كما تحكمت في اعداد كل مقابلات زوجها
 وكذلك ترتيب جدول مواعيده . لقد كانت هي التي شجعت غرور
 الرئيس المرضى واحاطته بحائط من الأخيلة والتاليه والأسطوري .
 وليس معنى ذلك اننا نقول ان شوشيسكو بدون الينا كان يمكن أن
 يصبح ليبراليا . لقد نما شوشيسكو في الدهاليز السرية للحزب
 الشيوعي الروماني وبسبب تعقد مسألة الشرعية في الحزب ، نما لدى
 شوشيسكو شعور بالاضطهاد يميز الفصائل الصغيرة المتآمرة .
 وازضافة الى ذلك فقد تورط شوشيسكو مباشرة في قمع الفلاحين
 والمفكرين في الخمسينيات . ومع الينا التي تحتل المرتبة الثانية في الحكم
 ومع الأعضاء الآخرين في عصابة شوشيسكو بما فيهم نيكولا Nicu ابنه
 الأصغر وقائد أول اتحاد للشباب الشيوعي Communist Youth Union
 ورئيس لجنة الحزب في مقاطعة سيبيو Sibiu County Party Committee
 ونائب في اللجنة السياسية التنفيذية ، فان نجاح خطة توارث الحكم
 بدا مؤكدا .

ان شكل القيادة الفردية والتي تطورت في رومانيا بعد عام ١٩٧١
 جعل من المستحيل أن تضع حاشية الحاكم أي قيود مهما كانت قليلة
 على أعمال الحاكم وتصرفاته . ولم تكن هناك معارضة سواء داخل
 القيادات الحزبية أو خارجها ، ان سحق المناخ القمعي على نحو غير
 منصف أقل مبادرة نقدية (٦٢) . ان سيكولوجية شوشيسكو لعبت
 دورا كبيرا في الكارثة الضخمة . وكتب مراقب ثاقب الرؤية من الشيوعيين
 في رومانيا قائلا :

((ان الاحمال الأعظم والوحيد في الاتهام الداخلي المنهجي لرومانيا
 كان مزاج شوشيسكو المتقلب . ولا يوجد زعيم أوروبي في النصف
 الثاني من القرن العشرين جسد الآثار والعوامل التي تسببت في ضعف
 السلطة أكثر مما فعل هو . رجل ذكي ، دعوب فوق العادة ، واثق .
 ليس قاسيا على المستوى الشخصي (مثلا كان مائيسا واكوسي في
 المجر أو كما كان ستالين) ربما كان يقصد ذلك وربما ظال كذلك الا أن
 اسمه ظل مقترنا بالارهاب التاريخي)) (٦٣) .

وبعد أن أتى جوربانثوف للسلطة وجد شوشيسكو نفسه معزولا تماما . ومنذ أن تغير الاتحاد السوفيتي وفقد حلف وارسو ولعبه بالعباس ، فإن مجداً المحلية الرومانية الذي امتدح كثيراً لم يعد يجد قبولا لدى الغرب . وفي نهاية الأمر اعتبرت معاداة شوشيسكو للمستالينية ضرباً من الستالينية نفسها أكثر مما هي نوع من الاصلاحية . وعلى عكس يوجوسلافيا تحت قيادة تيتو ، حيث صاحب الاستقلال الخارجى ليبرالية داخلية محدودة ، فإن شوشيسكو استغل الادراك الدولى للمسار نصف المستقل فى السياسة الخارجية كى يفرض نظاما سلطويا دراكوليا يعتمد على افراط بين فى القومية واحتفاظ بالمؤسسات الستالينية الرئيسية بما فى ذلك البوليس السرى المرعب الذى سحق كل أشكال المعارضة . وفى صيف ١٩٧٧ أضرب عمال الفحم بواى جيو Jiu Valley ، الا أن السلطة سحقته واعتقل زعماء الاضراب أو قل اختفوا . والمنشقون أمثال الكاتب بول جوما ، والمؤرخ فيلاد جورجيسكو Vlad Georgescu والشاعر دورسين نبودران ، أجبروا جميعاً على ترك بلادهم بعد مضايقات لا حصر لها ونفس الشيء حدث للرياضى ميهائى بوتز الذى جرؤ على نقد النظام من منطلق قناعاته المتعلقة باحترام حقوق الانسان . وآخرون أمثال الشاعر ميرشيا دينيسكو Micrea Dinescu والناقد الألبى دان بتريسكو Dan Petrescu والاستاذة الجامعية دينا كوريتا . خضعوا جميعاً لمراقبة بوليسية محكمة . وكان الأمل ضعيفاً فى أن أى شىء يمكن أن يأتى من الصفوة العليا للحزب الشيوعى ، حيث كانت هيمنة شوشيسكو مسألة لا تقبل النقاش .

وتحت وطأة الخوف من أى شكل من اشكال الضغط الخارجى القوى ، بذل شوشيسكو جهوداً خارقة كى يسدّد ديون بلده الخارجية التى كانت أكثر من ١٢ بليون دولار ، ونجم عن ذلك حظر شبه تام على استيراد السلع بما فى ذلك قطع الغيار ذات الأهمية الحيوية بالنسبة للصناعة الرومانية . وفى نفس الوقت فإن الانتاج الزراعى استغل فى التصدير من أجل زيادة احتياطي البلد من النقد الأجنبى . أما الأعباء التى وقعت على كاهل الجماهير وخاصة بعد شتاء ١٩٨٤ فكانت تفوق التصور ، إذ كان على الناس أن يتجمدوا فى منازلهم بسبب قرار الحكومة بمنع امدادات الطاقة عن الاستهلاك المحلى ، واعتاد الرومانيون أن يتندروا على ذلك قائلين ان الفرق بين هتلر وشوشيسكو أن الأول كان يقتل الناس بأشغال الجاز بينما الثانى يقتلهم بقطعه عنهم . ان رومانيا الموطن الاصلى ليوجين ايونيسكو Eugene Ionesco كاتب المسرحيات

الهزلية الذى يقيم فى فرنسا بدت ارضا تفضل فيها الوضاعة على الرقى .

وكما لو كانت كل هذه الاجراءات غير كافية لاثارة الغضب والحنق بين الجماهير التى يزايد شعورها بالخزى يوما بعد يوم ، فان شوشيسكو امر بهدم المركز الساريضى لعاصمه الامة فى بوخارست وفى مكانه شرع فى بناء مركز ادارى جديد يضم « مجلسا للشعب » House of Public يفوق قصر المرساى Versailles Palace حجما . وكانت الاستبدادية الشيوعية فى حاجة لرموز كى تخله نفسها فلم يتردد شوشيسكو فى انفاق قدر كبير من الاموال على بناء نصب تذكارية تمجد شخصه واجبر العمال على انشائها . ومنذ ان بدأ الحكم يلعب بورقة القومية فى دعائنه نظر للاقليات العرقية على انها وباء خطر حامل اقيم دخیلة . ومن بين الاقليات الرومانية كان هناك نحو ٢ مليون مجرى أصبحوا هاجسا يورق شوشيسكو ، فقد نظر اليهم على انهم اجانب خطرون وعلى انهم حصان طروادة Trojan horse الذى يهدد وحدة الامة الرومانية . ولقى الزعيم خطبا رنانة ضد هؤلاء الذين لا يقدرن اهمية بناء امة منسجمة العناصر . وفى آخر الامر قرر الآلاف من المجرىين أن يتركوا بيوتهم ويمشوا على نحو غير شرعى الحدود الى المجر . ولسخرية الاقدار فقد اصطحبهم العديد من الرومانيين أنفسهم السذين فضلوا مغادرة وطنهم الام ، عن المعاناة من جراء استبدادية شوشيسكو . وبادر شوشيسكو أيضا بتوطين اجبارى لجماهير القرى فى المدن الحضرية كدليل على تقدم البلد السريع نحو الشيوعية وبعليته الستالينية ، أراد الزعيم أن يزيل كل الفروق بين مناطق الحضر والريف باقتلاع ما يربو عن سبعة آلاف فلاح من جذورهم . وهذا العمل الذى حاولت الدعاية الرومانية أن تقدمه للجماهير على أنه خطوة نحو (التمدن) اثار غضبا قوميا كبيرا . وكان الرومانيون فى كل أرجاء البلد فى حالة غليان تام .

وكان الصدع الاولى المرمى فى حصن رومانيا الستالينية الذى لا يقهر هو المظاهرات الشعبية فى براسوف Brasov المركز الصناعى فى رومانيا وذلك فى ١٥ نوفمبر عام ١٩٥٨ . ورغم أن النظام الحاكم حاول أن يحقر من شأن هذا السخط الشعبى ، فقد اذاعت محطات الراديو الغربية ما يحدث من قمع فى براسوف ، وإدرك الناس أن العمال من مصنع العلم الأحمر Red Flag المغلق بسبب الاضراب لم يتظاهروا من أجل أهداف اقتصادية فقط ، وانما رفعوا أيضا الشعارات المعادية

للدكتاتورية . ان تمرد براسوف حيث نقب المتمردون في المقرات المحلية للحزب ، واحرقوا صور نيكولا والينا شوشيسكو - كان اول عمل للثورة الرومانية ولكن الطبقة الحاكمة الرومانية البليدة لم تقم وحتى آخر لحظة بأى رد فعل لمنع القمع العنيف للحركة .

وكلما همت الحركات الاصلاحية في استجباة زخوها في البلدان الأخرى . ازداد توتر شوشيسكو فبدأ فى توجيه النفس العسسى لجورباتشوف لتخليه عن المبادئ الأساسية للماركسية اللينينية . وبما قامت به وسائل الاعلام تحت حكمه بالتوليف بين التزامه بالشيوعية المتشددة واصراره المتزايد بأن الجذور القومية (الرومانية) كانت فى خطر بسبب المؤامرات الخارجية والعملاء المتسللين الذين تم زرعهم بين الأقليات العرقية ، لم يكن شوشيسكو الوحيد من نوعه ، ففى بلغاريا المجاورة كان تيودور جيفكوف ، الضحية الأخرى للبروسنويكا التى تتوسع وتنشر ، يقوم بتكثيف حملاته ضد الأقلية العرقية التركية . وبمواجهة خطر حركة الاصلاح التى تشجعها قيادة موسكو التعديلية عادت القيادات الشيوعية الرومانية والبلغارية لاستخدام الأسلوب القديم التقليدى وهو البحث عن كبش فداء . ان عداء الأجانب الذى ميز الزعماء الشيوعيين المعادين للاصلاح أخذ اشكالا علنية تارة وخفية تارة أخرى ، وكان ذلك يتوقف على درجة الاستقلال الذاتى الذى يتمتع به النظام فى علاقاته مع موسكو . ان المحاولة اليائسة التى قامت بها الحلاف الستالينية للابقاء على وجودهم بالسلطة من خلال التلاعب بالمشاعر والاحباطات العرقية وصفت على انها « الشيوعية المصابة بمرض عداء الأجانب » . لقد كانت محاولة من أجل تجنب التحديث والاصلاحات ، ولخلق احساس عام بالخطر القومى ، ولاستعادة اصولية الوطنية أكثر من استعادة الماركسية التقليدية :

« ان الشيوعية المصابة بداء معاداة الأجانب ، تحاصر الشيوعية بحثا عن أحقر قاسم مشترك عام قومى ، والهدف وراء ذلك هو تمهينة المجتمع وهو ما تناضل من أجل تحقيقه وذلك باثارة الغضب القومى . وبينما كانت هذه الدعوة جديدة بكل المعانى على الشيوعية ، فسمان ما خلق الشيوعية المصابة بداء معاداة الأجانب Sui generis حقيقة هو ان أعداءها الأيديولوجيين لا يمكن تمييزهم عن أعدائها القوميين » (٦٤) .

حقيقة ، ان الشيوعيين المصابين بمرض عداء الأجانب اعتبروا ان أى دعوى للاصلاح هى محض خيانة للمصالح القومية . ان هلع شوشيسكو الهستيرى مما اسماء التسلل الأجنبى الذى أوشك على

الانفجار في خطابه الأخير في ٢ نوفمبر ١٩٨٩ يمثل ترجمة كاملة للتوليفة غير المتسقة بين القومية والستالينية .

ورغم الدعاوى المعادية للأجانب ، كان هناك حتى داخل رومانيا من يطالب بالتخلص من الأساليب الدكتاتورية للقيادة وبالتحول لسياسة الانفتاح : وفي بداية مارس ١٩٨٩ وجه ستة من رموز القيادة السابقة في الحزب الشيوعي الروماني خطاباً مفتوحاً للرئيس نيكولاي شوشيسكو ، حيث هاجموا ممارسات شوشيسكو التي جلبت الدمار هجوماً تسديداً . وطرحوا بديلاً سياسياً لجعل رومانيا بلداً ديمقراطياً ولأنهم حذروا حذو سياسة الجلاسنوست ، فإن الموقعين على هذه العريضة والذين كان من بينهم كثيرون ممن تقلدوا منصب السكرتير العام للحزب الشيوعي الروماني ، قد هاجموا شوشيسكو لتسببه في فقدان الصورة الاشتراكية لمصادقيها . ودون شجب مباشر لاحتكار السلطة من قبل عصابة الرئيس ، فقد طالب الأعضاء الستة البارزون في «الحرس القديم» Old Guard بإقامة «دولة القانون من خلال مراقبة محكمة على الدستور . وقد اعتبروا ذلك «الشيخة» التي أمر بها شوشيسكو هي إهانة موجهة لكل المواطنين الرومانيين ، كما شجبوا بعنف عزلة رومانيا عن الشرق والغرب والتي تنذر بالسوء . وقد أجمل أول سطور الخطاب جو الإرهاب الذي سعم رومانيا تحت حكم شوشيسكو :

« لأن الاشتراكية الأصلية التي حاربنا من أجلها قد فقدت مصداقيتها بممارساتك السياسية التي عزلت وطننا عن أوروبا ، قررنا أن نتكلم . أننا واعون تماماً بأن القيام بذلك يجعلنا نخاطر بحياتنا بل وحتى بحياتنا ، ولكننا نشعر بواجب مطالبك بقلب النظام الحالي قبل أن يفوت الأوان » (٦٥) .

وقدور إذاعة محطة بي بي سي العالمية BBC World Service الخطاب ، حددت إقامة الشيوعيين الستة وخضعوا لاستجوابات البوليس السري ، ولكن اعتقالهم لم يوقف الغضب المتأجج في رومانيا .

وفي مارس ١٩٨٩ نشرت الصحيفة اليومية الفرنسية « الحرية Liberation » حواراً مع مرشياً دينيسكو ، الشاعر الذي يبلغ من العمر ٣٨ عاماً والذي يعتبر على نطاق واسع واحداً من أكثر كتّاب بلاذة شهرة .

وبعد أن شبه الرومانيين بخنازير التجربة الشيوعية التي يقوم بها دكتاتور مصاب بالبرانويا ، حدد دينيسكو الآمال العظمى للرومانيين

والأوروبيين الشرقيين وهو ما كان أثرا من آثار ممارسات جورباتشوف السياسية للجلاسونست والبروستريكا فقال :

« في المقام الأول ، كانت رومانيا دائما تنظر الى الغرب بتوجس وخوف وهو ما يمكن تفسيره تاريخيا ، اذ أنها أمة وقعت على حافة امبراطورية . وفي المقام الثاني ان الستالينية لم تهبط علينا من هونولولو Honolulu ولكنها قذيفة أيديولوجية ألقتها علينا الكرملين ولأعوام طويلة ظل يهمس تارة وبعلانية تارة أخرى بان الدب الشرقي Eastern Bear قد منع النظام من أن يصبح أكثر ليبرالية وصدق الشئب ذلك . « ان القوات السوفيتية تقوم بمناورات على الحدود الرومانية » هذه هي الأقولة التي ترددها السلطات في كل مرة يحاولون فيها أن يضابطوا عقولنا . ولا أدري اذا كان شعب الاتحاد السوفيتي ينظر لجورباتشوف على انه قيصر صالح ام لا ، ولكن في بولندا والمجر وبيلقاريا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا فان الملايين الذين رزحوا تحت وطأة الدل لسنوات طويلة كان يرونه مبشرا « بالأخبار الحسنة » ويسوع الاشتراكية ذات الوجه الانساني » .

وبمواجهة الضغط الخارجى والاضطراب الداخلى العارم ، فان الزعيم أصبح أكثر شراسة فى رفضه لى شكل من أشكال الاصلاح . وقد ادعى أن رومانيا قد انتهجت منذ امد سياسة اصلاحية وأن النظام السياسى فى بلده لا يحتاج لى ضبط . وحقيقة ، فان شوشيسكو كان أكثر زعماء حلف وارسو تعبيراً عن رفضه التام لمبادرات جورباتشوف . وفى مناسبات عدة قال ان الجورباتشوفية تعود الى ترايد مد الجناح اليميني داخل الدولية الشيوعية وظل على عهده بأن « بناء الاشتراكية لا يمكن ان يتم من خلال الاصلاحية » .

وفى هذا المجال لم يكن هناك أى اختلاف بين مواقف شوشيسكو ووجهات النظر الستالينية التى يعلنها رامز عليا زعيم البانيا المذبذبة والذي شجب المسار الاصلاحى فى الاتحاد السوفيتى والمجر وبولندا ، لفتحهم الطريق للملكية الخاصة والشروع الأخرى التى تتضافر مع الراسمالية (٦٧) ، وفى أكتوبر ١٩٨٩ رفضت سينيتيا Scintia ، المحلة الرسمية للحزب الشيوعى الرومانى ، بوضوح الدعوات التى تطالب بالنظام المتعدد الأحزاب ، باعتبارها دعوات تقوض النظام الاشتراكى :

« ان الحزب الشيوعى الرومانى معتبر ان هذه الاطروحات التى تتعلق بالعودة الى النظام المتعدد الأحزاب فى الاشتراكية هى الشر

بعينه ان انها تمهد الطريق لعودة أشكال الاستبداد التي يمارسها النظام السياسي الرأسمالي . ان المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي البولندي أكد على أن وجود الحزب الواحد للطبقة العاملة وتقوية وحدة الشعب حول الحزب ، تحت الظروف التي وجدت بعد انقضاء الصيحات المتفاحرة ، لهو مطلب تاريخي موضوعي « (٦٨) » .

وفي السابع عشر من نوفمبر وفيل أسبوع من مؤتمر الحزب الشيوعي الروماني الخامس عشر ، وقبل دخول دول أخرى من الحدة السوفيتية في آتون من الاضطرابات ، فان صحيفة سينتيا وجدت أنه من المناسب إعادة طبع المقابلة التي أجريت مع الشيوعي المتشدد يوجور ليجاتشيف legor Ligachev ، والذي عبر فيها عن وجهات نظر مشابهة لتلك التي عبر عنها شوسيسكو فيما يتعلق بالحاجة الى نظام أحادي الحزب . وفي مؤتمر الحزب استعرض شوشيسكو مرة أخرى ترسانته المدججة ، لاقتناع الجماهير الساخطة بان رومانيا ستكون قادرة على مقاومة التغيير فاطلقت صيحات الفرح والتهليل من قبل المشاهدين الخاضعين لسيطرة الحزب وتدين له بالطاعة والولاء . وشجب شوشيسكو المكائد الدولية المارسمومة ضد استقلال الدول الصغرى . وبالإشارة الى قمة مالطا Malta التي عقدت بين الرئيس بوش Bush والسكرتير العام جريانتشوف . الملح شوشيسكو الى خوفه من أن ذلك يمكن أن يؤدي الى سيادة متكافئة للقوتين العظميين على العالم وكان شوشيسكو هو الوحيد الذي طالب بان يظل حاملا لمسئوليته في المستقبل المنظور كحارس لطهارة الماركسية اللينينية وللأشتركية الأوتوقراطية :

« منذ نحو ستين عاما مضت انضمت لهذا الحزب ، وفي المستقبل سوف اكون دائما في صفوف الحزب الشيوعي الروماني » (٦٩) .

وأثناء مؤتمر الحزب كانت عزلة رومانيا قد أصبحت واضحة لغياب الوفود المؤرخة للأحزاب « المتأخية » من المجر وإيطاليا ، الا ان غياب الوفد الممثل لجمهورية المانيا الديمقراطية هو ما أثار غضب شوشيسكو ، ان منذ أقل من شهرين كانت ألمانيا الديمقراطية هي المؤيد الوحيد لشوشيسكو في رفضه العنيد لقبول الاصلاحات . وفي نفس الوقت كانت قيادة هونكر قد استبدلت نتيجة لتصاعد موجة الاحتجاج الشعبي . وفي ألمانيا الديمقراطية نجد المدافعين عن حقوق الانسان والجماعات السلمية التي طالما قمعتها السلطة قد تقدمت الثورة ، مؤكدة على طديعتها السلمية .

وكان سقوط نظام مونكر يمد بانسبة لشوشيسكو ضربة قاسية .
ومع الهجوم الشرس الذى شن على جيفكوف داخل الحزب البلغارى ،
رمع مئات الآلاف من هؤلاء الذين خرجوا للشوارع فى براغ وبراسلاوا .
ومع استسلام الحكومة الألمانية الشرقية للضغط القادم من القاعدة ،
وجد الزعيم الرومانى نفسه معزولا تماما داخل حلف وارسو ، وهذه
العزلة زادت حدتها أكثر بمقاطعة الضيوف الأجانب لمؤتمر الحزب
الشيوعى الرومانى ، وكذلك عندما انهال النقد الحاد على شوشيسكو
من وسائل الاعلام الأجنبية بما فيها تلك التى فى البلدان الحليفة . ان
وكالة الاخبار الألمانية الشرقية ADN أذاعت قرار عدد من الأحزاب
الشيوعية بمقاطعة مؤتمر الحزب الشيوعى الرومانى منسيرة الى
**« الانتهاكات المستمرة لحقوق الانسان وسياسة تأليه الفرد التى تحيط
بشوشيسكو والانتهاكات الخطيرة للديمقراطية الاجتماعية »** (٧٠) .

وفى مواجهة هذا الازدراء والعزلة ، خطط شوشيسكو لاستخدام
آلة الدعاية الخاصة بنظامه ، فى خلق انطباع بأن الشيوعيين الرومانيين
سبكون فى اسنطاعهم تجنب مصر نظرائهم فى دول الكتلة السوفيتية
الأخرى . وفى أقل من أسبوع قبل بداية النمرد المعادى لشوشيسكو
فى تيميشوارا قالت وسائل الاعلام الغربية :

**« على المدى القصير ، فان نعلق شوشيسكو بالسلطة يبدو
مؤكدنا ولكن لن يعاد انتخابه ثانية لدى مؤتمر الحزب الشيوعى الشريب ،
لأنه يمثل الطاغية التى انكرت بتعنن إمكانية الإصلاح . وبارسال
تهديده الى المجر الاصلاحية يكون شوشيسكو بذلك قد أحكم اغلاق
الحدود مع جاراته فى حلف وارسو . وفى اطار تمسكه بالحكم فان
شوشيسكو كان سياسيا داهية ويعيد النظر . وربما كانت الأحداث فى
أوروبا الشرقية قد فاجأت الغرب ، الا أن استقرار رومانيا الحالى يشير
الى أن شوشيسكو كان مستهدفا منذ وقت كاف »** (٧١) .

والحقيقة هى أن شوشيسكو وأحلافه فى جبهة الرفض لم يتأهبوا
تماما لمثل هذا الاجتياح . فقد كان رد فعلهم مرتبكا ، ولأن موسكو كفت عن
لعب دور حامى الكتلة السوفيتية والتى اعتادت لعبه فى الماضى ، فان
الأنظمة الشيوعية بدت كالايتام .

وفى بعض البلدان مثل المجر وبولندا ، فان الجماعات الاصلاحية
داخل ائتلاف الحزب جئحت لاجراء مفاوضات قد تنقذ ما يمكن انقاذه على
أمل الاحتفاظ بسلطتها . وفى رومانيا ، لم يكن هناك داخل السلطة الحاكمة

أى فصليل اصلاحي التوجه ، لدرجة تمكنه من عزل شوشيسكو وعصبيته والعمل على طريق الليبرالية - فكانت الظروف مواتية لانفجار شعبي تلقائي .

وبدأت الثورة الرومانية فى ييميشوارا والتي أشعلتها شجاعة رجل واحد وهو لازلو توكسس Laszlo Toxeg الكاهن المبجل وراعى الكنيسة الاصلاحية (الكالفينية Calvinist) مع عدد من الاقليات المجرية العرقية . ورغم المضايقات المتكررة من جانب البوليس السياسى ، فان توكسس كان بطلا مغوارا مدافعا عن الحقوق الانسانية والدينية . وفى ١٥ ديسمبر ١٩٨٩ عذما حاول عملاء البوليس السياسى طرد توكسس بالقوة من بيته فى الأبراشية ، فان آلافا من - الرومانيين وكذلك المجريين - صنعوا سياجا بشريا لمنعهم ، وقاموا بمظاهرات عارمة معادية لشوشيسكو . وفى ليلة السادس عشر من ديسمبر فان المدينة كانت قد عجت بالمتحجين المعادين لشوشيسكو وللشيوعية . ان العمل الذى بدأ من منطلق دينى أطلق العنان للسخط المدنى الثائر وادى الى تمرد جماهيرى ناضج ضد واحد من أكثر الأنظمة فى العالم سلطوية وسيطرة وتحكم .

وفى ١٧ ديسمبر وبتعليمات من شوشيسكو سحقت قوات الأمن مظاهرات تيميشوارا بالقوة وبلا هوادة . وأصبح بينا ان الديكتاتور الرومانى لا يحذو حذو النموذج الالمانى الشرقى فى ضبط النفس وأنه سوف يستخدم أية وسيلة كى يحتفظ بسلطته .

وفى نفس اليوم ، وصلت أنباء ثورة تيميشوارا وقمع شوشيسكو الدموى لها لبوخارست وبلجراد والعواصم الغربية . وبثت محطات الاذاعة الغربية القصة الى رومانيا مرة أخرى ، الا ان الديكتاتور لم يبد أنه استوعبها ، اذ أنه غادر البلاد فى ١٨ ديسمبر الى طهران، ومنذ هذه اللحظة فصاعدا كان مصير نظام شوشيسكو قد قدر . كيف أصاب شوشيسكو مثل هذا العمى حتى انه لم يسر الاشارات العديدة التى تنبئ بقيام الجماهير برد فعل عنيف ضد الحكم الدراكولى ؟ لماذا تجاهل هذا السخط الذى تفشى حتى فيما بين البيروقراطيات الحزبية العسكرية والبوليس ؟ لقد جاء اجتياح تيميشوارا فى فترة كان حلفاء شوشيسكو المقربون فى حلف وارسو هم تيودور جيفكوف واريك هونكر وميلوس جاك - قد ألقى بهم خارج الحكم . وبحصاره فى خندق أوهامه واحتجازه رهنا لشخصه المؤله وحاشيته الذفعية ، فضل شوشيسكو ان يتجاهل الحقيقة الواقعة وظن أن الأرهام

التي دونت في وثائق الحزب بما فيها شعاراته عن الاتحاد الوحدوى بين
الأمة الرومانية وزعيمها أبدية .

وبعدودته لبوخارست ارتكب شوشيسكو خطأ فادحا : ففي ٢٠
ديسمبر خطب في الأمة وبث الخطاب في الراديو والتلفزيون وشجب
الأحداث التي جرت في تيميشوارا وأسمى الثوار « قطاع الحلق »
و « الفاشيون » و « المحرضون » و « عملاء الغرب » . ووفقا للبيانات
المتاحة حتى الآن قال : « ان المرء يستطيع أن يقول باقتناع تام بأن هتء
الممارسات ذات الطبيعة الارهابية قد نظمت واطلقت من قبل الدوائر
الرجعية والامبريالية والعرقية والشوفينية ومن قبل دوائر التجسس في
دول متعددة » (٧٢) .

وامتدح السكرتير العام الجيش والبوليس السرى بسبب
« صمودهم الذى لم يتزعزع » في مواجهة هذه الأعمال واذا جاز التعبير
فقد تحمل مسئولية شخصية — كتائد أعلى للقوات المسلحة الرومانية —
عن المذبحة البشعة ، واعتبر تحذيره الحاد من المظاهرات التي قد تندلع
في أماكن أخرى نوعا من التأكيد على الأنباء المرعبة الخاصة بنهر الدم
الذى يجرى في تيميشوارا والتحدى المهيئ للجماهير الساخطة المحبطة .
لقد كانت هذه هي اللحظة التاريخية التي قفزت لموعى العديد من الرومانيين
الرغبة في عبور عتبة الخوف الى الثورة ، والأخلاق ، والغضب ،
والسخط ، وأصبحوا جميعا فجأة — أقوى من الخوف (٧٣) . وتولدت
ثورة رومانيا من الاحباط المطلق . ورغم أن الشباب الذين خرجوا للشوارع
أدركوا أن مصيرهم هو الموت ، ، الا أنهم رفضوا قبول أى استمرار للقمع .

ومرة أخرى ارتكب شوشيسكو خطأ قاتلا وهو قراره الفريب
بتنظيم مظاهرة شعبية ضخمة تأييدا لحكمه ، مشابهة لتلك التي جرت
من شهر فائت . وبعد المهرجانات المزركشة التي أقامها إبان
مؤتمر الحزب الشيوعى الرومانى الخامس عشر ، حيث ساق البوليس
السرى عشرات الآلاف من الناس كالماشية وتم حشد رؤساء الحزب ،
داخل ميدان القصر Palace Sqtare ، شعرت الجماهير فى صبيحة ٢١
ديسمبر بمنتهى السخط ، وأصبح التمرد وشيكا . وفجأة بدأ
التلفزيون الرومانى وبعده مباشرة التلفزيون الدولى فضح
شكوكية الطاغية وغضبه والتندر عليها واستخدامها للسخرية منه ،
وتحولت الشعارات الشعائرية مثل « شوشيسكو والشعب !
» « Seasescu si Poporul » الى « شوشيسكو الديكتاتور ! » dictatorial !

أما تغيير أعضاء البوليس السرى لموقفهم من المديح الزائف
لشوشيسكو الى الاحتقار الحقيقى والمزى وما اذا كان هذا التعبير —

كما ادعى البعض بناء على تعليمات رؤسائهم الذين قرروا - سرا - التخلص من شوشيسكو فهذا شيء غير مؤكد ، وعلى أية حال ، فقد شاهدنا ملايين المشاهدين عبر شاشة التلفزيون وهم يصرخون ضد الديكتاتور شارشيسكو . ان الصرح المذيع الذى ضرب حول السلطة قد سقط سقوطا مدويا وتحول الى انقاض تحت رزح هذا الانفجار التلقائى للسخط الجماهيرى .

لقد رأت الجماهير الزعيم وهو يلوح بذراعيه في ذهول وعصية ، وما زلنا نذكر صوت الينا شوشيسكو وهى تحت زوجها كى ينسبك ، ويضبط أعصابه . وعندما تم اقتراح نقل اقامته لكان آخر بدأ شوشيسكو فى جزل وعود ديماجوجيه فى محاولة أخيرة لتهديد الجموع المشتعلة غضبا . الا ان السلطة كانت قد انزلت بالفعل من شرفة مبنى اللجنة المركزية الى الشارع .

وفى أعقاب المظاهرات الطلابية التى وقعت بميدان الجامعة University Square فى ديسمبر ، ورغم القمع الدموى لها ، اندلعت مسيرات تلقائية معادية لشوشيسكو ملأت شوارع بوخارست وشارك فيها مئات الآلاف وانتابت محطة التلفزيون نوبة عارمة من الدعم للجماهير بمساعدة الجيش الذى غير موقفه فى صف الشعب . ولان المفرات الحزبية قد هوجمت من قبل المتظاهرين فان نيكولاى شرشيسكو وزوجته قد تسلا من المبنى مستخدمين طائرة مروحية الا ان الجيش سرعان ما أمسك بهما ووضعهما فى سجن انفرادى فى مكان سرى . وتكون فى نفس اليوم مجلس جبهة الخلاص القومى National Salvation Front Council ، التى أعلنت التزامها بالتعددية السياسية والتخلص من مؤسسات النظام السابق . واختفى الحزب الشيوعى الرومانى كان لم يكن . ولم تكن هناك أية مقاومة تذكر لمنع الاجتياح الا من جانب بعض وحدات البوليس السرى ، وذلك فى الفترة ما بين ٢٢ الى ٣٠ ديسمبر حتى شنق شوشيسكو وزوجته وهو ما أسدل الستار على الحمى الجماهير وعم الارتياح والحماس ، بل واجتاحت نسائم الأمل البلد بأسره ورغم العنف ، فان العيد النورى استمر على أحسن ما يكون حتى الأيام الأولى من عام ١٩٩٠ ، عندما بدأت خيبة الأمل فى حكومة جبهة الخلاص القومى التى نصبت نفسها حاكمة ، تدب فى نفوس الجماهير .

وطرحت ثورة ديسمبر العديد من الأسئلة حول الظروف الغامضة التى احاطت محاكمة وشنق نيكولاى والينا شوشيسكو وحقيقة جبهة الخلاص القومى NSF .

وقد تساءل أحد المراقبية الذى تم ابعاده عن الأحداث ، عن نوايا جبهة الخلاص القومى وطالب بكشف ظروف وملابسات المحاكمة غير المعلنة والتي استتبعها اعدام الثنائى نيكولاي والينا . ورغم أن المتحدث الرسمى عن جبهة الخلاص القومى قد وعد بمحاكمة علنية عندما التى القبض على شوشيسكو أثناء فراره فى صبيحة يوم ٢٢ ديسمبر أعلن بعد ثلاثة أيام أن هيئة عسكرية سرية قد حكمت على الثنائى شوشيسكو بالموت وتم اعدامهما فى الحال . وتدافع جبهة الخلاص القومى عن المحاكمات العاجلة والحكم بالاعدام رميا بالرصاص على نيكولاي والينا قائلة بأنها انقذت حياة الملايين بالقضاء على « الارهابيين » فى الرئيس السرى المواليين لشوشيسكو ، الذين كانوا يدافعون عن قضية خاسرة وأجبرتهم على الاستسلام .

وبعد هذه الأحداث نستطيع أن نقول أن مثل هذه المقامات كانت تجزيئا وأقل كثافة مما أبرزته وسائل الاذاعة والتلفزيون ، التى ركزت على حرق مكتبة الجامعة المركزية فى بوخارست والخسائر الفادحة التى وقعت فى متحف الفنون الذى يقع فى الطابق الثانى من القصر الملكى القديم .

وعندما لم يقدم « الارهابيون » للعدالة وبالتالي لم يسمع عنهم أحد ، بدأ الشعب فى الشك فى وجودهم . وبدأ للكثيرين فى رومانيا أن نواة الشيوعيين الصلدة لجبهة الخلاص القومى قد باسقت ، عندما قالت ان هناك تهديداً من الارهابيين لاحتواء الثورة المضادة للشيوعية التى اندلعت من القاعدة . ان الأنباء السعيدة عن موت الطاغية قد أحيطت بظروف ضبابية . وبدلاً من الانتقام الثورى من الطاغية فقد شهد شعب رومانيا على ما يبدو انه جريمة قتل تتم فى محاكمة صورية زائفة دافع فيها محامون يدوا مثلهم مثل الادعاء – مهاجمين ومتهمين – فى محاولة لادلال الزعيم المخلوع وزوجته . ان تصفية شوشيسكو جسدياً وبأسرع ما يمكن ، كان شيئاً حتمياً لضمان سكوتة وضمان انتقال سهل من الأوتوقراطية الستالينية الى الرؤية الرومانية للشيوعية الاصلاحية . واهتم الزعيم الجديد اهتماماً كبيراً بشجب الدكتاتور السابق وحاشيته لمسئوليتهم الرئيسية عن كل الكوارث التى أصابت البلد . وبدلاً من محاكمة حقيقية للشيوعية الرومانية ، فقد قدمت الجبهة للجماهير صورة للمعدل زائفة تهدف الى تصوير الزعيم كديكتاتور ، وفى نفس الوقت تبرىء ساحة الأجهزة الضخمة التى سهلت لحكم شوشيسكو ممارساته الفاسدة .

ان غموضا عميقا مثل الذى أحاط بمحاكمة شوشيسكو قد أحاط بأصول جبهة الخلاص القومى نفسها . وإذا كان المنبر المدنى فى تشيكوسلوفاكيا قد ولد مع ميثاق ٧٧ الذى تم حظره وهوجم باستمرار، فإن التشكيل الحاكم الجديد فى رومانيا لم تكن لديه أية حركة معارضة داخلية والتى يمكن أن تتحدد منها هويته فمن عين الأعضاء الأصليين للجبهة أو اختار أيون اليشيسكو السكرتير العام السابق للجنة المركزية كرئيس ، أو البروفسير الشاب فى المدرسة البوليتكنيكية بيوتر رومان Peter Roman كرئيس للوزراء ؟ ما هى المعايير التى استُخدمت لاختيار القيادات ؟ ومبدئيا ، فإن مجلس جبهة الانقاذ القومى الذى ضم عددا من المنشقين اللاشيوعيين أعرب عن استعداده للتخلى عن برنامج الجبهة الاصلى وأعدى بانتخابات حرة وبناة ونظام ديمقراطى ، وتطوير المجتمع المدنى فى رومانيا .

ان الفجوة بين ممارسات الجبهة المنمقة والممارسات اللينينية أصبحت بيئة ، وقدم المنشقون مثل دويينا كورنيا المناضلة فى سبيل حقوق الانسان والشاعرة آنا بلانديانا Ana Blandiana استقالتهم . وبدأت رومانيا تدرك أن البناء الجديد للسلطة ما هو الا امتداد لكثير من أساليب السلطة السابقة . ومن هذه اللحظة فصاعدا ، فإن الجماعات المدنية والجمعيات التى تنمو بسرعة وكذلك الأحزاب الديمقراطية الصاعدة قد تم قمعها من جانب الشيوعيين ، لتورطهم فى توجيه النقد لما سُمى « بلا شيوعية » جبهة الخلاص القومى . وأصبح الصراع بين السلطة والمجتمع فى رومانيا حادا نوعا ما وذلك عندما أعلنت الجبهة نيتها لترشيح ممثلين لها فى معركة الانتخابات القادمة ، وبذلك تكون قد أعلنت نفسها الحكومة الانتقالية الوحيدة . وعندما احتجت المعارضة على البعث الجديد للأساليب السلطوية عبأت الجبهة العمال للدفاع عن استيلائها على الحكم بالاكراه . الا أن الاكراه لم يجد واستمرت المعارضة فى جمع زخمها . وشكلت الأحزاب الرومانية التقليدية ومنها حزب الفلاحين القومى - حزب الليبراليين القومى وحزب الديمقراطيين الاشتراكيين - بناهم الخاصة وشاركوا فى البرلمان الاقليمى . ونمت معارضة خارج البرلمان بين جماهير الطلاب الراديكاليين أولا ثم الانتلجنسيا فيما بعد ، وقامت الأقلية المجرية والتى خضعت طويلا للتمييز العنصرى السافر ، بتشكيل حزبها السياسى وسمى الاتحاد الديمقراطى المجرى Hungarian Democratic Union . وقام القوميون الرومانيون بتنظيم حركتهم السياسية التى تدعى الموقد الرومانى ، والتى تذكرنا ببياناتها بأسوأ تطرف للجماعات الشوفينية

التي وجدت في الفترة التي توسطت الحرب (٧٤) . ورغم أن جبهة الانقاذ الوطني استخدمت آلة الدولة الهائلة للحد من عمل المعارضة والزامها بالحياد ، إلا أنه كان هناك احساس عام بأن الزمن لا يمكن أن يتوقف أو يعود للوراء ، وأن رومانيا سوف تلحق بركب الدول الأوروبية الأخرى في انتقال صعب الى الديمقراطية ولكنه حتمى .

التمثيل الشعبى والاصلاحات في يوجوسلافيا :

فى يوجوسلافيا ، وبعد موت تيتو ، ساهمت عملية النجسزى والتفتت المستمرين فى تزايد نمو الصراعات بين أكبر جمهوريتين من حيث التواجد المدنى وهما سلوفينيا وكرواتيا Slovenia & Croatia وبين الثقافات المهيمنة عرقيا لكل من صربيا Serbia ومونتيجرو Montenegro والبوسنة Bosnia وهدد تصاعد نجم زعيم الحزب القوى سلوبودان ميلوسوفيتش Slobodan Milosevic القومى الثابت على المبدأ فى صربيا بإمكانية الاحتفاظ بوحدة البلد ، إلا أن الكرواتيين والسلافينيين حققوا موقف ميلوسوفيتش الشعبى والمعادى للاصلاح . وفى نفس الوقت ، فان كثيرين من الصرب بما فيهم بعض المفكرين الذين عرف عنهم طويلا معارضتهم للقومية راهنوا على تحول ميلوسوفيتش الى بطل حقيقى ، وهو ما اعتقدوا أنه تهديد على لوجودهم ، إلا أن كثيرين اعتقدوا بأن « سلوبو Slob » — وقد نودى به زعيمنا شعبيا — قد أصلح العديد من الاخطاء التى كانت نكبة على أمته منذ تشكيل يوجوسلافيا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى . وقد عبر البروفسير كوستا ميهائى لوفيك Kosta Mihailovic الاقتصادى وعضو الاكاديمية الصربية للعلوم Serbian Academy of Science فى بلجراد عن المشاعر التى اسماها الكرامة القومية الصربية الجريحة :

((لقد فرضت الهيمنة على صربيا سياسيا واقتصاديا فى يوجوسلافيا . وتم اضطهاد الصرب منذ امد طويل . اننا نقبوا مكانة ذليلة فى يوجوسلافيا . وهذا قد تغير تماما بظهور سلوبودان ميلوسوفيتش)) (٧٥) .

وكان ارتقاء ميلوسوفيتش اشارة الى الخليط الصاعد من القومية والسلطوية والشعبية والمساواة والهجين الايديولوجى ، الذى يبدو أنه يروق لشرائع اجتماعية عريضة تحمل ثقافات ما بعد الشيوعية وبميلاده فى عام ١٩٤١ ، فان النجم الصاعد فى الحياة السياسية الصربية كان شيوعيا نشطا فى جامعة بلجراد ، حيث حصل على درجة القانون فى عام ١٩٦٤ ، وبعد أن عمل فى البيروقراطية الاقتصادية التحق — بعضوية

الحزب الصربي في عام ١٩٨٤ كرئيس لمنظمة بلجراد ، وبعد ثلاث سنوات انتخب رئيسا للمكتب السياسي الشيوعي الصربي وفي مايو ١٩٨٩ أصبح رئيسا لجمهورية صربيا . ان سر شهرته يكمن في استخدامه الماهر للشعارات الشعبية والقومية . ووعد ميلوسفتش هؤلاء الذين عبروا عن تخوفهم من التحول لاقتصاديات السوق بالحفاظ على هيمنة الحكومة على الموارد الاقتصادية ، ووعد الصربيين الذين أصابهم صعود حركة القوميات في الجمهوريات الأخرى بالارتباك بأنه سيدافع عن ما أسماه الكرامة الصربية . وباقتناعه بأنه لا بد أن ينجز مهام مماثلة لجهود تيتو الرائدة من أجل إقامة فيدرالية ، دفع ميلوسفتش بعنف في اتجاه استعادة مكتب رئاسة الجمهورية الدائم ، والذي سوف يستبدل بالنظام القائم نظاما ، يتناوب فيه زعماء الجمهوريات اليوجوسلافية الست رئاسة الجمهورية .

ان الصراع بين بلجراد والجمهوريتين الأكثر تقدما على المستوى الاقتصادي وهما كرواتيا وسلوفنيا ، قد تعمق بسبب جذوره التاريخية والثقافية . ان تحديد ميلوسفتش المؤثر للمصالح الصربية التي تتصافر مع مصالح يوجوسلافيا قد لاقى كل تحقير على يد الحركات المستقلة ، بل والانفصالية التي تتزايد في الجمهوريات الأخرى . اضافة الى ذلك فقد كان هناك مزيد من التدهور في الموقف في منطقة كوسوفو Kosovo وهو ما أثار بحدوث انفجار حيث عاد الصربيون لسيرتهم الأولى لسحق القوميين الألبان الراديكاليين الذين أخذوا في التزايد - وأقيمت دولة يوجوسلافيا ولم يستطع ميراث محاولة تيتو سبر أغوار العداوات القومية وتوحيد البلد على أساس الأيديولوجية الشيوعية ، أن يقاوم صعود المشاعر العرقية . وكما رأينا ، فقد سنقطت الأيديولوجية في كل دول شرق أوروبا الا أن سقوطها المدوي كان أكثر وضوحا في يوجوسلافيا ؛ لأن الماركسية اللينينية بدلا من أن تزيل الصراعات العرقية قامت بقمعها فقط على نحو مؤقت . وبمجرد أن رفع عنها الضغط السياسي ولم تعد اسطورة تيتو تفرض نفسها بالقوة ، فان انهيار يوجوسلافيا بدا وشيكا أو على الأقل ممكنا . ان تكتل الشيوعيين في يوجوسلافيا الذي ضم ستة أحزاب شعبية ، والذي كان متماسكا ذات يوم بفضل وجود تيتو أصبح مجرد مظلة لا فائدة ترجى من ورائها . وبحلول نهاية عام ١٩٨٩ بقي الجيش المؤسسة القومية الوحيدة وكان العنصر الصربي هو السائد فيه (بنسبة ٧٠٪) ، فجعله ميلوسفتش أداة فاعلة لانجاز خطته الخاصة بفرض هيمنته .

ان خطر اتخاذ اجراءات عسكرية صارمة ضد الجمهوريات المركزية ،
اثارت غضبهم وعجلت بظهور التيارات الانفصالية .
رد حلف وارسو على جورباتشوف :

ان انفتاح النظام السياسى السوفيتى على يد جورباتشوف ساهم
فى استقطاب وتفكك الكتلة السوفيتية ، وبدا أن هناك تيارين مختلفين
فى موقفيهما من رياح التغيير التى تهب من موسكو ، فنجد البولنديين
والمجريين اتبعوا - متأثرين بضغوط جورباتشوف عليهم - طريق
الاصلاحات ، بينما اختار زملاؤهم من أعضاء الكتلة أن يقاوموا
الاصلاح . وفى بولندا ورغم أن ياروزلسكى قد اثار فى اعلان القسانون
العسكرى فى ديسمبر ١٩٨١ ، فان الشيوعيين وجدوا ان اصلاحات
جورباتشوف فرصة من أجل تحقيق هدوء داخلى وفرصة من أجل مزيد
من التجريب فى مجال الاقتصاد . وكان الشعار الذى استخدم من قبل
ياروزلسكى وخليفته فى الحزب الشيوعى البولندى متزيسلو راكوسكى
هو « التعددية الاشتراكية » . وتورط الشيوعيون المجرىون
فى نفس الاتجاه تحت قيادة السكرتير العام المحنك جانوس كادار أولا ، ثم
تحت قيادة حليف كادار السابق كارولى جروتز . وفى كلا البلدين ، بزغت
انشقاقات قوية داخل الائتلاف الحاكم ، مما ساهم فى تفتيت الأجساد
الحاكمة التى كانت متماسكة ذات يوم ، واقتفاء لخطى التغييرات التى
تجرى فى اتحاد الجمهوريات السوفيتية حيث أظهر جورباتشوف صبرا
متزايدا نحو النقد الموجه له من القاعدة بل وشجعه ، فان المجتمعات
المدنية فى بولندا والمجر أيضا جددت من انشطتها بمزيد من الشجاعة
والابداع وأجريت الاتصالات بين المصلحين الراديكاليين فى المجر
ومناصريهم فى المعارضة الديمقراطية ، وكمثال فان وزير الدولة
Minister of State وعضو اللجنة المركزية امرى تونرجاى شارك
فى الاجتماع الذى عقد مع ممثلى القوى الديمقراطية عام ١٩٨٧ .
وخطط الاصلاحيون فى عام ١٩٨٨ لبلوغ جانوس قادور قمة الحزب
الشيوعى المجرى . وأنت المنطقة كلها لاحتفها فور أن فقد هذا الرجل
سلطته .

ان الحظر الذى فرضه كادار على أية محاولة لاعادة قراءة التاريخ
قد رفع ، كما انخرط المجتمع فى استكشاف عميق لماضيه . وبينما كانت
بولندا والمجر تجنحان نحو الليبرالية التى اثبتت وتقدمت بسرعة مع
مقاومة قليلة من البيروقراطيات الحاكمة ، فان الموجة الجديدة لمناهضة
الستالينية واجهت مقاومة لا تنضب فى بلدان رومانيا وبلغاريا وجمهورية

المانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا . وعلى مستوى حلف وارسو فان التقدم السريع نحو الديمقراطية في المجر وبولندا وكذلك سياسات جورباتشوف - الجلاسنوست والبروسترويكيا - كانت بمثابة انذار للجماعات الستالينية في الأقطار الأخرى .

وبالنسبة لشوشيسكو جيفكوف وهو نكر ، فان الضغط السوفيتي للثورط في اصلاحات شاملة بلغ درجة الدعوة لتقويض أو اصر سلطتهم . وكل واحد من هؤلاء الحكام الشيوعيين قد ساس بلده بقبضة حديدية لأمد طويل ، وقد وصموا على نحو مشين الانشقاق السياسى والمعارضة بوصمة عار ، كما تخلصوا من كل منافسيهم الذين اعلوا من شأن الخط الاصلاحى .

ان درجة المقاومة للاصلاحات السوفيتية التى تلقى كل تشجيع من القاعدة اختلفت من بلد الى آخر . فنجده أنه كان يسيرا على شوشيسكو بتجربته من أجل الاستقلال عن موسكو أن يعبى جهودا لكسب دعم الحزب من أجل خط سياسى متشدد ، وتأييد العناصر المعادية للسوفيت . وكان التحدى الواضح لموسكو أكثر المشاكل الصعبة التى تواجهها قيادة تشيكوسلوفاكيا برئاسة جوستاف هوساك والسكرتير العام ميلوس جاك ، ورأى الاثنان أن قطع الحبل السرى مع الاتحاد السوفيتى كان مستحيلا عمليا ، اذ كانت أوراق اعتمادهم لدخول حلبة السياسة والبقاء فى السلطة هى دعمهم النشاط للقمع الذى تبع التدخل السوفيتى فى يوجوسلافيا فى أغسطس ١٩٦٨ . وفى بلغاريا ، كانت وظيفة جيفكوف السياسية كلها قد ارتكزت على الخضوع العبودى للأوامر التى تأتى من موسكو ، ولذلك فهو الآن لا يستطيع أن يتحدى المركز . وبالنسبة لزعماء المانيا الشرقية فقد كانوا يعلمون جيدا أن الاتحاد السوفيتى بجيشه ، الأحمر Red Army هو الذى سهّل تواجدهم ووصولهم المبكر للسلطة وبمعارضتهم للاصلاحات الراديكالية كان يمكنهم فقط تأجيل العملية التاريخية الحتمية التى سوف تؤدى الى وحدة الألمانيتين من جديد ، والتخلى عن ما اعتقد كثيرون أنه بناء هش لدولة تدعى جمهورية المانيا الديمقراطية ، هؤلاء الزعماء اللالايبراليون حاولوا أن يلعبوا بالوقت ، فيقدموا الدعم والمعون لجورباتشوف بينما كانوا يأملون فى قرارة انفسهم فى أن تقوم الصقور فى المكتب السياسى السوفيتى بالتخلص عاجلا من السكرتير العام المشاغب ، واستمادة التفسير الأوحّد للاشتراكية والنموذج البرجندى المبني على العسكرية ،

والتوسعية والفساد واللامبالاة الاجتماعية . وعرف جاك ربنك
Jacques Rupnik اتجاهات وآراء القيادات الشيوعية الشرق أوروبية
فى اصلاحات جورباتشوف بأنها :

« وفليفة العلاقات التى يملكونها مع المجتمعات التى تستحق
الاحترام ، ودرجة القبول أو الفنون التى ترتبط مع الأولوية التى اعطوها
سواء للسيطرة الاجتماعية أو للبحث التكتيكي عن اجماع رأى فى
المجتمع » (٧٦) .

هوامش الفصل السادس :

- Thomas W. Simons, Jr., *The End of the Cold War ?* (New York : St. Martin's Press, 1990), pp. 150-51. (١)
- Sovetskaya Kultura*, April 9, 1988. (٢)
- Zbigniew Brezezinski, *The Grand Failure : The Birth and Death of Communism in the Twentieth Century* (New York : Charles Scribner's Sons, 1989), p. 48. (٣)
- Adam Michnik, "The Great Counter-Reformer," *Labour Focus on Eastern Europe*, 9, no. 2, (London, July-October 1987) : 23. (٤)
- Ibid.* (٥)
- Ibid.* (٦)
- Brezzezinski, *Grand Failure*, p. 64. (٧)
- Seweryn Bialer, *The Soviet Paradox : External Expansion, Internal Decline* (New York : Knopf, 1986), p. 200. (٨)
- Baruch Hazan, *Gorbachev's Gumble : The 19th All-Union Party Conference* (Boulder, Colo : Westview, 1989), p. 156. (٩)
- "Gorbachev's View of Changing World," *Philadelphia* December, 11, 1988. (١٠)
- "Russia's Surly Empire", *The Economist* (London) November 26, 1988, p. 13. (١١)
- "The Soviet Perspective," *Problems of Communism*, May-August 1988, p. 62. (١٢)
- Ibid.*, p. 63. (١٣)
- Pravda*, July 7, 1989. (١٤)
- Henry Kamm, "Gorbachev Said to Reject Soviet Right to Right to Intervene", *New York Times*, April 2, 1989. (١٥)
- Vladimir F. Kuzin, "Mikhail Gorbachev's Evolving Attitude to Eastern Europe," *Radio Free Europe Research*, RAD Background Report 128 (Eastern Europe), July 20, 1989, p. 4. (١٦)
- Nina Andreyeva, "I Cannot Waive Principles," *Sovetskaya Rossiya*, March 13, 1988, translated in FBIS — Soviet Union,March 16, 1988, p. 51. (١٧)
- New York Times*, October 24, 1989. (١٨)
- Reuters*, October 16, 1989. (١٩)
- Charles Gati, *The Block That Failed : Soviet-East European Retaliation in Transition* (Bloomington and Indianapolis : University Press, 1990), p. 167. (٢٠)
- Radio Free Europe, Daily Report*, May 8, 1989. (٢١)
- Gati, *The Bloc That Failed*, p. 168. (٢٢)

- Timothy Garton Ash, *The Uses of Adversity : Essays on the Fate of Central Europe* (New York : Random House, 1989), pp. 321-22. (22)
- Kharen Dawisha, *Eastern Europe, Gorbachev and Reform* : (24)
The Great Challenge (Cambridge and New York : Cambridge University, 1990), p. 296.
- Mihaly Vajda, "The Collapse of Socialism : A Theoretical Explanation," *East European Reporter*, 4, no. 3 (Autumn-Winter 1990) : 51. (25)
- Ibid.* (26)
- "The Social Contract : Prerequisites for Resolving the Political Crisis" special issue of samizdat journal *Beszélő*, June 10, 1987 (English translation), p. 2, *Beszélő* was run by an editorial staff that included some of the most famous names of the Hungarian Democratic Opposition : Miklos Haraszti, Janos Kis, Ferenc Koszeg, György Petri and Sandor Szilagyi. (27)
- Ibid.*, pp. 7-8. (28)
- "Pozsgay Interviewed by Radio Free Europe 24 May", *Magyar Nemzet* (Budapest) May 29, 1989, translated in FBIS — Eastern Europe, June 7, 1989, p. 26. (29)
- Dawisha, *Eastern Europe, Gorbachev and Reform*, p. 179. (30)
- "The Struggle for Political Pluralism : The First Congress of the Association of Young Democrats," *East European Reporter*, 3, no. 4 (Spring-Summer 1989) : 17-18. (31)
- "Democracy Within the Warsaw Pact : An Interview with Ferenc Koszeg," *EER*, 3 : 12-14. (32)
- Vladimir Tismaneanu, "From Prague Spring to Moscow's 'Glasnost'," *Philadelphia Inquirer*, February 17, 1988. (33)
- Interview with Alexander Dubcek, former General Secretary of the Czechoslovak Communist Party, broadcast by Hungarian television on April 26, 1989, in FBIS — Eastern Europe, April 28 1989, p. 23, and Vladimir V. Kusin, "Hungarian Television Interviews Alexander Dubcek," *Radio Free Europe Research*, Czechoslovak SR/10, May 5, 1989, pp. 9-15. (34)
- Karel Horak, "In the Role of the 'Savior' of Socialism : Annotations on Some of A. Dubcek's Statements to Foreign Information Media," *Rude pravo*, March 29, 1989, translated in FBIS Eastern Europe, March 31, 1989, p. 21. (35)
- Patricia Clough, "Unreal Country Where Reform Depends on moves Honecker and His Protégé Takes His Place", in Bernard Gwertzman and Michael T. Kaufman, eds., *The Collapse of Communism : By the Correspondents of the New York Times* (New York : Random House, 1990), p. 159. (36)
- Patricia Clough, "Unreal Country Where Reform Depends on the Grim Reaper," *The Independent* (London), August 22, 1989 (37)
- Barbara Donovan, "Reform and the Existence of the GDR," *EER*, RAD Background Report 158 (GDR), August 25, 1989, p. 2. (38)

- Barbara Donovan, "The SED Becoming More Outspoken on Reform," REER, RAD Background Report/6 (GDR), January 12, 1989. (19)
- Pamela Shemid, "East Germany and the Marxist Malaise," U.S. News World Report, November 14, 1988, pp. 40-41. (20)
- "Hager Delivers Address at Historians Meetin," Neues Deutschland (East Berlin), April 8-9, 1989, translated in FBIS -- Eastern Europe, April 11, 1989, pp. 30-32. (21)
- "Margot Honecker : 'Defend Socialism With Weapons'," Neues Deutschland, June 14, 1989, translated in FBIS -- Eastern Europe, June 20, 1989, pp. 41-42. (22)
- Josef Joffe, "Who's Egon Krenz ? He's No Gorbachev", New York Times, October 19, 1989 (op-ed page). (23)
- 'Serge Schmemmann, "The Border Is Open -- Joyous East Germans Pour Through Wall -- Party Pledges Freedoms and City Exults," in Gwertzman and Kaufman, Collapse of Communism, pp. 175-80. (24)
- Barbara Donovan, "The Tenth SED CC Plenum : Moving Toward Reform," REER, RAD Background Report (GDR), November 20, 1989, pp. 6-9. (25)
- David Binder, "Reports of Corruption in East Berlin Shock Even the Party Rank and File", New York Times, November 25, 1989. (26)
- Craig R. Whitney, "East German Communists Confront Party's Collapse," New York Times, December 17, 1989. (27)
- Barbara Donovan, "The Extraordinary SED Congress : A New Bginning or the Begining of the End ?" REF, Report on Eastern Europe, January 19, 1990, pp. 5-8. (28)
- R. W. Apple, "Prague Opposition Mounts Huge Protest, Denouncing New Leaderdhip as 'a Trick,'" in Gwertzman and Kaufman, Collapse of Communism, p. 238. (29)
- "What We Want : The Programme Principles Issued by the Czechoslovak Civic Forum," East European Reporter, 4, no. 1 (Winter 1989-90) : 50-51. (30)
- "Czechoslovak President Vaclav Havel' New Year's Day Address," East European Reporter, 4, no.. (Winter 1989-90) : 56. (31)
- Ibid., p. 57. (32)
- Czesław Miłosz, The Captive Mind (New York : Vintage, 1981), p. 45. (33)
- "Havel's New Year's Day Address," p. 58. (34)
- Stephen Ashley, "Can Todor Zhivkov Survive as Bulgaria's Leader " REER, Bulgarian SR/6, July 14, 1988, p. 4. (35)

- Clyde Haberman, "Bulgarian Change Barley Plods Along," (51)
New York Times, October 7, 1989.
- Clyde Haberman, "Bulgarian Chief Quit After 35 Years of (57)
Rigid Rule," *New York Times*, November 11, 1989.
- Clyde Haberman, "Communists in Bulgarian Expel (58)
Zhivkov," *New York Times*, December 14, 1989.
- "Report on 'Deformations' of the Zhivkov Era," *Rabotni-* (59)
chesko Delo (Sofia), January 16, 1990, translated in FBIS —
Eastern Europe, January 1990, pp. 11-13.
- For biographical sketches on Bulgaria's new (and not so (60)
new) political personalities, see Pavlina Poppisakova, "Who's
Who in Bulgarian Politic." *East European Reporter* 4, no. 3 (Au-
tumn — Winter 1990) : 32-33.
- Chuck Sudetic, "Bulgaria's Ex-Dictator Refuses to Face (61)
Parliament," *New York Times*, July 31, 1990..
- For an analysis of political decay in Romania during the (62)
1980s, see Vladimir Tismaneanu, "Personal Power and Political
Crisis in Romania," *Government and Opposition* (London), 24, no.
2 (Spring 1989) : 179-98.
- J. F. Brown, *Eastern Europe and Communist Rule* (Dur- (63)
ham, NC. : Duke University Press, 1988), p. 276.
- Michael Shafir, "Xenophobic Communism : The Case of (64)
Bulgaria and Romania" REER, RAD Background Report/112
(Eastern Europe), June 27, 1989, p. 3.
- "Letter to President Nicolae Ceausescu" and Vladimir Tism- (65)
maneanu, "The Rebellion of the Old Guard", both in *East European
Reporter*, 3, no. (Spring-Summer 1989) : 23-24.
- Mircea Dinescu, "Where Policemen Outnumber the Pigeons." (66)
Uncaptive Minds (New York), II, no. 3 (May-July 1989) : 34.
- Michael Shafir, "Eastern Europe's 'Rejectionists'," REER, (67)
RAD Background Report/121 (Eastern Europe), July 3, 1989, p. 2.
- "Building a New Social System with the People and For the (68)
People," *Scinteia*, October 18, 1989, translated in FBIS, Eastern
Europe, October 27, 1989, p. 69.
- Alan Riding, "In Romania, the Old Order Won't Budge," (69)
New York Time, November 25, 1989.
- Kevin Devillin, "Ceausescu's Isolated Internationalism", (70)
REER, RAD Background Report/212 (Romania), December 1,
1, 1989.
- Thomas P. Barnett, "Romania Domino Stays Upright," (71)
Christian Science Monitor, December 11, 1989.

"Speech by President Nicolae Ceausescu on Romanian
Radio and Television Stations in Bucharest on 20 December," FBIS
Daily Report : East Europe (FBIS - EEU), December 21, 1989,
p. 66.

For a detailed analysis of the collapse of Romanian com- (Vr)
munism, see Matei Calinescu and Vladimir Tismaneanu, "The
1989 Revolution and Romania's Future," *Problems of Communism*,
January-April 1991, pp. 42-59.

Trond Gilberg, "Romania : Will History Repeat Itself ?" (Vt)
Current History (Philadelphia), December 1990, p. 432.

Henry Kamm, "Yugoslavs Astir over Serbian Rise," *New* (V*)
York Times, August 6, 1989. For Milosevic's career and ideological
preferences, see Paul Yankovitch, "Slobodan Milosevic : l'homme
fort de la Serbie," *Le Monde* (Paris), October 18, 1988.

Jacques Rupnik, "Perestroika and the Empire", *European* (Vv)
Journal of International Affairs, 1, no 1 (1988) : 117.

الفصل السابع

محاضرات الديمقراطية :

« اننا يمكن أن نتحول الى حيوانات واذا اردنا أن نظل
آدميين فهناك اذن طريق واحد ، طريق المجتمع
المفتوح » *

كارل ر • بوبر •

Karl R. Popper

- « اننى ادعو الله كى لا نتحول من مساجين الى سجانين »
- آدم متشكك

ان ثورات عام ١٩٨٩ وانهيار الأحزاب الشيوعية هو ما يكشف
مدى ضعف المؤسسات الحاكمة فى أوروبا الشرقية • وحقيقة ،
فان انهيار هذه الأنظمة البيروقراطية المؤسساتية بدا بينا قبل وتو
هذه الثورات بزمن • ان الاطالة فى عمر الانظمة الشيوعية يعتمد على
استخدام القوة وتوقع التهديد الأجنبى الذى سيقضى على أية محاولة
للتخلص من النظام القائم • ان ذكرى عام ١٩٥٩ ببودابست وعام
١٩٦٨ ببراغ استخدمت كأداة فعالة فى يد هؤلاء الذين يرون ان الحاجة
اصبحت ملحة لاجراء اصلاحات • وفيما بعد ولأن الضغط السوفيتى
قد خفف من وطأته ولأن الأحلاف المحلية وجدت نفسها محرومة من الدعم
الأجنبى ، فان الموجة الجديدة من التجريب الثورى أمكنها أن تلم شمل
القوى المعارضة •

وفى عامى ١٩٨٨ ، ١٩٨٩ بدا أن المستحيل يتحقق • وبسرعة
مذهلة تم التخلص من كل المحاذير السابقة ، وبدأت المعارضة ولأول
مرة فى الاجتياز الراديكالى لبنية السلطة التى وجدت منذ وجود مبدأ
التبعية فى أوروبا الشرقية فى الفترة التى توطدت الحرب العالمية الثانية.
ولم يبلغ أى حاجز درجة من الصلابة تمكنه من مقاومة الاضطراب
الثورى المساعد • وارترك السلاويون واصبحوا عاجزين عن اتخاذ
الاجراءات فى مواجهة التحديات الجديدة • وقد انتاب الجميع من هونكر
حتى شارل شيسكو ومن جينكوف حتى جاك حالة من الذعر شديدة

وكانت الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن يلجأوا إليها لقمع الاجتياح الشعبى والقبض على زعمائه هى العنف . الا أن ذلك التكتيك كان نقيضا لما أرادته موسكو . ان الوجه الباسم للاشتراكية التى حاول جورباتشوف وفريقه أن يظهره فى العلاقات الدولية ، كان يعنى شجب أية طرق قمعية تقليدية . وأصبح شعار اليوم الاقناع وليس الاجبار .

ومبدئيا ، فإن المشاعر التى عمت أرجاء البلدان الشيوعية السابقة والتى كانت معادية للتوتاليتارية - وتهدف للتخلص من المؤسسات والبنى الشيوعية - حدثت بسرعة مذهلة لم تكن فى الحسبان . ان المناخ كان حمى من النشاط خاصة ؛ لأن التغيرات الثورية التى وقعت فى هذه البلدان - باستثناء رومانيا - كانت بيضاء بعيدة عن العنف . ولقد بلغت الآمال عذان السماء وبدأ أن ميلاد المؤسسات الديمقراطية بما فى ذلك البرلمانات والاحزاب السياسية سوف يتم دون معوقات ، وغالبا بتلقائية الا أن ذلك كان وهما شجعه سرعة أحداث ١٩٨٩ ، وأحد الأخيلة الرئيسية التى شاعت هو أن الشيوعية سوف يتبعها بالضرورة أشكال ديمقراطية من الأنظمة السياسية والاجتماعية .

وبسبب الوله المتفشى بالأيديولوجية اللينينية وممارساتها التى أخذ بها السياسيون فى المنطقة ، وكذلك العديد من المحللين الأجانب كمسلمة ، وبسبب ما تعرضت له هذه البلدان من مأس تحت النظام الديكتاتورى ، حاصرت هذه الأمم الاغراءات السلطوية الجديدة . ولكن ، وكما رأيت كينث جويت ، فإن هذا الاعتقاد كان يكمن وراءه أمل كبير . وقد تركت اللينينية بصمتها على النفسية الجماعية ، تاركة وراءها شكلا من أشكال السلوكيات ستظل تؤثر على المناخ الشعبى . ان ما خلفه « النظام القديم » ، كان العقبة الوحيدة التى جابهتها المجتمعات التى جاءت بعد الحكم الشيوعى . ان الفصل بين المصالح العامة والخاصة ، وهو ما يميز الديمقراطية الاجرائية ، كان شيئا يفتقر اليه » ان ارث اللينينية قد فهم على أنه تأثير التنظيمات الحزبية والممارسة اما روح الشعب فهى المعارضة التى تم حظرها . ومن مصلحة اللينينية ان تسود طريقة للحياة أقرب إلى السلطوية منها للرأسمالية الليبرالية، ومن مصالحها ان تضع العقبات التى تعرقل التحول لاقتصاد السوق وتعرقل اجراء حملات انتخابية وتهدف لتحويل القوى الجماهيرية لقوى مؤسسية » (١) .

ان الشيوعية لم تحكم تلك البلدان بطريقة منهجية معتدلة . ووضع البوليس السرى فى تلك البلدان جميعا الجماهير تحت رقابة

محكمة وكم أفواه المفكرين ، وتلقن الطلاب مبادئ الشيوعية واستغل العمال وجعلهم يعملون ساعات إضافية دون مقابل . ان هذه المجتمعات جميعا قد رضخت للفساد والاحباط الثقافى ، والفساد السياسى والأهم من ذلك كله أنها افتقرت بشدة للاحساس بالتضامن الاجتماعى . ان الشك والمنهج القسرى من أجل التكتل والدمج ، جعل الشيوعية تسرف فى تحطيم كل المؤسسات الوسيطة والجمعيات التى كانت يمكن أن تصبح دعائم للمجتمع المدنى . وبذلك تكون رؤية تومثى كارتون شيئا يلفت الانتباه :

« بداية ، يجب أن ندرك أن ما خلفته الشيوعية هو الحطام والتجزئ وتضارب المصالح وتنافر الاتجاهات ووجهات النظر والأفكار والعادات » (٢) .

خذ مثال تشيكوسلوفاكيا ، حيث تم الكشف عن تورط عشرة من أعضاء البرلمان فى علاقات مع البوليس السرى وكان ذلك فى ديسمبر ١٩٥١ ، ولم تكن القضية هى جريمتهم الشخصية ولكن القضية هى غياب الاطار الاجرائى للتعامل مع تلك التهم بطريقة موضوعية . وفى كل تلك البلدان أدى التجريم وتصفية الحسابات الى التشويش على التحليل العميق للأسباب الحقيقية التى أدت الى الكارثة الشيوعية . ان الممارسات السياسية المجنونة غالبا ما تتصارع مع البحث المستمر عن اعادة البناء الديمقراطى . ان الخاسر الاول فى انهيار ١٩٨٩ هم الشيوعيون الذين وجدوا متعتهم الخاصة فى تسميم المناخ العام والتورط فى ديماجوجية اجتماعية .

ان زوال الأنظمة الشيوعية لا يعنى انهيارا فوريا للثقافات السياسية الشيوعية — أى كل العادات وكل العقليات ، وكل الاتجاهات ، وكل الرموز ، وكل القيم وكل المبادئ التى هيمنت على الحياة الاجتماعية لمعقود طويلة .

ان المشاكل الأساسية التى تواجه الاحلاف الجديدة فى أوروبا الشرقية ، يمكن أن توضع فى شكل سلسلة لا تنتهى من الأسئلة التى تبدأ بكلمة « كيف » . كيف تقيم دولة ديمقراطية فى غياب ثقافة متسامحة تسودها التمايزات ؟ وكيف تستطيع توحيد الاتجاهات المتصارعة دون العودة الى الطرق السلطوية فى الهيمنة والاجبار ؟ كيف ترسخ شفورا عاما بالمسئولية وتتجاوز الانانية دون اثاره التعصب نحو مصالح معينة تضر بالصالح العام ؟ كيف تستبدل احتكار الدولة الشامل للقدرة الشعب بشكل مختلف من التنظيم والذى يمكن فيه

استبدال المنطق الشمولى الليبنية ببحث عام عن التسوية ؟ كيف يمكن تحويل المبادئ المدنية التى طال سباتها ، بل التى لم توجد أصلا الى طاقات اجتماعية قادرة على الإسهام فى الحد من الاستبدادية ولكن دون أن تصبح مصدراً دائماً للقتال والهيمنة والاذلال ؟ وبمعنى آخر ، كيف تحمى حقوق الاقليات التى تهددها الاتجاهات العرقية السائدة داخل الأغلبية فى تلك البلدان ؟

ان المأساة الشرق أوروبية فجسرتها الآمال الخيالية الخاصة باتباع القيم الغربية . والاعتقاد بأن نهاية احتكار الأحزاب الشيوعية للسلطة ستؤدى حتما الى نهاية الشيوعية وميلاد الديمقراطية أسهم فى وجود هوة متزايدة وعلى نحو مستمر بين الآمال الصاعدة للجماهير وثيود النظام القائم . وفى الحقيقة ، أن ما حدث فى ذلك البلد أشار الى أن بناء الأنظمة الديمقراطية الحقيقية ، كان مستحيلا على المستوى الاجتماعى بعد هذه السنوات الطويلة من الدكتاتورية ، ولكنه يشير أكثر الى إعادة البناء التدريجى للساحة السياسية . وبعد عقود طويلة حيث كانت السياسات تعتبر نوعاً من الديماغوجية والازدواجية وكرأ يشغله الانتهازيون ، تحولت النظرة فأصبحت تعد مجالا يمارس فيه ومن خلاله الفرد حقوقه المدنية .

وصعدت حركات سياسية جديدة بالاضافة الى جماعات المعارضة السابقة التى تحدثت فيما مضى الحكومات الشيوعية . وبعد سنوات واحباط السنوات السابقة وعندما بدا أن التاريخ قد أتى لنهايته فى هذا الجزء من العالم ، عم احساس عارم من الجذل والفرحة والأمل . وفى الشهور الأولى من عام ١٩٩٠ كانت تسيطر على الجماهير الحماسة والأحلام الرومانسية بتضامن قومى . وصعدت السياسات الجديدة كمحاولة لاستعادة التقاليد التاريخية ، الا ان النظام السياسى الوليد كان لابد أن يكون تكاثراً للأنظمة السابقة على الشيوعية . وفى كل هذه البلدان كان الاتجاه العام هو الحمى التى أصابت الجميع لاتباع النماذج الغربية من أجل انتقال عاجل وسريع للديمقراطية .

وبالنسبة للعديد من الناس بدا أن الانتقال الفطرى للديمقراطية مع اقتصاد سوق ، سيكون دواء لكل داء ولكل علة سببها التخطيط المركزى . لقد كان هناك نوع من الوله لانتهاج سياسة السوق الحرة . ولأن الخصخصة انبثقت فان البطالة تفشت بين الملايين مما ينبىء بظهور الحركات الديماغوجية مرة أخرى تجزل وعودها ، بأن يحصل كل فرد على فرصة عمل بأمل كسب السلطة السياسية . ومن ثم فانه

لشيء ملح وضروري بالنسبة لهذه البلدان أن تحدد الضمانات الدستورية والثقافية التي ستزيل خطر السقوط في مستنقع من السلطوية يختلف عن ذلك اللينيني ، وذلك لمجرد أنه لا يتوحد مع الأسطورة الأيديولوجية الماركسية • وبمعنى آخر ، فإن هذه الأمم يجب أن تبني مجتمعاتها المدنية من أجل اجتناب أي انزلاق مفاجئ يسببه الانتقال من طغيان الفرد إلى طغيان الجماعة • وفي كلمات رالف دارندوف يقول :

ان شعار « نحن الشعب » شعار جميل ولكنه كمبدأ دستوري يهد صورة تعكس بدقة الوضع الذي تم التخلّص منه أخيراً • وإذا استقبلت احتكار الحزب تماما بانتصار مطلق للجماهير ، فالجميع سوف يخسر قريبا ، إذ ان الجماهير ليس لديها بنية ولا استمرارية • والسؤال الأساسي هو كيف تمسك الهوية بين الدولة والشعب بالأنشطة التي تخلّق - باستقلاليتها - مصادر اجتماعية للسلطة • وقبل أن يتم ذلك ، فإن دستور الحرية وقوانين اقتصاد السوق والدستور الاجتماعي أو ما شابه سوف تظل مجرد شعارات » (٣) •

ان بلدانا ليس لهما تجارب ديمقراطية طويلة وعميقة ، يكثر فيها احتمال التلاعب بالجماهير السذج وبهؤلاء الذين أصابتهم الحيرة : بسبب المفامرات الشائكة والانتهازيين الذين يستغلون لهفة الجماهير واحباطاتهم للاستيلاء على السلطة • ان الشيوعية تموت في أوروبا الشرقية ولكن ما خلفته من رغبة في الحصول على المكافأة الفورية والتعويض جعل المناخ مواتيا لنمو حركات سياسية غامضة تستغل مشاعر الأمان ، ومثال على ذلك الأغلبية الساحقة التي فازت بها جبهة الخلاص الخلاص القومي برومانيا في انتخابات مايو ١٩٩٠ • لقد فازت جبهة الخلاص بعد أن وعدت الجماهير بتجنب الصدمة المؤلمة التي سببها الانتقال لاقتصاد السوق ، وفازت لقدرة رجلها الأول أون اليشيسكو • ومثال آخر على ذلك هو النغمة التوفيقية الشعبية التي استخدمها سلوبودان ميلوسفتش في يوجوسلافيا في ممارسته السياسية والتي فاقت ممارسات أحد أكثر معارضيه القوميين وهو فيوك دراسكوفيتش Vuk Draskovic زعيم حركة البعث الصربي Movement for Serbian Renewal الراديكالية • وقد استخدم دراسكوفيتش مثل هذه القوالب والعبارات التالية مشيراً إلى الكروات :

« ان معظم الكرواتيين يكونون كرها لا معقولا للصربيين • ان الشعور الوحيد الذي يكنه الكروات هو الكره » (٤) •

ويمكن لمثل هذه الحركات أن تكسب غالبية مؤقتة في البرلمانات الجديدة ويمكن أن تفرض وجهات نظرها المتعصبة على أقلية الدولة المنقوقة . ولفهم طبيعة هذه الرؤى المتعصبة التي سببتها القفزة المفاجئة للتعديدية دون وجود أساس دستوري من أجل عملية ديمقراطية منظمة ، فلا بد للمرء أن يعود لتحليل الكسبس دى توكفيل Alexis de Tocqueville عن استبداد الأغلبية وحق الفرد في مقاومته :

« عندما أرفض أن أطيع قانونا غير عادل ، فأننى لا أعترض على حق الأغلبية فى القيادة ولكننى ببساطة لأحبذ أن تسبق سيادة الشعب، سيادة الانسانية » (٥) .

والخطورة فى أن التكوينات السياسية الجديدة التى قامت على انقاض الشيوعية ، لن تكون قادرة على استخدام السلطة بطريقة معقولة وحكيمة كما لا يجب المغالاة أو التقليل من أهميتها . وعلى أية حال ، سيبطل الخطر الحقيقى هو انه لكى تضمن النجاح الانتخابى فان العديد من الجماعات الجديدة بأدائها الأيديولوجى سوف ترضى الجماهير وتصبح جزءا من الفانتازيا الشعبية .

ان ذلك هو الشئ الوحيد الذى يضمن ازالة البروقراطيات الشيوعية واقامة مجتمع يتوقف فيه الأفراد عن الشك فى بعضهم البعض . ان تجديد السياسات واكتشاف ساحة شعبية كمكان تفاعل فيه القيم السياسية الجديدة وتثبت فيه جماعات مختلفة نشطة ، هما اشارتان على انفتاح الساحة الشعبية . ان الديمقراطية – على أية حال – بثقافتها اللا ذاتية الاجرائية كان من الطبيعى أن تقام على أساس مازال هشا تطاردها اشباح الماضى .

وكما كتب كارل ماركس فى كتابه الثامن عشر من برومر – لويس بونابرت :

« ان عادات الأجيال الفائتة جميعها قزن وزن الكايوس على عقول الأحياء » (٦) .

ولأن الماضى كان قد أرجىء مؤقتا ، فانه الآن يعود بكل عقده وافكاره المتضاربة التى خلقت دراما التاريخ الشرق أوروبى ، التى استمرت لقرون قبل وصول الشيوعية .

ورغم الهرطقة الدائمة فى أوروبا الشرقية والتى تضمنت الآن أسسا أيديولوجية ، فان الأحزاب الجديدة قامت على أساس العلاقات

الشخصية وشاركت في التجربة . ان الأحلاف السياسية الجديدة تكونت من جماعات مختلفة ، شاركت في أنشطة مشابهة وتربطهم داخليا علاقات شخصية قوية قديمة . انها مسائل ايديولوجية الا أنها ترتكن الى مشاعر شخصية . ان فهم الاتهامات والتجريم للذين تما في المجر وبولندا الحاليين يتطلب ان يكون المرء ملما بتاريخ المعارضة الديمقراطية ولجنة الدفاع عن حقوق العمال . وان كثيرين من ممثلي الشعب والوزراء الحاليين كانوا متورطين يوما ما في الأعمال السرية لحقبة الانشقاق البطولى . وآخرون كانوا شهوداً على ما جرى ورغم أنهم لم يتخلوا عن السلطة الشيوعية الا أنهم شاركوا بشكل غير مباشر في الفعلية السياسية المضادة للشيوعية . وبالنظر الى الموقف السياسى المجرى والبولندى فقد سجل تيموثى كارتون مشاهداته قائلا :

« فى السياسات القائمة توجد طبقة من السياسة تشكلت فى عام ٤٨ وأخرى ٥٦ ، وأخرى ٦٨ ، وطبقة عام ٨٠ وأخيرا عام ٨٩ (وهى أكبرها جميعا) وفيما بينها ، وبداخل كل واحدة منها يوجد تاريخ شخصى معقد من الصداقات والعداوات . ولا يمكن أن فهم الروابط والتريبات الشخصية التى تحدث اليوم ، ان لم تعرف ماذا فعل كل واحد منهم خلال الأربعين عاما الماضية . ان [ال] طريق الجدى الوحيد للفهم الحقيقى هو البحث عن سيرة ذاتية تاريخية مفصلة لكل هؤلاء الذين يحكمون » .

ان طبيعة الانتقال الايديولوجى لتلك العلاقات والروابط لهى شئ مذهل اذا اعتبرنا المحافظ الثقافى والسياسى مثل جاسبار ميكلوس تامس Gaspard Miklos Tamas أحد زعماء ائتلاف الديمقراطيين الأحرار فى المجر وهو تشكيل له مبادئ ليبرالية تماما .

وقد كان تامس ، على أية حال ، مصدر قوة للمعارضة العلنية وصديقا مقربا لمدائرة بتزىلو Beszelö التى يرأسها الرئيس الحالى للديمقراطيين الأحرار وهو يانوس كس . وفى نفس الوقت فان جيورجى بنس György Bence الفيلسوف الذى وقف فى الماضى مع كسى وكان عضوا شابا فى مدرسة لوكاسس Lukaces للنقد الماركسى هو الآن مستشار غير رسمى ولكنه مقرب لاتحاد الديمقراطيين الشباب Fidesz . ويمكن أن نرى دورا مشابها للعلاقات الشخصية فى الحياة السياسية البولندية حيث أخذ حلف مفكرى وارسو وكراكاو Krakow جانب تاديوتس ميزوفيسكى ، ضد ليخ قاونسكا خلال الانتخابات الرئاسية التى تمت فى ديسمبر ١٩٩٠ . واذا لم يلتفت المرء

الى « ما وراء » تلك العلاقات فلن يستطيع فهم - الا بصعوبة جملة -
مرارا التهم ومدى عمق ما يبسود أحيانا على أنه يشبه صراعا
ضاريا (٨) .

وفى معظم هذه البلدان كانت أهم القضايا التى تشغل الرأى العام هو
مصير الأحزاب الشيوعية السابقة . وفى رومانيا - على سبيل المثال - فإن
الحزب الشيوعى الذى ذكر بدا وكأنه تلاشى دون أن يترك أثرا بعد الصعود
التلقائى المعادى للشيوعية فى ديسمبر ١٩٨٩ . ولكن هل كان ذلك
تلاشيا أم تصحيحا لموجهات النظر ؟ هل يمكن للمرء أن يصدق حقا أن
الحركة السياسية التى ضمت أربعة ملايين عضو قبل ثورة ديسمبر
١٩٨٩ ، قد تركت الساحة التاريخية كأن لم تكن ؟ وبالنسبة لكثيرين ،
فإن جهد الانقاذ الوطنى وهو التشكيل الذى وصل الى السلطنة بعد
الفراغ الذى تركه فرار شوشيسكو الى بوخارست كان ببساطة مجرد
اعادة تجميل لصورة الحزب الشيوعى القديم . وفيما بعد وفى ديسمبر
١٩٩٠ أعلنت مجموعة من الزعماء السابقين للحزب الشيوعى الذى
تلاشى ، عودة الحزب تحت اسم حزب العمال الاشتراكى Socialist
Labor Party (٩) . وبمعنى آخر ، فإن المعتدات والأفكار التى
حملها النظام الجديد لن تموت - حتى فى المؤسسات المجتمعية المعادية
للشيوعية بين عشية وضحاها .

وفى خضم الشعارات المتضاربة القادمة من أوروبا الشرقية
يستطيع المرء أن يميز عددا من السمات الشائعة التى لها دلالة ،
والتي تفسر التصاعد العجيب للأحداث الذى أتى على الأنظمة الشيوعية
الفاسدة ومنها أن تعطش ثورة ١٩٨٩ كان مضادا للشيوعية ومضادا
للسلطوية ومضادا للأيدولوجية . لقد كان ذلك تحديدا بسبب تلك الثورات
التي رفضت التسييس الشيوعى للمناخ الشعبى ، حيث ظل معظم الزعماء
الجدد لديهم اتجاه ادعائى نحو تشكيل الأحزاب السياسية فى الفترة التى
توسطت انتصارهم . أن التوتر بين المفاوضين المؤسستيين والفهم
الأخلاقي يفسر التردد الذى انتاب ليس فيلاتسلاف هافيل والمنبر المدنى
فقط ، ولكن أيضا المناضلين المجريين أيضا فيما يتعلق بتعزيز جهودهم
الرامية لتشكيل أحزاب سياسية .

وحقيقة ، لقد استغرق الأمر سنوات كى يكون الأعضاء السابقون
للمعارضة المجرية المنشورة شبكة من المبادرات الحرة Network of Free
Initiatives ، ثم اتحاد الديمقراطيين الأحرار وهو الحزب السياسى
الأصيل برموزه وتنظيماته ومنظماته بما فى ذلك التنظيم الشبابى . وفى

الماضى بررت المعارضة انشطتها على انها تستند للرؤية العالمية للحقوق الانسانية والمدنية . ولقد كان معظم زعمائها مفكرين بارزين قرروا ان يعيشوا الحقيقة غير مباليين بالثمن الذى كان لا بد ان يدفعوه من أجل هذا الشكل الشرق أوروبى من العصيان المدنى .. ومنذ أن تجاوزت حقوق الانسان الحواجز القومية والاجتماعية ، اكتشف هؤلاء المناضلون أن تحت سطح البنيان التوتاليتارى المتجمد تكمن مشاعر قديمة (وقبيحة) وعداوات تتفاعل معا وأوشكت على الانفجار بمجرد أن يخف الضغط السياسى عليها . ان الشيوعية لم تحل أبدا أيا من مشاكل المنطقة التى تتعلق بالمظالم الاجتماعية والقومية ، بل على العكس فانها لم توليها الا كل تجاهل ، وازدادت سوءا بسبب التلاعب بها ، كما فى حالة التمثيل الشعبى الشوفينى الذى مارسه الزعماء الشيوعيون البلغساريون والصربيون والرومانيون .

ان الانقسام عن الماضى كان يتم باستخدام برامج ومقولات وشعارات الحركات الجديدة التى تؤكد على الحاجة الملحة لاستعادة أخلاقيات الحياة العامة - لقد كان من المهم أن يشار الى الخيال الأيديولوجى الذى استخدمه الشيوعيون لتبرير استخدام قبضتهم الحديدية على المجتمع ، كما كان ضروريا خلق بيئة اجتماعية يتخلص فيها الفرد من الاحساس بأنه مهدد ومذلول من جانب الأجهزة القمعية المتسلطة . ان مراقبة ومساءلة الموظفين لا بد أن تتخلى عنها المؤسسات الجديدة التى سوف تضمن التدفق السريع للتغيرات . ان طبيعة وآليات الانتقال الى سياسات حقيقية قد كرسها نضج جماعات المعارضة المحلية وقدرتها على طرح استراتيجيات بديلة ، يمكن العمل بها من أجل شفاء اقتصادى واجتماعى . وفى كل تلك البلدان ، فان القضايا التى تتعلق بالعدل السياسى وارهاب الناس والتى تسببت فى كوارث الماضى ومحنه ، كانت لها الصدارة لتحقيق الشفاء القومى وتطهير الحياة العامة ، لقد وجب التخلص من أشباح الماضى كما وجب على السلطات الجديدة أن تستجيب للمطالب الشعبية الخاصة بالعدل السياسى ، دون استسلام للدعوى التى تطالب بالانتقام الدموى والتصاص الذى قد يفجر الغضب الشعبى ، مما يؤدى الى نصب المشائق لهؤلاء الحزبيين وكوادر البوليس السياسى والمصلحين . ان المعاملة التى لاقاها الزعماء الساسيون وادواتهم التى ساعدت فى بقاء أكثر النظم اللانسانية ، كانت واحدة من أكثر المشكلات المعقدة التى تسببت فى احداث القلاقل للأنظمة الثورية . وكان من المستحيل تقريبا أن نجد معيارا لفصل هؤلاء الذين كانوا ذوى

مخالب ضعيفة عن هؤلاء الذين وجدوا متعة خاصة فى اضطهاد المفكرين.
النقاد والمناضلين المستقلين المنتمين لطبقة العمال .

ماذا يجب أن يحدث لهؤلاء القضاة الذين أصدروا أحكاما بالسجن
ولمدد طويلة على أناس هم الآن أعضاء فى الحكومة . وأشار تيموشى
كارتون الى أزمة سلطة ما بعد الشيوعية ، عندما وصف المصادر الجديدة
للغضب فى اوربا قائلا :

« المراقبون السابقون ، وحراس الحدود السابقون وموظفو
الحزب السابقون ، والبوليس السرى السابق : ما الذى تفعله معهم ؟
أو بالأحرى ما الذى نفعله معهم » Oni — كميثلين للسلطة الشيوعية
الكبير منهم والصغير ، والمعروفون على المستوى العالمى . انه سؤال
عن العدل . انه سؤال أتى — فى حده الأقصى — من مدينة فيرمبرج
Nuremburg الغربية . يجب أن يحاكم رجال السلطة السابقون لما
قاموا به من أخطاء ، أو لما جرى وهم يحكمون ؟ اذا كان الأمر كذلك فبأية
تهم وبأى قوانين ؟

ويصبح السؤال — فى الحد الأدنى — سؤالا عن العدل الاجتماعى .
أمن العدل ، الناس تسأل ، أن هؤلاء الذين تمتعوا بوظائف مكتبية
مريضة تحت حكم الشيوعيين يظلون فيها اليوم بينما الناس العاديون
ما زالوا يشهدون على بطونهم الحزام حتى الآن ؟ أمن العدل أن أعضاء
تنظيم الحزب الشيوعى الذين يستغلون الوضع القانونى المبهم والضامن
بالخاصة لفرض سيطرتهم — باعتبارهم رأسماليين — على المشاريع
التي كانوا يديرونها سابقا كشيوعيين ؟ « (١٠) »

ان السخط على بطء عملية التطهير القومى والمشاعر المتفشية ،
التي شجعت البيروقراطيات على الاستمرار فى الحفاظ على مراكز
التأثير ، خاصة فى الأجهزة الاقتصادية ، أثار مجددا الغضب
الشعبى .

ان بناء المجتمع المدنى واستعادة روابط التضامن الداخلى أصبحا
أطول العمليات وأكثرها صعوبة . لقد كان ثمة شيء وحيد يستحق النضال
للتخلص منه ، وهو عدو يسهل تحديده والتصويب عليه — أى الشيوعية —
يليه النضال من أجل ثقافة من الثقة والحوار والتسامح . وأصبحت
الخطط المؤسساتية والدستورية هى أهم ما أثير من قضايا . وفى
رومانيا وبلغاريا خلق الاستياء العام على الحل التدريجى للجؤسسات
القديمة كوارث جديدة . ولذا ، كانت الفجوة تتزايد بين نموذج دول

قلب شرق أوروبا فيما يتعلق بالتطوير السياسى والذى تضمن انفصاما واضحا ولا بديل عنه عن الماضى الشيوعى والالتزام المحكم من جانب للممثلين السياسيين الجدد لمراقبة قواعد التعددية ، وبين نموذج البلدان الشمالية الشرقية حيث أصبح ارث التوتاليتارية أكثر مقاومة وأكثر عنادا وأعاق الانفتاح السريع خاصة فى بلغاريا ورومانيا وصربيا ، حيث استطاعت الحركات القومية التى تضرب بجذورها فى الأساطير الشعبية والفولكلور أن تشعل النار فى المشاعر الجماعية ، أن العرقية وليست الديمقراطية تنذر بأن تكون هى مستقبل هذه المجتمعات .

ان الحركات الرومانية المتطرفة بدأت فى مهاجمة الأقليات المجرية من أجل الآمال «الجريئة» والمزدهرة التى تتعلق بترانسيلفانيا Transylvania ان المتواطئين السابقين مع نظام شوشيسكو والذين تملقوه فأصدروا مجلة بغیضة أطلقوا عليها اسم رومانيا مير Romania Mare أو رومانيا العظمى . ان الفضائح ، والقذف وغيرها من البذاءات كانت هى العنساوين الرئيسية على صفحات هذه الجرائد التى كانت تزداد ابتذالا . وبذلت جهودا لرد اعتبار الديكتاتور العسكرية أون أنتونشيسكو الذى ساس رومانيا أثناء الحرب العالمية الثانية وإبرازه كمدافع عن المصالح القومية . وانخرطت وسائل الاعلام الموالية للحكومة فى حملات شعواء ضد الملك ميخائيل King Michael الذى قبض على أنتونشيسكو فى أغسطس عام ١٩٤٤ ، والذى طبق ديمقراطية قصيرة الأجل قبل أن يستولى الشيوعيون على الحكم . وفى صربيا كما فى كرواتيا وبلغاريا أيضا ، فان شبح القومية لاح على نحو ينذر بالسوء . ان بوادر العرقية لاحت أيضا فى سلوفاكيا Slovakia حيث بزغت الجماعات العرقية المسيحية . والتى حاولت رد اعتبار الحكومة القومية الموالية للنازية والتى رأسها أثناء الحرب العالمية الثانية مونسينور تسو ، وانشقاقا على التقاليد القومية السلطوية طالبت أقلية صغيرة ولكنها ذات صوت مسموع بدولة سلافية مستقلة . وفى بلغاريا كانت القومية المعادية للأتراك عنيفة .

وعبر بلدان أوروبا الشرقية كان هناك مطلب عام بضرورة كشف النقاب على أعمال بوليس الدولة ، وأن يعلن على الملأ هويات المتواطئين السابقين مع البوليس السياسى ، وتحولت هذه الفضائح لأعمال مأساوية فى جمهورية المانيا الديمقراطية السابقة وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا . وأصدر الرئيس هافيل قرارا بعرض كل ما يهيم الشعب على شاشات التليفزيون . وقد اكتشف أن الشيوعيين وزعماء الأحزاب التى أعيد بناؤها والمعادية للشيوعية قد تعاونوا مع البوليس السياسى وان هذه الأحزاب

كانت فاسدة (١١) . وكان عقاب هؤلاء الذين كانوا أدوات فى يد التوتاليتارية جزءا مهما كى تتواصل هذه المجتمعات مع ماضيها . لقد كان جزء من الأحياء لثقافة سياسية على استعداد للاعتراف بجوانب فشلها ونجاحها ، وكان تعلم ممارسة الديمقراطية يجب أن يقترن مع شجب طرق التفكير ونماذج السلوك التى كرسى على مدى أكثر من أربعين عاما فى ظل الأنظمة اللينينية .

كما لزم على الناس التخلص من اعتمادهم لقبول كل القرارات التى تتخذها السلطة الخارجية وإدراك أنه لا يوجد أى زعيم مغوار يمكن أن يسحرهم فينقلهم من الفقر واللامان . وكانت الحاجة الملحة للائتلاف الجديد التى تستطيع أن تحقق ثقافة تبنى على التنافس بمثابة حاجز يمنع الانزلاق نحو التجارب السلطوية الجديدة .

ومن ثم ، فإن المهمة الرئيسية ، فى كل تلك البلدان هى بناء ثقافة سياسية متينة لديها ثقة بنفسها للحد الذى يمكن معه تحدى أى صعود للحركات الأصولية الجديدة ، وكما قال كارول موتزلسكى المؤرخ المعروف والمناضل المعارض الذى أصبح سيناتور بعد عام ١٩٨٩ :

« أن الديكتاتوريين لا يصبحون ديكتاتوريين من تلقاء أنفسهم ، ولا يسيطرون على البلدان لمجرد أن لديهم اتجاهات ديكتاتورية . الناس هم الذين يصنعون الديكتاتور - الناس هم الذين ينصحونه والذين يأخذون منه الأوامر الخاصة وهم الذين يؤيدونه تأييدا مطلقا . وبمعنى آخر ، أن وجود ديكتاتور من عدمه يعتمد على الثقافة السياسية للبلاد » (١٢) .

أن تدعيم الإطار الدستورى الذى سيمنع صعود نجم الحركات التى تدعم « الرجال الأقوياء » الديماغوجيين لابد أن تصاحبه جهود مستمرة فى مجال الممارسة السياسية اليومية والصراع « التنويرى » مع الظلاميين والمؤمنين بالخرافات والتعصب والعصوية والتى ورثتها تلك المجتمعات ليس فقط من جانب الشيوعية ، ولكن أيضا من جانب الثقافات البلاديمقراطية أو نصف الديمقراطية التى سادت فى الفترة التى توسطت الحرب . ومن بين الأشياء الأخرى التى تتضمن إدراك وحماية حقوق الأقليات هو إثارة هؤلاء الذين يودون أن يؤكدوا على أولوية وجود المجتمع « الحيوى » العرقى على الفرد .

ولأن صدمة التحديث كانت حتمية فى كل تلك البلدان ، فإن المخاطرة الحقيقية كانت فى ضمان وحدة « الحركات المتحررة من الوهم » التى قد يمنعه الخوف والاحباط . أن الشيوعية قد انقرضت فى تلك البلدان ، ولكن

ليس بالضرورة أن تكون الديمقراطية وريثا لها . وهناك خطر الجمع الزائف بين نقيضين هما الحنين الى الاحتماء خلف دروع واقية من الدولة البوليسية ، والاستعداد لقبول وعود الدجماطقيين الاجتماعيين القادريين على التلاعب برموز الخلاص القومي . وفي هذا الاطار أكد رالف دارندورف بوعى على فخاخ المرحلة الاولى المؤلة من الانتقال الى المجتمع المفتوح : « اننى أكره أن أفكر فى توليفة الزعماء العسكريين والمخططين الاقتصاديين والأيديولوجيين الملقين الذين يمكن أن يصلوا للسلطة عن طريق جماعات غيبى مستقرة ومتحررة من الوهم . احترس من البدايات ! ان الأصوليين يفتظرون فى الجذور ، لاستجماع توثهم وقوامها هؤلاء الذين فقدوا اعصابهم على طريق الحرية » (١٢) .

وحقيقة ان تخليق سياسات جديدة يتم رغم أنف التوثعات الللاوسطية واللامعقولة ، ومنها كثير . ولأن نشوة الانتصار الأولى أخذت تتلاشى فان الشعب أدرك أن المرحلة التالية سوف تميزها قيادة جديدة بشرط تحقيق الشفاء الاقتصادى . ان ذلك يتطلب من الحلف الجديد الشجاعة والخيال والالتزام التام بمبادئ التعددية السياسية للدفاع عن المؤسسات الديمقراطية ضد الهجمات السلطوية . ان البشائر التى ظهرت فى بلدان أسبانيا والبرتغال التى حكمها دكتاتوران لعقود طويلة ، تدل على أن مثل هذا الانتقال يمكن تحقيقه . وبالإشارة الى المخاطر العديدة بما فيها خطر الفاشية ، فنحن لا ننشكك — رغم ذلك — فى فرصة بناء الديمقراطية لنفسها فى أوروبا الشرقية .

بين الصحوة والفضب :

وبعد السقوط المدوى للبنى الشيوعية المهيمنة على كل بلدان أوروبا الشرقية ، انخرطت جميعا فى البحث عن صيغ سياسية جديدة تيسير إقامة مؤسسات ديمقراطية ، وتسهل الانتقال الى اقتصاد السوق . وأجريت فى كل تلك البلدان انتخابات أكدت على الفشل التاريخى للأحزاب الشيوعية . ولم تظهر تشكيلات سياسية تطرح أطرا أصلية من أجل إعادة تخليق الحياة الاجتماعية والسياسية .

نهاية الاشتراكية البروسية :

فى ألمانيا الديمقراطية تزامنت الديمقراطية السياسية مع الانهيار الدراماتيكي لبنية السلطة السابقة ، وتزايد الضغط من القاعدة من أجل إعادة فورية للوحدة مع الجمهورية الفيدرالية . وبعد سنوات عديدة

حيث كانت الوحدة تعد من المحظورات ، بدأت الأحزاب التابعة وفي مقدمتها حزب الديمقراطيون المسيحيين Christian Democrats تعلى من شأن الوحدة . أما الشيوعيون السابقون بقيادة جريجور جيسى المحامى الاصلاحى ، فقد حاولوا اظهار حزبهم المتنوع ذا التوجه الغربى ، كما حاولوا ايجاد مخرج من هذا الوضع المعقد ، ونادى جيسى بتوحيد الدولتين الالمانيتين . ان الأحزاب الالمانية الغربية تهيمن على الساحة السياسية الالمانية الشرقية وتؤثر تأثيرا مباشرا على الحملة الانتخابية فى ذلك البلد . ان أكثر الأحزاب تواجدا على الساحة فى جمهورية المانيا الديمقراطية ، بعد انتخابات مارس ١٩٩٠ ، هما حزبا الديمقراطيون المسيحيين والديمقراطيين الاجتماعيين وقد طالبا بوحدة مبكرة . وبعد الانتخابات شكل الديمقراطيون المسيحيون حكومة ائتلافية شملت ممثلى جماعات عديدة ذات توجه محافظ وكان من بينهم الصحوة الديمقراطية Democratic Awakening التى يرأسها رينير ايلمان وهو الكاهن البروتستانتي الذى كان أحد الموقعين على « عريضة برلين » السلمية فى مارس ١٩٨٢ . وبعد سنوات عديدة من الاضطهاد بسبب موقفه الصلب المعادى للعسكرية ودفاعه المضنى عن حقوق الانسان تم تعيينه وزيرا للدفاع ونزع السلاح Minister of Defence and Disarmament فى الحكومة اللا شيوعية بالمانيا الشرقية — وكان لزاما على رئيس الوزراء الجديد لوثر دو ميزير Lothar de Maiziere الديمقراطى المسيحى البارز الا يواجه الكوارث فى بلده فقط ، حيث تصاعد الفضب الشعبى ضد الحكومة السابقة وادواتها القمعية ، وتحدى الرفض السوفيتى لقبول الوحدة الالمانية . وهذا شئ كان يمكن فهمه اذا ما أخذنا فى الحسبان أهمية المانيا الشرقية بالنسبة للمصالح الاستراتيجية والاقتصادية لروسيا ، وكذلك لأن الوحدة ترمز الى خضوع الاتحاد السوفيتى لما مارسه الغرب من ضغوط ليتخلى عن أهم انتصارات الحرب العالمية الثانية . الا أن الكرملين لا يمكن أن يتجاهل مدى اصرار الغرب على اعادة الوحدة بين الالمانيتين .

وبحلول يناير ١٩٩٠ أدرك جورباتشوف حنية اعادة الوحدة الالمانية وحاول أن يبطئ من العملية بمطالبة المانيا الموحدة بتقوية علاقاتها مع حلف شمال الاطلسى NATO . وكان الخوض فى هذا الأمر معقدا تماما وبدأت المفاوضات الدولية الحساسة فى يوليو ١٩٩٠ أثناء الاجتماع بين ميخائيل جورباتشوف والمستشار الالمانى الغربى هيلموت كول . وفى تلك المناسبة قبل الزعيم السوفيتى أن يسمح لألمانيا

الموحدة ان تبقى في الناتو ، أما عدد قواتها المسلحة فسوف يقل دفعة واحدة الى ٣٧٠.٠٠٠ (كان جيش المانيا الغربية وحده يبلغ ٤٨٠.٠٠٠) كما سوف تنتشر في الجزء الشرقي من البلد فقط بعد أن غادره آخر جندي عسكري سوفيتي في عام ١٩٩٤ . وحتى ذلك الحين ، سوف تغطي المانيا النفقات الخاصة بالكيان العسكري السوفيتي وسوف يبلغ دعمها المالي (٨٨ بليون دولار) كتكاليف لاعادة القوات السوفيتية .

ولمزيد من الاسترضاء للسوفيت قدم كول ٣ بلايين دولار لمساعدة السوفيت في دفع ديونهم لألمانيا . ولان بولندا قد اعربت عن قلقها المتعلق بالمخاطر التي يمكن أن تتسرب على الوحدة السياسية والاقتصادية بين الالمانيتين في قلب أوروبا . وأقيم اجتماع في باريس بمشاركة ممثلي الدول الأربع العظمى Big Four والدولتين الالمانيتين . ووعد الالمان بأن يعقدوا كل الاتفاقيات الشرعية لتحديد تخومها مع بولندا في منطقة الأودر - نيسي Oder-Neisse . وفي ١٢ ديسمبر بدأ وزراء الخارجية للدول الست مفاوضات دبلوماسية والتي وقع بناء عليها اتفاقية « اثنان زائد أربعة » Two-plus-four في موسكو . وكان ذلك هو النهاية الحقيقية للحرب الباردة وبداية عهد جديد في تاريخ أوروبا . وعشية ان خرجت المانيا الديمقراطية رسميا من حلف وارسو وفي ٣ أكتوبر ١٩٩٠ أى بعد عام واحد من بداية الاجتياح المعادي للشيوعية في برلين الشرقية ، فإن « هدية » ستالين للامة الألمانية لم يعد لها وجود .

ولان الانتقال لاقتصاد السوق حدث في جمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة داخل بيئة اقتصادية غنية ، ومع منح حكومية سخية من حكومة ألمانيا ، ومن البنوك الكبرى والشركات الضخمة ، فان الاضطرابات التي تزامنت مع تلك العملية ، كانت أقل وضوحا عنها في البلدان الشيوعية السابقة الأخرى . وكان هناك ، على أية حال ، شبح حقيقي من البطالة نتيجة لغلاق « الأفيال البيضاء » التي لم تحقق نتائجها المرجوة والتي أقيمت أثناء التصنيع الستاليني ، ونتيجة لاستنزاف العمالة المدربة من المنطقة الألمانية الشرقية السابقة وانتقالها للمنطقة الألمانية الغربية والتوتر الذي تفشى بين شباب ألمانيا الشرقية والتي يزداد سخطها . وعلى عكس الالمان الغربيين الذين لطخت سمعتهم لما ارتكبه النازيون من جرائم وحشية في الحرب العالمية الثانية فقد كانت الحكومة الألمانية الشرقية تدعى دائما بأنها لم تقترب أي شيء تنعدم عليه ، وذلك لأن جمهورية

ألمانيا الديمقراطية دولة اشتراكية ويمثل شعبها جزءاً « تقديمياً » من الأمة الألمانية .

والآن ، فإن هذه الأسطورة قد تم دحضها ، والهوة بين الثقافتين السياسيتين للألمانييتين قد تم ردمها ، فالغرب بكل مؤسساته الديمقراطية رفض البكاء على أطلال « الماضي المهيض » (١٤) وعلى الشرق حيث حافظت دولة البوليس البيروقراطية السلطوية على مشاعر الطاعة والتوافق وكذلك الاحساس بالقيم العسكرية البروسية . وبمعنى آخر ، فإن مشكلة الألمان الشرقيين كانت أنهم لم يمارسوا أبداً معارضة أصيلة لا للنازية ولا للستالينية . وبالتأكيد ، فإن توحدهم في نظام تعددي دستوري للجمهورية الفيدرالية قد قلل من مخاطر الانفجارات الجماهيرية المتعلقة بالتعصب والتطرف . ان ظهور نوعين من الأنشطة النازية الجديدة Neo-Nazi التي أثارت استجابة فورية من القوى الديمقراطية كان ، على أية حال ، بينا واختفت الموجة التي بدت على أنها قمع سياسي ليظهر بدلاً منها مرض معاداة الأجانب ، والعصابات الشرهة التي بدأت في نشر معاداة السامية وأفكارها العنصرية ، بل ونظمت اعتداءات على العمال الأجانب بدءاً بالفيتناميين Vietnamese . وأثناء مظاهرات وقعت في برلين الشرقية وليبتزج ومدن أخرى كبرى ، ترددت شعارات معادية للبولنديين ومعادية للمسلمين . بشكل عام ، وظهر في ألمانيا الشرقية تياران من التطرف أولهما هو : تيار النازية الجديدة ، وقد اختلقها شباب مريض اتسمت أنشطته في أغلب الأحيان بالعنف ومن أهدافهم التخلص من العناصر الغريبة التي تهدد « نقاء الجنس الألماني » ومنها : اليهود والبولنديون والأسوييون (١٥) . والتيار الثاني ظهر تحت ما يسمى بالحق الألماني الغربي الأسمى . خاصة ذلك الذي يتبناه حزب الجمهوريين Republican Party برئاسة فرانز شونهوبر Franz Schonhuber ، وكان دعم الجماعات السياسية التي جنحت للاشادة بالارهابيات الخاصة بحق التطرف في تزايد .

ولأن حزب الجمهوريين والتكوينات المتبينة للحق الأسمى قد ركزت حملاتها في جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، فإن الشيوعيين السابقين ، الذين تجمعوا تحت مظلة حزب الوحدة الاشتراكي - حزب الاشتراكية الديمقراطية - جعلت الصراع ضد الفاشية قضية بارزة في دعايتها الانتخابية .

« أننا لا نحارب ضد الستالينيين لنفسح الطريق للفاشييين الجدد » .
هكذا أعلن جريجور جيسى . إلا أن الشيوعيين كانوا قد فقدوا كسل

مصادقية لهم وفشلت كل جهودهم التي بذلوها لحفظ ماء وجههم كحزب أوربي اشتراكي Euro-Socialistic في الحصول على أى دعم شعبي •
حقا يلتفون حول الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي تكون حدينا والذي حصل في انتخابات مارس على ٨٨ مقعدا في البرلمان الذي يبلغ أعضاؤه أربعمائة • وقام زعيم الديمقراطيين الاجتماعيين ابراهيم بوهيم Ibrahim Bohme ، وكان هو نفسه شيوعيا سابقا ، بتحدى الشيوعيين ، عندما طالب باعادة وحدة الالمانيتين على وجه السرعة (١٦) • وبالنسبة للمنبر الجديد وهي الجماعة المعادية للسلطوية والتي كانت في مقدمة المظاهرات التي وقعت في أكتوبر ونوفمبر ١٩٨٩ ، فقد فقدت كل قبول لدى الجماهير بسبب اصرار زعمائها على تحويلها الى حزب سياسي حقيقي ، وبسبب ما أبدوه من رفض عنيف تجاه الوحدة الألمانية وبالنسبة لكثيرين في المنبر الجديد ، فان اندفاع الالمان الشرقيين لتدعيم الوحدة بدا خيانة لمبادئ اجتياح أكتوبر • وكمثال على ذلك أعلن سابستيان فلوجبيل Sabastian Pflugbeil عالم النفس المنشق وواحد من زعماء المنبر الجديد :

« لقد أصبحنا ثوريين ، لأن الكيل قد فاض بنا من الدكتاتورية الحزبية ، ولم يكن لدينا فرص للتأثير في مجريات الأمور - اننا كنا نريد دولة ديمقراطية حقة » (١٧) •

ان واحداً من الآثار المذهلة التي خلفتها العقود الأربعة من الحكم الشيوعي في المانيا الشرقية كان تحديداً هو التوجه المحافظ بشكل عام نحو العملية الانتخابية وغياب التشكيلات السياسية التي تحظى بقبول جماهيري حقيقي • وبمجرد أن توحدت الالمانيتان فان جمهورية المانيا الديمقراطية انخرطت في نموذج مختلف عن ذلك الذي اتبعته الدول الأخرى بعد التخلص من الشيوعيين • اذ حاولت أن تتصرف حسبما تريد في محاولة لاعادة تشكيل الاقتصاد واستعادة المناخ المدني • ان باقى أوروبا الشرقية لم يعد لديها « أخ اكبر » يقوم باستغلالها ، ولم تعد هناك أحزاب سياسية تستعرض براعتها السياسية ومن ثم فالطريق مهده من أجل ثقافة الديمقراطية • أما بالنسبة للارث السياسي والمعنوي الذي خلفته عقود أربعة من الاشتراكية على الطراز السوفيتي فسوق أرض المانية ، فيستطيع المرء ان يلخصها في ثلاث كلمات : أكاذيب ، فساد ، ارهاب • وكما سجل أحد المحررين في مجلة المانية غربية مؤثرة قائلاً :

« اننا نعرف الآن ان هناك الكثير في جمهورية المانيا الشرقية الذي تحول الى أسوأ مما كان عليه تحت الحكم الديكتاتوري ، وقد أحسست

الجهاهير بما لم يستشعره نقاد النظام أو تخيلوه . ان القيم المزعومة التي فرضت على المجتمع الشيوعي في جمهورية ألمانيا الديمقراطية قد تحالت الى لا شيء ويبدو الان كما لو كانت مجرد خيال . وما ينشئ من سياسات السلام وعدم التسليح بدا ملحا للغاية بالنسبة لادعاء هونكر الشيوعية . ما الذى بقى الآن من التفسيرات الشيوعية ضد استخدام القوة والارهاب والتي اقامت اللصام عن العلاقات التي اقيمت مع الارهابيين الألمان الغربيين ، والموت في معسكرات التهذيب ، والرقابة المتشددة التي فرضت على المواطنين ؟ ما الذى يمكن ان يبقى من هذا الارث لهؤلاء الذين تم تدريبهم على كيفية التغاضي عن الطرق الجبرية والديكتاتورية للحزب وعن هؤلاء الذين تجاهلوا حقائق الاشتراكية كما كانت تمارس وتعلقوا بفكرة الاشتراكية الأكثر نقاء « (١٨) » .

بلغاريا : التزاوج الممنهول :

وفي بلغاريا يبدو للوهلة الاولى أن الحزب الشيوعي السابق الذى اعاد تسمية نفسه بالحزب الاشتراكي سوف يستمر فى حكم البلد . فى محاولة للحفاظ على سيطرته واجتناب الانتقال الراديكالى لمجتمع مفتوح . ورغم المعارضة الداخلية استمر الحزب الاشتراكي فى السيطرة على هذا البلد معظم عام ١٩٩٠ ، بل ان الشيوعيين المصلحين كانوا مهدين بالانشقاقية لأن الحاجة كانت ملحة لكلا الاتجاهين الليبرالى والمحافظة . واتهم التيار الاصلاحى زعيم الحزب الكسندر ليلوف بأنه م زال يعرض المعتقدات اللينينية ، بينما وجه له اللينينيون النقد لتخليه عن احتكار الحزب للسلطة ولما أظهره من توان مع القوى المعادية للاشتراكية . وبسبب ضغط الجاهير أجبر الحزب على غلق مقراته ، وبدأ وكأنه علة مستوطنة وتقلصت عضوية الحزب الاشتراكي من حوالى مليون فى فبراير ١٩٩٠ الى ٢٥٠.٠٠٠ فى منتصف مارس (١٩) . وفى يناير وفبراير نظمت محادثات المائدة المستديرة بين ممثلى الحزب الاشتراكي البلغارى BSP والمعارضة . واسفرت المفاوضات بين الطرفين عن توقيع عدة اتفاقيات مشتركة تتعلق بالانتقال الى النظام الديمقراطى «طبيعة ومستقبل هذا النظام . ان اتفاقيات الموائد المستديرة توجت بتوقيع اتفاقية فى مارس عن مشروع قانون خاص بالتغيرات الدستورية ، والنظام الانتخابى ، والاحزاب السياسية . وفى نفس الوقت تخلى الشيوعيون عن طريقهم لتحسين صورتهم واتعنوا الجاهير بأنهم قد أنقصوا — وبلا رجعة — عن الماضى التوتاليتارى . وأرخص الحزب قبضته عن المنظمات المساعدة بما فى ذلك النقابات العمالية .

والتفت المعارضة حول اتحاد القوى الديمقراطية Union of Democratic Forces (UDF) وهو المظلة التي جمعت حركات وجمعيات أعلنت التزامها بالتعددية والديمقراطية . وبعد أن انتخب زعيمها جيليو جنيليف الفيلسوف والمناضل في مجال حقوق الانسان كرئيس للبلاد في أغسطس ، واستبدل بالزعيم بيتر بيرون Beter Beron الذي كان عليه تقديم استقالته بعد أن اكتشف انه كان في الماضي متعاوناً مع البوليس السري . وظلت أحزاب المعارضة في اتحاد القوى الديمقراطية التي ضمت حزب « المصلحين الزراعيين - نيكولا بيتكوف Nikola Petkov » خليفة الحزب الذي قام الشيوعيون بقمعه في ١٩٤٧ والذي رفض الاندماج مع اتحاد الاصلاح الزراعي Agrarian Union الأكبر ، ذيلاً للنظام الشيوعي ، والحزب الاجتماعي الديمقراطي البلغاري Bulgarian Social Democratic Party . ان الاتحاد بودكريا Pod Krepa المستقل والعضو المؤسس لاتحاد القوى الديمقراطية انفصل عن الائتلاف ؛ كي ما يؤكد على استقلالية الذاتية ولكنه احتفظ بوضعه كمراقب للأحداث . وفي نفس الوقت ، فإن الأغلبية التركية التي تعرضت فيما سبق للاضطهاد - والتي يبلغ تعدادها نحو ٥١ مليون وجدت في حركة الحقوق والحريات Movement for Rights & Freedoms صوتاً يعبر عن آلامها وأشجانها . وأعلن زعيم الحركة أحمد دوجان Ahmed Dogan عن نيته في الدفاع عن حقوق الانسان بصرف النظر عن القومية . وفازت الحركة بثلاثة وعشرين مقعداً في البرلمان الجديد لتصبح ثالث قوة سياسية في هذا البلد (٢٠) .

واكثر الأحداث دلالة في بلغاريا كانت الانتخابات التي أجريت في يونيو ١٩٩٠ والتي استقطبت المنتخبين بشكل لم يسبق له مثيل . ورغم أن الحزب الاشتراكي البلغاري BSP حصل على الأغلبية المطلقة من المقاعد البرلمانية فقد فاز بأقل من ٥٠٪ من الأصوات وهزم على نحو مروع في صوفيا وفي مدن كبرى أخرى . وما تبع ذلك كان انهياراً مستمراً للنظام السياسي حيث اتهمت المعارضة الحكومة التي يسيطر عليها الشيوعيون بعرقلة عملية الديمقراطية وأجبر الاشتراكيون في منتهى الأمر على قبول إعادة التفاوض الخاص بتوزيع السلطة وفي يوليو ، أجبر بيتر ميلادينوف - الزعيم الشيوعي الذي خطط لازاحة جيفكوف في نوفمبر ١٩٨٩ - على الاستقالة بعد اتهامه باستخدام وسائل تتسم بالعنف والدموية في قمع احدى مظاهرات الاحتجاج . وفي

١ أغسطس وبعد اقتراع بلغ عدده ست جولات اختار البرلمان جيليو جيليف كرئيس جديد . وفي تلك اللحظات كان الشيوعيون ما زالوا يتمسكون بالسلطة وأصبح أحد زعمائهم وهو أندريه لوكانوف Andrei Lukanov رئيسا للوزراء .

وفي ٢٦ أغسطس أضرمت النار في مقرات الحزب الشيوعي البلغاري في قلب مدينة صوفيا ، وقد أدانت أحزاب المعارضة هذا العمل باعتباره شغباً وتحريضاً دبرته القوى الشيوعية المحلوعة والتي تهدف الى زعزعة النظام الديمقراطي وتهديد استقراره . وبينما كان الزعيم الاشتراكي الكسندر ليلوف يدعى بأن المعارضة يجب أن تتحمل مسؤولية الحادثة ، جاء رد اتحاد القوى الديمقراطية مؤكداً على أن جناح ليلوف يعد من أكثر أجنحة الحزب الاشتراكي رجعية وأن البوايس السياسي له مصلحة في مراوغة المعارضة وفي عرقلة الانتقال الى الديمقراطية (٢١) . ولأن الموقف السياسي والاقتصادي كان ينتقل من السيئ الى الأسوأ ، فقد كان هناك العديد من الاحتجاجات الشعبية خاصة بسبب رفض الحزب الاشتراكي التخلي عن هيمنته . وبسبب عجز حكومة لوكانوف عن الحصول على تأييد البرلمان وازدياد الاضطراب الاجتماعي قوة وعبر عنه الاضراب الذي قام به طلاب منظمين نقابيين عماليتين ، مما أجبر لوكانوف الاشتراكي على الاستقالة . وأجبرت استقالته بدورها الاشتراكيين على فهم أنه لا أمل لهم في الاستمرار في حكومة يسيطر عليها حزب واحد ، وان دور الحزب الاشتراكي البلغاري الاستبدادي في السياسات البلغارية قد بلغ نهايته . وفي ديسمبر تشكلت حكومة ائتلافية تحت قيادة ديميتار بوبوف Dimitar Popov المحلف المبجل والمعروف بنزاهته السياسية والحزبية . وانقسمت الوزارات الرئيسية بالتساوي بين الحزب الاشتراكي البلغاري واتحاد القوى الديمقراطية . وورثت الحكومة الجديدة موقفاً اقتصادياً يندثر بوقوع الكارثة، مع تضوُّب في الموارد غير مسجوق وانخفاض سريع في الانتاج الصناعي ومن ثم كان التوجه نحو تبني خصخصة سريعة شيء ملحا . ان التعاون بين الحكومة ومؤسسة الرئاسة وكذلك تعيين المناضلين المدنيين المحترمين في مراكز حيوية ، تشير الى أن بلغاريا كانت لديها الفرصة لتجاوز المازق السياسي (٢٢) .

تشيكوسلوفاكيا ، اجماع رأى متلعم :

وفي تشيكوسلوفاكيا كان وجود رمز مشهود له بالنزاهة ويتمتع بجمهورية شاملة تقريبا ، مثل الرئيس فيلاتسلاف هافيل ، عاملاً مساعداً

في الاحتفاظ باجماع رأى قومي لا ينفصم واطلقت البلد العنان لبرنامج اصلاحى طموح وادى سيكون محصلة لانفعال الاقتصاد الى اقتصاد السوق . ولاحظ المراقبون ، على آية حال ، ان حمى النشاط الذى اسابت الشعب تحولت فى الشهور الأخيرة لعام ١٩٨٩ وعلى نحو متصاعد الى شك وفقر . استشعر كثيرون بصيص امل لحل المشكلات العويصة التى نراكمت خلال عامى ١٩٩٠ ، ١٩٩١ ، مع انتقاد السلافيين للتشيكيين لنزعاتهم المتسلطة . وفى نفس الوقت فان ثمة محاولات ذريت تجرى فى تشيكوسلوفاكيا ؛ لرد اعتبار المتواطئين السابقين مع النازية فى الدولة السلافية القومية فى الفترة التى توسطت الحرب والتى لم تدم طويلا وهذه الجهود ، هكذا يجب ان يقال ، لم تنبع بالضرورة من الحنين الى العودة للقيم الفاشية . انه لموضع محزن ان الوقت الوحيد فى التاريخ الذى حصل فيه السلافيون على جمهورية قومية ، مزامن مع صعود الحكم النازى وعودته تحت قيادة منسينور جوزيف تيسسو Minsignor Josef Teso .

وعلى الصعيد السياسى كانت الأحداث البارزة هى الانتخابات التى أجريت فى يونية عام ١٩٩٠ . وفاز كل من المنبر المدنى وجماعة الشعب ضد العنف Public Against Violence وهما المظلتان اللتان يزغتا كقوى قومية أثناء اجتياح عام ١٩٨٩ بأغلبية تبشر بالخير وهى ١٧٠ مقعدا فى المجلس الفيدرالى Federal Assembly من أصل ٣٠٠ مقعد . ورغم ما عرف عنه من تعاون طويل مع المحتل السوفيتى ، فان الشيرعيين بقيادة البيروقراطى الشاب فاسيل موريتا Vasil Mohorita استطاع الفوز بسبعة وخمسين مقعدا وأصبح القوة الثانية على الساحة السياسية . وهناك أحزاب أخرى قد برزت أيضا وهى الديمقراطيون المسيحيون وهو ائتلاف يجمع الحركة الديمقراطية المسيحية السلافية Slovak Christian Democratic Movement وحزب الشعب والحزب الديمقراطى المسيحى ، بالإضافة لجماعات تمثل المصالح العرقية والقومية ومصالح مناطق بعينها وقد حصلت جميعا على أربعين مقعدا .

وقد انتخب مافيل مرة أخرى كرئيس للدولة لدورة ثانية فى يوليو وظل مارين كالفا Marian Calfa والذى ترك الحزب الشيوعى فى يناير رئيسا للحكومة . ولقد كان التقدم للأمام أكثر يسرا ، مما هو عليه فى بلدان أخرى ، ولكن حتى فى تشيكوسلوفاكيا رغم خبرتها الديمقراطية التى تتفوق على أى من البلدان الأخرى ، فان غياب الفهم الواضح لدور وآليات نظام الحزب كان واضحا فى الصراع الضارى الذى أثر على

كل من المنبر المدنى والشعب ضد العنف . لقد كانت هناك اتجاهات كثيرة معادية للتوتاليتارية والتي رفضت مجرد فكرة تحويل الحركات الاجتماعى الكبرى الى أحزاب سياسية حقيقية . وفى أكتوبر عقد المنبر المدنى مؤتمره وانتخب وزير المالية فيلاتسلاف كلاوس **Vlaclav Klaus الاقتصادى الذى ينتمى لوجهات النظر المعادية للقومية التى نادى بها فون هايك Friedrich Von Hayek** رئيسا للمؤتمر ونادى كلاوس بتحويل المنبر المدنى الى حزب ديناميكى محكم التنظيم . وبما أصابهم من احباط بسبب ما اعتبره نزوا مينييا للمنبر ولتشكيل المجموعة البرلمانية للحقوق الديمقراطية **Interparliamentary Group of Democratic Rights** ، شكل الجناح اليسارى فى البرلمان عصبة تدعى الجمعية المدنية **Civic Association** وقد بدا أن التمايز بين الاتجاهات السياسية داخل المنبر المدنى كان البداية لقرار دستور جديد ينظم الحياة السياسية القومية التى سوف تضم أحزابا تتجادل حول مهامات أيدولوجية أكثر مما تلتزم بالدفاع عن مبادئ عليا . وفى فبراير ١٩٩١ وصل التوتر بين اليسار واليمين داخل المنبر المدنى الى ذروته ، وانقسمت الحركة الى جناحين ، أحدهما يمين عليه كلاوس وأيد فكرة تشكيل « حزب تكون نواته يمينية » ، كى يدخل المنافسة فى انتخابات ١٩٩٢ البرلمانية ، وقد بزغ ، مثل هذا الحزب فى الواقع فى ربيع ١٩٩١ أما الجناح الآخر ، وهو الأكثر مناصرة ، فقد تواجد على الساحة السياسية تحت اسم النسادى الليبرالى **Liberal Club** وكان أفضل شخصياته المعروفة هو نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية والمشارك المتمرس فى ميثاق ٧٧ جيرى دينستبير **Jiri Dienstbier** . ورأى كلاوس أن التناحر بين الفصيلين سببه اختلاف فلسفاتهم السياسية والاقتصادية . وقد انتقد نادى الليبراليين لالتزامه بالمبادئ الديمقراطية الاجتماعية والدور الذى لعبه الشيوعيون المنسحقون السابقون داخل صفوفه ، ولتجنب النزاع حول من له الحق فى استخدام اسم « المنبر المدنى » شرعيا ، وافق الفريقان على تحويله الى لجنة ائتلافية يمثل فيها الفريقان على قدم المساواة (٢٤) .

وفى نفس الوقت طالب وزير المالية كلاوس بأن تتم الموافقة على عدد من القوانين المتعلقة باعادة الممتلكات التى صودرت لأصحابها كما حث الدولة على تشجيع الأعمال الحرة ولكن فى نطاق ضيق . وفى نوفمبر ١٩٩٠ دعم البرلمان الخصخصة على نطاق واسع وأقر نظاما جديدا للضرائب والأسواق الرأسمالية يمنع أى تضخم وأى تشنجات اجتماعية .

وأثناء هذه الفترة الثورية التي تطورت فيها الأحزاب الشيوعية واقتصاد السوق ، استمرت دعوات القومية السلافية لاستجماع قواها الدافعة . وقام مجلس النواب بعمل له دلالة ، إذ قام فى إبريل بتغيير الاسم السابق للدولة وهو «جمهورية تشيكوسلوفاكيا الفيدرالية» The Czechoslovak Federal Republic الى الجمهورية التشيكية والسلافية الفيدرالية The Szech and Slovak Federal Republic . وخطت اللامركزية مع الحكومة الفيدرالية التي قصرت العديد من امتيازاتها على الجمهوريتين خطى واسعة . وكان البلد على شفا أزمة دستورية فى ديسمبر ١٩٩٠ عندما هدد النواب السلافيون البرلمانين بإعلان سيادة القوانين السلافية على القوانين الفيدرالية ، احتجاجا على المحاولات البرلمانية لتغيير مشروع قانون الاصلاح الدستورى . وفى هذه المناسبة عبر فيلاتسلاف هافيل عن أسفه لتزايد المشاعر القومية وطالب مجلس النواب بالموافقة فورا على قانون ، يقر اقامة محكمة دستورية وتوسيع السلطات الرئاسية فى حالة الطوارئ القومية . ولسخرية الأقدار اكتشف هافيل الذى عارض دائما أى تركيز للسلطة فى يد شخص واحد أن هناك أوقاتا تصل فيها الأخلاقيات والسياسات الى نقطة الصدام واكتشف أن العداوات العرقية ومشاعر العداوة ، بما فيها اضطهاد الأجانب ظلت تسمم المناخ العام . ان الاضطرابات العرقية التى طال تجاهلها كانت هى بداية المشكلات السياسية الجديدة . وبالتخلص من الارث التوتاليتارى ومن الخوف والقهر ، شب بناء سياسى جديد . وكان ذلك يعنى كما اشار هافيل فى حديثه فى الاحتفال بذكرى غزو حلف وارسو عام ١٩٦٨ ان احياء الروح المدنية هى التى جعلت اجتياح عام ١٩٨٩ العظيم ممكنا . إذ قال :

« لكى تغير موقفنا الى الأفضل يجب ان نتصرف بهمة ودون تباطؤ . يجب أن نستلهم على الأقل روح أيام نوفمبر الأخيرة لكى نعيد خلق مشاعر التضامن ووحدة الهدف والأمل فى التغير ، ان الدفع الأندى والخيال المدنى أثبتا الآن أنهما أقوى من أية بنى توتاليتارية . ويجب علينا ثانية أن نضع المصالح العام فوق المصالح الفردية والحزبية السياسية . ويجب علينا مرة أخرى أن نتصرف دون عنف ويتسامح ولكن بثقة وبسرعة وببنفس الطريقة التى تصرفنا بها فى نهاية العام الأخير، عندما خضع الحزب الشيوعى المهيمن على السلطة لرغبة الشعب وخلال أيام قليلة اضططر للتخلي عن « دوره القيادى » (٢٥) .

✽ المجر : التحرر من الوهم ، وتجرع الآلام :

في ربيع عام ١٩٩٠ ، انتخب المجرىون برلماناً جديداً وعانى الحزب الشيوعى السابق من هزيمة ساحقة . وفازت الجبهة الديمقراطية المجرية بنسبة ٤٢٪ من المقاعد ، يليها ائتلاف الديمقراطيين الأحرار بنسبة ٢٣٪ تليه تشكيلات أقل فاعلية . وعلى أية حال ، نشاء الانتخابات المحلية التى وقعت في سبتمبر وأكتوبر فان العديد من الموظفين الشيوعيين السابقين قد أعيد انتخابهم ، وعلى الرغم من أن الحزب قد خسر المعركة فما زال هناك احتمال فى بقائه مؤثراً على المستوى المحلى . وفى نفس الوقت فان حلف الديمقراطيين الأحرار خطط ليفوز فى عدد من المدن الكبرى بما فيها بودابست حيث أصبح المناضل المعارض جابور ديمسكى Gabor Demszky عمدة . وكان النجاح الانتخابى مثيراً للغاية اثناء انتخابات ائتلاف الديمقراطيين الشباب المحليين وهو حزب جمع الموظفين والطلاب معا ، وبدأ أنه يرمز لالهامات العديد من المجرىين الذين يتوقون لرؤية سياسية جديدة .

وعلى عكس شيكوسلوفاكيا وبولندا ورومانيا حيث أحكت رئاسة الجمهورية قبضتها على السلطة السياسية ، فان النظام الجديد فى المجر سعى لاقرار دور حاسم للحكومة ورئيس الوزراء . لقد كسان نظاما برلمانيا أكثر منه رئاسيا . وبعد الاتفاق الذى تم بين أكثر حزبين أهمية على الساحة تم انتخاب كاتب ديمقراطى حر وسجين سياسى سابق هو ارباد جوني Arpad Gönez رئيساً جديداً للجمهورية . وأسندت مهمة تشكيل الحكومة الجديدة لجوسيف أنتال رئيس المذبر الديمقراطى المجرى الذى كون ائتلافا مع اثنين من الأحزاب الصغيرة وهم حزب الديمقراطيين المسيحيين وصغار القادة Small holders ونستطيع أن نستنتج بناء على ذلك أنه بعد انتخابات مارس وأبريل ١٩٩٠ « أصبحت المجر البلد الديمقراطى الوحيد فى أوروبا الشرقية الذى يحكمه نظام متعدد الأحزاب » (٢٦) .

وفى نفس الوقت لم تظهر الحكومة أى اصرار لانجاز اصلاح اقتصادى جاد ، وتحويل اقتصاد البلد المتردى الى اقتصاد السوق ، وحتى بعد تطبيق الخصخصة ، فان ذلك أسفر عن انتقال مفاجئ للمدراء السابقين الى رأسماليين كبار . ولد هذا الانتقال سخطا بين الجماعات الاجتماعية والتى استعانت من النظام الطبقي الاجتماعى السابق وكانت تأمل فى نظام سياسى يسمح بأكثر من المعدل الاجتماعى . وكان هناك ، كمثال ، الكثيرون ممن شاركوا فى وجهات النظر الناقمة التى عبر عنها لاسلو ميكلوس المهندس فى شركة منتجة للطعام حيث قال :

« حتى الآن مازال يحررنا المصديق بالي Ballay الذي يجلس في مكتبه تحيط به تماثيل لينين وصور الرفيق قادر بينما تقدم سكرتيرته الزميلة كولتسناى Kolosznay شراب الكورفوازير Courvoisier المعتاد للترحيب بالرفاق الذين أتوا لمقابلته . والآن يملك مستر بالي شركة كبرى ويجلس في مكتبه محاطا بصورة مسخر يوش Bush يسبح له بيده . بينما سكرتيرته الآنسة كولتسناى تقدم الكورفوازير للملاء المكتب . وظل الانشاج على ما هو عليه ، الاسماء فقط هي التي تغيرت » (٢٧) .

واستمرت البيروقراطية التكنوقراطية الجديدة في ادارة المصانع المفلسة التي ورثتها من النظام الشيوعي ولمسوء الحظ ، شأن البيروقراطية التكنوقراطية استمرت في العمل ، وأخذت الصراعات بين المنبر الديمقراطي وحلف الديمقراطيين الأحرار في التعمق ، إذ أن الموقف الاجتماعي كان يتدهور ومناخ السخط أصبح معبأ تماما . وأحرز المنبر المدني مكسبا كبيرا عندما أعلى من شأن المجريين في المنبر . بل ومن شأن ١٥ مليون مجري بما فيهم الأقليات المجرية التي تعيش في بلدان أخرى بدءا برومانيا وتشيكوسلوفاكيا . وفي نفس الوقت وأثناء الحملة الانتخابية فقد اتحد بعض المفكرين مع المنبر وقاموا بهجمات على الديمقراطيين الأحرار والتي كانت غالبا تذكرنا بالانفجارات المعادية للسامية التي تميزت بها الفترة التي توسطت الحزب . ورغم أن رئيس الوزراء جوزيف أنتال ووزير الخارجية جيزا جيتسينسكى Geza Jeszensky اهتمما كثيرا بالتأكيد على التوجه الأوربي لحزبهم إلا أنهم لم يتصلا تماما من مثل هذه الشعارات الواضحة عن المرفقة الريفية . ان الصراع التقليدي بين الريفيين والحضر سببه جنوح كل منهما لظهور نفسه من خلال الرؤى الميثولوجية والمضادة للانتاج والتي أتبعوها قتل الحكم الشيوعي ، حيث مثالية المبادئ المسيحية والقوانين المجرية ونظامها من ناحية ومقت الأممية ، والتوجه نحو الغرب ، والتدهور ، والاطروحات الجامدة للانتلجنسيا الليبرالية من ناحية أخرى . إلا أن هذه صورة مبالغ فيها إذ تؤكد على أكثر التغيرات راديكالية في منهجهم . وسجل أحد المراقبين للمسرح السياسي المجرى في عام ١٩٩٠ ملاحظته بأن الاستقطاب الأيديولوجي للأحزاب هو انحراف الى الأسوأ :

« ان المهارات الفارقة عن تعليم الدين بالمدارس ، والأجهاض ، والخصخصة ، ومهاداة السامية والسيطرة على وسائل الاعلام والتقييم المتضارب لنظام هورثي قبل الحرب ، قد مزقت أواصر اجتماع السبائ المشي الأحزاب حول الأولويات القومية » (٢٨) .

ومن ثم ، فإن المناظرات الأيديولوجية فى الثلاثينيات لا يمكن أن يدفع ثمنها ثانية فى التسعينيات ، إذ يعد ذلك ضرباً من الهشاشة .
ان الصراع بين الديمقراطيين الأحرار والمثير الديمقراطى يكمن وراءه الشك المتبادل بين بودابست والمناطق الريفية ، ومحاولة كل حزب أن يوسع من قاعدته الانتخابية على قدر المستطاع (٢٩) . ولأن المثير الديمقراطى يبعث القيم الخاصة بالحقوق التى كانت موجودة قبل الحرب من قبورها ، فإن حزب الديمقراطيين الأحرار بدأ أنه حسرت التحديث حيث نجدوا فى ورقة عملهم الخصخصة السريعة وانتقدوا المثير الديمقراطى لنفسه فى مواجهة أكثر المشاكل الملحة للوطن . وفى أكتوبر ١٩٩٠ أصيبت بودابست بالشلل التام من جراء أضراب سائقي العربات الأجرة والجرارات . ورغم النتائج الايجابية الملموسة لهذه الحقبة الانتقالية ، فإن الروح التى عمت هى روح التشاؤم . وجاء توضح رئيس الوزراء مثراً للسخط حيث قال :

« ان كل شخص يعتقد بأن نتائجنا لا تتناسب مع جهودنا مضطحة ، ان انها فاقته . وسيظل المجرى دائماً لا يرى الا أسوأ شيء ، ومثل هذا تلك طبيعة عقلية الفلاح الذى لا يتنبأ ابداً بمحصول جيد » (٣٠) .

ووعده انتال بعد أن عبر الشعب عن سخطه وغضبه ، بعزل الحكومة وتعيين قيادات أكثر كفاءة . ان الاقتصاد المدهور ومشاعر السخط ، كانت تدل على أن الفريق الحاكم لم يكن على استعداد لتأخير أى علاج ناجع . وبينما بدت بودابست بالتسريح مثل عاصمة غربية مزدهرة ، فقد ظل الريف يعاني من الفقر المدقع . ولأن الاقتصاد تدهور واستمر التجزؤ السياسى ، فإن مستقبل المجر كان يندثر بتقسام توترات ونزاعات جديدة . الا أن ذلك يمكن أن يحدث فى ظل نظام ديمقراطى . وبدأ أن الأحزاب السياسية تجمع على أن العودة الى الديكتاتورية شيء غير مرغوب فيه .

نصو نظام جمهورى فى بولندا :

ان صراعا مريرا قد طفا على السطح فى بولندا فى صيف عام ١٩٩٠ عندما قرر ليخ فاونسا أن يتحدى الحكومة التى كان قد ساعدتها فى الوصول الى السلطة من شهور عديدة فائتسة . وبكلمات حسادة وداب ، أخذ فى ادانة الحكومة لما أبدته من تسويق توجهه ترجيه ضربة قاصمة لأعضاء الحزب الشيوعى . ومنطق فاونسا الذى يكمن وراء انفجاره المعادى لمازويسكى أن زعيم الاتحاد لم يكن راغباً فى اقتسام

السلطة مع الشيوعيين وهو ما كان مبدأ دستورياً قامت على أساسه حكومة مازويسكى . وبالنسبة لفاونسا وأحلافه ، لم يعد هناك أى سبب يجعل بولندا تلهث وراء القيادات الشيوعية السابقة . ورأى فاونسا أن وجود الجنرال ياروزليسكى كرئيس للبلد - حتى ولو كان ذلك مجرد وظيفة شرفية شيء شاذ فى وقت يطرد فيه المجرمون والتشيكيوسلوفاكيون بالفعل الشيوعيين من كل مواقع السلطة . وقد نظر فاونسا ومؤيدوه الى الاستراتيجية التى أقرتها الجلسة البرلمانية لتضامن برئاسة المؤرخ بروتسلو جيرميك على انها استراتيجية قاصرة ولا مبرر لها ، ولم يكن هناك سبب كى تحظى بالقبول فى اتفاق المائدة المستديرة ، إذ أن كل المعادلات الداخلية والحسابات الدولية قد تغيرت جذريا .

ان الوقت كان مناسباً تماماً لخوض قتال ضار ضد المتمسكين بالشيوعية . أما هؤلاء الذين لا يشاركون فاونسا وجهة نظره هذه فكانوا محلاً للشك ، إذ أن ما أبدوه من تعاطف لا يحمله الا عضو سرى فى حزب يسارى . وكثيراً ما يقوم فاونسا - كما لو كان محلاً لنفسانيا - بالاشارة الى أية زلة لسان تبدر من أى أحد على أنها بولندية « مشوهة » - وكثيراً ما استخدم هذه الطريقة الشاذة ليزكّر المنتخبين بأن بعض أصدقاء مازوفسكى السياسيين كانوا يهوداً أو منحدرين من أصل يهودى . ان التواترات بين زعيم تضامن المتمرّد ورئيس الوزراء مازويسكى وعصبته ، لا يمكن فهمها الا فى ضوء ظروفه الشخصية والنفسية . ولا نستطيع كذلك أن نتجاهل مشاعر فاونسا ازاء تهمة دور على يد المفكرين النوابغ فى مدينى وارسو وكركوا .

ويبدو أن فاونسا لم يكن سعيداً بتحول أحلافه السابقين لبيروقراطيين وكثره ما أظهره من تميع وليونة ، وكى يعجل بالانتقال الى الديمقراطية استخدم مجلسه الاستشارى ويدعى لجنة المواطنين Citizens' Committee وهو الكيان الذى تأسس عام ١٩٨٧ . وفى عام ١٩٨٩ اختارت اللجنة عدداً من المرشحين عن منظمة تضامن للحصول على مقاعد فى البرلمان ومجلس الشيوخ فى كل دائرة انتخابية . وفى عام ١٩٩٠ أكد فاونسا سيطرته على هذا الكيان بتعيينه تزسلو ناجدير Zdzislaw Najder المؤرخ الأدبى والرئيس السابق للحملة البولندية لإذاعة أوروبا الحرة Radio Free Europe's Polish Service كرئيس جديد للجنة .

وعين عدداً من الأعضاء وأعاد - بقرار معلن - هنريك فيجيك Henryk Wujec زميله السابق المقرب كسكرتير للجنة ، كما حاول

اقصاء آدم متشنك من جريدة جازيتا وبيورتسا Gazeta Wyborcza اليومية • وبأصراره على التمسك بجذوره الشعبية باعتباره معارضا لتفسير مفكرى وارسو عن الطبقة العاملة - ودعا فاونسا رئيس الوزراء ماتزوفيسكى Matzowiecki لاجتماع يحضره العمال فى ساحة لينين Lenin Shipyard فى جدانسك •

ولما قام به من ضربات وحشية ومستمرة فان احلاف مقربة من رئيس الوزراء قد عبرت جهراً عن عدم موافقتها على ممارسات فاونسا السلطوية ، وتطور مناظرة حادة بين صحيفة جازيتا وبيورتسا اليومية والذي كان يحررها آدم متشنك المؤرخ التاريخى المعروف وجريدة تيجودنيك سوليدارنسك Tygodnik Solidarnosc الجريدة التى يسيطر عليها مناصرو فاونسا • ولأن المجابهة ازدادت حدة بين الجريدتين وبالتالي العصبيتين ، فان الاتهامات كنت قد تصاعدت فوصلت تضامناً الى مفترق طرق فانقسمت على نفسها فى مايو ١٩٩٠ وانشقت لجموعتين رئيسيتين حيث مثل حلف فاونسا حلف المركز Center Alliance وفى يوليو شكل المناضلون الموالون لماتزوفسكى فصيلهم الذى يدعى حركة المواطنين - العمل الديمقراطى Citizens' Movement-Demooratic Action (او الائتلاف البولندى : دودا Polish Acronym : RODA) (٣١) .

وفى بياناتهم الأولى وجه مناضلو حلف رودا اتهاماتهم لحلف المركز . مستخدمين طرقاً ثورية وقالوا ان شعار « التعجيل » الذى يفضلها فاونسا ومؤيدوه يمكن أن يهز البلد هذا ويعادى الغرب • وغالباً ما كان فاونسا يصور على أنه ديماجوجى لا معقول ، ومغامر يخلو من أى حس بالتساويات السياسية . واختارت رود تاديوتس مازولسكى مرشحاً لها لمنصب رئيس الجمهورية ، ومن بين أشهر مؤيدى رودا كان جيرتسى تورفيتس Jerzy Tourowicz المحرر الذى يكتب مقالاً ثابتاً فى احدى الجرائد الأسبوعية وهى تيجودنيك بوتزشنى Tygodnik Powszechny وكذلك المناضلان المتمرسان واللذان اشتهرا فى مرحلة النضال السرى لمنظمة تضامناً وهما زيغنيو بوجاك وفيلاتسلاف فرازنيشوك Wladyslaw Fransyniuk وأخيراً آدم متشنك •

واعتبر « حلف المركز » ما أبداه يازويسكى وفريقه من تردد سبباً فيما أصاب بولندا من عجز عن التقدم للأمام ، فى هذه المرحلة الانتقالية من الشيوعية الى الديمقراطية • ورفض الحلف ادعاءات « رودا » بأنها تجسد « روح التضامن » وأوضح انها ترى فى نفسها وريثاً لأفضل تقاليد الاتحاد المستقل • وكتب جاك مازيارسكى Jack Maziariski

محرر تجدونسك سوليداريتسك وأحد البارزين في هذا الائتلاف عن برنامج وأنشطة هذا الحزب قائلا :

« وباتباع التقاليد الأساسية لتضامن ، والتي لا تماثل تقاليد اليسار البولندي (الذي يضم حدودا على الديمقراطية الاجتماعية وتجهّد مناصريها من بين العلماء والصحفيين والكتّاب إلى آخره) ، ولا تقاليد اليمين البولندي ، فإن حلف المركز يحاول أن يمنع التضامن العنيف بين التيارات اليسارية واليمينية باقرار أغلبية سياسية ثابتة. تشغل المساحة بين الطرفين » (٣٢) .

ورفض المتحدث الرسمي لرودا ، بدوره ، أن يضاف كلمة « اليسارية » لاسم حزبهم من قبل المتحدثين الرسميين المسؤولين. لفاونسا . وادعت الطريق أنها تستلهم روحها من الحركات المدنية الديمقراطية الشرق أوروبية ، التي تمت في السبعينيات والثمانينيات وقد أضاف رودا لرصيده بمبادرته التي أتمت الشفاء ولكن بطريقة الصدمة وذلك بطرحه الاستراتيجية الاقتصادية التي لا تعتدّ بأية حال من الأحوال يسارية . وفي مناسبات عدة أكد ممثلو رودا على أن حزبهم يتمتع بوحدة ، تضمن انضمام بولندا الى العائلة الديمقراطية للأمم الأوروبية قائلا ان جماعتهم كانت « غرب المركز » وبسؤاله عن معنى هذا الشعار ، فإن زيجنيو بوجيك الرمز الأسطوري الذي قاد تضامنا في المرحلة السرية الأولى بعد القانون العسكري أجاب :

« اننا نعمل من أجل حكم القانون والبرلمان ، من أجل استقلال الهيئة القضائية ، وغيره ، ونحن ضد أية طريقة يمكن أن تهدد المنجزات الديمقراطية . ولا يستطيع المرء أن يقلت من قيود التوتاليتارية بتطبيق طريق غير ديمقراطية » (٣٣) .

ان الصراع بين التيارين له أصل أعمق وهو بالتحديد الاختلاف حول طبيعة الخطر الرئيسي الذي يهدد ديمقراطية بولندا الهشة . ويرى حلف المركز أن استعادة الشيوعية هي تهديد حقيقي ودفعوا في اتجاه فوري ولا يقبل التسوية لابعاد النومكلاتورا عن كل المكاتب الحكومية ، بينما أشار « رودا » الى التعددية العرقية والديماجوجية ، باعتبارها أكثر الكوارث خطورة . وأدم متشنك كمثال اعتدّ فاونسا « خطرا على الأمة » وقال ان زعيم تضامن بكل مهاراته كمناضل شعبي ليس لديه ما يؤهله ليكون رئيسا لدولة ديمقراطية . ويرى متشنك ان ما يملكه فاونسا من « مثالية هي وظيفة يمسك من خلالها بكل حبال السلطة » (٣٤) .

ورد بوجاك على رؤى فاونسا عندما قال بأن « التعددية الفارغة »
 لحلف المركز قد استقطبت مشاعر القوميين ، « وبسبب وجهة النظر
 القومية لن يكون في مقدور [حلف المركز] أن يبنى حركة سياسية تربط
 بولندا بالغرب . ان حزب « رودا » هو الحزب الذي سيأخذ بيد بولندا
 الى أوروبا » (٣٥) .

وتورط رئيس الوزراء مازويسكى الرجل الذى كان بالتأكيد أكثر
 شعبية من وزرائه فى معركته مع فاونسا الدعوى والمشهور اسماء الاسحايات
 التى أجريت فى ديسمبر ١٩٩٠ حيث حصل فاونسا على ٤٠٪ فقط فى
 الجولة الأولى و ٧٠٪ فى الجولة الثانية . وبعد الجولة الأولى انسحب
 مازويسكى ماركا فاونسا يتحدى ستانسكو تيمنسكى Stanislaw
 Tyminski رجل الأعمال غير المعروف والذى كان مهاجراً الى كندا
 وبيرو والذى تعهد بتحسين الوضع الاقتصادى لبولندا فى خلال شهر ،
 وقد حصل نيمنسكى على أصوات تفوق ما حصل عليه هذا الذى يسم
 منصب رئيس الوزراء ، وهو ما أثار رعب المراقبين البولنديين وذعر
 كل الأحزاب الديمقراطية ، إذ أن الوافد الجديد غير المؤهل ليصبح
 رئيساً للجمهورية ، استطاع أن يفوز بخمسة وعشرين فى المائة من
 الأصوات فى الدورة الحاسمة فى الانتخابات . وقد كان واضحاً أن
 الصراع بين فصلي تضامن مع الاتهامات الكلامية التى تبادلوا رشقها ،
 قد ساهم فى ارتباك عام واحباط واسع النطاق بين المنتخبين . وبعد
 أيام قليلة من الجولة الأولى من الانتخابات الرئاسية فى بولندا كتب
 صدفى ايطالى تخصص فى الشؤون الشرق أوروبية يقول عن وارسو :

« ان المناخ الآن فى وارسو أصبح مسهما بهستيريا من الرعب حتى
 ان الوافد الدخيل ربما ظن ان المدينة كانت قد أعلنت مؤمراً مطقة
 كوارث طبيعية او انها حقيقة مصحة عقلية واسعة حيث يتهم فيها كل
 نزيل جاره بأنه يحاول أن يظهر نفسه عاقلاً . وبالمناخ ان مصطلح
 (السيكوباتى) غالباً ما يردد فى عبارات المفكرين والسياسيين
 هنا » (٣٦) .

ان هذه اشارة تنذر بالسوء لحزبى رودا حلف المركز ، اللذين
 أدركا أن السخط الشعبى يكمن خلفه انفجار مدمر ، وأنه ان لم يتم
 تحسين الأداء الاقتصادى فى القريب العاجل ، فستكون هناك على وجه
 التأكيد انفجارات للاضطراب الاجتماعى ، ولانجاز مثل هذه التحسينات،
 عمل فاونسا على التقدم بالحوار والمصالحة القومية واعاد تعيين
 ليزيك بالبروفتس Seszek Balcerowicz وزيراً للاقتصاد والمسئول عن

الشفاء بطريقة الصدمة في الحكومة الجديدة التي يرأسها
الآن كريستوف بيلسكى Krzysztof Bielecki البالغ من العمر ٣٩ عاما
وعضو البرلمان في جدانسك والاقتصادي الذي تحول الى رجل أعمال
وسياسي .

ان تكوين الحكومة الجديدة وكذلك اعادة تثبيت موقف فاونسا
أكد على أن مناضل منظمة تضامن المتميز كان قادرا حقا على فهم
القواعد والقوانين السياسية الواقعية . وفي أحد تشخيصاته الواعية
لفاونسا فان بيوتر فيرزبسكى Piotr Wierzbicki ، وهو واحد من أكثر
الصحفيين المؤثرين في بولندا ، حلل الأساطير العديدة التي ضربت حول
المرشح السابق لجدانسك وأوضح زيفها . واستنتج بيوتر فيرزبسكى
الآتي :

« ربما يبدو فاونسا حرياء لأنه برجماني متطرف . وبعيدا عن
رفضه لمبدأ العنف فان مودته للكنيسة الكاثوليكية البولندية وعندئذ
تشككه في معاداة السامية ، وتجاهله لشعارات تضامن (« روح
الشعب » ، « الخضوع » وغيرها) فان فاونسا لم يتبن أى مذهب من
أى نوع . وعندما قال ان تضامن لا هى جناح يمينى ولا يسارى ، فإنه
كان يتحدث عن نفسه أولا . انه لا يهتم بالاصيافات او المفاهيم . انه
يهتم بما يجب ان يأكله الناس وبما يقوله عن تضامن . انه يهتم بمزاج
الجمهور ان يعتبره مؤشرا لا يخطئ . انه يعلم انه اذا فشل في الابقاء
على روابط تجمع بين اتجاهات ومشاعر الناس العادية ، فإنه سيكون
لا شيئا . وكلمنا وضع في اعتباره أن تحديد أى طريق سلمي سوف يؤدي
بأسرع ما يمكن الى بولندا حرة حقيقية ، فإنه سيكون على الطريق
الصحيح » (٣٧) .

ان انقسام تضامن وتشكيل حزبين رئيسيين جديدين ساهم في جعل
التمايز السياسى تمايزا صحيحا . وفي المجتمعات الديمقراطية لا توجد
حاجة لأية روح عصبوية بين هؤلاء الذين يشكلون الطبقة السياسية .
وطالما أن الأحزاب السياسية تقاسم الحكومة في المثل العليا ، فان تنافسهم
هو اشارة على الدينامية الاجتماعية ، ويساهم في المزيد من التطور
للثقافة المدنية التي يمكن أن تمنع الانتقال من رئاسة قوية الى تجربة
ديكتاتورية .

✻ الخوف والاحباط في رومانيا :

وفي برنامجها الاصلى ادعت جبهة الخلاص الوطنى برومانيا أنها
تمثل روح ثورة ديسمبر المعادة للشوعدة . ولكن رومانيا استغرقت

أقل من شهر لتدرك أن الحكومة الجديدة كانت عازفة عن التورط في حل شامل للمؤسسات القديمة .

وفي يناير ١٩٩٠ نظمت جبهة الخلاص الوطني مظاهرة العمال الجماهيرية ضد أحزاب المعارضة واتهموها بخدمة مصالح اجنبية . والشعارات الجماهيرية التي رفعها مؤيدو الجبهة نادت بالشيء رئيس جبهة الخلاص الوطني كرجل بعثته العناية الالهية . وفي فبراير رفضت جبهة الخلاص القومي قبول وجودها الهامى ، وأعلنت عن نواياها فى تقديم مرشحين من أجل الانتخابات القادمة . ومنذ هذه اللحظة بدأت تفقد مصداقيتها بين الشباب والمفكرين - وتحديدا الجماعات التي كانت أكثر فاعلية فى الاجتياح المضاد للشيوعية . وكتب اوكتيفان بولر Octavian Poler فى أحد الأعمدة المؤثرة فى جريدة رومانيا ليبرا أو (رومانيا الحرة) Romania Libera وهى إحدى أهم الصحف اليومية القومية المستقلة ان طموح جبهة الخلاص القومي هو أن تحتفظ بصورتها الثورية ، لجمال المعارضة معارضة محايدة ، ولتؤكد على انتصارها فى الانتخابات البرلمانية والرئاسية المزمع اجراؤها فى الربيع .

وقبل ربيع ١٩٩٠ وفى سبيل ثورة ١٩٨٩ الرومانية ، انتساب الكثير من الجواهر الشك فى أن الزعماء الجدد يعرفون بعضهم البعض قبل انهيار نظام شوشيسكو . وأنهم قد تأمروا ليأخذوا السلطة فى اللحظة التي يزاح فيها الديكتاتور أمام المد الشعبى . ويعنى آخر ، فان جبهة الخلاص القومي ويعيدا عن كونها دفقا تلقائيا قادمة من القاعدة كانت تعبيرا عن المؤامرة التي قام بها هؤلاء الذين كانوا فى القمة .

ولان الحركة المنشقة كانت ضعيفة فى رومانيا الشيوعية وتراثها السياسى كان محدودا ، فان الاجتياح الثورى فشل فى أن يسفر عن تشكيل حكومة ثورية . وما حدث بعد ذلك كان حقا اقضاء للثورة عن بؤرة الاهتمام على يد جماعة متلونة من الشيوعيين ، وقد نظمت جيدا فى قصر المؤامرات مستخدمة أساليب التنكر . وكان يبدو أيضا أن أعمالهم نالت استحسان القيادة السوفيتية التي كان لديها كل الأسباب التي ترجح استبدال شوشيسكو « بأتوقراط مستنيرين » ، بدلا من تلك القوة المضادة للشيوعية والتي ظهرت بالفعل فى بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا .

وقد بدت جبهة الخلاص القومي مقتنعة تمام الاقتناع عندما عبرت عن رغبتها فى الانفصام عن الماضي . الا ان هذه النية كانت مجرد كلام طنانا

صحيح أن البوليس السرى السياسى كان قد ألقى رسميا ولكن فى ١ مارس ١٩٩٠ برز ثمانية على السطح تحت اسم مصلحة رومانيا للمعلومات Romania Service For Information ولم يحاكم أى فرد من هؤلاء الذين خططوا للمذبحة البشعة فى بوخارست بعد فرار شوشيسكو فى ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩ .

وأطلقت وسائل الاعلام الموالية للحكومة حملات شعواء لتحقيق المعارضة وكل هؤلاء الذين جرؤوا على المساءلة عن مدى شرعية جبهته الخلاص القومى . وحقيقة ، فان السبب الرئيسى لعدم استقرار رومانيا فيما بعد الثورة كان محاولة الشيوعيين الاصلاحيين الاحتفاظ بالسلطة السياسية والاقتصادية فى ايدى طبقة التومنكالتورا نفسها والتي حولت البلد بعد أكثر من أربعة عقود لحطام . وادركت الجماعات المدنية المستقلة ووسائل الاعلام الشرك الكبير الذى نصب لجبهة الخلاص القومى باعتبارها « دفقا » للثورة . فمن ناحية كانت هناك جبهة الخلاص القومى برئاسة أيون اليشيسكو الشخصية التى اشتهرت بقناعاتها الشيوعية على الصعيد العالمى ، ومن الأخرى كانت الأحزاب المعارضة التى يسيطر عليها ثلاثة « أحزاب قديمة جديدة » (الليبرالى القومى والفلاحون القومى والديمقراطيون الاجتماعيون) . وفى نفس الوقت برزت جبهة الخلاص القومى عددا كبيرا من الأحزاب الصغيرة التابعة التى كانت مستعدة أن تصدق على سياسات الجبهة بأمل المشاركة فى السلطة . وإثناء انتخابات مايو ١٩٩٠ قدم أكثر من ثمانين حزبا سياسيا مرشحين وكان منهم اربعون حزبا يبدون تعاطفهم مع جبهة الخلاص الوطنى . وكان لدى المعارضة قليل من الوقت لتنظيم نفسها وتحديد مسارها السياسى الذى يكسر الحواجز التى وضعتها حكومة الجبهة بينها وبين الجماهير .

ولم يكن هناك أى تقارير تثبت أن رئيس الوزراء بيتر رومان Peter Roman ابن أحد قمم الأيديولوجيين الشيوعيين والذى قضى سنوات الحرب فى موسكو كموظف تابع للكمترن ، كان منشقا وذلك خلال نظام شاوشيسكو . وعين سكرتير الخلاص القومى دان مارتيان Dan Martian فى السبعينيات كسكرتير عام لاتحاد الشباب الشيوعى ووزير للشباب Minister For Youth Affairs .

أما التشيسيسكو فانه لم يتنكر لماضيه الشيوعى بما فى ذلك دوره كأيديولوجى رئيس وكان ذلك فى أواخر الستينيات ، ورغم أن جبهة الخلاص الوطنى لم تكن حزبا سياسيا حقيقيا ، فان بلشفيتها الجديدة

التي بم النديد بها كانت استراتيجيه حياه أو موت استخدمتها
 النومنكلاتورا المحاصرة كمحاولة لاحتواء مد الموجة المضادة للشيوعية
 القادمة من القاعدة . ولأنها كانت مظلة أكثر من كونها حزبا شيوعيا
 دستوريا أيديولوجيا ، تلاعبت جبهة الخلاص الوطني بالمخاوف الثارة عن
 اللا استقرار والضياح . كان يجب على الجبهة أن تعترف بوهنهما
 السباسي في فبراير عندما دعت الأحزاب الأخرى للانضمام لبرلمان
 مضر يسمى المجلس الاقليمي للوحدة الوطنية Provisional Council
 of National Unity . وبالتعاون مع ممثلي المعارضة داخل الجسد الهش ،
 فان جبهة الخلاص الوطني هدفت لوضع حد للاضطراب العام .

الا أن السخط في رومانيا قد ضرب بجذوره ولم يكن من السهل
 وقفه . ان انغماس جبهة الخلاص الوطني في أنصاف الحقائق
 والمذبذبات العدوانية أسفر عن مزيد من التوترات داخل القوى
 الثورية والمدنية . وربما كان اليتشيسكو واهما عندما ظن أن الرؤية
 الرومانية للبرسترويكا سوف ترضى الجماهير ، ولخية أمل زعيم جبهة
 الخلاص الوطني فان الراديكالية بدلا من الحد من دفعها ، زاد مداه
 واستجمعت قواها .

ان الشعور المتفشى بأن جدول أعمال جبهة الخلاص الوطني
 الخفي كان يهدف للاحتفاظ بالنظام السلطوي كان له أساس من الصحة .
 وكان الرومانيون يعلمون أن البوليس السري المرعب ما زال موجودا
 رغم انكار السلطة ذلك رسميا . وتم تقديم بعض أتباع شونيسكو
 للمحاكمة بتهمة المشاركة في مذبة (١٦ — ٢٢) ديسمبر فقط وليس
 بسبب دورهم الذي قد لعبوه في اقرار واحد من أكثر الأنظمة الاستبدادية
 البذيئة منذ رحيل ستالين . وبدلا من استبعاد الأجهزة الادارية التي
 خدمت النظام السابق ، عينتهم جبهة الخلاص الوطني في مواقع قيادية
 مهمة . ولم تستطع المعارضة في كل البلدان الشيوعية السابقة
 الأخرى . أن تصل للسلطة أو أن تخطط للقيام بتحد حقيقي لمحاولة
 اعادة بناء الأحلاف اللينينية . ففي رومانيا اخترق الموالون السابقون
 الساتر الثوري وأطلقوا حملات عشوائية ضد الديمقراطيين ، وبدلا من
 اللجوء لطريقة التفاوض على أساس إمكانية الحوار بين الشيوعيين
 الاصلاحيين والمعارضة فان « الأوضاع المتردية في بوخارست
 Bucharest Syndrome » بلغت حد أن بيروقراطي النظام السابق
 ومأجوريه السيكيوريتيين حاصروا الثورة المضادة للشيوعية الأصيلة ،
 كما بلغت حد التذكر المستمر لهؤلاء الذين التزموا حقيقة بالتغيير
 السياسي والاقتصادي (٣٨) . وتحدث اليتشيسكو والرومانيون عن

التعددية واقتصاد السوق ولكنهم لم يبادروا بأى اصلاح حقيقى يمكن من خلاله التخلص من السلطة البيروقراطية للدولة . واستمر كبح وقمع المبادرات الفردية من قبل قرارات حكومية لا تعد ولا تحصى ، ولم يلق الاستثمار الأجنبى أى تشجيع ، ان رفعت الجبهة شعار « انذا لا نبيع بلدنا لمتعدى الجنسيات الغربيين » . لقد ازداد التضخم ، ولم يستأدد من اطلاق الأسعار وتحريرها سوى تجار السوق السوداء والبيروقراطيين .

وكما توقع اللينينيون غير آسفين ، فان اسرنايجية جبهة الخلاص الوطنى قد نسفت من أساسها وحدث ذلك لأنها تجاهلت ديناميات التنظيم الذاتى للمجتمع وتدفق المشاعر الجماعية وتوق الجماهير للحرية والآثار التى أسفر عنها التقدم نحو الديمقراطية فى البلدان الشرق أوروبية الأخرى . وفى مارس ١٩٩٠ تم نحدى جبهة الخلاص القومى «بميثاق تيميشوارا Timisoara Proclamation» البيان السياسى الذى كتبه العديد من المفكرين الشبان فى تيميشوارا وهى تون مدينة تفيق من سباتها وتتحدى حكم شوشيسكو اثناء عام ١٩٨٩ الثورى . وفى البند السابع من الميثاق استجوب الثوار المخلصون هؤلاء الذين قد ركبوا موجة الاجتياح :

« وبدأت تيميشوارا الثورة ضد النظام الشيوعى كله وهدموا النوميكلاتورا بأكملها ولم يكن ذلك بالتأكيد لاعطاء الفرصة لجهة مساعدة من المنشقين المعادين لشوشيسكو داخل الحزب الشيوعى الرومانى RCP للصعود على انقاض السلطة السياسية ، ان وجودهم على رأس السلطة السياسية يجعل تضحية أبطالنا بانفسهم لا معنى لها » (٣٩) .

وما كان له المغزى الأكبر فى الميثاق هو البند الثامن الذى نادى بتعديل قانون الانتخاب ، لمنع المناضلين الشيوعيين السابقين وموظفى البوليس السياسى من التشبث بالوظائف الحكومية والجرى وراء المقاعد البرلمانية ، كما عارضت الوثيقة بشكل مؤكد حق هؤلاء الذبن خدموا النظام الشيوعى أن يرشحوا انفسهم لمكتب رئيس الجمهورية . وحقق الاعلان بغيته فقد كان رد فعل النوميكلاتورا مشينا ، ان استخدما أسلحتهم التقليدية بما فى ذلك القذف والغمز واللمز والتخوف .

ولاقى اهداف الميثاق كل قبول من قبل مئات من الجماعات والجمعيات المستقلة ، بما فى ذلك جماعة الحوار الاجتماعى Group of Social Dialogue وهى كمهنة من المفكرين البارزين المعروفين

برفضهم السابق للتعاون مع نظام شوشيسكو . ومع حلول نهاية شهر أبريل تجمع العديد من الطلاب والعمال والمفكرين بميدان الجامعة في بوخارست ، حيث نظموا اعتصاما للاحتجاج على رفض الحكومة لتلبية مطالب الميثاق . ورغم أن حكومة جبهة الخلاص الوطنى أرسلت قوات البوليس لتفرقة المظاهرات التى عسكرت فى الميدان ، فإن المظاهرات تواصلت ليل نهار . وبهذا التحدى فقد اليتشيسكو عقله وأمر بمذبحة للمتظاهرين وقد كان ذلك خطأ كلفه الكثير ، اذ تذكرت الجماهير ممارسات شوشيسكو الاجرامية ضد « المشاغبين » فى تيميشوارا أول أيام الثورة .

وفى مايو ١٩٩٠ فازت جبهة الخلاص الوطنى بأغلبية المقاعد البرلمانية برومانيا ، وفاز اليتشيسكو مرشح جبهة الخلاص الوطنى بمنصب رئيس الجمهورية بأكثر من ٨٥٪ من الأصوات . وبالمقاربه بالدول الشيوعية السابقة الأخرى ، كانت رومانيا استثناء . وكان سر الانتصار الساحق لجبهة الخلاص الوطنى يكمن فى الغموض الذى لف توجهاتها الحقيقية نحو الاشتراكية ، ويكمن أيضا فى تفكك المعارضة واقتدارها للمنظم الجيد . ورغم حنينها الى ذكرى أمجادها السابقة ، فإن « الأحزاب التاريخية » فشلت فى إثارة أى رد فعل ايجابى بين العديد من الرومانيين خاصة من هم فى منتصف العمر ، وهناك عنصر آخر يرجع اليه انتصار جبهة الخلاص الوطنى الساحق هو اربابها وممارساتها العنيفة والمستمرة للمعارضة ، ورأى الرومانيون أن التصويت من أجل جبهة الخلاص الوطنى بدا هو البديل الوحيد للانزلاق فى هوة الاستبدادية (٤٠) .

وبادراكهم لهزيمة ما بعد انتخابات مايو ، فإن المنظمين لاعتصام ميدان الجامعة قرروا الانسحاب . وبحلول منتصف يونيو لم يطالب المحتجون . بما فيهم العديد من المضربين عن الطعام ، سوى بتأسيس واحدة من المحطات التليفزيونية المستقلة . وقد انتظر اليتشيسكو قليلا حتى يمكن للنار التى أضرمت فى قلب بوخارست أن تخمد دون تدخل منه .

ولكن فى ١٣ يونيو حاصر البوليس الميدان وفك خيام المضربين عن الطعام وحطموا المنصات التى اقامها المتظاهرون لالقاء خطبهم ، كما أصيب المتظاهرون بعد تفريقهم بالقوة ، وكان ذلك هو المرحلة الأولى من عملية القمع النهائى والحاسم للمعارضة .

وواصل البوليس السرى أعماله القمعية بعد سلسلة من الأعمال الاستفزازية بما فى ذلك الهجوم على مبنى وزارة الداخلية ومبنى التلفزيون المركزى . وكان هذا الانفجار هو ما يحتاجه التشييكوسلوفاكى تماما ؛ ليحصل على تأييد عمال المناجم فمنحهم مباركتهم ليطلق ليده العذان للقيام بمسارسات ارهابية فى بوخارست فى ١٤ ، ١٥ يونيو . واجتساح عمال المناجم مقرات الجمعيات المستقلة التى عرفت بنشاطها السياسى وهاجموا مقرات احزاب المعارضة والمئات من الجامعات والمدارس العليا . لقد كان رد فعل عنيف ودموى على احتجاج الجماهير ، بل كان عريضة ستالينية فاشية من الكره والعنف (٤١) . وقد انارت هذه الأعمال التى قام بها عمال المناجم حنقا دوليا شديداً وهو ما أجبر التشييكوسلوفاكى ومعاونيه للتخلى عن خطتهم المبدئية والتى استهدفت اذلال المجتمع المدنى الصاعد برومانيا اذلالا تاما ، وبالنسبة للمعارضة ، ورغم الأثر السيئ الذى خلفه انهيار يونيو واصلت تنظيم نفسها ، وفى سبتمبر شارك ممثلون عن أكثر الجماعات الديناميكية المستقلة فى اجتماع المقاومة الرومانية (٤٢) Romanian Resistance . وفى نوفمبر كتعبير عن الحاجة الى جمع شمل التشكيلات المتفرقة من المعارضة داخل البرلمان تشكل التحالف المدنى Civic Alliance ، وتحت قيادة رموز ثقافية وسياسية معروفة ، أعلن التحالف التزامه بإقامة ثقافة سياسية ديمقراطية فى رومانيا مستخدما الوسائل التربوية والحوار . ورغم انها لم تقدم نفسها على انها تشكيل سياسى ، وجد التحالف ، نفسه مصدرا لالهام المنبر المدنى التشييكوسلوفاكى . وفى يوليو ١٩٩١ أقام التحالف المدنى مؤتمره الوطنى ، وقررت نخبة من المناضلين البارزين تشكيل حزب التحالف المدنى كقناة تمسدهم بالمرشحون فى الانتخابات القادمة . ومن بين هؤلاء الذين ظهروا كرموز مهمة فى الحزب السياسى الجديد ، كان هؤلاء المفكرون ذوو المكانة البارزة من أمثال الناقد الأدبى نيكولا مانوليتشيكو Nicolae Manolescu وكاتب المقال السياسى ستالين تانيس Stelian Tanase المناضل المدنى بتيماشوارا وفاسيل بوبفتشى Vasile Popovici وجورج نوفان George Novan .

ولعجزهم وعدم رغبتهم فى المبادرة بمزيد من الاصلاحات الداخلية فان نظام جبهة الخلاص الوطنى استعاد الحملات السوفيتية واستنفر مشاعر الرومانيين القومية ضد السيناريو الدولى المزعوم الذى يهدف الى زعزعة استقرار البلد . وفى تلك العملية عبأ النظام المناضلين الشيوعيين السابقين ، وموظفى البوليس السياسى ، والمفكرين

المعادين للأجانب واستخدموا كرأس حربة للدعاية الحكومية المتزايدة ضد المجريين . وتولت المنظمة المتطرفة فائرا رومانسيكا هذه الحملة الشعواء والتي فاقت جهود شوتنيسكو المعادية للأجانب . ولأن الموقف الاقتصادي في رومانيا اسنمر في التدهور ، فقد فقدت السلطة فاعديتها الجماهيرية فأصبحت الشيوعية في أسوأ أشكالها هي آخر ملجأ ديماجوجي يلجأ اليه الحكام . وفشلت ثورة رومانيا في إقامة دولة القانون أما الشيوعيون السابقون والذين خاطبواهم على أنهم ديمقراطيون ، فبعتوا من جديد وأقاموا نظاما سياسيا يمكن أن يوصف بأنه « ديمقراطية نوتاليتارية » أو « ديكتاتورية تركز على تحمس شعبي » (٤٢) .

ولكن الجماهير عندما ندرك كم الأكاذيب الرسمية فان هذه الحماسة تبدل وتتوارى ، وبناء عليه فانه من المتوقع أن سلسلة من العنف ستجرى في هذا البلد ، وستتخطم قبضة جبهة الانقاذ الوطني على السلطة في آخر الأمر ، وعندئذ ، يمكن أن يكون أحد بدائل هذا التشوش هو العودة الى الصيغة السياسية التي سبقت الشيوعية وتتمثل في الاستبدادية الدستورية . وأحست جبهة الخلاص الوطني بالفعل بهذا الخطر ، وفي ديسمبر ١٩٩٠ قامت بطرد ملك رومانيا السابق الملك ميخائيل King Michael الذي جاء من منفاه في زيارة قصيرة لبلده ، وكان قد تنازل اجباريا عن العرش في ديسمبر ١٩٤٧ (٤٤) . ومرة أخرى ، فان تجربة اسبانيا تستحق التأمل . ويستطيع المرء أن يرى سمات الاستبدادية الدستورية في أنها تستعيد التقاليد التي انقطعت وتقدم تراثا سياسيا قادرا على قيادة المصالحة الوطنية ، وحقيقة وفي ديسمبر ١٩٩٠ فان التحالف المدني نشر بيانًا طالب فيه بأجراء استفتاء شامل ، ليقرر الشعب اذا كان يجب على رومانيا أن تعود للاستبدادية الدستورية مرة أخرى . وبالنسبة لكثيرين في رومانيا ، كان الملك هو رمزا للتجربة الديمقراطية القصيرة الأجل عقب الحرب العالمية الثانية . وكذلك يعتبر الملك الضمان الممكن والوحيد لعودة الوضع السوي الذي طال أنكاره على الحياة العامة . ان الدستور الديمقراطي الذي اتبع في عام ١٩٢٣ اعتبر - بناء على ذلك - كأساس شرعي لبناء نظام تعددي في ذلك البلد .

✧ يوجوسلافيا : نزاعات عرقية ، انفصالية ، تفكك :

أثناء عام ١٩٩٠ تخلت العصابة الشيوعية اليوجوسلافية League of Communists عن احتكارها السلطة وتفككت على نحو شبه تام . وأثناء عقد مؤتمره الرابع عشر اعترف الحزب بأنه لن يستجدي

امتيازاته الدستورية وأدرك انه لا يمكن لأى أحد فى المجتمع الديمقراطى أن يمتلك الحقيقة التاريخية المطلقة . ولم تكن هذه التنازلات كافية لتهدئة المصلحين الراديكاليين من سلوفينيا الذين طالبوا باعادة بناء تامة للحزب ، وعندما قوبلت مطالبهم بالرفض ، انسحبوا من المؤتمر ، ومن ثم تفتتت أوصال الأحزاب الفيدرالية المتناسكة . وفى مايو تم استئناف المؤتمر فى جو من التوتر العام . وأطلقت النداءات من أجل تحول الحزب الى منظمة يجتمع تحت مظلتها كل الفرق اليسارية فى تشيكوسلوفاكيا ، وعندما قوبلت مطالبهم بالرفض ، انسحبوا من المؤتمر ، وفى نفس الوقت كان الحزبان الكرواتى والسلافى الشيوعيان قد منيا بهزيمة منكرة فى الانتخابات التى شارك فيها كل الأحزاب ، لذا فان الشيوعيين فقدوا رصيدهم الجماهيرى فى ثانى أكثر جمهوريات يوجوسلافيا تقدما . وبعجزهم عن مواكبة التغيرات التى اجتاحت كل شىء ، حاول الشيوعيون أن ينظموا أنفسهم كحركة ملتزمة بالبقاء على يوجوسلافيا الفيدرالية . وفى جمهوريات أخرى توالى هزيمة الشيوعيين . وفى نوفمبر منيت عصبة الشيوعيين فى البوسنة Bosnia والهرسك Herzegovina بهزيمة مدوية من قبل الحزب الاسلامى للعمل الديمقراطى Moslem Party For Democratic Action ، وبعد شهر واحد فان شيوعى مقدونيا Macedonia خسروا الجولة الثالثة من الانتخابات (٤٥) .

وحاول رئيس الوزراء الفيدرالى أنتى ماركوفيتش Ante Markovic أن يعارض الاتجاه نحو اصلاحات تدريجية ومركزية ، راعى من شأن الاصلاحات الجريئة والفورية . وقد أعلن فوراً نية لتنظيم ائتلاف يشمل كل قوى الاصلاح فى يوجوسلافيا Alliance of Reformist Forces وتمتع بشعبية كبيرة بين العديد من المواطنين الذين صدقوا على فكرة الانفصال التام عن الفيدرالية (٤٦) . الا أن الصراع السياسى واللاتمازج بين جدولى الأعمال الاجتماعى والاقتصادى الحكومات الجمهوريات ازداد عمقا . وكنتيجة لانتخابات سلوفينيا وكرواتيا فان الجمهوريتين قد ساسهما ائتلاف يمينى ، بينما خطط الشيوعيون فى انتخابات ديسمبر للبقاء فى السلطة فى صربيا ، أكبر جمهوريات يوجوسلافيا وأكثرها قوة . وباعتباره المؤسسة الأولى فى يوجوسلافيا استمر الجيش فى معارضة الاتجاهات الانفصالية ، الا أن كثيرين فى سلوفينيا وكرواتيا نظروا للجيش على أنه أداة لتحقيق رغبات رجل صربيا القسوى وهو سلوبان ميلوسيفيتش . وفى نفس الوقت وفى

سلوفينيا انتخب شيوعى سابق رئيسا للجمهورية ، الا أن الانتخابات البرلمانية فاز بها ائتلاف يمينى مكون من أكثر من خمسة أحزاب تسمى ديموس Demos . وفى ديسمبر ١٩٩١ صوت معظم السلافيين فى استفتاء عام لصالح استقلال بلدهم عن يوجوسلافيا ، ومن ثم دشّن نموذج يعد فال شؤم على مستقبل الفيدرالية . ولم يكن ذلك - بالضرورة - يعنى انفصالا أو انعزالا ، بل هو مشروع تدريجى سوف يسمح للجمهورية السلافية بأن تسيطر على الجيش والسياسات الخارجية والمالية والتي كانت حقا مقصورة على الحكومة الفيدرالية فى بلجراد . وطالب بعض الرسميين السلافيين بصيغة كونفدرالية مشابهة للمجموعة الأوروبية European Community ، الا أن آخرين قد توقعوا احتمالية الانفصال الكامل . وكمثال ، فإن المناضل المنسّق السابق ديميتري روبل Dimitrij Rupel الذى أصبح بعد الانتخابات وزيرا للشئون الخارجية بسلوفينيا ، أعلن :

((ان هذا البلد يتفكك . ويعانى من عدم استقرار عظيم وخاصة من وجهة نظر النظام الشرعى إذا ، فافنا مجبرون على البحث عن صيغة جديدة للعيش)) (٤٧) .

وأصبح نودجهان أول رئيس جمهورية غير تسيوعى فى تاريخ يوجوسلافيا . وقد حكم كمرشح للاتحاد الكرواتى الديمقراطى القومى Croatian Democratic Union ولم تكن مقولة ديمتري أقل إثارة من مقولة ميلوسيفيتش الاستفزازية فيما يخص التساؤلات الموجهة لصربيا عن الحدود الموجودة بين الولايات ، وعمّا إذا كان اليوجوسلاف على وشك أن يصبحوا كونفدرالية . ان المראה والشك الموجودين مسبقا بين الصرب والكروات ، كانا قد تفاقما بسبب نضال ميلوسيفيتش من أجل قومية صليبية . وحقيقة ، فإن رئيس الجمهورية بدا للكثيرين نى هذا البلد وللمراقبين الأجانب مثل ممارس للسلطوية الشعبية .

((ان رد الفعل الشيوعى القومى الأخير الذى حاول أن يعيد عقارب الساعة للوراء لم يسفر سوى عن الاسراع ببلاتنة Balkanization يوجوسلافيا المضادة للشيوعية)) (٤٨) .

وفى يونيو ١٩٩١ طالب البرلمان السلافى والكرواتى باستقلال تلك الجمهوريات . ووجهت الحكومة المركزية فى بلجراد انذارا الى الزعماء السلافيين المتمردين ، الا أنهم رفضوا بشم أن يخضعوا له . وتدخل الجيش وهاجم المؤسسات العامة والوحدات الخاصة فى

سلوفينيا • وبدأ الجيش لكثيرين كإداة تفرض الهيمنة الصربية • ووسعت يوجوسلافيا فريسة للاضطرابات والمعارك المكثفة من جراء تصدى القوات العسكرية لقوات الدفاع السلافية ، مما أسفر عن قتل وجرح كثيرين • لقد بدأت التسوية عندما قبل الصرب سياسيا كرواتيا كرئيس للجمهورية الا أن القضايا التي أثارت الأزمة ظلت موجودة • ودون إعادة النظر في دستور البلد لجعله أكثر مرونة من أجل سيادة حقيقية ومشتركة للجمهوريات ، فإن يوجوسلافيا لن يكتب لها البقاء • فى نفس الوقت ، فإن تدخل الجيش فى الشؤون السياسية - وهى ضربة غير معلنة حقاً - كرس نمودجا غير محدد المعالم سيطبق فى أوروبا الشرقية بعد أن تخلصت من الشيوعية •

ان انهيار الشيوعية اليوجوسلافية ، واللامركزية السياسية الاقتصادية ونمو الحركات القومية ، بما فى ذلك الجماعات الشوفينية المتطرفة ، أدى الى موقف يندر بالانفجار حيث أصبح يدخل الجيش أمراً محتملاً ، واضطهد الصرب فى كوسوفو Kosovo الالبان وهددت الأصولية الكرواتية الصرب فى كرواتيا ، وانجذب السلافيون الى حكم الفيدرالية الاوروبية المركزية Central European Federation ولأن المسلمين يبدون كرههم للمسيحيين ، والمسيحيون يهاجمون المسلمين ، وطبقة العمال يسودها الاضطرابات المزمنة ، ويواجه نحو ٢ مليون عامل شبح البطالة كنتيجة للاصلاحات الاقتصادية الكبيرة ، فإن يوجوسلافيا التسعينيات أصبحت قنبلة موقوتة من المحتمل انفجارها فى أى وقت • وحتى ذلك الحين كيف يمكن لمثل هذا الحدث أن يمنع تردى البلاد لمزيد من الفوضوية بل كيف يمنع انزلاقها لحرب أهلية ؟ • لم يبق من يوتوبيا المارشال تيتو عن الجمهوريات المتسقة التى تجمعها الأيديولوجية والأمل وفى بناء اشتراكية مستقلة سوى الأطماع والسخط •

البانيا : وداعا ستالين :

ولأن القوى الحركة للاقطار التابعة سابقا للسوفييت كانت تتساقط الواحدة تلو الأخرى فى سنة ١٩٩٠ الثورية ، بدت ألبانيا وكأنها حصن لا يمكن اقتحامه ، وتتمسك تماماً برفضها الليبرالية ودفاعها العنيد عن الأرثوذكسية اللبينية • وقال زعيم الحرب الشيوعية رامز عاليا Ramiz Alia فى نوفمبر ١٩٩١ ، ان بلاده متمسكة برفضها للتغييرات التى بادى بها جورباتشوف ، وحذر من هؤلاء الذين ينشدون

تقليدها ، ولأنه بدا وكأنه يتسبب كثيرا أعداء الاصلاح المحافظين مثل نيكولاى شاوشيسكو وفيديل كاسترو قال عاليا :

« اننا نؤكد خاصة على ذلك عندما نذكر ما يحدث الآن في البلدان في الشرق ، هناك التقى البرجوازيون والانتهازيون بنوى اخرى ووجدت تكتيكاتها واستراتيجياتها لازالة الانسراحية كنظام اجتماعي . ومع شعيرات ديموقراطية عن الحرية والحقوق الديمقراطية التي تقبضها الجماهير الكادحة لسلطة أفراد منادين بالشعب والشرائح الاجتماعية وبهجة اصلاح الاخطاء التي ارتكبوها هم أنفسهم قاموا بالتأكيد مرة اخرى على قوانين المجتمع على الطراز الرأسمالي » (٤٩) .

ولمنع انتشار عدوى الأفكار « التعديلية » فقد اتخذت اجراءات أمن مشددة في البانيا في بداية التسعينيات ولكن دون جدوى فان اتت التغبرات في البلدان الأخرى كان أكثر قوة من آلة الدعاية الشيوعية ، وفي يونيو ١٩٩٠ لجأ آلاف من الألبان الى السفارات الغربية في تيرانا ، وفي يوليو ولأن الحكومة الشيوعية أدركت مدى ضعفها ، فقد سمحت لهم بترك البلد (٥٠) . وفي أكتوبر ١٩٩٠ عانى النظام من هزيمة أخرى فقد قال أكثر الكتاب البارزين في البلد ورمز الشباب الالباني اسماعيل قادر Ismail Kadare المفكر المحننى به الذى كان في الماضي مؤيدا لانقسام خريجة عن جورباتشوف ، والذي ساهم في رسم صورة البطل القومى للزعيم جورباتشوف :

« حتى الآن كنت أحاول أن أجعل النظام ناعما الى الحد الذى يجعله مقبولا في البانيا » وفي سياق مقابلاتى وتبادل الخاطبات مع الرئيس في الربيع الفائت ، عبرت بوضوح عن أهمية تحقيق ديمقراطية سريعة وأصلية وكاملة في البلد . ولأنه ليس هناك أية امكانية لقياس معارضة شرعية في البانيا فقد اخترت هذا المسار الذى لم آمل أبدا أن أخذه والذي لا أحبه للآخرين » (٥١) .

وبعد عدة شهور وبعد أن لاحظ بداية تطبيق سياسة الانفتاح في بلده ، قال قادر انه في حالة التحول الديمقراطية في البانيا ، فإن سرعة التغيير تكون مسألة حياة أو موت » (٥٢) .

وكما لو كان بقرأ الواقع البولندى ، فقد اندلعت موجة من المظاهرات الطلابية من أجل الديمقراطية أدت الى مرحلة سياسية دراماتيكية .

ولأن الاضطراب الجماهيري تطور ، فقد بدا انه تعلم من الدروس المستفادة من نهاية شاوشيسكو الوضيعة . ان نظام الحزب الواحد

قد أزيل ، وسمح للمعارضة أن تتكون ، وبدأ تأثير أرملة أنور خوجة .
 فكسجى كزعيم لجهة الشعب الديمقراطية People's Democratic Front ، ولأول مرة منذ عشرين عاما أعلنت البسانيا نفسها دولة ملحدة ، فان الجماهير احتفلوا في الكنائس الارثوذكسية اليونانية Greak Orthodox Churches أنها نهاية رمزية لمرحلة من التطرف والنصب وكان ذلك في ٢١ ديسمبر ١٩٩٠ والمناسبة هي العيد ١١١ لميلاد ستالين ، وبدلا من تناول الأنخاب الأرثوذكسية التقليدية ، فان ساحة تحركت الى شارع ستالين بيرانا Tirana's Stalin Boulevard في منتصف الليل وحملت التمثال البرونزي الأسود للطاغية السوفيتي ، وعلق من رأسه على ظهر الشاحنة (٥٣) . وسرعان ما شكلت الأحزاب السياسية ونسابت الجماهير لدعم الديمقراطية .
 ديسدت الحكومة بإجراء انتخابات متعددة الأحزاب تجرى في شهر مارس ، ولكن بعض زعماء المعارضة كشفوا الحيلة التي سبق « استخدمتها جبهة الانتاذ الوطني الرومانية في اندفاعها لاستغلال نقص المعلومات والارتباك بين الجماهير ، وقال جنسى بولو ، المتحدث الرسمي عن الحزب الديمقراطي المعارض :

« لقد كان هناك العديد من القلقين والرعب السياسيين ، ان الآثار التي خلفها ستالين كانت قوية جدا ، حتى اننا لا نعتقد ان الوقت كان كافيا قبل الانتخابات كي نشرح اطارا بديلا للطريقة التي يفكر بها أغلبية الناخبين ، ونحن لهذا السبب نتجنب الإفراط في التناول بأكثانية
 أنفوز » (٥٤) .

وبعد كل هذه التحليلات والاستنتاجات المميزة ، فانه من الواضح أن الحزب الحاكم أدرك أن الطرق القديمة للقمع الارهابي لا بد أن يتم التخلي عنها وانه يجب على زعماء ألبانيا أن يتحركوا بعيدا عن النموذج الستاليني الجامد والذي حرصوا عليه - في الماضي - ووضموه تحت حراستهم . وحقيقة ان المعارضة خططت في انتخابات مارس ليفوز بأغلبية الأصوات في المناطق الحضرية ، بينما نجح الشيوعيون في الريف . وهذا يشير الى أن الانتقال الى التعددية سوف يتضمن مشروعا عريضا من أجل الصحوة المدنية ، خاصة في المناطق التي تعاني من نقص المعلومات . ولوحظ عامل آخر أثناء انتخابات ألبانيا وهو أن محاولات الحكومة النظامية لارهاب المعارضة ، واستخدامها لوسائل الاعلام التابعة للنظام لتصفية المعارضة . وفي هذا الاطار ، كان هناك تشابه بين ألبانيا ورومانيا .

الفصل السابع

- Kenneth Jowitt, "The Leninist Legacy", in Ivo Banac, ed., (١)
Eastern Europe in the 1990's (Ithaca, N.Y. : Cornell University
 Press, 1991).
- Timothy Gaston Ash, "Eastern Europe : Après le Déluge, (٢)
 Nous, "New York Review of Books, August 16, 1990, p. 52.
- Ralf Dahrendorf, *Reflections on the Revolution in Europe* (٣)
 (New York : Random House, 1990), p. 105.
- Celestine Bohlen, "Double-Headed Eagle Cries to Serbs for (٤)
 Revenge," *New York Times*, September 12, 1990.
- Alexis de Tocqueville, *On Democracy, Revolution, and* (٥)
Society, ed. John Stone and Stephen Mennell (Chicago and London
 University of Chicago Press, 1980), p. 98.
- Robert C. Tucker, ed. *The Marx-Engels Reader* (New (٦)
 York : Norton, 1978), p. 595.
- Ash, "Eastern Europe," pp. 53, 54. (٧)
- See Stephen Engelberg, "Walcsa's Victory Now Complicates (٨)
 Poland's Unease," *New York Times*, December 30, 1990.
- Dan Ionescu, "The Communist Party Re-Emerges Under a (٩)
 New Name", *Report on Eastern Europe*, 1, no. 51 (December 21,
 1990) : 22-27.
- Ash, "Eastern Europe," p. 51. (١٠)
- See "Reorienting the Security Services," an interview with (١١)
 Peteruska Sustrova, Deputy Minister of Internal Affairs and a
 longtime opposition activist, in *Uncaptive Minds*, November-
 December 1990, pp. 38-40.
- Karol Modzelewski, "Who and What Makes a Leader," (١٢)
Uncaptive Minds, November-December 1990, p. 32.
- Ralf Dahrendorf, *Reflections on the Revolution in Europe*, (١٣)
 pp. 115-16.
- See Charles S. Maier(*The Unmasterable Past : History,* (١٤)
Holocaust and the German National Identity (Cambridge, Mass.,
 and London : Harvard University Press, 1988).
- Christopher Husbands, 'Haunted by the Ghost of Nazism', (١٥)
The Independent (London), January 10, 1990.
- Henry Kamm, "East German Social Democrats Back a (١٦)
 Candidate and a Unification Plan," *New York Times*, February
 26, 1990.
- Serge Schmemann, "East Germany's Ballot : Voting Away (١٧)
 a Nation," *New York Times*, March 18, 1990.

- Frankfurter Allgemeine Zeitung*, June 27, 1990, quoted in (18)
- Roland D. Asmus, "An Obituary Without Tears", *Report on Eastern Europe*, January 4, 1991, p. 18.
- Rada Nikolacv, "Between Hope and Hunger," *Report on Eastern Europe*, no. 1 (January 4, 1991), : 5 - 10. (19)
- Zlatko Anguelov, "The Leader and His Movement", *East European Reporter*, 4, no. 3 (Autumn-Winter 1990) : 27-28. (20)
- "Bulgaria' Reichstagsbrand ?" *EER*, 4, no. 3 : 29. (21)
- For a survey of the Bulgarian changes during 1990, see (22)
- John D. Bell, "'Post-Communist' Bulgaria", *Current History* (Philadelphia), December 1990, pp. 417-20, 427-29.
- Jiri Pehe, "The Instability of Transition," *Report on Eastern Europe*, January 4, 1991, p. 12. (23)
- Henry Kamm, "Civic Forum, Prague's Leading Party, Splits in Two," *New York Times*, February 12, 1991. (24)
- "President Havel's Speech on the Anniversary of the 1968 Invasion," *EER*, Autumn-Winter 1990, p. 93. (25)
- Ivan Volgyes, "For Want of Another Horse Hungary in 1990," *Current History*, December 1990, p. 423. (26)
- Ibid.*, p. 424. (27)
- Rudolf L. Tökes, "Hungary's New Political Elites : Adaptation and Change, 1989-90." *Problems of Communism*, November-December 1990, p. 64. (28)
- See the interview with the Hungarian social philosopher (29)
- Mihaly Vajda in *East European Reporter*, 4, no. 3 (Autumn-Winter 1990) : 43.
- Celestine Bohlén, "Hungarians Are Thriving, Gloomily," (30)
- New York Times*, June 24, 1991.
- For an informative and dispassionate analysis of the split, (31)
- see Jakub Karpinski, "The Difficult Return to Normality, *Uncaptive Minds* (New York), November-December 1990, pp. 24-26.
- Jacek Maziariski, "The Goals of the Center Alliance," *East European Reporter*, Autumn-Winter 1990, p. 7. (32)
- Interview with Zbigniew Bujak, *East European Reporter*. (33)
- Autumn-winter 1990, pp. 10-11.
- Mary Battiata, "The Two Lech Walesas : Solidarity Hero (34)
- Accused of Demagoguery", *Washington Post*, November 22, 1990.
- Victoria Pope, "Lech-Luster : Walesa's Personal Transformation," *The New Republic*, December 3, 1990 p. 25. (35)
- Barbara Spinelli, "The Day After", *La Stampa* (Milan), (36)
- November 30, 1990, English translation in *Uncaptive Minds*, November-December 1990, p. 35.

- See Piotr Wierzbivki's masterful essay "Lech Walesa : The Sphinx from Gdansk" *Uncaptive Minds*, November-December 1990, pp. 27-31. (٢٧)
- Vladimir Tismaneanu, "Sindromul Bucuresti," *Romania Literara* (Bucharest), August 9, 1990. (٢٨)
- "Proclamatia de la Timisoara," *Romania Libera* (Bucharest) March 20, 1990. English translation in *East European Reporter* Spring-Summer 1990, pp. 32-35. (٢٩)
- For the difficulties of Rmania's transition to democracy, see Vladimir Tismaneanu, "The Revival of Politics in Romania", in Nils H. Wessell, ed., *The New Europe n Revolution in East-West Relations* (New York : Proceedings of the Academy of Political Science, 1991), 85-99. (٣٠)
- See Vladimir Tismaneanu, "Homage to Golan," *The New Republic*, July 30 -- August 6, 1990, pp. 16-18 ; William McPherson, "In Romania," *Granta*, no. 33, pp. 9-59 ; Mihnea Berindei Ariadna Combes, and Anne Planche, *Roumanie, le livre blanc : La réalité d'un pouvoir néo-communist* (Paris : La Decouverte, 1990). (٣١)
- "Romanian Resistance". *East Reporter*, Autumn-Winter 1990, pp. 89-91. (٣٢)
- J. L. Talmon, *The Origins of Totalitarian Democracy* (New York : Praeger, 1960), p. 6. (٣٣)
- David Binder, "Exiled Romanian King Has Hopes of Return," *New-York Times*, February 17, 1991. (٣٤)
- Milan Anrrejevich, "The End of an Era, New Beginnings ?" *Report on Eastern Europe*, January 4, 1991, p. 39. (٣٥)
- Robin Alison Remington, "The Federal Dilemma in Yugoslavia," *Current History*, December 1990, p. 408. (٣٦)
- Brenda Fowler, "Slovenes Vote Decisively for Independence from Yugoslavia", *New York Times*, December 24, 1990. (٣٧)
- Sabrina P. Ramet "Serbia's slobodan Miloosevic : A Profile", *Orbis* (Philadelphia) Winter 1991, p. 105. (٣٨)
- "Alia Epeaks on Ideology, Changes in Bloc," *FIBS* — Eastern Europe, November 29, 1989 p. 6. (٣٩)
- See Simon Jones, "Albanians Cheer for Their New Freedom," *The Independent* (London), July 14, 1990. (٤٠)
- "Top Albania Writer Seeks Asylum in France a Blow to His President", *New York Times*, October 26, 1990. (٤١)
- David Binder, "Albanian Exile Writer Sees Reform", *New York Times*, December 6, 1990. (٤٢)
- "Albania Removes Statues of Stalin," *New York Times*, December 22, 1990. (٤٣)
- Paul Anastasi, "New Albania Barely Conceals a Stalinist Bedrock," *New York Times*, January 20, 1991. (٤٤)

الخاتمة

مخاوف ، وفوبيا ، واحباطات .
أوروبا الشرقية بين العرقية والديمقراطية
« ان تصبح هدفاً للازدراء أو الترحيب من جيرانك - حسب
هواهم - يعد واحداً من أكثر التجارب المؤسفة التي يمكن
أن يمر بها الأفراد والمجتمعات ويعانون من جرائها .
فتكون نتيجتها غالباً أن تتحول الخصال الحقيقية أو
الخيالية للفرد لنوع مرضى اذ تتحول نظراته للكرامة
والسعادة لنظرة احتقار وعداوة » .

آيسايا برلين

Isaiah Berlin

من وارسو الى نيرانا ومن براتسلاف الى صوفيا تجاوزت أوروبا
الشرقية الماضي الشيوعي ودخلت مرحلة جديدة . أما الحاضر والمستقبل
فهما الآن في يد الممثلين الوطنيين ، وعليهم يتوقف بناء السياسات
الديمقراطية . وليس بمقدور أحد ان يحدد خطأ ارشاديا لعملية
الانتقال . وليس هناك مخطط يضمن اليسر والسهولة لهذا الانتقال
الكبير ، ومن ثم بدا واضحاً أن الصراع في تلك المجتمعات أخذ يستقر
بين العصب الديمقراطي والسلطوية . وأسفر انتصار السلطويين عن
مواجهات داخلية ودولية . ومن ناحية أخرى ، لا يستطيع المرء ان
يتجاهل تواجد مجموعات وأحزاب مؤثرة داخل كل هذه البلدان تدشن
مبادئ التعددية ومستعدة للقتال من أجلها .

ويرى كثيرون من أبناء جيلي أن الشيوعية قد أوشكت على الفناء .
لقد ترعرعنا في أوروبا الشرقية (التي تضم أيضاً الاتحاد السوفيتي)
معتقدين بأن نظام الأشياء كما أمّلته علينا هذه السلطة القائمة هو نظام
أبدى لا يمكن التخلص منه . وبفضل الملحمة التي صنعت أحداث ١٩٨٩
فان هذه القناعة لم يعد لها أي تبرير اذ أزيح الستار الذي غشى على
أعيننا . لقد كانت معجزة السقوط المفاجيء تجسد آمال العصر الألفي
السعيد للعق . وعجزت الراديكالية المتهترئة أن تجد طريقة تخفى
بها - أو تنكر - سقوطها . وكان هذا الانهيار يعني نهاية الحلم
اليوتوبى عن الخلاص العالمى واعادة اكتشاف مبادئ الحرية الفردية

التي نظر اليها طويلا نظرة احتقار . وانهيار المجتمع المغلق الذي مجده العديد من « المناضلين من أجل الروح الانسانية » ، تحت ضغط القوى التي بهرها المجتمع المفتوح باحترامه للنمايزات والأقليات بل وباحترامه لأقل الفروق الفردية .

وربما بدأت عملية الانهيار مع شجب جورباتشوف لشخص ستالين (الخطاب السرى) في الجلسة التاريخية لمؤتمر الحزب الشيوعى السوفينى العشرين . وفي هذه الليلة من فبراير ١٩٥٦ تلقت أسطورة الاتحاد الودحوى للشيوعية العالمية ضربة قاتلة . وما تبع ذلك كانت فترات طويلة من التعتت ، والاهمال ، والتميازات العرقية المؤثرة والمناظرات المشبوبة . وفي كل المجتمعات الشرق أوربية فان الأسطوره التى قدست الحزب كمؤسسة تعليمية جماعية لاقت كل ازدراء من جانب الحركات الاجتماعية الجديدة والتي لم تحدد توجهها سواء باليمين التقليدى أو اليسار . ونظر للشيوعية على أنها هيوقرايايات عتيقة ، وبأنها محاولات منظمة للسيطرة على العقل الانسانى والاحتياجات الانسانية باسم الأيديولوجية الميتة التى ابتكرها الفيلسوف الألمانى الشاب فى أواسط القرن العشرين . وبسرعة مذهلة أدرك الناس انه كان فى مقدورهم التخلص من السترات الأيديولوجية الحديدية التى كبلتهم ، بل وتمزيقها وخلق روابط انسانية تجمع الشعوب . وفى هذا القرن ، ولأن المعلومات أصبحت هى أكثر الأسلحة العصرية فاعلية لكشف الحقائق والمصارحة والتواصل ، فقد تفجر ينبوع من الأكاذيب والخرافات التى تؤكد على استمرار الطغاة الشيوعيين .

ومنذ أربع سنوات اشتركت فى مؤتمر مدينة نيويورك وكان موضوعه « هل ستبعث الدول الشيوعية من جديد ؟ نظرة من الداخل » . وفى أكتوبر ١٩٨٧ خلقت اصلاحات جورباتشوف حالة من الهوس الذى تفشى . ان بزوغ نجم الزعيم التعديلى على قدس أقداس الأمبراطورية بدا محركا للأمال العليا من أجل التغير السريع . وبدأ واضحا أن هامش التسامح — أو قل الحدود التى سمح بها الكرملين لتجريب الاصلاحات — قد اتسع على نحو دراماتيكى . ربما كان بدعة تحت قيادة برجنيف دشن كخط حزبى جديد تحت قيادة جورباتشوف . وكمثال على ذلك فان شعار الاشتراكية ذات الوجه الانسانى قد تبناه السكرتير العام الشيوعى واعتبره واحدا من الأهداف الرئيسية للبروسترويكيا ولكن كان هناك من يتشكك فى ذلك ، وانكر هنا أن الكاتب وعالم المنطق السوفيتى المنشق المعروف المعروف زينوفيف Alexander Zinoviev كتب مقالا أسماه « التماسيح لا تطير » . وأرسل

ميكولوس هرانسى المفكر المشق والمناضل فى سبيل حقوق الانسان ورقته بعنوان « عديدة الاحدي » ، مثيرا الى ان تمتسك سسمايس -ى بودايسيت ومؤكدا على أن الأحدية النوتاميتارية قد ذوت للمحد الذى جعل الامل فى الليبرالية مجرد وهم . وقال ايفان سفيناك الفيلسوف التشيكي بأن اصلاحات جورباتشوف لم تكن سوى ذر للرماد فى العيون ، بل اسما ذوع آخر من الدعاية التى تمارس من أجل انقاذ النظام وليس ازالته . وقال المنشق الرومانى ميهائى بونسى بأن صعود الدولة الشيوعية القومية — كأكثر التطورات المحملة — شىء يمكن أن نوقعه تحت قيادة جورباتشوف .

ان التمرد العظيم لعام ١٩٨٩ اخترق العديد من المعتقدات الراسخة وأجبرنا على التساؤل عن الحكمة من قيام مثل هذه الأنظمة ومدى فاعليتها — وعندما نشير الى قضايا عام ١٩٨٩ الشائكة لا بد أن تذكر العوامل التالية : أولا : أن الاجتياح قد ارتبط بفقدان الأحلاف الحاكمة التام لشرعيتها الكاملة فى المنطقة . والحقيقة أن هذه الظاهرة قد بدأت فى أواسط الخمسينيات ولكنها بلغت ذروتها أثناء العهود المشؤمة للبرجينية وما ساد فيها من احباطات ، وبدت الاشتراكية التى على الطراز السوفيتى والتى لا أمل فيها ولا رجاء هى آخر ما فى جراب السلطويين . وفقدت احزاب الشيوعية ثقتها بنفسها وعانت من الفساد السياسى الذى لا يمكن اصلاحه . وكل المحاولات التى بذلت لبعث العقائد البالية وكذلك المناورات التى دبرت للانخراط فى استراتيجية التحديث aggiornamento التى تبناها الكاثوليك كتب لها الفشل فى أوربا الشرقية ، وفقد هؤلاء الذين داعبهم الأمل فى الخلاص على يد السلطات القائمة ما تبقى من ايمان . وبمعنى آخر ، فان الأسطورة الماركسية قد استنفدت طاقتها المستقطبة ولم تعد هناك جماعات اجتماعية تعنى باستمرار الهيمنة التى تم توظيفها لعقود طويلة . ثانيا : ولأن حماة ورعونة الاحلاف الشيوعية قد تددت للعيان فان القوى الاجتماعية الجديدة تصدرت المقدمة وطرح حولا بديلة . وبمعنى أشمل ، فان هذه القوى كانت وقود المحتمعات المدنية الصاعدة بمعنى أنها بذلت الجهد الجماعى من أجل اقامة مؤسسات متوازية تتناطح المؤسسات الحكومية ، وتحدث ادعاء الحكومة بالهيمنة على الحياة الانسانية . ثالثا : ان أقول الأسطورة الماركسية وصعود نجم المجتمع المدنى قد ارتبطا بالكوارث الشاملة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية التى بليت بها كل تلك البلدان . ان أكثر الأسباب التى أدت للانهايار المدوى كان افلاس الاشتراكية الاقتصادية

والوعى بأن اقتصاد السوق فقط هو الذى يمكن أن يضمّن الشفاء
الاقتصادى . لقد فشل الاقتصاد الموجه فى إثبات فاعليته التى يمكن
أن تبرر التضحيات التى مُرضت دون توقف على الجماهير .
رابعاً : لا يجب أن نقلل من أهمية المؤثرات الخارجية ، فبدون التغيرات
التي اجتاحت الكرملين وبدون ما قام به فريق جورباتشوف (ياكوفليف
- وشيفرنادزه) من إعادة صياغة الاستراتيجية الدولية السوفيتية
بما فى ذلك عقيدة اللا ايديولوجية فى العلاقات الدولية ، فإن التغيرات فى
أوروبا الشرقية كانت ستظل أكثر بطئاً وبالنسبة أكثر تفتتاً وعصبوية
وعنفاً . ولم يعد الاتحاد السوفيتى يلوح بالتدخل العسكرى خاصة
بعد انسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان . وبدلاً واضحاً
بالنسبة للمناضلين المذنبين فى أوروبا الشرقية أن الاتحاد السوفيتى لن
يقوم بمغامرة جديدة يمكن أن نسيء الى صورته الجديدة وعلاقاته
الدولية التى أقامها جورباتشوف مع الغرب .

ان طبيعة هذه الثورة تحتاج لتحليل خاص ، لأنها تفسر أيضاً
الصعوبات التى واجهتها تلك البلدان أثناء فترة الانتقال . أولاً لابد
للمرء أن يلاحظ أن ثورات ١٩٨٩ قد تحدث المبدأ الزائف للسلطة
والذى بنى على الأكاذيب الخاصة بالشرعية المزعومة .

لقد كانت التغيرات ، حقيقة ، تغيرات ثورية لأنها استبدلت شكلاً
من الحكم بآخر اذ أن كل هذه الأنظمة كانت ديكتاتوريات تم تحويلها
لأساطير وكان سببها الوحيد للبقاء فى السلطة هو السبب الذى عرف
- ايديولوجية - بالدور التاريخى لطبقة العمال وحزبها المحروس وبمجرد
أن اعتبر هذا الوهم الأيديولوجى هو المعقول الوحيد والذى استغلته
البيروقراطيات الفاسدة لاغتصاب السلطة ، لم يبق لديها الا التخويف
والارهاب والجمود رصيذاً تستخدمه لاستمرارها فى هذه السلطة .
ان هذه الفورة كنت مركباً مؤلفاً من تيارين : الموجة المعادية للشيوعية
من ناحية والبحث عن حلول مؤسسية وأخلاقية بديلة من ناحية
أخرى .

ان ما حدث فى أوروبا الشرقية منذ عام ١٩٨٩ كان تدميراً ذاتياً تلقائياً
للثقافة الشيوعية السياسية (بتقاليدها وعاداتها واتجاهاتها وعقائدها
وقيمها وسلوكياتها) ، والجانب « الايجابى » فى ذلك هو ما تم من بعث
للمجتمعات المدنية [التى أما تفتت أو دمرتها الشيوعية] وبناء صيغ
سياسية أصيلة .

ان النظام الشيوعى كان متسقا مع طنطنة اليسار ، وكانت الأنظمة كلها مجرد دكتاتوريات سلطوية حاكمة أسلوبها هو المناورة والنلاعب سواء أكان بالقومية الدولية . ان قادر المجر كان - الى حد ما - متميزا بلا مبالاته الحمقاء بالرموز القومية التى لعبت دورها فى بناء المعارضة الصاعدة . وباستثناء ألبانيا ورومانيا ويوجوسلافيا ، فان باقى بلدان دول أوروبا الشرقية التزموا بالسوفيائية ، ومن ثم كان منطقياً ان تتحول السلطات الحاكمة فى تلك البلدان لمعاداة التسوتاليتارية (أو معاداة الشيوعية باللغة السياسية الشرق أوروبية) . وحال أن حول السوفيت الأيديولوجية الى دين دولة وحال أن بدت الأيديولوجية اللينينية للشعب مرادفة للمقمع فان الانتفاضات كانت معادية للأيديولوجية أيضاً . ان معظم التمردات اندلعت نتيجة الاحباط النفسى الذى سببه الاستبداد السياسى للأحلاف الحاكمة وبالتالي اكتسبت هذه التمردات أبعاداً معادية لتلك الممارسات . ان هذه الحالة من عدم الثقة التى تطل برأسها من وراء الكواليس وهذه الاستعدادات الميكافلية تفسر حماس الشعب لاكتساب فعالية سياسية . وقد نظر للأنظمة السياسية على أنها ساحة يرتفع فيها المتسلقون السياسيون والانتهازيون والدجالون بل والمحتملون . وفى كل تلك البلدان كان هناك احساس عام بأن الحكومات ترفض الحياة الخاصة بل وأى شكل من أشكال الخصوصية . وهذا يفسر ما اتسم به الاجتياح من معاداة للاستاتيكية وللنومنكلاتورا وكذلك يفسر الصعوبات المستمرة التى واجهتها محاولة صياغة مبادئ جديدة للسلطة .

ورغم أن هذه المبادئ لم يتم - فى الغالب - تحديدها الا ان هناك افتقانا « فوضويا » جاريا فى أوروبا الشرقية يسير متوازيا مع المحاولات التى تبذل للابقاء على النظام يمكن تسميته بالافتتان الأبوى .

وفى بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا فان الجماعات والحركات التى ظلت سرية لأمد طويل تسببت فى اندلاع انفجارات تلقائية من السخط والذى تسبب فى انهيار - ولكن بدون عنف - للأوتوقراطيات الشيوعية . ان مفاوضات المائدة المستديرة والانتقالات السلمية لأشكال التعددية الأصيلة فى تلك البلدان قد ضمنها ما وصلت اليه هذه المجتمعات المدنية من نضج وكذلك تحلل الأحلاف الشيوعية والذى يرمز له الانشقاق الحتمى بين « الصقور » أو (المحافظين الستالينيين) والليبراليين (الجورباتشوفييين) ذوى التوجه الاصلاحى .

وفي نفس الوقت كان هناك صراع بين الفهم الأخلاقي (أى وجهة النظر اللاسياسية) والالتزامات المؤسسية التى تفسر التردد المحدود وتحفظات الجماعات المعارضة السابقة .

ولأن المجتمع المدنى كان ينمو أو يتفرخ فى رومانيا وبلغاريا ، ولأن الأحلاف الشيوعية كانت عاجزة عن تقديم أية بدائل لممارساتهم السياسية المتردية فان المرحلة الانتقالية كانت مختلفة فى تلك البلدان على نحو له دلالة .

ففى رومانيا نبع الرعب الذى أصاب الجماهير بسبب طبيعة المرحلة التى جاءت بعد حكم شوشيسكو أدراك مرير لطبيعة جبهة الخلاص الوطنى ، وبدلاً من تحديد هويتها بتبنى المبادئ المعادية للثوتاليتارية ، قامت بانتحال هذه المبادئ على نحو برجماتى يخدم مصالحها . وفى خطابه فى مؤتمر تيمشورا عن « السلطة والمعارضة فى مجتمعات ما بعد نهاية الشيوعية » (أقيم فى ٢٥ — ٢٧ مارس ١٩٩١) قدم نيكولاى مانونتشيسكو ، أحد المفكرين الرومانيين البارزين ورئيس حزب الحلف المدنى The Civic Alliance Party وهو التشكيل السياسى المشابه للمنبر المدنى Civic Forum فى تشيكوسلوفاكيا تحليلاً للموقف الجارى فى بلده وكذلك قدم فكره عن المسار الذى يمكن اتباعه .

« كانت لنا ثورة أطاحت بالديكتاتورية ، ولكنها فشلت فى تحطيم الشيوعية . لقد تم استعادة البنى القديمة بأسماء جديدة . وأحياناً بنفس الأشخاص الذين كنت تراهم هناك . . . وعندما تعد المجتمعات الشرق أوروبية نفسها للسير فى طريق الإصلاح ، فانهم لا بد أن يعرفوا انهم يطاردون وهما . ولا يمكن اصلاح الشيوعية ولكن الممكن الوحيد هو تدميرها . ولن يعم السلام فى مجتمعتنا ولن تكون هناك أية فرصة للديمقراطية قبل أن تقضى على آخر جرائيم الشيوعية » (١) .

ويرى ستليان تناسى Stelian Tanase وهو المناضل المدنى الرومانى المؤثر ، والمحرر بصحيفة آكيوم Acum (الآن) الأسبوعية ، ان التناقض الأساسى فى رومانيا بعد شوشيسكو هو الصراع بين المجتمع المدنى الجنين (ومعظمه من المعارضة النيابية) والدولة بما ورثته من بنى شمولية (٢) . وفى بلغاريا عملت قوى المعارضة على تجاوز النزاع الدائر داخل صفوفها والتغلب عليه . وعلى أية حال ، فان المناضل المدنى والفيلسوف السياسى ديمترينا بتروفا Dimitrina Petrova عبر عن رأيه قائلاً :

« أن الأمل في تهديدية حزبية حقيقية قد ضرب بجذوره في وعي الجماهير : أن العملية كلها قد بدأت قوا . والمعارضة الحقيقية لم تتبدد للعيان بعد ، وعلى المدى البعيد ستنظم علاقات الملكية وستحدد صيغ تنظم آليات السوق التي ستتيح في المستقبل . والآن فاننا نعيش في ظروف لم تستقر بعد ولا تفتى لى نظام سياسى بعد . اننا نمر بتجربة تحمل المسؤولية ومحاولة الفهم بمشاركةنا في خلق صيغ سياسية لغدنا ومستقبلنا » (٣) .

والآن فان المفكرين من كل البلدان قد انغمسوا - بعد نهاية التوتاليتارية - في رحلة بحث عن الذات وتقصى طبيعة المجتمع الذى لم تتحدد معالمه بعد وتكشف الحقائق التاريخية .

ان الشيوعيين - رغم الهرطقة الدولية - قد شجعوا دائما سياسة الاكتفاء الذاتى وهذا بالطبع مهم على نحو خيوى بالنسبة للمناضلين المدنيين والمفكرين النقاد في كل الدول الشيوعية السابقة ، كما يجب عليهم فتح باب الحوار ومناقشة قضايا لم تطرق من قبل . واذا كان حقيقيا أن جمهورية صربيا ورومانيا قد توارتا خلف التشيك والسلافيين بلغة التطور التعددى ، أو كما يجادل البعض بأن السلافيين تواروا خلف بوهيميا والصرب وخلف سلوفينيا ، فانه من الواضح تماما أن هذه المجتمعات جميعا قد مرت بتجربة عذابات متشابهة في شكلها ومسبباتها إذ كانت جميعا ضحايا للغائبة العالمية التي تزعم أن اليوتوبيا اللاتبقية تستطيع بل - ولابد لها - أن تبنى دون أخذ إرادة الشعب في الاعتبار ، أنهم جميعا يواجهون الآن تحديات لا حصر لها لمخلق اطار شرعى يمكن أن يضمن تعبيرا اجرائيا عن أكثر دعائم الديمقراطية أهمية وهى السيادة الشعبية . ان المقولة النيرة التي قالها أجنس هيلر ردا على رأى توموئى كارتون آش بأنه ليس هناك جديد [لا فكرة جديدة ، ولا مؤسسة جديدة أو ظاهرة جديدة] يمكن أن تنجم عن الاجتياح المعادى للتوتاليتارية فى أوروبا الشرقية .

« أن الثورات السياسية وقعت أو قامت من أجل تغير السلطة ، ومن هذا المنطلق ، فان الثورة السياسية عام ١٩٨٩ وقعت فى كل الدول التي كانت تتبع - فى السابق - روسيا من أجل استبدال سيادة الحزب بالسيادة الشعبية - أو على الأقل - سيادة العضو الحزبى أن لم يكن سيادة الشفيلة أيضا » (٤) .

كل هذه المجتمعات تفاوتت — قليلا أو كثيرا — في حرمانها من الثقافة المدنية ، وفيها جميعا كان الفرد يجمع ، ويكبل ، وتتلعب به يد السلطة كبيدق . وتمر هذه البلدان اليوم بتجربة بعث لسياسات حرة تتبنى الفردية الأدمية التي أخذت فرصة التعبير التلقائي عن نفسها . ونضيف هنا أن هذه البلدان جميعا أعادت اكتشاف قيم التجربة الثورية باعتبارها نتاجا طبيعيا وأخلاقيا ومصدرا أساسيا لممارسة السياسة . ونرد على هؤلاء الذين ادعوا بأن الأفكار الجديدة لم تكن نتاجا للثورات المعادية للتوتاليتارية في أوروبا الشرقية انه حدث تحديدا أثناء الفورات (الثورة — التمرد ، الصحوه والانتفاضة — وأفضل تعبير ما زال البحث عنه جاريا) أن أعيد صياغة مفاهيم مثل السيادة الشعبية ، والوعى الأوروبى ، وحقوق الانسان ومفاهيم عديدة أخرى ، ومن ثم اكتسبت معانى جديدة . وأثناء هذه الأوقات العصيبة كانت لدى الناس فرصة ليكونوا جزءا من السلطة فى جمهورية عظمى Great Republic ولرد اعتبار « التقاليد الثورية وكنزها المفقود » وهو التعبير الذى استخدمته هانا أرينديت .

لا يمكن أن نعتبر أن الشيوعية قد انتهت تماما ، ولكن يمكن القول بأن الشيوعية بمدلولها التقليدى كحركة تبشيرية وعسكرية وعذمية انتهت بالمعنى التاريخى . وباستثناء هؤلاء السلطويين فلا يوجد هناك أحد يأخذ الأيديولوجية الشيوعية مأخذ الجد .

ومن ناحية أخرى فإن الأحداث الأخيرة فى سلوفاكيا ويوجوسلافيا وكذلك تنامى الحركات السلطوية الشعبية فى معظم بلدان أوروبا الشرقية ، أظهر أن الديمقراطية ليست الوريث الشرعى أو الحتمى للشيوعية . ومن بين الأوهام الشائعة أثناء حقبة الرعب التى تلت الشيوعية كانت تلك الشيزوفرينيا وتفشى الروح القبلية وروح الجماعة المزعومة ، والرومانسية الخيالية وهو ما سيطر ظاهرة هامشية على نحو صرف . ولأن الموقف الاقتصادى استمر فى التدهور فإن الأحلاف الجديدة فشلت فى طرح نماذج مقنعة من أجل انتقال سريع ، وهذه الحركات قد اكتسبت قوة دافعة إذ دعمت أولا بين الجماعات الاجتماعية الصانقة والمتحررة من الأوهام ، ذلك باستثناء رد فعل هؤلاء العاجزين عن تجاوز الآثار المأسوبة للانفصام المفاجئ عن الماضى . وفى البلدان التى توجد فيها أقليات قومية عريضة ، فإن الحركات الديماجوجية قد استغلت وناورت بما تفشى من غضب وفوبيا عرقية .

وكان لا بد أن يصيبنا شعور بالارتباك بسبب العبثية التاريخية
 أى الخط الهستيري فيما يتعلق باندلاع التعصب والتطرف . وحقيقة ،
 فإن الخط الفاصل يبدو الآن فاصلا فعلا بين الأحزاب الموالية لأوروبا
 والتي تحمل مبادئ ليبرالية وبين منافسيها الذين ينشدون الهاميا مبالغا
 فيه من الأسماء الكلية مثل الأخوة والأرض الأم وكرم المحتد أو حتى
 الشيوعية الدموية . وكان الصراع - إذ جاز للمرء أن يسميه كذلك -
 أمداً بين الشيوعيين واللاشيوعيين عنه بين الجماعية والليبرالية
 فالأخيرة موالية للغرب ، متسامحة وتهتم بالحوار ومؤيدة للانتقال
 السريع لاقتصاد السوق ، أما الأولى فهي رجعية ، مشينة ، عنصرية ،
 وعسكرية ومطلقة . ولم يكن رالف دارندور الوحيد الذى ذكر ما قد
 ينطوى عليه الخروج عن الخط السياسى لأشكال جديدة من الديكتاتورية
 بما فيها الفاشية من مخاطر . وكتب آدم متشكك يقول :

« ان القومية تولد من جديد تصحبها الصراعات القومية ،
 والعنصرية وكابوس المعاداة للسامية . ان نظرية تامل التاريخ قد
 وجدت طريقاً للعودة . ان ذلك البلد ذو تقاليد ديمقراطية ضهيده ،
 الا أنه وصل لمنتصف الطريق من أجل استعادة الكيان القومى مرة
 أخرى وكى يرد لتاريخه القومى كرامته وهيبته . لقد ردوا الاعتبار
 - لما تم التخلص منه - فى الفترة الشيوعية ، لكل الأشياء التى كان من
 المفروض تسطبها من صفحات التاريخ القومى ومن ذاكرة الأمة . واليوم
 فإن رد الاعتبار لكل شىء يستحق ما زال مستمرا فيما يعد تكفيرا عن
 أكثر الجرائم الانسانية بشاعة ، بما فى ذلك التعاون مع النازية - وإذا
 وضعنا الصراع على مستقبل هذه الدول فى الاعتبار ، فإن هذا الصراع
 والذى يستخدم فيه المرء نفس المصطلحات التى تعد مألوفة بالمشابهة
 أينما اذ تتردد فى المناظرات التى تجرى فى الغرب ، هو فى الحقيقة
 مختلف تماما . ان جذوره لا تكمن فى الصراع بين اليمين واليسار حتى
 ولو كانت هناك قوى على الساحة السياسية تستخدم هذه المصطلحات
 كى تشير لتوجهاتهم . أنه ليس صراعا بين المحافظة والليبرالية ولم يعد
 صراعا بين الراديكالية والتحديث . ان الصراع القائم هو صراع على
 الشكل الجديد المطروح للأمة أى أنه الصراع على ما اذا كانت الأمة
 ستقلد النماذج الأوروبية أم ستتبع طريقها الخاص من خلال تطوير نوع
 راديكالى مختلف من النماذج » (٦) .

ان التطرف الذى تبناه الأصوليون الرومانيون ، غالبا ما ارتبط
 بالتشكيل الحاكم فى هذا البلد (جبهة الخلاص الوطنى) كما ارتبط بوجود

ظاهرة « حزب × » تحت قيادة ستانسلو تيمنسكى المهاجر الكندى -
البروفى الغربى الاطوار والمعروف فى بولندا . وكان التفسير الوحيد
للأزمة التاريخية هو رفض نتائج التحديث والاحتفاء بقيم الحياة
الزراعية الأصلية السابقة على الحياة الصناعية . وكل هؤلاء الذين
يطالبون بوحدة أوروبا الديمقراطية كانوا هدفا لحملات القذف وصموا
بأنهم عملاء للمؤامرة الماسونية الصهيونية البلوتوقراطية .

ولا يجب أن نتابع - على أية حال ، فإن الصورة ليست قاتمة ،
فصعوبات الارتقاء المستمر من التوتاليتارية الى نظام سياسى مختلف
هى أمر طبيعى ومتوقع . وبالمقارنة بعام ١٩٧٦ ، نستطيع الآن أن
نقول تحديداً بأن الدول الشيوعية - على الأقل فى بلدان الامبراطورية
السوفيتية « الخارجية » السابقة لن تصمد أمام هذا التغير . وكان من
المتعذر أن تسقط الأنظمة اللينينية ، الا أن ما خلفه النظام الستالينى من
عوامل ثقافية وأخلاقية كان شيئاً شديداً التعقيد يصعب على الانسان
التنبؤ بتوابعه . وكى يحدث الانتقال بنجاح ونعبر عن مدى الحاجة
لمفتح هذه المجتمعات المغلقة ، فإن هناك بعض العوامل التى يجب
أخذها فى الاعتبار :

أولاً : الحاجة الملحة لمناخ سياسى تعددى بأحزاب سياسية
أصلية .

ثانياً : إعادة صياغة العلاقة بين السلطة والمعارضة وذلك
بالاقتناع بأن وجود معارضة فعالة وديناميكية هو شئ لازم من أجل
ديمقراطية صحية وصحيحة .

ثالثاً : تشكيل حلف (طبقة) سياسية يكون قادراً - رغم التمايزات
الطبيعية المتباينة على التواء مع القيم العليا التى تميز مجتمعاً مفتوحاً
بما فى ذلك دور السوق وحماية الفرد والضمانات التى لا مفر منها
للأقليات .

إن التوجه الديمقراطى للمسار السياسى الرئيسى كان - فى العديد
من البلدان - شيئاً لا يمكن التفكير فيه ، وهنا لا بد أن نشير لما هو
متفش فى تلك المجتمعات من مخاوف حتمية وفوبيا ، واحباطات ،
وعصبوية وهو ما يفسر استعداد العديد من الأفراد للالتصاق بركب
الحركة العرقية التى سبق التنبؤ بها . ولأن العالم يذكر بأسى من
تجربة المانيا/ وفيمار (Weimar) ان الديمقراطية ليست درعا للهجمات

التي تشنها مثل هذه الحركات . ومن ناحية أخرى فإن السياسات الديمقراطية يمكن أن تدرأ الخطر عن نفسها إذا تخلصت من الأوهام وحصدت دوافع اجتماعية وسيكولوجية لموجة التطرف العام . ان انكار مثل هذه العوامل والاكتفاء بهرطقة من الفخر الذاتي ليس طريقاً لنديم أو تقوية الانتصارات التي تحققت في العامين الآخرين . ولأن تلك المجتمعات قد خرجت من مستنقع الشيوعية فإن بدائلهم المطروحة قد تبينت من الديمقراطية الحقبة الى العرقية الأصولية .

ان المعوقات التي يواجهها الجدد الاقتصادي ترجع الى ما ورثته هذه المجتمعات عن الشيوعية من أزمات سياسية واجتماعية ثقافية . ولاجتناب انفجار هذه التوترات على يد الحركات التي يحركها الحنق والكراهة ، ولاجتناب الحاجة الملحة للتوليف بين اليمين المتطرف والراдикаلية « الفترة » اليسارية ، تحتاج المؤسسات الديمقراطية التي تكونت حديثاً الى خلق توازن مضاد على مستوى السيكلوجية الاجتماعية .

ان السياسات الديمقراطية لا تقام على الأوهام والعواطف ولكن على البحث الدؤوب عن الخطوات المجهولة التي تعزز ما أرادت الشيوعية أن تهدده ، منها محاسبية السلطة السياسية ، ووجود هيئة قضائية مستقلة مع مؤسسات أخرى تهدف الى حماية - وليس اذلال - الفرد . ان بناء هذه المنظمات ينبع من رغبة الحزب السياسي في أن يحقق تكامل شخصية الفرد ، لأن الحرية السياسية تكمن في الوعي بأن الانسان ولد حراً وان الحكومة ليس لها الحق في تنصيب نفسها مراقباً عليه للحد من حريته .

الفصل الثامن •

Nicolae Manolescu, "How We Have to Destroy CoMMunism". (١)

(٢)

East European Reporter, 4, no. 4 (Spring-Summer 1991) : 79-80.

Stelian Tanase's speech "Romanian Civil Society and Violence" delivered at the Timisoara Conference, March 25-27, 1991.

Dimitrina Petrova, "Political Pluralism in Bulgaria," *East* (٣)

European Reporter, 4, no. 4 (Spring-Summer 1991) : 35.

Agnes Heller, "Is There Anything New Under the Sun in (٤)

East-Central Europe ?" paper presented at the Timisoara Conference ; French translation : Est-Quest (Paris), June 1991, pp. 8-11.

Hannah Arendt, *On Revolution* (Harmondsworth, Middle- (٥)

sex : Penguin Books 1985), pp. 215-81.

Adam Michnik, "The Presence of Liberal Values," *East Euro-* (٦)

pean Reporter, 4, no. 4 (Spring-Summer 1991) : 71, and Ralf Dahrendorf, *Reflections on the Revolution in Europe* (New York : Random Houde 1990).

(٧) ويمار : مدينة تقع في الجنوب الغربي من جمهورية ألمانيا الشرقية ، وكان يطلق

على جمهورية ألمانيا، اسم جمهورية ويمار Wiemar Republic ، وذلك في الفترة

من ١٩١٩ إلى ١٩٣٠ - (المترجمة) •

اقرأ في هذه السلسلة

برتراند رسل	احلام الاعلام وقصص اخرى
ى ٠ رادونسكايا	الاكترونيات والحياة الحديثة
الدس هكسلى	نقطة مقابل نقطة
ت ٠ و ٠ فريمان	الجغرافيا فى مائة عام
رايموند وليامز	الثقافة والمجتمع
ر ٠ ج ٠ فوريس	تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
ليسترديل راي	الأرض الغامضة
والتر ألن	الرواية الانجليزية
لويس فارجاس	المرشد الى فن المسرح
فرانسوا دوماس	آلهة مصر
د ٠ قدرى حفى وآخرون	الانسان المصرى على الشاشة
أولج فولكف	القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة
هاشم النحاس	الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليام ماكذوال	مجموعات النقود
عزيز الشوان	الموسيقى - تعبير نغمى - ومنطق
د ٠ محسن جاسم الموسوى	عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى
اشراف س ٠ بى ٠ كوكس	ديلان توماس
جون لويس	الانسان ذلك الكائن الفريد
جول ويست	الرواية الحديثة
د ٠ عبد المعطى شعراوى	المسرح المصرى المعاصر
أنور المعداوى	على محمود طه
بيل شول وأدبنيث	القوة النفسية للأهرام
د ٠ صفاء خلوصى	فن الترجمة
رالف ثى ماتلو	تولستوى
فيكتور برومبير	ستندال

- رسائل وأحاديث من المففى
الجزء والكل (مصاورات فى مضممار
الفيزياء الذرية)
التراث الشامض ماركس والماركسيون
فن الأدب الروائى عند تولستوى
ادب الأطفال
أحمد حسن الزيات
اعلام العرب فى الكيمياء
فكرة المسرح
الجحيم
صنع القرار السياسى
التطور الحضارى للانسان
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال
تربية الدواجن
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة
النحل والطب
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة
الصحافة
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن
التشكيلى
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية
وبعدها
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى
١٨٨٥ - ١٩٨٥
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار
- فيكتور موزج
فيرنز هيزنبرج
سعدنى هوك
ف . ع ادنيكوف
هادى نعمان الهيتى
د . نعمة رديم العزاوى
د . فاضل أحمد الطائى
جلال العشرى
منرى باربوس
السيد علىوة
جاكوب برونوفسكى
د . روجر ستروجان
كاتى ثير
ا . سبنسر
د . ناعوم بيتروفيتش
جوزيف داهموس
د . لينوار تشامبرز رايت
د . جون شندلر
بيير البير
د . غبريال وهبة
د . رمسيس عوض
د . محمد نعمان جلال
قرانكلين ل . باومر
شركت الربيعى
د . محى الدين أحمد حسين

- نقشريات الفيلم الكبرى
مختارات من الأدب القصصى
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد
حرب الفضاء
ادارة الصراعات الدولية
الميكروكمبيوتر
مختارات من الأدب اليابانى
الفكر الأوروبى الحديث ٣ ج
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
كتاية السيناريو للسينما
الزمن وقياسه
أجهزة تكيف الهواء
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
التجربة اليونانية
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية
العلم والطلاب والمدارس
الشارع المصرى والفكر
حوار حول التنمية الاقتصادية
تبسيط الكيمياء
العادات والتقاليد المصرية
التذوق السينمائى
التخطيط السياحى
البذور الكويتية
دراما الشاشة (٢ ج)
الهيرويين والايدز
نجيب محفوظ على الشاشة
صور افريقية
- ج ٠ دادلى أندرو
جوزيف كونراد
د ٠ جوهان دورشز
طائفة من العلماء الأمريكين
د ٠ السيد علىوة
د ٠ مصطفى عنانى
صبرى الفضل
فرانكلين ل ٠ باومر
جابريل باير
انطونى دى كرسبى
دوايت سوين
زافيلسكى ف ٠ س
ابراهيم القرضاوى
بيتر رداى
جوزيف داهموس
س ٠ م بورا
د ٠ عاصم محمد رزق
رونالد د ٠ سمبسون
د ٠ انور عبد الملك
والت وتيمان روستو
فريد س هيس
جون يوركهارت
الآن كاسبىيار
سامى عبد المعطى
فريد هويل
شاندرا ويكراما ماسينج
حسين حلمى المهندس
روى روبرتسون
هاشم النحاس
دوركاس ماكلينتوك

المصادرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر ٠ بورر
الفكر التاريخى عند الاغريق	وميلتون جولد ينجر
قضايا وملامح الفن التشكيلى	أرنولد توينبى
التغذية فى البلدان النامية	د ٠ صالح رضا
بداية بلا نهاية	م ٠ هـ كنج وآخرون
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	جورج جاموف
حوار حول النظامين الرئيسيين	د ٠ السيد طه أبو سديرة
للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اختناون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا ٠ هاريس
الدليل البيليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاي متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الاوركستراالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلى
عن النقد السيتمائى الأمريكى	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د ٠ فيليب عطية
السينما العربية	اعداد / موني براخ وآخرون

- نادين جورديمر وآخرون
آدامز فيليب
زيجمونت هينر
ستيفن أوزمنت
جوناثان ريلي سميث
تونى بار
بول كولنسر
موريس بير براير
الفريد ج ٠ بتلر
رودريجو فارتيماس
فانس بكارد
اختيار/ د ٠ رفيق الصبيان
بيتر نيكولز
برتراند راصل
بينارد دودج
ريتشارد شاخ
ناصر خسرو علوى
نفتالى لويس
كتاب التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر جاك كرابس جونيور
هربرت شيلر
اختيار / صبرى الفضل
أحمد محمد الشنوائى
اسحق عظيموف
لوريتو تود
اعداد/ سوريال عبد الملك
د ٠ أبرار كريم الله
اعداد/ جابر محمد الجزار
ه ٠ ج ٠ ولسز
ستيفن رانسيمان
جوستاف جرونيباوم
دايسل تنظيم المحاف
سقوط المطر وقصص اخرى
جماليات فن الاخراج
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)
الحملة الصليبية الاولى
التمثيل للمسيح والتقليد
العثمانيون فى اوربا
صناع الخلود
الكنايس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)
رحلات فارتيماس
انهم يصنعون البشر (٢ ج)
فى النقد السيتمائى الفرنسى
السينما الخيالية
السلطة والفرد
الازهر فى الف عام
رواد الفلسفة الحديثة
سفر تامه
مصر الرومانية
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية
مختارات من الاداب الاسيوية
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ ج)
الشموس المتفجرة
مدخل الى علم اللغة
حديث النهر
من هم القطار
ماسقريخت
معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)
الحملات الصليبية
حضارة الاسلام

رحلة بيسرتون (٣ ج)	رېتشارد بېرتون
الحضارة الاسلامية	أدمز متزن
الطفل (٢ ج)	ارنولد جنزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريف د.
الفلسفة الجوهرية	سوندارى
الاعلام التطبيقي	فرانسيس ج . برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج . كارفيل
فن المايما والبانثومايم	توماس ليههارت
تحول السلطة ٢ ج	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف م . م . بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستوفسكى (٢ ج)	جورج سمايز
ما هى الجيولوجيا	ويليام ه . ماثيوز
الاحمر والبيض والاسود	جارى ب . ناش
انواع الفيلم الأمريكى	ستالين جين سولومون
رحلة الأمير ردولف ٢ ج	عبد الرحمن الشيخ
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف تيدهام
المرأة الفرعونية	كريستيان دديروش
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى
التربية عن طريق الفن	هربرت ريد
معجم التكنولوجيا الحيوية	وليم بينز
البرمجة بلغة السي	روربت لافو

رولاند جاكسون

ايفور ايفانس

دبفيد بوش سينر

يوسف شرارة

ت.ج.ه. جيمز

د. ممدوح حامد عطية

كارل بسوبر

أسحق عظيموف

ايفرى شاتزمان

تورمان كلارك

الكيمياء في خدمة الانسان

مجلد تاريخ الأدب المعاصر

نظرية الأدب المعاصر

مشكلات القرن الحادى والعشرين

كنوز القراءة

البرنامج النووى الاسرائيلى

بحثاً عن القيم أفضل

العلم وآفاق المستقبل

كوننا المتعدد

الاقتصاد السياسى للعلم

والتكنولوجيا



General Organization Of the Alexan-
dria Library (GUAL)

Bibliotheca Alexandrina

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٦٦/٩٤٢٨

ISBN — 977 — 01 — 4943 — 8



فى أعقاب الغزو السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا فى عام ١٩٦٨، رفض الكاتب المسرحى ميسلاف هافيل الهجرة واستمر فى النضال دفاعاً عن الحقوق المدنية. وقدم مقاله «قوة المقهورين» الذى نشر عام ١٩٧٩ استراتيجية لعنق الأفراد الذين يعيشون فى مجتمعاتهم، تحت آلة القمع الغادرة والخفية وهو يظهر فى الصورة يعمل فى مصنع خلال السبعينات.

يحاول هذا الكتاب أن يشرح أصول واليات أحد أهم أحداث هذا القرن وهو سقوط الانظمة الشيوعية فى أوروبا الشرقية، ولا يقتصر عرض هذا الحدث على مجرد التوصيف التاريخى، بل يتطرق إلى تحليله مركزاً على خمس أطروحات رئيسية حول تاريخ الشيوعية فى أوروبا الشرقية والمجتمع المدنى الصاعد واليات الثورة فى أوروبا الشرقية على التنظيم الشيوعية والتحول الديمقراطى، وقضية الصراعات العرقية التى بدأت تطل فى المنطقة بوجهها القبيح.